المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

«١٣٨-٤٢٢ هـ / ٧٥٥-١٠٣٠م»

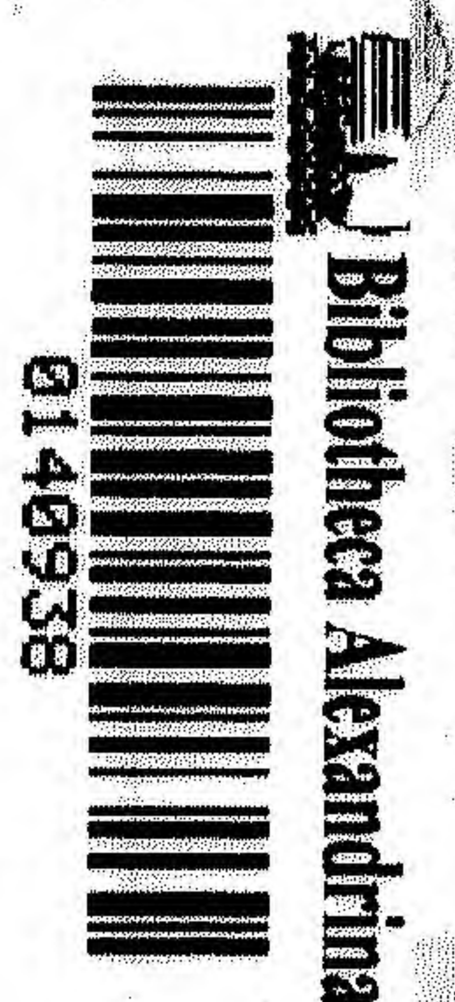
تأليف

الدكتور

حسين يوسف دويدار

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد

جامعة الأزهر



المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

(١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥-١٠٣٠م)

تأليف
الدكتور
حسين يوسف دويدار
استاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

[illegible]

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصــلاة والسلام على المبعوث رحمـة للعالمين ، سيدنا ومولانا محمــد صلوات الله وسلامه عليــه ، وعلى آله وصــحبه اجمعين . وبعــد ...

فلا زالت الأندلس (الفردوس المفقود) ـــ رغم كثرة ما كتب عنهـــا فى نواحى شتى ـــ تحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات التى تعالج مختلف مظاهر الحيـــاة فيها .

وربما كان من أشـــد ما تفتقر إليه المكتبة العربية عن الأندلس تلك الدراســات الشمولية التى تنظر إلى هـــذه البـــلاد وحضارتها فى العصر الإســـلامى ككل متماسك ، ولا تكتفى بمجرد السرد الوصفى على نحـــو ما تفعـــــل معظم كتب التــــاريخ ، وبخاصـــــة فى النـــواحى السياسية والحربية وإنمـــا تحاول تحليل تلك الحضارة على ضـــوء نظريات فلسفة التاريخ أو نظريات الثقافـــة أو البناء الاجتماعى .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب لا تزال فى حاجة إلى مثل هـــذه الدراســـات ، فـإن الحاجـــة أشـــد بالنسبة للأندلس باعتبارها حـــالة فريدة فى تاريخ الإســـلام تمثل قيـــام حضــــارة متميزة هى مزيج من ثقـــافة الإســـلام والثقـــافة الاســـبانية الأوربية ازدهرت ازدهارا هـــائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الإســـــلامى بل والعالمى أيضـــا ، ثم أخـــذت فى الضـــعف والتدهـــور والتراجع نتيجة لمـــا حل بالمسلمين فى الأندلس ، وإن تركت ورائها الكثير من الآثار التى لا يزال بعضها باقيا فى المجتمع الأسبانى حتى الوقت الحاضر .

ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وإنمـــا كانت

تتالف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين فى أصولها البشرية والثقافية ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر قوة تلك الحضارة وثرائها ، وعاملا من أهم عوامل تلك القوة وذلك الثراء . غير أنه فى نفس الوقت كان يحمل بذور الضعف وأسباب التدهور والانقسام . وربما كان تعدد العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأكثر أهمية فى ذلك التنوع الحضارى والثقافى ، والركيزة الأساسية التى قام عليها فى الوقت ذاته .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الكثير من العناصر كالعنصر العربى والبربرى والإسبانى والصقلبى واليهودى إلى غير ذلك من أجناس .

والتاريخ الأندلسى له طبيعة خاصة ، فمعظمه حروب ونزاعات قامت بين العناصر البشرية التى سكنت الأندلس سواء بين المسلمين وبعضهم ، أو بين المسلمين والمسيحيين الأسبان الأمر الذى جعل الأسبان يلخصون تاريخهم الوسيط فى انه تاريخ (حركة الاسترداد) La Recon Quista . وهو ما يعبر عنه فى بعض الأحيان (بمعركة القرون الثمانية) La Batalla de Ocho هذه الطبيعة السياسية والحربية لتاريخ الأندلس جعلت المصادر – حتى فى حال توافرها – تغفل الجوانب الاجتماعية او تشير إليها إشارات مقتضبة من بعيد .

ولا شك أن دراسة التاريخ اليوم أصبحت تعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى المقام الأول . ولا شك أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تعتبر مؤشرا لحضارة اى مجتمع من المجتمعات ، ومن هنا كانت دراستها أمرا مهما لانها فى النهاية تعبر عن حضارة هذا المجتمع ومدى تقدمه وازدهاره . ومن هنا فقد وقع اختيارى على دراسة المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة حيث اهتم الكثيرون بدراسة هذا العصر من النواحى

السياسية والحربية بينما كان الاهتمام قليلا بدراسة هذا العصر من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة والتى هى نتاج ما يسمى بالحضارة . لأن هذا العصر قد شهد تأسيس الحضارة الإسلامية فى الأندلس وازدهارها ومن هنا كانت أهمية الموضوع .

ودراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث السياسية ، أو تصوير للمعارك الحربية أو ذكر لسير الملوك والخلفاء والسلاطين فقط . وإنما أصبحت ذات نظرة فلسفية شمولية عامة يمكن الحكم بها على الدول والعصور ومدى تحضرها وتقدمها .

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده ــ وهو المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى ــ موضوع متشعب الجوانب متصل الحلقات يأخذ بعضه ببعض لأن دراسة الحياة الاجتماعية فيه هى النتاج النهائى لجميع أنواع الحياة فيه أو بعبارة أخرى نتاج ما يسمى بالحضارة .

ولذا فإن هذه الدراسة لا تتعرض لكل التفصيلات الجزئية الدقيقة ولكنها توضح لنا ملامح عامة لصورة هذا المجتمع من هذه النواحى التى اغفلها كثير من المؤرخين ولم يهتموا بها كثيرا ولم يوردوا عنها إلا نتفا وشذرات كان لابد من البحث والتنقيب عنها كثيرا حتى يظفر الإنسان منها بشىء . وهذا خلافا لدارسى الحياة السياسية والحربية وسير الملوك والسلاطين حيث يجدون مادة خصبة ثرية .

ولست ادعى أننى قد جمعت فأوعيت ، وأننى قد المت بكل دقيقة من دقائق الموضوع ، لأنه كما قلت متشعب الجوانب . ولكننى حاولت قدر جهدى وطاقتى أن أبلوره فى صورة يمكن أن تحظى بالقبول .

وقد قسمته إلى فصول ستة : تحدثت فى الفصل الأول عن عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى وأهم ميزاتهم ، وتحدثت فى الفصل

الثانى عن العلاقات بين هــذه العناصر بصفة عامة ، وخاصة بين العرب والبربر والإسـبان ، وفى الفصــل الثــالث تحــدثت عن حــالة المجتمع الاندلسى من الناحية الدينية لمــا لها من تأثير كبير على الحياة الاجتماعية.

وأما الفصــل الرابع فقد تحــدثت فيه عن مظاهر الحياة الاجتماعية من ميدان وعمائر ، وطعام وشراب ، وملابس وأزياء ، وزينــة وحفلات ، والعــاب وغير ذلك .

وأما الفصــل الخامس فقــد تحــدثت فيه عن الحالة الاقتصادية واثرها على الحيــاة الاجتماعية .

وفى الفصــل السادس والأخير تحــدثت عن حــالة المجتمع من الناحية العلمية والثقافيــة .

وقــد حاولت قــدر جهــدى وطاقتى فى هــذا الموضوع المتشعب الطــويل ، والله وحــده يعلم كم عانيت فيــه من جهــد ومشقة ، وإذا كان فى عملى شىء من النقص أو القصور ، فإننى التمس ســعة الصــدر والتوجيه فيما عسى أن يكون مثارا للنقــد أو الاعتراض . والله اســأل ان يوفقنا إلى ما فيــه الخير والسداد والهــدى والرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مدينة نصر/ينــاير سنة ١٩٩٤ م .

د. حسين يوســف دويدار

الفصل الأول

عناصر السكان فى الأندلس

تمهيد

عناصر السكان فى الأندلس(1)

كان المجتمع الأندلسى يتكون من عناصر شتى تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافاتها ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر وموالى ، وفيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، وفيه المماليك المجلوبون من بلدان عديدة .

أما أهل البلاد فهم الذين أطلق عليهم (عجم الأندلس) وكانوا فى أكثريتهم من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام فسموا بالمسالمة ، ومن الذين بقوا على ديانتهم من الأسبان والرومان والقوط ، واليهود وغيرهم وأصبحوا أهل ذمة .

وأما الوافدون فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، كما كان منهم البربر الذين قدموا من شمال أفريقية . وكان أوائلهم يمثلون الجيش الفاتح للبلاد بقيادة طارق بن زياد . ولم يلبث هؤلاء الفاتحون الجدد أن اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم ، وكان من ثمار هذا الاختلاط ظهور عنصر جديد هو عنصر المولدين .

---

(1) الأندلس : لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم إلا بعد فتح المسلمين لها ، وهذا اللفظ الذى أطلق على الأقاليم التى خضعت لسلطان المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافى ، بل يشمل مختلف العناصر التى استظلت بظل المسلمين سواء أسلمت أم لم تسلم . ويعبر ياقوت الحموى عن هذه التسمية فيقول « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتها فى الإسلام » .

=

. . . .

(معجم البلدان : ج ١ ص ٢٦٣ دار صادر بيروت)، وباستثناء الإشارات العارضة والقليلة التى وردت فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف كذلك كلمة (إسبانيا) . والمصادر العربية عدا القليل منها تقول بلاد الأندلس .

وقد كان المستشرق الهولندى (دوزى ت سنة ١٨٨٣ م) أول من بحث هذه المسالة ، ثم جاء المستشرق (سيبولد) فتوسع فيها ، وسار على رأى دوزى فى أن كلمة اندلس اخذت من لفظ (فاندليسيا Wandalacia) أو فنداليشيا . الذى كان يطلق على إقليم باطقة الذى احتلته قبائل الوندال الجرمانية (أو الفاندال) ما يقرب من عشرين عاما منذ سنة ٤٠٩ م . وكان نصارى الأسبان يطلقون على هذا الاقليم اسم إشبانية أو شبانيه باسم رجل يقال له إشبان بن طيطس أو اشبانس (د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ١٣) أو نسبة إلى مدينة إشبيلية التى كانت تعرف فى العصر الرومانى باسم (إشباليس Hispalis) .

وكان العرب يطلقون أول الأمر هذا الاسم على هذا الاقليم الجنوبى بالذات ، ثم عمموه على شبه الجزيرة كلها . وعندما بدا سلطان المسلمين فى التقلص أصبح هذا الاسم يطلق على الأراضى الباقية فى ايديهم حتى اقتصر على آخر مملكة لهم بالاندلس وهى غرناطة (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أندلس ج ٣ ص ٣٥ ، دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب رقم ٦١ ص ٣) .

=

. . . .

وهـــذا التدرج فى التسمية تؤيده رواية الحميرى عن البكرى التى يقـــول فيها « إن اسم شـــبه الجزيرة فى القـــديم كان إباريه (أيبيريا) ، ثم سميت بعـــد ذلك باطقـــة ثم سميت إشبانيا باسم رجـــل ملكها فى القـــديم ، أو الإشـــبان الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس أخـــذا من اسم الأندليش الذين سكنوها » يقصـــد بهم قبائل الوندال .

(الروض المعطار ص ٣٢ ، البكرى : المسالك والممالك ص ٥٨) .

وعلى هـــذا فإن لفظ الأندلس معرب من الونـــدال Vandalus (الفاندال أو الفاندالوس) وهى القبائل الجرمانية التى غزت شـــبه الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى . فلمـــا جاء المسلمون بعـــد الفتح عربوا هـــذا الاسم من (وندلس) بعـــد همز الصوت الأول إلى اندلس : (أنظر : د. احمد هيـــكل : الأدب الأندلسى ص ٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩) .

وقـــد ذكر بعض المؤرخين المسلمين عـــدة تعليـــلات لهـــذه التسمية تبعد عن التحقيق التاريخى ، وتقرب من الروايات السماعية شبه الأسطورية . فقـــد ذكر المقرى عن ابن سعيد المغربى : أن هـــذه البلاد سميت باسم الأندلس بن طـــوبال بن يافث بن نوح عليه السلام لأنه اول من نزلها .

وذكر ابن الأثير : انها سميت باسم اندلس بن يافث بن نوح لأنه اول من سكنها وعمرها .

كما ذكر ابن عـــذارى وابن الأثير ايضا : أن أول من ســـكن

. . . .

=

هـذه البـلاد قوم يعرفون باسم الأندلش بالشين المعجمة فسمى البلد بهم ثم عرب بعـد ذلك بسين مهملة . والمعروف أن هـؤلاء لم يكونوا أول من سـكن هـذه البـلاد ، بل سبقتهم أجناس أخرى كالفنيقيين واليونان والرومان . وشـبيه بهـذه التعليلات ما ذكره البعض فى إطلاق لفظ إسبانيا على هـذه البلاد :

هل هو نسبة إلى إشبان بن طيطش الذى كان اسمه أصبهان ثم تحـول فى لسان العجم إلى إشبان ، وانه تقابل مـع الخضر عليه السـلام ، وبشره الخضر بالملك العظيم والاستيلاء على بيت المقـدس فى عبـارات مسجوعة كسجع الكهان أوردها المقـرى فى (نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٤) ومنها « يا إشبان إنك لذو شـان ، وسـوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ... الخ » .

او نسبة إلى رجـل صلب فى هـذه البلاد يسمى إشبانس إلى غير ذلك (انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٠ وبعـدها ، الكامل جـ ٤ ص ٥٥٦ وبعـدها ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١ — ٢) .

والرأى الراجح أن هذه التسمية قد اطلقها الفينقيون — عندما غزوا هذه البلاد فى القرن العاشر قبل الميلاد — على الشاطئ الذى نزلـوا عليه Ischepan- im اى شـاطىء الأرانب حيث وجودا أسرابا كثيرة منهـا عليـه . ثم حـرف هـذا الاسم بعـد ذلك إلى Hespania او اسـبانيا . (انظـر : د. أحمـد هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٥ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس

=

وأما المماليك فكان يؤتى بهم من أماكن شتى فى أوربا وخاصة من المناطق السلافية . وكان تجار الرقيق من الجرمان واليهود وغيرهم يسبونهم صغارا ، ثم يبيعونهم فى أسواق إسبانيا ، وقد عرف هؤلاء باسم الصقالبة . ثم غلب هذا الاسم على كل الرقيق الأبيض حتى ولو لم يكن سلافيا .

وكان من الطبيعى أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى — سواء بالمصاهرة أو العشرة أو الجوار أو التعامل — وأن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره فى إثراء الحضارة الأندلسية وازدهارها .

والحق أنه رغم تعدد العناصر السكانية فى الأندلس ، ورغم الاختلاف فيما بينها فى نواحى شتى ، إلا أن الروابط القوية وبخاصة روابط الإسلام والعروبة كانت تشد أغلبها فى كثير من الأحيان ، وتطبعها بالطابع الأندلسى المميز حتى من لم يدخل منهم فيه . فقد كانت هناك

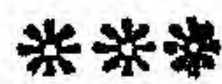
=

ص ٩) . هذا وقد ظل اسم الأندلس الذى أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا (إيارية) مدة طويلة ولم ينته بخروجهم منها ، وإن أخذ مدلوله يتناقص تبعا للوضع السياسى للمسلمين حتى صار فى آخر الأمر يطلق على مملكة غرناطة ، وأصبح فى اللغة الإسبانية اندلثيا أو اندلوسيا Andalucia) ويطلق الآن على ثمانية أقاليم فى جنوب إسبانيا : وهى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولبة ، وإشبيلية . انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ، د. أحمد هيكل الأدب الأندلسى ص ٤ ، الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ تحقيق د. محمد شامة) .

دائمـا البيئة المشتركة ، والثقافة المشتركة ، وكانت هناك غالبا الحكومة الواحـدة ، والسياسة الموحدة ، ثم كانت هنـاك الحضارة التى صبغت هـذه العناصر على اختلافها بصبغتها الواضحة .

وكان لكل من هـذه العناصر اثره فى تلك الحضارة التى لم ينطفىء شعاعها بزوال سـلطان المسلمين ، بل ظلت متقـدة فى نفوس صانعيها والمتأثرين بها قرونا عـديدة ، وما زالت بعض شواهدها وآثارها باقيـة فى إسـبانيا حتى اليـوم .

فالحضارة الإسلامية فى الأندلس هى نتاج ذلك التفاعل والتبادل بين كل هـذه العناصر البشرية التى عاشـت على أرضها وانصهرت غالبـا فى بوتقتها حتى أصبح لهـا شخصية مميزة شملت مختلف العنـاصر هى الشـخصية الأندلسية(٢) .



---

(٢) انظر د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٢ .
د. لطفى عبد البديع : الإسـلام فى أسبانيا ص ١٧ .
د. مصـطفى الشـكعة : الأدب الأندلسـى ص ٢٢ ـ ٢٣ ،
د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ، مجلة المختـار من عـالم الفكر ص ٩٤ سنة ١٩٨٤) .

اولا : العنصر العربى

مثل العنصر العربى اهم سكان الاندلس ، وابرز عناصر المجتمع ، حيث كان العنصر القائد والمسيطر على هذه البلاد منذ البداية ، وكانت طليعة هذا العنصر قد جاءت مع موسى بن نصير سنة ٩٣هـ واستقرت بعد الفتح ، وسموا بالبلديين ، وبلغ عددهم ثمانية عشر الفا جلهم من العرب والموالى وعرفاء البربر كما تقول بعض الروايات(١) .

وقد سبقت هذه الطليعة أعداد قليلة كانت فى الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد(٢) . يقول صاحب أخبار مجموعة « فدعا موسى مولى له كان على مقدمته يقال له طارق بن زياد فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ٢٠ . وليس كما ذكر د. السيد عبد العزيز سالم بأن الثمانية عشر الفا كانوا من العرب . (انظر مجلة عالم الفكر ص ١٢٩ عدد ٣ سنة ١٩٨٤) .

(٢) وقيل طارق ابن عمرو (انظر جذوة المقتبس ص ٢٤٨ ، بغية الملتمس ص ٣٢٨) . وقد اختلف فى اصله : فذهب البعض إلى انه بربرى من قبيلة نفزة (نفزاوة) ، وقيل من زناتة (المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٢) ، وذهب البعض الآخر إلى انه كان مولى لموسى بن نصير من اصل فارسى من همذان . وقيل انه ليس لموسى وإنما هو لرجل من صدف ، وقيل مولى لهم .

وذكر ابن عذارى نسبه هكذا : « طارق بن زياد بن عبد الله ابن رفهو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو » (البيان المغرب ج ٢ ص ٦) ، وقيل إنه من سبى البربر . والراجح انه بربرى من نفزة . (انظر أخبار مجموعة ص ٦ ، نزهة المشتاق ص ١٧٩) .

من البربر والموالى ليس فيهم عرب إلا قليل »(٢) ، ثم طالعة الحر ابن عبد الرحمن الثقفى (فى ذى الحجة ٩٧هـ) حيث قدم واليا على الأندلس ومعه « أربعمائة رجل من إفريقية فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين » .

ثم تعاقبت أفواج العرب بعد ذلك ، ومن اشهرها الفوج الذى قدم إلى الأندلس مع بلج بن بشير القشيرى سنة ١٢٤هـ ، والذى اطلق عليه (طالعة بلج) ، وأصبح هؤلاء يلقبون بالشاميين تمييزا لهم عن الطلائع الأولى التى كانت فى الفتح وبعده مباشرة واستقرت وسميت (بالبلديين) . وكانت هذه الطالعة تبلغ نحو عشرة آلاف منها ثمانية آلاف من العرب والفان من الموالى(٤) .

كما وفد عدد من العرب الشاميين مع أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ الذى ولى الأندلس لفض النزاع الذى دار بين البلدين والشاميين ، وإقرار الأمن والنظام بالأندلس ، وسمى هؤلاء (بالطالعة الثانية)(٥) .

كما قدمت موجة جديدة من القبائل العربية من الأمويين وانصارهم خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس بقيادة عبد الرحمن الداخل

=

(انظر عنان : دولة الإسلام فى الأندلس هامش ٢ ص ٣٩) .
د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢ ، د. احمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ أسبانيا ص ٤٩ — ٥٠) .

(٣) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٦ ، وانظر كذلك الروض المعطار ص ٩ ، نفح الطيب ص ٢٣١ ، البيان المغربه ج ٢ ص ٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٣ ، ٤٤ — ٤٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٥) يذكر ابن القوطية انهم كانوا ثلاثين رجلا ولكننا نعتقد ان تبعهم كثيرون حيث سموا بالطالعة الثانية (تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٩) .

(صقر قريش) نظرا لاضطهاد العباسيين للأمويين وانصارهم بالمشرق ، وترحيب عبد الرحمن بهم ، فضلا عما سمعوه من خصب هذه البلاد وغناها . وتتابع اندفاع القبائل العربية من قيس وكلت واليمن إلى الأندلس للاستقرار بها والإقامة فيها ، وقد كان هناك عدد كبير من التابعين فى هؤلاء الداخلين إلى الأندلس فضلا عن أحد الصحابة أشارت إليه بعض المصادر وهو المنذر الأسلمى الذى دخل الأندلس مع موسى ابن نصير وكان قبل ذلك قد نزل إفريقية ، وذكر انه حدث عن رسول الله ﷺ بحديث ذكره ابن الأثير والمقرى وهو « من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا فانا الزعيم لآخذن بيده حتى أدخله الجنة »(٦) .

وقد ذكر القيروانى : ان عمر بن عبد العزيز ارسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية(٧) وان ثلاثة منهم دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير وهم : ابو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الانصارى، وحبان بن ابى جبلة القرشى ، وابو ثمامة بكر بن سوادة الجذامى .

كما ذكر المقرى وغيره(٨) اسماء آخرين من التابعين الذين دخلوا الاندلس مع موسى بن نصير او بعده ومنهم : ابو راشد حنش ابن عبد الله الصنعانى ، وحيوة بن رجاء التميمى وزيد بن قاصد السكسكى ، وعبد الجبار بن ابى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى — قائد المسلمين فى بلاط الشهداء — ،

---

(٦) ابن الأثير : اسد الغابة جـ ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٧) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ .
(٨) انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٨ ، ص ٢٨٨ ، جـ ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وقد وضع ابن بشكوال كتابا لا يعرف له وجود حتى الآن عن التابعين الذين دخلوا الأندلس اشار إليه المقرى وهو بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين (نفح الطيب جـ ٣ ص ١٠ ، ٦٠) .

والمغيرة بن أبى بردة الكنانى ، وعلى بن رباح بن نصير اللخمى ، وعياض ابن عقبة بن نافع الفهرى ، ومحمد بن أوس ابن ثابت الأنصارى ، ومنصور بن حزامة ، وعبد الله بن المغيرة بن أبى بردة الكنانى .

وقد اورد المقرى انساب العرب ومنازلهم بالاندلس نقلا عن ابن غالب وابن حزم فذكر انه « لما استقرت قدم الإسلام بالأندلس ، وتتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتثار ملك بنى امية ، وأما بنو امية فمنهم خلفاء الأندلس ، وكانوا يعرفون أيضا بالقرشيين ، وأما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون .

وفى الأندلس من ينسب إلى جمح وبنى بنى عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الظواهر، ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الاندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجد الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سلطان الأندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بإفريقية ، ولهم فى الأندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلهم فى طليطلة وأعمالها ، وإليهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى ابو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فمنزلهم بجهة اريولة من كورة تدمير ، وأما تميم بن مرة بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر فخلق

كثير ، وهؤلاء خندف من العدنانية . وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة وهم باشبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، ولهم منزل بجوفى بلنسية على ثلاثة اميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب إلى سعد ابن بكر بن هوازن ومنهم كثير بغرناطة .

ومن ثقيف بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، وإقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفى مدينة وادى آش ، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو ومنهم بنو عطية أعيان غرناطة ، ومنهم من ينتسب إلى النمر بن قاسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين .

وأما أياد بن نزار فينتسب إليهم بنو زهرة المشهورون بإشبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين . وكثيرا ما كان يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالمشرق »(٩) .

---

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٦ وبعدها . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢هـ .

ومن القبائل الشهيرة التى نزلت بعض بيوتها بالأندلس قبيلة الخزرج التى يتصل بها نسب بنى نصر (بنى الأحمر) ملوك غرناطة آخر ممالك المسلمين فى الأندلس .

ويذكر المقرى نقلا عن الرازى : انه دخل الأندلس من ذرية سعد ابن عباده الخزرجى الصحابى الجليل سيد الخزرج رجلان احدهما نزل أرض تاكرونا (تاكرنا) ، والآخر نزل قرية من قرى سقرسطونة عرفت بقرية الخزرج(١٠) .

وقد ذكر ابن حزم : انه كان لسعد بن عبادة رضى الله عنه ولدان قيس وسعيد وقال : « ولسعيد هذا عقب بالأندلس بقريته ويقال لها قربلان من عمل سرقسطة من قبل الحسن بن سعيد بن سعد بن عبادة ، وبشذونة بنو عرمرم بن جميل بن عصام بن قتادة بن وتاد بن قيس ابن سعد بن عبادة »(١١) .

وقد ظل العرب بالأندلس يحفظون أنسابهم ويفتخرون بها وبالصلة التى تربطهم بالقبائل العربية حتى بعد اختلاطهم بغيرهم من العناصر الأخرى فى الأندلس وشكلوا نواة الإرستقراطية والبرجوازية فى المدن(١٢) .

---

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٢ ص ٦٠ ط ١ الحلبى سنة ١٣١٩ هـ .

(١١) جمهرة أنساب العرب ص ٣٤٦ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨م

(١٢) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ص ١٨ ترجمة د. الطاهر مكى ط ١ دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

وكانوا يتميزون بالعشائر والأفخاذ والقبائل إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبى عامر ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، وجعل فى جند القائد الواحد عدة فرق من كل قبيلة وذلك للقضاء على العصبية العربية ليسهل عليه السيطرة على مقاليد الأمور فى الأندلس . وكان لذلك أثره الواضح فى انحسار مادة الفتن والثورات الداخلية كثيرا عن ذى قبل ، وفى إضعاف نفوذ العنصر العربى(١٣) .

❋ ❋ ❋

(١٣) د. لطفى عبد السميع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٠ .

ثانيا : العنصر البربرى

البربر هم سكان شمال إفريقية أو ما يعرف ببلاد المغرب التى تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى . وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامى لها بحسب القرب أو البعد عن مقر الخلافة فى المشرق وهى :

المغرب الأدنى (إفريقية) وقاعدته القيروان ، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان . والمغرب الأقصى وقاعدته فاس(١) . وكان العرب يستعملون لفظ إفريقية ليشمل المغرب الأدنى والأوسط(٢) .

---

(١) انظر ابن خلدون المقدمة ص ٥٩ — ٦٠ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ١ ص ٢٩٤ هامش ٢ .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب فى تسمية البربر بهذا الاسم . فقد ذكر ابن خلدون أن أحد ملوك التبابعة فى اليمن ويدعى إفريقش بن قيس ابن صيفى غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأمصار فسميت باسمه ، وانه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال : ما بربرتكم فسموا بالبربر (العبر حـ٦ ص ١٠٦) . وذكر الفيروز بادى : أن البربرة هى كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر (ترتيب القاموس المحيط ص ٤٤٠) . وذكر البعض انهم ينسبون إلى مهاجر عربى من حمير يسمى (بر بن قيس) وانه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسماها بربرة وسماهم البربر (انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣) . وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال : إن

. . . .

كلمة بربر اطلقها العرب فى عهدهم على الأمة التى تسكن الساحل الإفريقى لانهم يتكلمون بلغة غير مفهومة ، والعرب يطلقون هذه الكلمة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

(انظر تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٦) . وعلى هذا فإن تسمية البربر بهذا الإسم لا علاقة له بلون البشرة او الجنس وإنما باللغة فلما كانت لغة هؤلاء السكان غير عربية غدت فى نظر العرب غير مفهومة ، فاطلقوا عليها بربرة ، كما اطلقوا كلمة عجمة أو أعجمية على لغة الأعاجم . بينما ذهب آخرون إلى ان هذا اللفظ إغريقى كان اليونان يطلقونه على كل من لايتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (باربارو ى)

ثم جاء الرومان فاطلقوا هذا الإسم على سكان شمال إفريقية (المغرب) Barbari (بربارى) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، وعربه المسلمون إلى بربر او برابر ، كما اطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية إسم مور Maures وما لبث هذا الإسم أن عمم على سائر البربر ، أو أن هذا الإسم مشتق من سكان بربرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان إفريقية . (أ نظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٨ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٤٩ هامش ٢٧ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ١٣ هامش ٢) .

وقد استعمل الفرنجة هذه الكلمة وقصدوا بها معنى آخر اشار

ويحاول بعض المؤرخين والكتاب العرب إرجاع نسب البربر إلى أصول عربية ، فيذكر الفيروزيارى : أن البربر عرب أصلا وهم من ولد قيس عيلان ، أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقش بن قيس بن صيفى لها(٣) .

ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروى عن البكرى : انه كان لمضر ولدان هما قيس ودهمان ، وأن البربر ينتسبون إلى قيس بن عيلان من مضر ولذلك يفتخر أحد شعراء البربر بقوله :

أيها السائل عنا أصلنا ... قيس عيلان بنو العز الأول

إن قيسا قيس عيلان هم ... معدن الحق على الخير دلل

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب : أن لواته من حمير ، وهوارة من كندة ، وزناته من التبابعة أو العمالقة ، وأن زواوة ومكلاته من حمير أيضا(٥) .

كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأى فيقول : إن عددا من سكان

إليه الأب لويس معلوف بقوله « وفى المجاز البربرى هو المتوحش والهمجى » (المنجد فى اللغة والأعلام ص ٣١) .

والحقيقة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيرا مستهجنا وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصامدة والزواوة وصنهاجة وكتامة . (انظر د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٤ ص ١٢٦) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٣٨ ، ص ٢٧٩ .

(٤) العبر جـ ٦ ص ٦٥ .

(٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

شبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى شمال إفريقية عن طريق الساحل الغربى من الجزيرة ، وانه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرون ساميون حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا هناك(٦) .

والحقيقة ان مسالة أصل البربر العربى هذه لا يمكن الجزم فيها برأى قاطع بهذه السهولة نظرا لتطاول القرون وتعاقب الأجيال وهجرات القبائل والشعوب من مكان إلى آخر تبعا لظروف البيئة والمناخ والحاجة والغزو والحروب وغير ذلك ، ونظرا لتشعب الآراء وتعددها فى هذه المسالة(٧) .

حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر وانهم سكنوا هذه البلاد منذ القديم ، وانهم ينتمون إلى سكان حوض البحر المتوسط حيث يشبهون سكان جزر البحر المتوسط وسكان الأندلس من حيث بياض اللون وشقرة الشعور وزرقة العيون ، وان البتر هم جدد نسبيا على بلاد المغرب قدموا فى الغالب من جنوب غر بالقارة الإفريقية ، ونزلوا ببرقة اولا ، ثم انتشروا غربا ، وانهم جنس إفريقى أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس ، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربرى الذى استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب(٨) .

---

(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ١٠ ، ١٤ .

(٧) يقول ابن حزم : قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير ، وبعضهم إلى قيس عيلان . وهذا باطل لا شك فيه وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا إسمه بر أصلا ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا فى تكاذيب مؤرخى اليمن) جمهرة انساب العرب ص ٤٩٥ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، ٢٤ .

كما يذهب البعض الآخر إلى أنهم ينتمــون فى أصــلهم إلى الجنس الحامى وإن كانوا من نفس العنصر الليبى القديم الذى عرفه الفراعنة(٩).

ومهما يكن من أصل البربر فيبدو أن العرب قــد عرفوا الطـــريق إلى شمال إفريقية منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون : أن ملوك اليمن من التبابعة قــد غزوا شــمال إفريقية عــدة مرات فاســتكان لغلبهــم السكان ، ودانوا بدينهم وإن كان فى هذا شىء من التجوز والتعميم .

ومن المتعارف عليـــه أن البربر ينقســمون إلى قســمين كبيرين أو جذمين عظيمين هما البتر والبرانس ، وربما كانوا من أصل واحــد كمـــا ذهب ابن خلــدون(١٠) .

أو أنهما جدين بهذين الإسمين ، أو نسبة لنوع الحياة وأســلوب المعيشـــة والطابع الحضارى لكل منهما . فالبرانس : هم الذين يعيشون فى الســواحل والريف ولهم الحواضر ، والبتر : هم الذين يعيشون فى طور البداوة ويتخــذون بيوتهم من الشــعر ، وينتجعون المراعى بين الجبـــال والوديان والصحارى(١١) .

---

(٩) د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٤٩ هامش ٧

(١٠) العبر : جـ ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ . حيث ذكر أن العرب لمــا دخلــوا بلاد المغرب ، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين. فقسموا قبائل البربر إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بـــر الملقب بالأبتر فسموا البتر ، وقسم نسبوه إلى برنس بن بـــر فسموا بالبرانس .

(١١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣ ، د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

وقد فسر البعض هذين الإسمين بانهما نسبة إلى الزى الذي يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس — وهو الزى الذي لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن — والبتر هم الذين لا يلبسونه .

والحقيقة أن هذا التفسير اللغوى لا يقوم على اساس متين فليس من الضرورى على كل برانسى أن يكون مرتديا للبرنس كما أنه ليس بلازم أن يكون البترى عاريا منه .

اما تقسيم البربر بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به أيضا على إطلاقه فقبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا ولذلك جعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر ، كما أن البرانس المتحضرون كانوا قلة بالنسبة للبتر البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان(١٣) .

وعلى اى الأحوال فقد كان البربر فى معظمهم فى طور البداوة عند الفتح العربى لبلادهم يعيشون فى شعوب وقبائل اكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون ، واغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقليل منهم دان باليهودية او المسيحية أو المجوسية(١٤) .

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة للحياة فى شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية ، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم — بالرغم من شدة المقاومة التى لقوها منهم بالتزاوج وتبادل منهم موقف الحاكم المنعزل عن المحكومين بل امتزجوا معهم بالتزاوج وتبادل العادات والتقاليد ، وكان للإسلام ولغة القرآن أثر كبير فى ذلك .

---

(١٢) د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .
(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٩ .
(١٤) العبر : ج ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

ممـــا ساعد على انتشار العروبة بينهم . ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب الليبيين من أن القبائل العربية التى نزلت بشمال إفريقية قد تبربرت بطول الزمن فى زيها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبـــوله(١٥) .

والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القديم ، وطـــول اختلاطهـــم بالعـــرب وخاصـــة بعد الفتح الإسلامى لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة همـــا الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاســـتعمار الفرنسى التى قام بها زمن الاحتلال لإثارة العصبية بين العرب والبـــربر والتفريق بينهم وإحياء اللغة البربرية .

وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر صفات وأخلاق اشتهروا بها كذلك — وتقترب من صفات العرب — وقد ذكر ابن خلدون هـــذه الصـــفات فى وصف لا يدع زيادة لمستزيد فقـــد وصـــفهم « بعز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الأزمة والوسائل ، والوفـــاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات فى الشدائد ، وحسن الكلمـــة والإغضاء عن العيوب ، والتجافى عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين ، وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وتهيئة الكسب للمعدوم ، وقرى الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، وإباء الضيم ، ومقارعـــة الخطوب ، وغلاب الملك وبيـــع النفوس من الله فى نصر دينـــه ، فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أســـوة لمتبعيه من الأمم ، وحســـبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقى العـــز ، وأوفت بهم على ثنـــايا الملك ،

---

(١٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

حتى غلبت على الأيدى أيديهم ، ومضت فى الخلق بالقبض والبسط أحكامهم »(١٦) .

وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التى عددها ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم . ولا ننسى مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة ، ولا يزالون إلى الآن فى الأعم الأغلب يعتقدون فى قراءة الكف وفتح الكتاب وادعاء معرفة الغيب(١٧) .

كما ظهر منهم نسابة نظموا أنساب قبائلهم فى شجرات شبيهة بشجرات الأنساب العربية وإن كان لا يوثق فى هذه الشجرات كثيرا(١٨) .

هذا وقد كان البربر من أسبق العناصر البشرية التى دخلت إلى الأندلس فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو طارق بن زياد(١٩) ، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة

---

(١٦) العبر : ص ج ٦ ص ١٠٤ . وذكر ابن عذارى أن سليمان ابن عبد الملك قال لموسى بن نصير فأخبرنى عن البربر قال « هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية ، غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد » وهذا يناقض ما ذكره ابن خلدون عنهم من الوفاء بالقول والعهد (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١) وهذا دليل على اختلاف وجهات نظر المؤرخين والكتاب فى وصف الأقوام أو الأشخاص لأسباب عديدة .

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥ .

(١٩) انظر عن نسبه : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٢٣ .

آلاف فى البداية ثم ما لبثوا أن زيدوا بعـــد ذلك إلى اثنى عشر الفا(٢٠) . وقـــد كان قرب بلادهم من الأندلس ممـــا سهل من توالى هجراتهم إليها ، واستقرارهم فيها بعـــد الفتح ، وكانوا ينزلون بصفة خاصة فى المناطـــق الجنوبية والغربية من الأندلس نظرا لشبهها ببيئتهم فى المغرب .

وكانت منطقة رونده وإقليم تاكرنا بالذات منزلا لجماعات البربر التى استوطنته بعـــد استقرار عملية الفتوح الأولى(٢٢) .

وقـــد عـــدد ابن حـــزم فى الجمهرة بيـــوتات البربر فى الأندلس تفصيلا ... وذكر منهم بنـــو دليم الفقهاء من وزداجة ، وعوسجة بشنت برية من ملزوزة ، ومنهم بنو إلياس من مغيلة ، وبنو زوال من مغيلة أيضا ، وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناســـة ، وبنو الخروبى من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضا ، ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هـــذيل من مديونة ، وبنو عبدوس من سرته ، وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بوبدة ، وكان لهم ضلع فى الفتن التى افضت إلى سقوط الخـــلافة الأموية ، واســـتأثر جمـــاعة منهم بالأقـــاليم الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف(٢١) .

---

(٢٠) اخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٧ . وليس كما ذهب د. السيد سالم إلى أن الجيش كله كان من البربر (تاريخ المسلمين ص ١٢٢).

(٢١) د. أحمد الشعراوى : دراســـات فى تاريخ أسبانيا ج ١ ص ١١٣ هامش ٢ دار النهضة العربية ســـنة ١٩٧٣ م ، الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٣٠٦ .

(٢٢) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٨ — ٥٠٣ سلسلة ذخائر العرب ٢ دار المعـــارف بمصر ط ٤ تحقيق هارون .

ثالثا : المــوالى

جاء عدد كبير من الموالى إلى الأندلس مع جيش موسى بن نصير سنة ٩٧هـ وفى طالعة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٤هـ وكانت هذه الطالعة أو هــذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب وألفين من الموالى(١) .

وكان اغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا فى طاعة بنى أمية ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس . وقد ازداد عدد الموالى فى الأندلس بهؤلاء الذين دخلــوا فى هــذه الطالعــة حيث انضموا إلى من كان بالأندلس قبــل ذلك من موالى بنى أميــة وأصبحوا يؤلفــون حزبا هاما وطائفة قــوية تعرف بالأمويين(٢) نظرا لموالاتهم لبنى أمية .

وقــد استطاع عبــد الرحمن الداخــل بفضل مناصرة هؤلاء الموالى تأسيس دولة لبنى أميــة فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق على يــد العباســيين وأنصــارهم .

ومنهم بنو بسيل وهم بيت من أكبر بيــوتات الموالى الأمويين من أهل الشام . وكان أول من دخــل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومى وكان أبوه بسيل مولى لبنى أمية ويتضح من نسبه انه من اصل رومى .

وقــد دخــل عبد السلام الأندلس أيام عبد الرحمن الداخــل مــع ابنيه عبد الواحــد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشــذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها ، وولاه الوزارة ، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان فى عهد عبد الرحمن الأوســط ، كما تولى اخــوه

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٢) ورد هــذا الاسم عند خروج بلج من قرطبة لمقابلة جيوش عبد الرحمن.

الكتابة والخيل وغيرها ، كما كان يوسف بن بسيل واليا على طليطلة سنة ٢٣٤ هـ واصبح من كبار رجال الدولة فى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وكان له دور فى تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده ، وقد ولى شذونة فى عهده . وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى فى الدولة . كما دخل فى عداد الموالى بالأندلس عدد كبير من الأسبان الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية بعد الفتح امثال : بنو قسى ، وبنو بارون ، وبنو غومس بن قارلة ، وبنو مرتين واصبحوا موالى اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم(٣) . ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بنى قسى المولدين بالثغر فيقول : « كان قسى قومس(٤) الثغر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام ، واسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى فى اول امرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة

=

ابن علقمة ، ومن معه من أعداء الشاميين ، وكان معه (عشرة آلاف من الأمويين والشاميين (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٦) .

(٣) د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٧ . مولى الاصطناع : هو مولى الموالاة او الحليف وهو من يمنحه الخليفة شرف الانتساب إليه ، ويستخدمه فى شئونه ويجرى عليه الأرزاق فيصير مولى له (انظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٦) .

(٤) كلمة Comes كلمة لاتينية ، وهى فى الأصل تعنى مرافق الملك ونديمه ، ثم أصبحت تطلق فى اسبانيا زمن القوط على ولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الإسبانى Corde والفرنسى Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قمط بدلا من قومس . وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالانجليزية .

المضرية ، فولد قسى فرتون وابو ثور وابو سلامة ويونس ويحيى » ثم أخذ يعدد بعد ذلك ذرية كل واحد منهم(٥) .

وقد لعب الموالى دورا هاما فى تاريخ الاندلس حيث اعتمد عليهم بنو امية كثيرا وقلدوهم اهم المناصب فى دولتهم لتفانيهم فى الإخلاص لها ، فكان منهم الوزراء والكتاب والقواد والقضاة . وقد نجح الموالى فى كورة البيرة فى تأسيس دويلة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول ، أو دويلات الطوائف الأولى التى تمزقت فيها وحدة الأندلس وقام الثوار فى سائر الأنحاء بشق عصا الطاعة على بنى أمية(٦) .

وقد كان هؤلاء الموالى يحسبون أنفسهم عربا ، ويدعون أرومات عربية ينسبون أنفسهم إليها ، ويقتبسونها من أصول ساداتهم وحتى اولئك الذين كانوا من أصول اسبانية منهم ادعوا أصولا عربية بمرور الزمن(٧) .

وسواء صحت هذه الانساب أم لم تصح فإنها كانت عاملا اساسيا وفعالا فى حياتهم ، فهم جميعا يتصرفون كما لو كانوا عربا يتميزون عن غيرهم ولهم حق الحكم والسيادة(٨) .

وقد ذكر ابن حيان أن جماعة من موالى الخلفاء الأمويين تسموا

---

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣ .

(٦) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٣ وبعدها .

(٧) أنظر : المقتبس ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ ، نفح الطيب ج ٤ ص ٤٥ ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٠) .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٦ .

باسماء العرب فانكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل انفته ، ونهى عنه ، وكان له مولى من عتاقة أبيه يسمى محمد وولد له ولد سماه مسرور سمى به على جد الأمير فحسنت نشأته وتفقه وتعبد واشتهر فضله ، حتى ولاه عبد الرحمن القضاء بقرطبة . فتوفى بعد عام فى سنة ٢٠٨ هـ(٨) .

ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوى الخبر الذى ذكره ابن حيان بهذا فلسنا نعرف للعرب اسماء اختصوا بها دون الموالى .

ولو استعرضنا اسماء بيوت موالى بنى امية وغيرهم بالأندلس واسماء ذراريهم فإننا لا نجد فروقا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلص التى اورد لنا ابن حزم مئات النماذج منها فى الجمهرة .

كما اننا لا نجد فى المصادر الأندلسية ما يدل على أن امراء وخلفاء بنى امية قد ضاقوا ذرعا بذلك فيما عدا هذا الخبر الذى ساقه ابن حيان وما اكثر ما نجد حتى فى الأسر الأسبانية الأصل التى اسلمت من يتسمون بأسماء إسلامية كمحمد وأبى بكر وغيرها دون أن يكون ذلك غريبا او مستغربا . إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالى الذين تسموا باسماء عربية قد ادعوا نسبا عربيا كما حدث من بعض الموالى وخاصة الفرس فى المشرق فى العصر العباسى الأول ووجد ذلك مقاومة عنيفة من العرب . مثل أبى مسلم الخراسانى الذى ادعى انه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس(١٠) .

---

(٩) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٧ .

(١٠) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٩٧ .

رابعــا : العنصر الإســبانى

يذهب الكثيرون إلى ان الأصـول القـديمة لسكان إسبانيا تعـود إلى مزيج من عنصرى السلت (الكلت) ، والإيبيريين(١) . فقـد توالى على هـذه البلاد الكثير من الغزاة . حيث غزاها الفينيقيون فى القـرن العاشر ق.م ، واطلقـوا على الشاطىء الـذى نزلوا عليـه اسم Ischepan- im (إسبانيا) أو شاطىء الأرانب . واسسوا عـدة مستعمرات ومدن ، من اشـهرها مدينة قادس التى لا تزال إلى اليـوم هنـاك كما غزاها اليـونان فى القرن الخامس قبـل الميلاد ، واطلقـوا على سـواحلها اسم إيبيريا .

ثم ما لبث ان اطلق هـذا الاسـم على شـبه الجزيرة كلها . كما خضعت هـذه البلاد فى هـذا القرن ايضا للقرطاجنيين الذين اسسوا فيها مدينة (كرتا جونوفا) أى قرطاجنة الجـديدة التى اتخـذوها عاصمة لهم . وهكذا شهدت هـذه البلاد منذ سنة ٥٣٥ ق.م وحتى سنة ٢٠٥ ق. م تاثيرين : احـدها أوربى عن طـريق العنصر السلتى واليـونانى والآخر آسيوى إفريقى أو سامى عن طريق العنصر القرطاجنى .

ثم تحـول هـذا التاثير إلى تاثير لاتينى أوربى عنـد مجىء الرومان سنة ٢٠٥ ق.م ، حيث استولوا على البلاد من القرطاجنيين واسسوا مدينة Italica (طالقـة) والتى تسمى باطقة . وهـو اسم مشتق

---

(١) يذكر د. العبادى : ان العناصر السلتية Celtos جاءت من اوربا وان العناصر الايبرية Iberos جاءت من المغرب .

(انظر مجـلة عالم الفكر ص ٣٤٣ العـدد الثانى المجلـد العاشر سنة ١٩٧٩ م ، المختار من عالم الفكر ص ٩٣) .

من كلمة إيطاليا . ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا — كغيرها من ولايات الدولة الرومانية — من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التى تدفقت عليها منذ سنة ٤٠٩ م حيث اجتاحتها قبائل الآلان ، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريبا ، فاستقر السويف وقسم من الوندال فى جليقية واشتوريش ، ونزل الآلان فى لشدانية (البرتغال حاليا) ، وأقام معظم الوندال فى باطقة وجزء من شرق الأندلس . ثم جاء القوط الغربيون بزعامة آطاوولف فانتزعوا برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ م واتخذوها مقرا لهم ، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب سنة ٤٢٩ م ، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (٧٠٠ م) الذى اغتصب رودريك (لذريق) حاكم باطقة الملك منه ، مما أدى بأبنائه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جوليان (يليان) حاكم سبته وحثهم على فتح الأندلس(٢) .

وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح ، وكان لسياسة التسامح التى سار عليها الفاتحون أثر كبير فى ذلك ، بالإضافة إلى

---

(٢) انظر بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ص ٩٣ ترجمة أمين تكلا القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، دائرة معارف الشعب كتاب الشعب ٦١ ص ٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٥١ — ٥٦ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥ وبعدها .

د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، على إسلام : اسبانيا والأندلس ص ١٨ .

د. إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٢١ القاهرة سنة ١٩٥٨ . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦ .

ما وجـده هـؤلاء من مبادئ وقيم نبيلة فى الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمـان ، كما دخل بعضهم فيه لمصالح شخصية . وقـد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسالمة او الأسـالمة . اما الذين بقوا منهم على دينهـم فقـد عرفوا باسم العجم(٣) .

وقـد اعتبروا اهـل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين فى مقـابل حمايتهم والدفاع عنهم داخـل دولة المسلمين بالأندلس فقـد أمنهم موسى ابن نصـير على اموالهم ودينهم بأداء الجزية(٤) وكان لهـم رئيس يلقب بالقومس . وكان أول من تولى هـذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الداخل رجـل يسمى أرطباس . وكان كما ذكر ابن القوطية « من عقـلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار » ، كما كان هناك قمامسة محليون ينتخبهم النصارى لكل مدينة ، كما كان لهم قاضى يعرف بقاضى العجم أو النصارى يفصل فى منازعتهم ، وكان أول قاضى لهم حفص ابن عبد البر وكان يتبع القـوانين القوطية فى الحكم بينهم(٥) .

وقد اطلق على النصارى الإسبان الذين عاشروا المسلمين ، واختلطوا بهم ، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا فى الإسـلام اسم (المستعربين) وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد فى السنوات الأولى من الفتـح

=

وقـد انكر د. مؤنس إتصال ابناء غيطشة بالعرب وحثهم على غزو الأندلس فى ص ٥٦ ثم عاد بعـد ذلك فى ص ٦٤ ورجـح اتصالهم . (انظر : فجر الأندلس ص ٥٦ ، ٦٤) .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٢ ، د. العبادى : مجلة المختار من عالم الفكر ص ٩٦ .

(٤) الرسالة الشريفية ص ١٩٩ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٠ .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ ، ٣٨ ، ص ٥ .

غير ان اعـدادهم اخـذت فى التناقص بدخول الكثيرين منهم فى الإسلام حتى اصبحوا اقليـة بالنسبة للمسالة . وقـد تمتـع اهـل الذمـة بحريتهم الدينية ، وعاشوا إلى جوار المسلمين فى حـرية وامان وسـلام فى احياء خاصـة(٦) .

والكتاب الذى كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعـد فتحها سنة ٩٤هـ خير شاهد على ذلك ونصة :

« بسم الله الرحمـن الرحيم ، كتـاب من عبد العزيز بن موسى ابن نصير لتـدمير بن عبدوش انه نزل على الصلح ، وأن لـه عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ الا يقدم له ولا احد من اصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع عن ملكه ، وانهم لا يقتـلون ، ولا يسبون ولا يفـرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبـد ونصح وادى الذى اشترطنا عليه ... الخ »(٧) .

وقـد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم أرضـهم يزرعونها ويدفعـون خراجها وتركوا لهم كنائسهم ، ولم يستولوا عليهـا ما عـدا الكنائس التى قسموها بينهم وبين النصارى ليقيموا فيها مساجد جامعة . مثل مسجد رفينة الذى اقيم فى جـزء من كنيسة سانتا رفينة . وذكر ان عبد العزيز بن موسى بن نصير اقام فيهـا وذلك غير صـحيح والحقيقة انه اقام داره بجوارها وابتنى على بابها المسجد الذى قتل فيه .

---

(٦) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس : ص ١٣٠ .

(٧) الحميرى : صـفة جزيرة الأندلس ص ٦٢ ــ ٦٣ ، بغيـة الملتمس ص ٢٧٤ ، فجـر الأندلس . جـ ١ ص ٥٥ ــ ٥٦ ، د. لطـفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٢ ــ ٢٣ . وهنـاك اختلاف طفيف فى بعض الفـاظ هذه المعاهدة لدى بعض المصادر .

ومثل جامع قرطبة الذى اقيم فى شبطر من كنيسة شنت بنجنت ، وكان للنصارى اديرتهم مثل دير ارملاط فى الطريق بين قرطبة وإشبيلية ، ودير سان خــوان دى لابنيا الذى أقامه الراهبان فوتو وفيلكس فى عهــد عقبــة بن الحجاج السلولى شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية فى العصر الأموى مركزا أسقفيا هاما . وكان أول من تولى رئاسة أسقفية إشبيلية المطران المند بن غيطشة(٨) ، وكانت أصوات أجراس الكنائس تقرع جنبا إلى جنب مــع أصوات المؤذنين فى المساجد . ممــا يدل على مدى تسامح المسلمين ، وتركهم النصارى يمارسون شعائرهم بحرية تامة .

وقد وصف الشاعر أبو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقــد بات فيها ليلة مع بعض أصحابه فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور واستيناس .... وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعــه ، والقس قــد برز فى عبــدة المســيح متوشــحا بالزنانير ابدع توشيح . »(٩) كما نظم ابن حزم أبياتا جــاء فيها :

اتيتنى وهــلال الجــو مطلع   قبيل قرع النصارى للنواقيس(١٠)

وقد ظل النصارى الإسبان يتمتعون بحريتهم الدينيــة حتى جــاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها : فمنعوا قــرع النواقيس ،

---

(٨) ابن عــذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وبعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤ ، ٣٧ نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ . فجر الأندلس ص ١٣٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٣١ .

(٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٠) طــوق الحمــامة ص ٣٤٧ .

والزموهم بارتداء ثياب معينة ليتميزوا عن المسلمين ، والا يركب أحد منهم فرسا ، والا يشترى مسلم منهم رداء إرتدوه . (١١)

ويبدو ان ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحى (الاسترداد أو الاستعادة) كما يسميها الإسبان ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم ومعاونة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد . ولذلك فقد نفى الموحدون كثيرا منهم إلى المغرب ليكونوا بعيدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضد المسلمين ، وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور هو أشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم .

ورغم ذلك فان أحوال اهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الأسبان المسيحيين بعد ان اخذت دولة الإسلام فى الأندلس فى الاضمحلال والسقوط ويكفى ذكر محاكم التفتيش وويلاتها كدليل على ذلك .

وبشهادة الكثير من المستشرقين فان المسلمين كانوا اكثر تسامحا مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يقول المستشرق الروسى بارتولد « ومهما يكن من شيىء فإن النصارى الذين عاشوا فى ظل حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى إسبانيا من الظلم والعدوان »(١٢) .

هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شغفوا باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بالأندلس ،

---

(١١) ابن عبدون : آداب الحسبة ص ١١٢ — ١١٣ .
المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ طبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧ — ترجمة حمزة طاهر — ط ٥ دار المعارف بمصر د.ت.

مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف فى المدونات الإسبانية باسم (ريسموندو) ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة اصبغ بن عبد الله بن نبيل(١٣) ، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية (الإسبانية) إلى العربية والعكس بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية ، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين الثقافة العربية والأوربية ومن هؤلاء القاضى جيزون قاضى النصارى بقرطبة فى خلافة الحكم المستنصر ، وكان يقوم فى بعض الأحيان بدور المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان . (١٤)

وكما لعب المستعربون دورا ثقافيا فقد لعبوا دورا سياسيا هاما بمحالفتهم للمولدين ضد العرب فى عصر الأمير عبد الله . كما تجلى فى ثورة عمر بن حفصون (١٥) .



(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٢
(١٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٠
(١٥) أنظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٥٩ ، ٢٦٥

خامسا : عنصر المولدين

ويقصد بهذا العنصر الجيل الذى ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عربا أو بربر ، وامهات اعجميات سواء كن اسبانيات أو غير ذلك ، ونشأ على الإسلام . فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر على مصاهرة أهل البلاد ، فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيات ، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم ، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولغته فى الأندلس ، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر بدماء أهل البلاد الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين . (١)

---

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٨ ،
د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٤ .

اتصل بالعناصر العربية والبربرية فى الأندلس عنصران آخران هامان وهما المولدون ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج فى المجتمع الأندلسى المسلم اندماجا جعل بعضهم يبتدعون انسابا عربية ومن هؤلاء اسرة بنى مغيث الرومى الأصل ، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقى بن مخلد وابن حزم وابن سراج القرطبى . وكما كان للمولدين فضل فى خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضا واشتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصور بن أبى عامر الذى ناظر صاعدا اللغوى وانتصر عليه . ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعالون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب فى ذكر مفاخرهم وهو كتاب (الإستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) .

ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتأليف فى دائرة الشعوبية وإن لم يكن فى صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بنى جنسه دون التهجم

على غيرهم . (نوادر المخطوطات ج ٣ ص ٢٤١) .

أما الميل الحقيقى للشعوبية فقد أخذ طابعه الكامل فى محيط المولدين. ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الإنسجام مع الإسلام ، على العكس من شعوبية المشرق حيث نرى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة فى أغلب الأمر .

ويعد محمد بن سليمان المعافرى من أقطاب الشعوبيين فى الأندلس . ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان معروفا بشدة تعصبه للعجم والغض من شأن العرب . ويلاحظ أن كلمة العجم عند شعوبيى المشرق تعنى الفرس فى المقام الأول أما عند شعوبيى الأندلس فتعنى الإسبان والروم .

ويبدو أنه لم يكن هناك نتاج أدبى للشعوبيين فى الأندلس إلا بعد زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيها المولدون والصقالبة أن يستأثروا بعدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع صوت الشعوبية قويا .

ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبى عامر بن غرسية الذى عاش فى بلاط مجاهد الصقلبى ملك دانية ، وألف رسالة فى تفضيل العجم على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوى صاحب المخصص الذى يقول عنه الذهبى « وكان شعوبيا يفضل العجم على العرب » ... وكان منقطعا إلى الأمير مجاهد العامرى .
(انظر الرسالة والرد عليها فى نوادر المخطوطات القسم الثالث ص ٢٤٦ — ٣٣٠) .

وقد كان هـذا الجيل يشكل على عهد امراء بنى امية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الاندلس واهل البيوتات منهم ، وكان فيهم من يدعى نسبا فى المشرق يرى فيه تعظيما لشأنه مثل ابن حزم ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس « انـه كان من غرائبه انتمـاؤه فى فارس ، واتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر » (٢)

كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل : بنو انجلين ، وبنو القبطرنة وبنو ردلف ، وبنو مردنيش ، وبنو غرسية ، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والثغر الأعلى . (٣)

وفى كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين ابو بكر بن القـوطية صاحب كتـاب (تاريخ افتتاح الأندلس) .

وقد كان جل أمراء الاندلس وخلفائها من اصـل مولد تجـرى فى عروقهم دمـاء غير عربية وبخاصة الـدم الإسبانى من جهـة الأمهـات أو الجـدات ، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولـد بربرية تسمى راح او رداح ، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حـلل او حـوراء ، وكان الحكم بن هشام من أم ولـد تسمى زخـرف ، وكان عبد الرحمن الناصر من ام ولد تسمى مزنة ، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من ام ولـد بشكنسية تدعى صبح ، وغير هؤلاء كثيرون (٤) .

---

(٢) ياقوت : معجم الأدباء جـ١٢ ص ٢٥٠ نشر أحمد فريد رفاعى .

(٣) انظر فى ذلك ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ص ١٦ وبعـدها نشر ملثور انطونيه ، باريس سنة ١٩٣٧ ، وجمهرة أنساب العرب ص ٤٦٧ .

(٤) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٦ ــ ١٦٠ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١١ ــ ٣٨ الضبى : بغيـة الملتمس ص ١٢ ــ ٣٣

ومع ان هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام ، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على الاندلس ، إلا ان الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بنى جلدتهم من العجم او النصارى ضد العرب والبربر معا(٥) .

ولقد تالفت منهم جماعات كبيرة عاشت فى المدن الهامة مثل طيطلة التى كانت تضم أكبر طائفة منهم ، وكانت مركزاً من أهم مراكز عصبيتهم ، وقد ظهر ذلك فى الحركات الثورية المتعددة التى قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة .

وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معاقلهم . حيث كانوا يمثلون اكبر طائفة من سكانها ، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء(٦) .

وقد انتهز هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بنى امية فى عهد الأمير عبد الله فثاروا فى عدة نواحى من الأندلس ضد السلطة المركزية وكان من اخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذى تغلب على ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذى عرف بابن الجليقى ـ نسبة إلى جليقية ـ « وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب »(٧) كما ثار يحيى بن بكر بن ردلف فى شنت مرية باشكونية(٨) .

---

(٥) عنان : دولة الإسلام ـ العصر الأول القسم الثانى ص ٢٧ هامش ١
(٦) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .
(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٥ ـ ١٦ .
(٨) انظر المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٤١٧ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤١٥

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد إنتشار اللغـــة العجمية أو اللطينية ــ كما يسميها المؤرخون العرب ــ بين الأندلســيين من عرب وبربر ، وهى ما يطلق عليهـــا اسم اللغة الرومانثية (الأسبانية الحديثة أو العامية) واختلاطها باللغة العربية(٩) .

وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانثية تداخـــلا كان من مظـــاهره نشأة فن الموشحات والأزجال(١٠) .



(٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إســبانيا ص ٢٥ ، د. حســين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٧٧ ، البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٣١ — ٣٢ .

(١٠) عن الموشحات والأزجال راجع : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها ، د. عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧م د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عـــالم المعرفة عدد ٢١ ، صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ترجمـــة د. عبد الحميد شيحة . دار الآداب بالقاهرة سنة ١٩٩٠م .

سادسا : اليهود

شكل اليهود عنصرا من عناصر السكان فى المجتمع الإسبانى قبل الفتح الإسلامى ، وقد عانوا كثيرا من إضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إسبانيا ، وخاصة بعد القرارات التى إتخذها المجلس الكنسى فى مدينة البيره سنة ٣٠٣ — ٣٠٤ م ، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسى الذى عقد فى طليطلة سنة ٥٨٩م وقدم فيه الملك (ريكاردو) الذى كان يكره اليهود عدة اقتراحات المجلس تتلخص فى : منع استخدام اليهود للمسيحيين فى اى عمل ، وعتق اى عبد مسيحى مملوك ليهودى ، ومنع زواج المسيحيات من اليهود ، ومنع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة املاكه ، وطرد اليهود من مناصبهم فى الحكومة ، وعدم تعيينهم مستقبلا ، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم فى مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع .

وقد وافق المجلس على هذه المقترحات وبدا تنفيذها ، ثم جاء الملك (سيسبت ت ٦٢١ م) فضيق الخناق عليهم اكثر واكثر وخاصة فى إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية او الرحيل عن إسبانيا ، فهاجر الكثير منهم وبقى البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية حرصا على نفسه واملاكه .

ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم المسيحية سرا . وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترين Judaizantes . ثم جاء عهد الملك (سوينتالا) فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبا للمسيحية كسلفه، فانتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنا . ولكن بعد موته جاء الملك (سيسناند) الذى طلب من المجلس الكنسى تجديد

القرارات السابقة الخاصة باليهود . وفى سنة ٦٣٣ م جدد المجلس قراراته السابقة واضاف إليها قرارات أخرى منها :

١ — إلزام اليهود بتسليم ابنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة لتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية .

٢ — تسليم اليهودى ، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبدا لـه .

وفى عهد الملك (كانتيلا) قرر المجلس الكنسى بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية وان يعودوا لدينهم مرة أخرى ، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك فلما مات واعتلى الملك (سوانيد) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائرها علنا . ثم أرغم اليهود فى عهد الملك (إرفيج) على التنصر وأصدر أمرا — عن طريق المجلس الكنسى بطليطلة — بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان ، ثم أصدر الملك (إخيكا) صهر إرفيج أمرا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدا عندهم ، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتق يهوديا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم . (١)

وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذى لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعا بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذى قام به اليهود ومارسوه فى المجتمع الإسبانى وغيره من مجتمعات أوربا . ولذلك ذكر انهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الاندلس ، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد

---

(١) انظر د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ١٣ — ١٧

ان يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم الأندلس ، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التى فتحوها تحت إمرة المسلمين . ولا يستبعد ايضا ان يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم(٢) .

ولما استقر المسلمون في الأندلس تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحلمون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية . وكان لذلك أثره فى هجرة الكثير من يهود اوربا إلى الأندلس بعد فتح المسلمين لها .

وكان اليهود يتجمعون فى عدة مدن بالأندلس وعلى راسها غرناطة التى كانت تزخر باكبر جالية يهودية ولذلك سميت (اغرناطة اليهود) ، ومنها مدينة اليسانة التى تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسى : إن سكانها كانوا من اليهود فقط ، واهلها اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البتة(٤)، ومنها أيضا قرطبة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة. وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التى تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل . وكانوا لثرائهم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوربا (٥) .

---

(٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٣ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ٣٣

(٣) السيد سالم : المرجع السابق ص ١٣٣ ، د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ٥٥

(٤) وصف المغرب وارض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٥ . ط. ليدن سنة ١٨٦٦م .

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٨٢ .

ولذلك لعب اليهود دورا هاما فى الأندلس فى الحيـــاة الاقتصادية وكذلك فى الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداى بن شـــفروط (شبروط) طبيب الخليفـــة الناصر الذى كان رسوله فى استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية ، وقام بدور هام فى السفارة التى أوفدها قسطنطين السـابع إلى الأندلس سنة ٣٣٨هـ ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار .

هذا وقد لعب اليهود دورا مهما فى الحياة السياسية فى زمن ملوك الطوائف وخاصة فى مملكة غرناطة حيث وصل واحـــد منهم وهـــو ابن النغريلة إلى مرتبة الوزارة فى دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، وغدا له من النفـــوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطـــرون على الكثير من مناصب الدولة نظرا لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذى أصبح صاحب الشرطة فى أيامه ، كما وصل أبو الفضل بن حســـداى ابن شبروط إلى مرتبة الوزارة فى مملكة سرقسطة(٦) .

وقـــد كان لليهود ـــ مثل النصارى ـــ نظام إدارى خاص بهم فى الأندلس حيث كان لهم رئيس يتولى شئونهم يسمى (الناجد) أو الحاخام

(٦) د. محمد عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ٢٢ ـــ ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٢٢ د. الطاهر مكى : دراسات أندلسية ص ٥٤ وبعـــدها ، على محمد راضى : الأندلس والناصر ص ٧٦ . وابن النغريلة : يدعى صمويل هاليفى ويسمى فى المصادر الأندلسية إسماعيل أو أشموال وهـــو من أهـــل ماردة ، ولـــد فى قرطبة ، وتتلمذ فى الدراسات اليهـــودية على يد أبى حنـــوك ابن موسى رئيس الطائفـــة اليهودية بالأندلس ، ودرس الفلســـفة على يحيى بن داود وتعلم العبرية واللاتينية والعربية ، واســـتطاع

=

الأكبر . وكان من أشهرهم فى عهـــد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداى ابن شـــبروط(٧) .

ولم يكن لليهود حضارة أو ثقـــافة تذكر بالأندلس قبـــل الإسلام ، ومن نبغ منهم فإنما كان ذلك فى ظـــل الإسلام وتسامحه وتحت رايتـــه . بدليـــل أنهم فى أســـبانيا القوطيـــة لم يكن لهـــم مثلما كان فى الأندلس الإسلامية ، فتراثهم بالأندلس يعـــد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافـــة العربية التى نهلوا منها ، ولذلك عنـــدما أخـــذ حكم المسلمين فى الزوال من الأندلس نضبت العقليـــات اليهودية ، ولم يظهر لهـــم تراث ممـــاثل إلا خـــلال عصر النهضة فى أوربا(٨) .

لقـــد تمتع اليهود فى هـــذا العصر الأموى بكثير من ألوان التسامح لم يظفروا به خـــلال حـــكم القوط ، ولا غـــرو فقـــد غدوا عنصرا هاما فى الإدارة والتجارة والصيرفة كما أسندت إلى الكثير منهم مناصب هامة فى الدولة ، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم(٩) .

أن يسيطر هـــو وابنه يوســـف من بعـــده فى دولة بنى زيرى فى غرناطة فتولى بيت المـــال والوزارة ، كما تولى ابنـــه مرتبـــة الوزارة أيضا ولابن النغريلة كتاب طعن فيه فى الإســـلام والقرآن الكريم وقـــد رد عليـــه ابن حزم الأندلس فى رسالة نشرها فى القاهرة د. احسان عباس سنة ١٩٦٠ م بعنوان (رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهـــودى) .

(٧) اليهـــود فى الأندلس ص ٢٤ .

(٨) اليهـــود فى الأندلس ص ٤٤ ، ٥٢ .

(٩) الإســـلام فى اســـبانيا ص ٣٤ .

سابعا : الصقالبة(١)

كان لفظ صقلبى يطلق فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بالاندلس على الرقيق المجلوب من اوربا ، وكذلك من المناطق الشمالية فى إسبانيا . فقد ذكر ابن حوقل الذى زار الأندلس فى هذا القرن ان الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ، ومن إيطاليا ،

---

(١) يرجع الصقالبة فى اصلهم إلى الجنس الآرى (أو الهندو اوربى) . والمعروف انهم نزحوا من آسيا ، واستمروا يتوسعون فى أوربا حتى القرن العاشر الميلادى حيث ظهرت قوتهم ، وظل مستواهم الحضارى ضعيفا بالنسبة للشعوب التى اصطدموا بها . وقد انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلدانا مختلفة مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

١ — السلاف الجنوبيون : (اليوجسلاف) فى الجنوب والوسط ويشملون البلغار والصرب والكروات والسلوفينيين (سكان سلوفينيا) .

٢ — السلاف الغربيون : فى بولندا وبعض اجزاء من المانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا .

٣ — السلاف الشرقيون : أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار فى الوسط والشمال ، والروس الصغار فى الجنوب ، والروس البيض فى الغرب (انظر : محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا جـ ١ ص ٢٧٨ ، د. سهام أبو زيد : تاريخ الصقالبة فى مصر الإسلامية ص ١٤٤ مجلة كلية الدراسات الانسانية العدد التاسع سنة

ومن قطلونيه وجليقية فى شمال إسبانيا(٢) .

وقد أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم فى العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الإدرياتى غربا(٣) . فيشير المسعودى إلى أن الصقالبة أجناس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود(٤) .

ولقد دأبت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبى الكثير من أفراد تلك الشعوب ، وبيعها إلى المسلمين فى الأندلس ، ولهذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد ، ثم حور اللفظ فى العربية إلى

١٩٩١ م) ، د. أحمد العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ١٢٥ مجلة المختار من عالم الفكر الكويت سنة ١٩٨٤ م) .

وقد غلب على هذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلافه Sclaves فعربها العرب إلى صقلبى التى ترادف عبد Slave وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى فى لغاتهم Sklave بالانجليزية ، Esclave بالفرنسية Slavary بالألمانية

(جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٣٣ — ٣٤) .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٣٣ ، المختار من عالم الفكر ص ١٢٥ .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٥ وبعدها ، التنبيه والإشراف ص ٥٦ .

صقالبة وتوسع فى استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض المجلوب من أية أمة مسيحية(٥) .

وكان أغليهم يؤتى بهم أطفالا من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة ويربون تربية عسكرية ، ويدربون على الخدمة فى القصور ، والانخراط فى سلك الجندية ليكونوا جنوداً فى الحرس أو الجيش . وكان المستخدمون منهم فى القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحريم ، وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ، ولهم معامل خاصة للخصاء فى أوربا - وخاصة فى فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان بمنطقة اللورين ، وكذلك فى الأندلس - وخاصة فى مدينة خلف بجانة وهى شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة - وكان معظم أهلها من اليهود(٦) . وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التى يحرمها الإسلام . ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم من الرقيق . يقول ابن حوقل « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم

---

(٥) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٦٣١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١١٠ عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥٣ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦ . ومن المتعارف عليه أن الروم البيزنطيين كانوا أول من قام بعملية الخصاء . (الحيوان ج ١ ص ١٢٥) ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

تجـار اليهــود »(٧) .

وقــد تميز الخصيان من الصقالبة بعــدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال : « والخصى أجــود خــدمة ، وأفطن لأبواب العطاء والمناولة ، وهــو بها أنفق ، ولهــا أليق ، ونجــده أيضا أذكى عقلا عند المخاطبة . والصقلبى سلس القياد لبراعته من وعــورة العصبية » ويبدو أن الجاحظ قــد حكم فى ذلك على من شاهده فى بغــداد منهم حيث كانوا قلة غير متعصبة بخــلافهم فى الأندلس حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضــد العرب وخاصة فى الجزائر الشرقية التى استقل بها الأمير مجــاهد العامرى بعــد سقوط الخــلافة الأموية وكان معظم سكانها منهم . كما أنهم مشهورون بالصبر مــع طول الركوب ، حتى فاقوا الترك فى ذلك ، كما أنهم يجيدون الرمى بالنشــاب إجادة تامة .

كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يتقنــون من الصناعات إلا صغارها ، ويجيدون الضرب على الأوتار . ولكن هذا الرأى لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخــذ به كقاعدة عامة بدون استثناء . وشبههم أيضا بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود(٨) .

وقــد اشتهروا بحسن الخــدمة كمــا يستدل على ذلك من قــول الخوارزمى « ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى »(٩) .

كما اشــتهروا بالشــدة والمراس فى الحروب يقــول ابن عبدون

---

(٧) صورة الأرض ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، احمد امين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٨٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .

(٨) الحيوان ج ١ ص ١١٦ ـ ١١٧ ، المحاسن والمساوىء ج ١ ص ٣٩٦ .

(٩) يتيمــة الدهــر ج ٤ ص ١١٦ .

« ومن اراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ، ومن ارادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن ، ومن ارادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة »(١٠).

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرسا خاصا له فجلب منهم خمسة آلاف واطلق عليهم اسم الخرس لعجمتهم(١١) . ثم أخذت اعدادهم فى الازدياد وخاصة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل فى قرطبة وحدها فى عهده نحو ثلاثة عشر الفا وسبعمائة وخمسين(١٢) .

وقد نبغ عدد كبير منهم ، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة فى الإدارة والجيش وخاصة فى عهد الناصر مثل نجدة الصقلبى قائد الجيش ، والدرى صاحب الشرطة ، وافلح صاحب الخيل ، وخلف مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ ، وقند حاكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ(١٣) .

---

(١٠) رسالة نافعة فى شرى الرقيق (نوادر المخطوطات(٤) ص ٣٥٢) .

(١١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ . اطلقت عليهم عدة أسماء أخرى مثل الأبناء ، والفتيان ، والحلفاء ، والعلوج ، والمجابيب ، والمماليك إلى جانب الخرس ، والصقالبة .

(١٢) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦ . وهذا الرقم مختلف فى تقديره فبعضهم يصل به إلى خمسة عشر الفا أو يزيد ، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن ذلك يدل على ظهور عنصر جديد فى المجتمع الأندلسى كان له دور واثر مماثل أو مشابه للعنصر التركى فى المشرق .

(١٣) د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس . مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣١٢ .

كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم ، وكثروا فى البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم فائق وجوذر اللذين كان لهما دور كبير فى عهد المستنصر وابنه هشام .

وقد نبغت طائفة منهم فى العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى تليد .

وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلبى بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) (١٤) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربى والبربرى ، وإضعاف سيطرتهما على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها فى الثورات ضد الأمويين .

ويبدو ان الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التى قام بها العرب والبربر ضدهم ، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربى والبربرى فأرادوا الأعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سندا لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركى بعد ان ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربى والفارسى .

إلا أن ذلك قد ادى إلى ازدياد المنافسة والعصبيات بين عناصر المجتمع فبدلا من أن يكون الصراع بين عنصرين اساسيين هما العرب والبربر اصبح بين عناصر ثلاثة مما كان له اثره فى المجتمع الاندلسى من نواحى شتى .

---

(١٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٧ .

ومثال ذلك انه عندما ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلبى قيادة الجيش المتوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثانى) سنة ٣٢٧هـ فى موقعة الخندق عند مدينة سيمانقة هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة ، وفر الناصر بنحو خمسين فارسا فقط بعد ان نجا باعجوبة ، حيث قيل إن سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب الذين كانوا فى الجيش لتولى قيادته صقلبى ، وتقديمه الصقالبة عليهم مما جعلهم يتركونه وحده فأدى ذلك إلى هزيمته . ويقول صاحب اخبار مجموعة عن هذه الموقعة « إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه »(١٥) .

وقد لعب الصقالبة دورا هاما فى الحياة السياسية بالأندلس فى هذا العصر حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم ، وشاركوا مثل البربر فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها . وكان من اشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبى .

كما كان لهم دور أيضا فى الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فاتن الصقلبى الذى برع فى الأدب وناظر صاعدا العالم اللغوى عند المنصور بن أبى عامر فأفحمه وأعجب به المنصور ، ويذكر أنه وجد فى تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط . كما الف الأمير مجاهد الصقلبى صاحب دانية كتابا فى العربية يدل على قوته فيها(١٦) ويذكر ابن الأبار أن حبيبا الصقلبى الف زمن هشام

---

(١٥) اخبار مجموعة فى فتح الاندلس ص ١٤٥ — ١٤٦ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٩ ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣٨٠ .

(١٦) الضبى : بغية الملتمس ص ٤ .

المؤيد كتابه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) يتعصب فيه لقومه . وذكر ابن بسام انه اطلع على هذا الكتاب الذى احتوى على جملة من اخبارهم ونوادرهم واشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شيىء منها فى كتـــابه الذخيرة حيث قال « وشـــعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنـــا »(١٧) .

كما كان لهؤلاء الصقالبة اثر ايضا فى الحيـــاة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليـــدهم وفنونهم ، وقـــد اشـــار الطرطوشى إلى اختصاصهم بأنـــواع من الالحـــان والرقصات الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقلبى والرقص الصقلبى الذى يذكرنا بشيىء منه الرقص الإسبانى الحـــديث (الفلامنجو)(١٨) .

ولذلك يرى المستشرق الإسبانى خوليـــان ريبرا : أن الصقالبـــة كانوا يمثـــلون العنصر الاوربى فى المجتمـــع الأندلسى ، وعـــن طـــريقهم انتقلت بعض الصـــور الشعرية التى شـــاعت فى الأندلس إلى البيئات الاوربية واثرت فيهـــا(١٩) .

ويبدو أن الصقالبة كانوا يعتبرون انفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيرا بالعناصر الاخرى ، وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص ممـــا بعث فيهم النزعـــة العنصرية اكثر من غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا اساس الحركة الشعوبية فى الأندلس تلك الحركة التى انبعثت من الإمارات الصقلبية فى عصر مـــلوك الطـــوائف ، حيـــث اســـتطاع الصـــقالبة

---

(١٧) الذخيرة فى محاسن اهـــل الجزيرة ج ١ ق ١ ص ٢١٠ .

(١٨) الحواد ث والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبى تونس سنة ١٩٥٩ م .

(١٩) الإســـلام فى إســـبانيا ص ٣٨ .

أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك فى شرق الأندلس وخاصة فى بلنسية ، وطرطوشة ، ودانية ، والمرية ، ومرسية .

وكانت هـذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطـة تحالف وولاء عنصرى . وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية تمييزا لهـا عن الدولة العامرية التى أسسها المنصـور بن أبى عامـر . لأن أصـحابها كانوا من مماليـك العـامريين (٢٠) .

وممـا يدلنا على نزعـة الصقالبة الشعوبية ضـد العرب كتـاب ابن حبيب السابق ذكره والذى اعتبره البعـض البـداية الأولى للشعوبية فى الأندلس ، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليـوم وهى رسـالة أبى عامر بن غرسية (٢١) إلى الشاعر أبى عبد الله الحـداد أو أبى جعفر الخراز والتى يفضل فيها العجم على العرب (٢٢) .

ويبـدو أن السبب فى هـذه النزعـة الشـعوبية بين الصقالبـة بخاصة أن معظم أهالى الإمارات الصقلبية التى انتشرت فيها هـذه النزعة

---

(٢٠) المختـار من عالم الفكر ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢١) غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه فى الإسبانية صاحب الحيلة أو الثعلب أو المـاكر كما ورد فى معجم المجمع العلمى الإسبانى ، وهـو اسم شائع فى أسبانيا تسمى به كثير من الملوك والأمراء ومنهم غرسية ملك البشكنش ، كما تسمى به بعض المحدثين ومنهم المستشرق الإسبانى إميليو جارسيا جوميز (نوادر المخطوطات ص ٢٣١) .

(٢٢) اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون إلى أنه أبو جعفـر بن الخـراز ، وذكـر البعض أنه أبو عبد الله ابن الحـداد أو أبو بكر بن الحـداد .

=

كانوا من الموالى من الصقالبة والإفرنجـــة والبشكنس الذين رحب بهم الصقالبة فى ولاياتهم كما ذكر ابن حيان « بينمـا زهـدوا فى الأمـراء من العرب وابنائهم ممن طرا عليهم فلم يوانسوهم »(٢٣) .

* * *

والأرجح انه (ابو جعفر احمد بن محمد بن احمد بن ســهل الأنصارى المعروف بابن الخراز) . كما نص على ذلك ابن سـعيد فى ترجمتــه لابن غرسية (المغرب جـ ٧ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦) ، لانه ترجم لابن الحـداد فى موضـع آخر إذن فهما شخصان مختلفان ، ويبدو أن الاختلاف جـــاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتى الحـداد والخراز من بعضهما (انظر نوار المخطوطات ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦) ٥ وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هـذه الرسالة فى نوادر المخطـوطات (جـ ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٥٤) والـردود عليهـا من المعاصرين لابن غرسية من العرب ، وغير المعاصرين .

وابن غرسية من أصل مسيحى بشكنسى اسلم واتقن العربية وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش فى مملكة دانية الصقلبية وخـدم فى بلاط مجاهـد العامرى الصقلبى وابنه على ولذلك تعصب ضـد العرب فكتب رسالته هـذه . (انظر : نوادر المخطوطات جـ ٣ ص ٢٣٢) .

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث ورقة ٣ أ نقلا عن المختار من عالم الفـكر ص ١٢٩ .

ثامنا : النورمان (الفايكنج)

وهناك عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الاوسط بغاراته البحرية على شواطئها فى فترات عديدة من العصر الاموى . ويسمى هذا العنصر فى المصادر العربية باسم (النورمانيين ، والأردمانيين ، والمجوس) وهو تحريف للكمة الانجليزية Norsemen او الإسبانية Normandes وتطلق على اهل الشمال من الدول الاسكندنافية او سكان اسكندناوه(١) .

ولا تزال توجد فى فرنسا حتى اليوم ولاية او مقاطعة تحتفظ باسمهم وهى نورماندى او نورمانديا حيث استقروا بها فى أوائل القرن العاشر الميلادى بموجب معاهدة بين ملكهم رولو وملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالأبله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا كما اقامت جماعة منهم فى جنوب إيطاليا ، واستخدمتهم الكنيسة فى محاربة المسلمين فى الأندلس وصقلية ، فقد هاجموا الأندلس سنة ٤٥٦هـ واستباحوا مدينة بربشتر شمال شرق سرقسطة،وهاجموا صقلية بعد ذلك

---

(١) المختار من عالم الفكر ص ١٣٠ . وتسمية معظم المصادر العربية لهم بالمجوس لا تعنى أنهم من جنسهم الفارسى ، وإنما إعتقادا منهم بأنهم كانوا يعبدون النار وهو اعتقاد خاطىء ، حيث كانوا إذا ما نزلوا فى مكان خربوه ونهبوه واشعلوا النار فيه مثل التراصنة ، كما كانوا يحرقون جثث موتاهم فظن هؤلاء المؤرخون انهم يعبدون النار مثل المجوس ، ولعلهم قصدوا من هذه التسمية أنهم وثنيون حيث كانوا يعبدون النجوم ومظاهر الطبيعة وقد ذكر أ. احمد امين انهم سموا بذلك لأنهم كانوا مجوسا قبل أن ينتصروا (ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٠٨) . ولكن ليست هناك ادلة على ذلك .

سنة ٤٦٤ هـ (٢) .

وكان موطنهم الأصلى فى المناطق المحيطة بالبحر البلطى (بحر البلطيق) ، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دانمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل الأندلس وسواحل المغرب أيضا .

وكانت بداية غاراتهم البحرية على الأندلس فى سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م فى عهد الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) . وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة ، والأسهم النارية التى يطلقونها ، والأشرعة السوداء التى تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون (٣) .

وقد استطاعوا فى أولى غاراتهم هذه التى استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عدة أيام ، بعد أن هاجموا أشبونة (لشبونة بالبرتغال حاليا) ، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى

وأما تسميتهم بالفايكنج فانها مشتقة من كلمة Vik النرويجية . وتعنى ساكن الخلجان .

ولهذا أطلق هذا الإسم على سكان شبه جزيرة إسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وورد فى المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعنى المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين (الأمويون أمراء الأندلس ص ٣١٨) .

(٢) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى حـ١ص٣٢٧ — ٣٢٩، المدنى : المسلمون فى صقلية وإيطاليا ص ٣٠ — ٣١ د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٠٨ .

(٣) إبن عذارى : البيان المغرب حـ٢ ص ١٣٠ ، د. عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٢١٠ وبعدها ، د. الحجى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

استطاع الأسطول الأندلسى الناشىء الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم . وقد قاموا بعد ذلك بعدة غارات على الأندلس فى سنة ٢٤٥ هـ ، سنة ٢٤٧ ، سنة ٣٥٥ هـ ، سنة ٣٦٠هـ، سنة ٣٦١ هـ (٤) .

غير أن عددا كبيرا منهم لم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم اثناء الإنسحاب ، فوقعوا أسرى فى يد المسلمين ، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام ، وسكنوا ضواحى إشبيلية ، وأختلطوا بأهلها ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات ، وصناعة الأجبان - التى يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم . (٤)

فيحدثنا المقرى نقلا عن المؤرخ الحجارى - نسبة إلى وادى الحجارة - « أن مدينة شريس - وهى بنت إشبيلية وواديها وابن واديها - اختصت بإحسان الصنعة فى المجبنات وطيب جبنها يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم » . (٥)

هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحى السياسية والحربية ، فضلا عن النواحى الاقتصادية والاجتماعية لمن اقام منهم بالأندلس .

فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين فى الأندلس إلى اهمية

---

(٤) د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٣١ ، د. الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٢٠

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٤ والمجبنات : نوع من القطائف المحشوة بالجبن تقلى بالزيت . (د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٣٣ هامش ١) .

إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان ، فارسل الأمير عبدالرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) سنة ٢٣٠هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال . (٦)

كما أن هذه الغارات قد لفتت الانظار ونبهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل الأندلس ، وبناء اسطول قوى يستطيع حمايتها من المعتدين ، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة فى تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية ، واقام نقاطا للحراسة على طول الساحل الغربى للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرابطون من المجاهدين ، واهتم بانشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنيقات والحراقات . وكان هذا ميلادا للبحرية الأندلسية التى استطاعت فيما بعد ان تسيطر على غرب البحر المتوسط (٧) .

كما تأثر الأندلسيون بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها

---

(٦) تحدثت عن هذه السفارة بالتفصيل فى بحثى عن السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية ص ١٩ — ٢٠

(٧) إبن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٦٧ . يرجح أن يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى إستخدام الحراقات أو النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التى ترمى سنة ٥١٦م ، ثم ادخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينكوس) وكان من اصل سورى ثم اقام فى القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة اثناء حصار المسلمين لها سنة ٦٠ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ، ونتج عنه إنسحاب الأسطول العربى عن المدينة (راجع

=

فى نهر الوادى الكبير إستعدادا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكان يطلق عليها اسم القراقير (٨) .

ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم فى إشبيلية واستقروا قد ساهموا بخبراتهم فى صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة .

وقد جاء فى كتاب الجغرافية — المنسوب إلى أبى عبد الله محمد ابن أبى بكر الزهرى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى — « أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهل الأندلس يسمونها القراقير وهى مراكب كبار بقلوع مربعة ، تجرى إلى أمامها وإلى خلفها ، وكان يخرج فيها أقوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر ، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم ، وكانوا أقل ما يخرجون فى أربعين مركبا ، وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه فى البحر ويسبونهم ويأسرونهم » . (٩)

كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت آثارا فى النواحى الأدبية والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين ، وظل صداها مسموعا فى الأدب والتاريخ الأندلسى زمنا طويلا .

=

لويس أرشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١٤) . وكان هذا السلاح مكونا من مركب كيميائى من النفط والكبريت والقار تقذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفىء بالماء بل يزداد اشتعالا . (د. إبراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦ ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص ٢٥٢) .

(٨) البيان المغرب جـ٢ ص ٣٥٦ والقراقير جمع قرقور وهو السفينة الطويلة العظيمة (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٧٣٦) .

(٩) كتاب الجغرافية ص ٢١٥ رقم ٢٤٠ نقلا عن د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٨ .

الفصل الثانى

العلاقات بين عناصر السكان



أولا : الاختلاط بين الأجناس

كان فتح العرب للأندلس ـ كغيرها من البلـدان الأجنبية ـ سببا مهما فى حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم ، إختلاط فى الأنساب والدماء ، واقتباس فى النظم والعـادات والتقاليد ، وامتزاج فى العقيدة الدينية ، وامتزاج فى اللغة ، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية ، كما تعلمها كثير ممن لم يدخل فى الإسلام لأنها غدت لغة العلم والثقافة ، وسمى هـؤلاء بالمستعربين . Losmozarebes

وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هـذه العمليـة من اهمها : التعاليم السمحة والقيم النبيلة التى جـاء بها الإسلام ، وأدت إلى دخول الكثيرين فيه ، ثم الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد فى السـكنى والجوار ، والتعامل فيما بينهم فى كثير من نواحى الحياة . (١)

وقد أدت الفتوحات التى قام بها المسلمون فى الأندلس إلى دخـول الكثير من العبيد والإماء فى ملكهم بعد ان اصـبحوا اسرى لهم ، وبذلك اصبح لكل جندى منهم عـددا من الرقيق يستخدمهم فى قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء منهم فيصرن امهات أولاد ، ونتج عن ذلك جيل مولد لـه صفات مختلفة تجمع بين الجنسين ، وحدثت بعـد ذلك عمليـة اختلاط بشرية واسعة النطاق ، نظرا لأن المسلمين عندما دخلـوا الأنـدلس لم

---

(١) احمد امين : فجر الإسلام ص ٨٥ ط١٢ مكتبة النهضـة المصريـة سـنة ١٩٧٨ م .

يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم(٢) ، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين ، ولذا فانهم إضطروا إلى الإرتباط بعلاقات المصاهرة مع اهل هذه البلاد وخاصة الإسبان ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما ادى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين .

ولعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات — وإن كان يبدو فى بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال — يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الإجتماعية الهامة التى كان لها اثرها الكبير فى نواحى شتى .

ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات ، فقد تزوج من (إيخلونا) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتى تسميها المصادر العربية ايله وتكنيها بأم عاصم(٣) .

وحذا حذوه الكثير من العرب مثل زياد بن النابغة التميمى الذى تزوج من إحدى أميرات إسبانيا(٤) ، وعيسى بن مزاحم الذى تزوج من سارة القوطية بنت المند بن غيطشة فى دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أرطباش ، ثم قدمت معه إلى الأندلس

---

(٢) هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة ، مثل طارق بن زياد الذى ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها فى الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها ، وموسى بن نصير الذى اصطحب معه زوجاته وبناته كما يفهم من كلام صاحب الإمامة والسياسة (حـ١ ص٨١).

(٣) تذكر بعض المصادر اخرى انها كانت إبنة لذريق (انظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤ ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥) .

(٤) البيان المغرب جـ٢ ص ٢٣ ، أخبار مجموعة ص ٢٠

بعد زواجهما وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق (٥) . ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسى المشهور بابن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ت٣٦٧هـ) وقد روى ذلك فى كتابه (تاريخ إفتتاح الاندلس) .

وبعد وفاة عيسى بن مزاحم سنة ١٣٨ هـ تزوجت سارة من عمير ابن سعيد فولدت له ولدا يدعى حبيب وهو جد بنى سعيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرز وهم أشراف ولد عمير باشبيلية(٦) .

كما تزوج القائد البربرى (مونوسه) — الذى كان حاكما على شرطانية شمال إسبانيا واشترك مع القائد العربى عبد الرحمن الغافقى فى الفتح جنوب فرنسا — من ابنة الدوق (أودو) حاكم إقليم أكيتانيا وتدعى (لامبجييه أو مينيين)(٧) .

كما تزوج الأمير الأموى عبد الله بن محمد والى قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو (انيجا) المعروفة باسم در — إبنة ملك نافار (فرتون ابن غرسيه) المعروف بالأنقر — والذى وقع فى أسر المسلمين ، وظل فى قرطبة نحو اثنين وعشرين عاما — وانجب منها إبنه محمد والد عبدالرحمن الناصر ، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة (ت ٢٨٣ هـ) — الذى تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله — من ابنة رومانوس قومس جنوب اسبانيا زمن القوط وتكنيها المصادر العربية بأم الوليد

---

(٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٧) انظر : تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن ابن عيسى المحدث وقاضى الجماعة بقرطبة ٣٩٤ - ٣٩٥ هـ(٨) .

ولذا كان الناصر - كأكثر بنى أمية من المولدين بالأندلس - يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين ، ولذلك لقبوا فى الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر(٩) .

كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من بشكنسية تدعى (أورورا) وتعرف بصبح فى المصادر العربية ، وهى التى ولدت له ابنه هشام المؤيد الذى تغلب عليه المنصور بن أبى عامر ، واستطاع أن يصل عن طريقها إلى السلطان والنفوذ(١٠) .

كما تزوج المنصور بن أبى عامر من ابنه ملك نافار (سانشو غرسية) المعروف بشانجة ، وقد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم (عبده) ، وانجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول فى المصادر العربية . حيث أطلقت عليه والدته اسم (سانشويلو) أى سانشو الصغير تكريما لذكرى والدها(١١) .

وتزوج مطرف بن موسى القسوى حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة

---

(٨) ابن حيان المقتبس ج ٢ ص ٧٦ ، ١٨٢ ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٠٣ ترجمة د. حسين مؤنس ، الصلة ص ٣٠٩ ، ترتيب المدارك ص ٢ - ٤ ، ص ٦٧١ .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥١ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٤ - ٢٥ ، مجلة عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، مجلة عالم الفكر ص ٦٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ ، اعمال الأعلام ج ٢ ص ٦٦ .

وما حولها) من الأميرة (فلشكيطة) بنت سانشو ملك نافار ، كما تزوج اخوه موسى من أوربه بنت غرسية ابن ونقه ملك نافار أيضا(١٢) .

وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأمراء والخلفاء والقادة ، فلا شك أن الكثيرين من العامة والجند قد فعلوا ذلك ، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المختلط وكثرته ، ما ذكره المراكشي حين قال : « وملأ المنصور بن أبى عامر الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم . وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى وذلك لرخص اثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به ، ولولا ذلك لم يتزوج احد . بلغنى انه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينار عامرية »(١٣) .

وفى هذا المعنى أيضا يذكر ابن عذارى : أنه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين (مات الجلاب ، مات الجلاب)(١٤) وهى كلمة كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس (بائع الرقيق) ، واستعملت

---

(١٢) انظر عن نسب اسرة بنى قسى جمهرة انساب العرب ص ٥٠٢ تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف بمصر ، المختار من عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣ .

هنا بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبايا فى غزواته .

وقد حبب العرب والبربر فى هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات من جمال وبياض بشرة ، وصفرة شعر وزرقة عيون وهى صفات احبوها كثيرا لأنها كانت جديدة عليهم »(٩) .

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشا على الإسلام ، وتعلم العربية ، واصبح يؤلف على عهد بنى امية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنه تكونت جماهير الأندلسيين(١٠) .

وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة : منها : الجمال والذكاء والشجاعة ، وكان له أثره الكبير فى تاريخ الأندلس وحضارتها .

---

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢ ط ٤ مكتبة النهضة سنة ١٩٦٦ م .

(١٠) فى بعض الأحيان القليلة او النادرة كانت تحدث زيجات عكسية ، حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الأسبان بزوجات لبعض المسلمين ، مثل زواج ونقة بن ونقة ملك نافارا من أرملة موسى ابن فرتون بن قسى أمير الثغر الأعلى بعد وفاته ، وزواج احد حكام جليقية من جميلة اخت محمود بن عبد الجبار المصمودى البربرى الذى اعلن الثورة فى ماردة سنة ٢١٣ هـ على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء إلى جيليقية وبقيت أسرته هناك ، وقد أنجب منها ولدا صار أسقفا على مدينة شانت ياقب (سانت يعقوب) (أنظر : المختار من عالم الفكر ص ٩٧) .

ونظرا لأنه لا يجوز لمسلمة ان تكون زوجة لغير مسلم فلابد وأن امثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهن النصرانية بعد زواجهن بالمسلمين ، او انهن اجبرن على التنصر ، او تحولن إلى المسيحية .

وقد احتفظ كثير من ابناء هذا الجيل من المولدين باسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو انجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن انجلين احد زعماء المولدين بإشبلية فى عهد الأمير عبد الله(١١) وبنو شبرقة ومنهم على بن حسن المعروف بابن شبرقة (ت حوالى ٣٠٠ هـ) وكان من اهل بطليوس وبنى بها مسجدا على نفقته(١٢). وبنو يليان (جوليان) حاكم سبته أيام الفتح، ومنهم أبو عمر احمد بن سليمان بن ايوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن اليلكايش ابن اليان القوطى (ت ٣٨٨ هـ) وكان من مشاهير علماء قرطبة(١٣)، وكذلك بنو الجريج (جورج) وبنو لنتق، وبنو القبطرنه (كابتورنو) أى الراس المستدير، وبنو مردنيش (مارتنيز)، وبنو غرسية ملوك البشكنس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الشعوبى الأندلسى المشهور، وبنو ردلف (رودلف)، وبنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى (سرقسطة) فى عهد بنى امية، وكان جدهم فرتون قومس الثغر فى عهد القوط(١٤).

وهناك الكثير من المولدين ممن ينتسبون إلى اسر شهيرة ذات

---

(١١) ابن حيان: المقتبس ص ٧٤ نشر ملشور انطونية باريس سنة ١٩٣٧ م.

(١٢) ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٢ ترجمة رقم ٩١٨.

(١٣) ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ترجمة رقم ٥٦٦، أعمال الأعلام ج ٢ ص ٤٩.

(١٤) انظر ابن حيان: المقتبس ص ١٦، ٧٤.

أصـــول اسبانية نذكر منهم : أبا الفتح نصر بن أبى الشمول (ت ٢٣٧ هـ) الذي تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة(١٥) .

وأيوب بن عبد ربه السرقسطى الأصـــل وكان من المسالمة المولدين تولى قضـــاء أشبيلية(١٦) ، وعبد السلام بن بسيل الرومى وكان أحـــد مشاورى ووزراء عبد الرحمن الداخـــل . والعلامة الحافظ بقي بن مخـــلد (ت ٢٧٦ هـ) الذى يرجـــع إلى أصل أســـبانى كذلك(١٧) . والأقشتين محمد بن عاصم (ت ٣٠٧هـ) وهو أول من ألـــف فى طبقـــات الكتـــاب بالأندلس ، والفقيـــه أبو محمـــد الأصيلى (ت ٣٩٢هـ) ، وكان جـــده من مسالمة أهـــل الذمة وعمل أبوه وراقا للحكم المستنصر ، وأصـــله من شـــذونة أو من الجـــزيرة الخضراء(١٨) . وكذلك أحـــمد بن عبـــد الله القرطبى ، وهـــو ابن أخى قـــومس كاتب الأمير محمـــد وقـــومس هـــو ابن انتنيـــان بن يليـــانة النصرانية ، أسلم بعـــد ســـنة ٢٤٦ هـ واشـــتهر بكثرة العبـــادة حتى ســـمى بالســـجاد العبـــاد حمـــامة المسجد (مسجد قرطبـــة الجـــامع)(١٩) . وكان لـــه ابن يسمى عمر ابن قومس الكاتب ت ٢٩٨هـ(٢٠) .

وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبـــابة (ت ٣٣٠ هـ) المعروف بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام

---

(١٥) جمهـــرة انساب العرب ص ٩٦ .

(١٦) التكمـــلة جـ ١ ص ١٩٨ ترجمـــة ٥٢٣ .

(١٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٧ ، ٥١٨ ، جـ ٣ ص ١٦٨ ، بغية الملتمس ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ترجمـــة ٥٨٤ .

(١٨) ترتيب المدارك ص ٣ — ٤ ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٣ .

(١٩) أنظر : تاريخ علمـــاء الأندلس ص ٩ ترجمـــة ١١١٣ ، الخشنى : قضاة قرطبة ص ٧٦ .

كمحمد هـذا واخيه احمد وعمر(٢١) ، وابو المطرف بن فورتشي (٣٨٦) الذى تولى قضاء سرقسطة وكان منهـا ، وابو وهـب منتيل بن عفيـف (ت ٣١٧ هـ) ، وكان من أهـل وشقة ، وابو عمر بن قزلمـان القرطبى (٣٧٧ هـ) . وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم الأندلسية . وحسبنا أن نتصفح هـذه الكتب لنجـد العـديد من أسماء الأمراء والقادة والفقهاء والكتاب التى تدل على أصـل أسبانى .

وقد كان من شأن كثرة أبنـاء هـذا الجيل المولد انتشـار اللغـة الرومانثية (اللاتينيـة الحـديثة) بين الأندلسيين ويسميها المؤرخـون العرب العجمية أو اللطينية . وعن طريقهم تداخلت العربيـة والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات(٢٢) .

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالاسلام ، ويتحدثون العربية ، ويتخـذون غالبـا نمط الحياة التى يتخـذها المسـلمون الوافـدون على الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تماما باعتبارهم منحدرين من أصول أسبانية فى الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية ، ولذلك فقد تعصب كثير منهم لأصلهم الأسبانى رغم إسلامهم ، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى ضد العرب ، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير عبد الله ، وثار بعضهم فى عدة أماكن من الأندلس مثل ثورة عمر بن حفصون فى ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجليقى فى ماردة وبطليوس الذى « كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » وثورة يحيى

---

(٢١) انظر تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٣٧ ، جـ ٢ ص ٥١ جـ ٢ ص ٣٥ تراجم رقم ١١٥ ، ١٣٣١ ، ١١٨٩ ، وجـذوة المقتبس ص ٩٨،٤٧ .

(٢٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٤٣ ، لطفى عبد البـديع :

(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، الإسلام فى إسـبانيا ص ٢٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٥٠ .

ابن بكر بن ردلف (رودلف) فى شنت مرية باشكونية(٢٣) .

وقــد تألفت منهم جماعات كبيرة فى مدن الأندلس الهــامة مثــل طليطلة التى كانت من أهم مراكز تجمعهم ـــ لأنهــا كانت عاصمة إسبانيا القــديمة ـــ إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هــذه المدينة الكثير من الثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الأموية فى قرطبة . ومن أخطر هــذه الثورات تلك الثورة التى قامت فيها فى عهد الحكم الربضى سنة ١٨٩ هـ(٢٤) وكان يتولى أمرها أمراء مولدين مثل عمروس الوشــقى ولب بن طريبشة . وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معاقلهم ، وكان المولدون فيها يعملون غالبــا بالتجارة فجنوا أرباحا طائلة ، وكان كثير منهم من الأثرياء الذين أنفــوا من العصبية العربية فتعصبوا ضــد العرب لبنى جنسهم(٢٥) .

* * *

(٢٣) ابن حيــان المقتبس ص ١٥ ـــ ١٦ ، د. السيد ســـالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٢٩ .

(٢٤) عنها راجع د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ ، د. محمد زيتون : المسلمين فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٩٣ وبعدها .

(٢٥) د. السيد ســـالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ .

ثانيا : الامتزاج بين الثقافات

انتشار اللغة العربية بين الأسبان :

وإذا كان هناك امتزاج جسمي عن طريق الزواج المختلط فقد وجد هناك تلاقح بين اللغات والثقافات في الأندلس وتأثير متبادل بينها ، واحتكاك ثقافي أدى إلى ظهور الحضارة الأندلسية بخصائصها المتميزة .

فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الذين سموا (بالمسالمة) ، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإسبان الذين عاشوا بجوار المسلمين ، وأخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية ، وتعلموا اللغة العربية وسموا (بالمستعربين) ، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختان ، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير ، واتخذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية . كما اتقن الكثيرون منهم اللغة العربية .

وليس أدل على ذلك من تلك الصيحة التي أطلقها القسيس الفارو القرطبي سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م حيث كتب رسالة سماها (الدليل المنير) ينتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الأسبان في الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول : « إن إخواني في المدن يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وقصصهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا .

وأين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة

إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها ... الخ »(١) .

ويقول (دوزى) : هجر اهل اسبانيا اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك (يقصد الفارو القرطبى) .

ويقول نيكلسون : فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من اهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل على نشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى بعد ان استولى الفونسو السادس عليها سنة ١٠٦٥م .

ويقول توماس أرنولد : إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض اجزاء اسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد اصبح من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الاسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين ، واقبل الناس على دراسة الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر فى حماسة وشغف(٢) .

---

(١) أنظر : د. الحجى : التاريخ الاندلسى ص ١٧٠ — ١٧١ ، اندلسيات جـ ٢ ص ٥٩ . د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٢ — ٣٣ ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .
وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصبين الذين اسهموا فى إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام فى خلافة عبد الرحمن الأوسط والتى سميت بحركة الاستشهاد او الانتحار .

(٢) احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ، توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢ .

وهكذا زحزحت اللغة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإسلام المسيحية وصارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة كما صار الإسلام هو الدين الرسمي كذلك .

وإذا كان للإسلام اثر كبير في انتشار اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم ، فقد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والأسبان دور في ذلك أيضا . وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هناك لغة عامية تستخدم في الحياة اليومية بعيدا عن العلم والأدب : فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبرى (أواخر القرن الثالث) الذى يقال إنه اخترعها « كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة »(٣) .

كما ذكر ابن سعيد المغربى (القرن السابع الهجرى) أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية . حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبين المشار إليه بعلم النحو وهو يقرىء تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى في لسانه »(٤) .

وهذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلماء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى .

وكما كانت الفصحى الأندلسية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العناصر المختلفة ذات خصائص محلية ميزتها عن فصحى بلاد المشرق العربى ، فكذلك كانت العامة الأندلسية ذات سمات محلية حتى غدت عسيرة الفهم على الكثيرين(٥) .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٥٨٤ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٦ .
(٥) من هذه السمات انظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٣ — ٣٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ — ٧١ .

انتشار الإسـبانية بين مسلمى الأندلس :

وقـد كان من الطبيعى نتيجة هـذا الاختلاط الكبير بين العـرب والإسـبان أن يتأثر جيل المولدين بأماتهم الإسبانيات فى لغتهم وعـاداتهم وطرائق معيشتهم ، وإذا كانت اللغـة العربية قـد انتشرت بين الأسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغـة الأسبانية العامية بصفة خاصـة قـد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضا وهى التى يسميها العـلماء « الرومانثية (Romance) وهى لهجـة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم ، ويسميها العرب الأعجمية أو اللطينية(٦) .

ومـما يدل على انتشار هـذه اللغـة على نطـاق واسع ما ذكره ابن حزم عنـد حـديثه بنى بلى بالأندلس . حيث قـال وكأنه يتعجب « وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم »(٧) . وهـذا دليـل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية .

كما يذكر الخشنى : أن أحـد القضاة شـكاه بعض العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسـط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شـيخ أعجمى اللسان يسمى (ينير) مقـدما مقبول الشهادة فسئل عن القاضى فقال بالأعجمية : ما أعرفه إلا أن سمعت النـاس يقولون : إنـه إنسـان سـوء (باللفظ العجمى) فلمـا سمع قـوله الأمير عجب من لفظه وقال : ما أخرج مثل هـذه الكلمة من هـذا الرجل إلا الصـدق وعزل القـاضى عن القضـاء(٨) .

---

(٦) د. أحمـد هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ ، مجـلة المختـار من عالم الفـكر ص ١٠٠ .

(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ .

(٨) قضـاة قرطبـة ص ٩٦ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ . ومن مظاهر تأثير اللغة الأسبانية على الأسماء العربية فى الأندلس إضافة المقطع الأخير المكون من الواو والنـون بالأسبانية On للأسماء للدلالـة على التضخيم والتعظيم مثل حفص وحفصون ، وخالد وخلدون ... الخ .

ويذكر المقدسى : انه التقى فى موسم الحج ببعض الأندلسيين فوجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة أخرى اعجمية(٩) .

ويروى ابن هشام اللخمى : انه نبت سن لأحد ابناء الأمير عبد الرحمن بن الحكم فوصفوا له طعاما يتناوله الأطفال عند ذلك فقال لوزرائه : هذا الذى يسميه الناس بالأعجمية (الذنتينية) هل روى عن العرب فيها شيىء ؟(١٠) .

ويذكر ابن عذارى أن الوزير الشاعر ابا القاسم لب هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأبيات أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

قال امين الله فى خلقه
لى لحية ازرى بها الطول
لولا حيائى من إمام الهدى
نخست بالمخس شوقول

وكان ابو القاسم عندما وصل إلى قوله شو سكت فقال له الناصر قول فاتمها على نحو ما اضمر وقال له : انت هجوته يا مولاى — كانه كان يتصد ذلك — فضحك الناصر وأمر له بصلة(١١) .

وهذا يدل على انتشار هذه اللغة العامية الإسبانية (الرومانسية) بين الكثيرين سواء من علية القوم أو العامة .

وفى الشعر الأندلسى كثيرا ما نجد الفاظا اسبانية وما يقابلها

---

(٩) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٤٠ .

(١٠) د. الأهوانى : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة ١٩٥٧ .

(١١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٧ وكلمة شوقول هى ترجمة للكلمة الاسبانية Su - Culo ومعناها الإلية أو اسفل الظهر . (المختار من عالم الفكر ص ١٠١) .

بالعربية إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على تمكن الشاعر من اللغة الأسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبى عامر حينما افتتح حصن لونة فى شمال أسبانيا ومعناه البدر :

وأنت الذى أوردت لونة قاهرا
خيولا سماء الأرض فيها نحورها
ويا ليت قوطا حين شاد بناءه
رآه وقد خرت إليك جوانبه
ويا ليت إذ سماه بدرا معظما
رآه فى كف العجاج مغاربه

وحين يتحدث عن أحد قادة الأسبان واسمه لوبث (لوبيز) ومعناه الذئب يقول :

كم من سمى له فيها وذى نسب
لم يدخر نابه عنه ولا ظفره(١٢)

وتعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الأندلسيين ، وهى ما يسمى بالشعر الشعبى . وقد استخدمت فيه ألفاظ عامية عربية وأخرى رومانسية ، ويعتبر هذا الفن من الشعر ثورة فى عالم الشعر العربى ، وحركة من حركات التجديد فيه حررته من كثير من قواعد العروض . حيث لم يلتزم فيه القافية الواحدة كالقصيدة ، وإنما اشتمل على قواف متعددة ولبس وحدته البيت الشعرى ، وإنما المقطوعة الشعرية

---

(١٢) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٩ ، ٢١ ، ٤١٨ المكتب الإسلامى بيروت ١٣٨٩ هـ .

التى تتكون من غصن وقفل . اى ان الموشحة عبارة عن أغصان واقفال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة .

ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعامية الدارجة أو بالأعجمية اى الإسبانية وأن تكون حارة محرقة ، حادة منفجة كما قال ابن سناء الملك المصرى .

كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان فتاة تتغزل فى الفتى على عكس القصيدة العربية التى نجد الرجل فيها هو المحب وهو الذى يتغزل .

كما أن الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامية او الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبنى عليها البقية . على عكس القصيدة الشعرية التى تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة :

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلين

انا قول قوقو

ليس بالله تذوقو

والخرجة هنا اسبانية (قوقو CuCo ومعناها الماكر) فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : انا أقول انت مكار ولن تذوق طعم قبلتى ، فاهتز لها وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته(١٣) .

---

(١٣) د. عبد العزيز الاهوانى : الأغنية الشعبية أصل التوشيح . مجلة المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧م ، د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ثالثا : النزاع بين عناصر السكان

لم يكن المجتمع الأندلسى بعد الفتح مجتمعا بسيط التركيب ، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة فى أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا . وكان هذا التباين وهذا التعدد فى وقت من الأوقات مظهرا من مظاهر القوة والثراء ، ولكنه كان يحمل فى نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال .

وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأول والأكثر أهمية فى ثراء ذلك المجتمع وازدهار حضارته ، والركيزة التى قام عليه فى الوقت نفسه .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الجماعات العربية والبربرية التى فتحت الأندلس ، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التى كانت تستوطن البلاد قبل الفتح . ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب والبربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة فى أصولها وعناصرها .

وقد اختلط هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون فى الأندلس قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم .

=

عن نشأة الموشحات والأزجال وتطورها فى الأندلس راجع :
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها .
د. الأهوانى : الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧ م
د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة رقم ٢١ .
الفرق بين الموشحة والزجل : ان الموشحة عربية ما عدا الجزء الأخير المسمى بالخرجة فهو عامى أو اسبانى ، أما الزجل فلغته عامية دارجة كلها تتخللها كلمات وعبارات اعجمية .

وبالرغم من ذلك فلم يكن هنـــاك اندماج تــام وامتزاج كامل بين العناصر التى وفـدت إلى الأندلس . فالعصبية العربية التى كانت ظاهرة فى المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى الأندلس وعملت عملها فى تفتيت وحدة العرب ، وتفريقهم إلى شـيع وأحزاب . مـا بين مضريين ويمنيين يتنازعـون على الملك والرئاسـة ، وما بين بلديين وشـاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحـق بهـا (١) .

وكذلك لم يكن البربر وحـدة واحـدة فيما بينهم ، ووقـع نـزاع شـديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فلكل منها طابع وأهـداف واتجاهات .

ويمكن القـول : إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرا واستمر استمرارا يكاد يكون متصلا ، ولم تكن تهـدأ إلا تحت ضغط القـوة ، وما تكاد تهـدأ حتى تبـدأ من جـديد عندما تضعف هـذه القـوة . بحيث يمكن القـول : إن هـذه الفـتن والاضطرابات والحروب قـد صحبت تاريخ المسلمين فى الأندلس من بدايته إلى نهـايته إلا فى عهـود بسـيطة شـهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران .

ولقد تميزت الأندلس من بين الأقطـار التى فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والقلاقل من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تثور حينا فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حينا فتعود الأندلس إلى وحـدتها وقـوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت فى النهاية لتؤدى إلى غروب شمس الإسـلام من الأندلس(٢) .

---

(١) أنظر د. حسين مؤنس : معـالم تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٤٢ وبعـدها ، أحمـد أمين : ظهر الإسـلام جـ ٣ ص ١ .
(٢) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسـلامى جـ ٤ ص ٣٧ .

ويمكن أن نلخص هـذه العـوامل فيما يلي :

١ ـ عامل جغرافي : يتمثل في بعد الأندلس عن بلاد المسلمين في المشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان من دول شمال إفريقية عند الاستنجاد بها في مرحلة الخطر .ولذلك كان من رأي عمر بن عبد العزيز أن يعود المسلمون منها لانقطاعهم من وراء البحر عن اخوانهم(٣) . فالعامل الجغرافي كان بعيد الأثر في غربة الإسلام بشبه الجـزيرة الأندلسية .

٢ ـ عامل قـومي : فالمسلمون في الأندلس كانوا بإزاء امة مقاتلة تعتبر من اكثر شعوب أوربا تعصبا للمسيحية وهـم الأسبان الذين سيطر عليها هدف واحـد هو إخراج المسلمين من الأندلس بأى وسيلة والثـأر لهزائمهم منهم(٤) .

٣ ـ عامل ديني : وهـو خشية الأوربيين من الزحف الإسـلامي حتى لا يسيطر على بقية أوربا فوقفوا يؤيدون الأسبان بكل قـوة للدفاع عن المسـيحية من ناحية وحراسـة أوربا من المسلمين الغزاة من ناحية اخرى ، كما فعلوا بعـد ذلك مع الأتراك العثمانيين(٥) .

٤ ـ الخـلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين في الأندلس وبخاصة بين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر .

٥ ـ كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والتي اشاعت الفـوضى في البـلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر . ومثال ذلك أن اسرة بربرية واحـدة هي اسرة فرتون بن موسى ثار منها ثمانية في مدينة واحدة هي سرقسطة(٦) .

---

(٣) تاريخ افتتـاح الأندلس ص ٢٦٠ ، معـالم تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٤٣ .
(٤) د. لطفى عبد البديع : الإسـلام في اسبانيا ص ١٣ .
(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٢٩ .
(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٣٨ .

٦ — الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والخلفاء والذى بدأ مبكرا منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر فى جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير .

٧ — استعانة المسلمين المتحاربين فى الأندلس بأعدائهم من المسيحيين الأسبان والأوربيين لقتال إخوانهم ، مما جعلهم يفنون بعضهم بعضا وعدوهم ينتهز الفرص للإجهاز عليهم . وقد أصاب ابن الشباط حين قال : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا وإنما خدلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وقلة الإنصاف)(٧) .

وكذلك الحجارى حين ذكر أن شارل مارتل لما شكا إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال : « لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ، ويأخذوا فى التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكنون منهم بأيسر مجهود ، ويعقب المقرى على ذلك فيقول : فكان والله ذلك(٨) .

٨ — يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية فى الأندلس كانت تميل غالبا إلى العيش والتكتل فى مناطق خاصة بها ، فمثلا كان العنصر العربى الغالب على قرطبة ، والعنصر البربرى الغالب على غرناطة ومالقة وقرمونة ، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا أثره البالغ فى الميل إلى الاستقلال والخروج مما كان

---

(٧) تاريخ الأندلس ص ٧٤ ، موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٣٧ .
(٨) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٦٤ .

يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبــلاد(٩) .

ويرى د. حســين مؤنس : أن الاندلسيين كانت تعــوزهم روح الترابط والوحــدة بسبب تفرقهم فى شبه الجزيرة ، وان هــذا قــد ادى إلى تمزق البــلاد بسهولة(١٠) .

والحقيقة أن تفــرق السكان لا دخــل لــه بالوحــدة السياسية لانها تتوقف على قــوة الحــكومة المركزية أو ضــعفها وكل ما فى الأمر ان طبيعة البلاد الجغرافية (الجبلية) قــد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصــعب اجتيازها مما قسم الأندلس إلى أقــاليم شــبه منفصــلة ، وساعد على الميــل إلى النزعة الانفصــالية فى كثير من الأقاليم التى كانت تسكنها عناصر غير عربية تغــذيها عــوامل قومية فى كثير من الأحيان .

وأمام هــذا الخليط العجيب من الأجناس تكتلت العناصر العــربية والفت نوعا من العصبية وظهرت آثار ذلك فى صراع العرب مــع البربر من جهــة ومــع المولدين من جهــة اخرى .



(٩) د. السيد ســالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٤ .

(١٠) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٤٢ .

النزاع بين العـــرب وبعضهم

لم يمض وقت طـــويل على استقرار المسلمين فى الاندلس بعـــد فتحها ، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التى أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمنية .

وقـــد لعبت سياسة بعض الولاة فى الاندلس دورا كبيرا فى إذكاء نيران هـــذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه .

فكان إذا ما تولى شـــخص من القيسية قـــدم قـــومه وآثرهم على اليمنية ممـــا يؤدى إلى إثارة النزاع والقلاقل والفتن وعلى ســـبيل المثال : فقـــد تعصـــب كل من عنبسة بن ســـحيم الكلبى ، وعـــذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن ســـلامة العاملى خلال مدة ولايتهم التى استمرت سبع سنوات (شـــوال ١٠٣ هـ ــ ربيع الأول ١١٠ هـ) لليمنية ممـــا أوغـــر صـــدر القيسية(١) ، وامتلأت نفـــوسهم المـــا واصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولمـــا تولى أمر الأندلس ولاة منهم مثل : حـــذيفة بن الأحـــوص القيسى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنـــانى ،

---

(١) كانت موقعـــة مرج راهط سنة ٦٤ هـ بين جيـــوش الأمويين بقيـــادة مروان بن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيـــادة الضحاك بن قيس الفهرى من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمنية أنصار الأمويين وبين القيسية أنصار ابن الزبير ، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعين الفا من قيس وقبائلها ، مما أوغر صـــدور القيسية ، فكانوا ينتظرون الفرصـــة لتسوية حسابهم القديم مـــع اليمنيـــة .

(المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٠ هامش ٢ ، المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجـــة ص ٣٤٠ هامش ٢) .

ومحمد بن عبد الله الأشجعى لقى اليمنيون خلال عهودهم بلاء شديدا .

وقد اشتد الهيثم مع اليمنية شدة أثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وبلغ من شدته أن أنكر عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك — رغم أنه قيسى — وعزله وعاقبه عقابا صارما . وبدأت منذ عهد الهيثم خصومة القيسية واليمنية صريحة ، وإن لم تظهر آثارها الخطرة نظرا لانشغال المسلمين حينئذ بالفتوح فيما وراء جبال البيرنيه (البرانس) .

وقد تجلت حروب العصبيات والصراع المرير بين الفريقين فى ولاية عقبة بن الحجاج السلولى وظلت تخفت حينا عندما ينشغل المسلمون فى الفتح تلبية لداعى الجهاد فيتناسى العرب ما بينهم من عصبيات ، وتشتد أحيانا أخرى عندما يبدأون فى الاستقرار(٢) .

وقد أدى ذلك بالضرورة إلى عدم استقرار الأوضاع بصفة عامة ، ودليل ذلك انه تولى الأندلس خلال ما يسمى بعصر الولاة (٩٥ — ١٣٨هـ) عشرون واليا فى فترة تقل عن نصف قرن ، منهم من مكث نحو عدة أشهر ومنهم من استمر بضع سنوات ، وبعبارة أخرى فإن متوسط حكم الوالى منهم كان نحو سنتين ، وهذا وحده يعطينا

---

(٢) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ١٩١ وبعدها . د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٥ وبعدها .

(٣) اصطلح معظم المؤرخين المحدثين على تحديد بداية هذا العصر بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى ذى القعدة سنة ٩٥هـ . بينما ذهب البعض إلى اعتبارها تبدأ بولاية طارق بن زياد منذ الفتح (د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠) . غير أننا نعتبر ان طارق وموسى هم فاتحو الأندلس وأن أول الولاة هو عبد العزيز الذى أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل عودته إلى المشرق .

فكرة عن الاضطراب وعدم الاستقرار الذين سادا الأندلس فى هذه الفترة إذا ما استثنينا فترات قليلة حاول فيها بعض الولاة إشاعة الأمن والاستقرار(٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن المسلمين لم يبذلوا جهودا فى مواصلة الفتوحات كما يعتقد البعض ، وأن كل ما بينهم كان نزاعا على السلطة والنفوذ أو صراعا على المصالح فهناك جهود بذلت ، وهناك محاولات لنشر الأمن والاستقرار والعمران . إلا أن هذه النزاعات قد استغرقت كثيرا من الجهد والوقت ولو أنها وجهت ضد أعداء المسلمين ، وفى الفتح ونشر الإسلام لكان ذلك أجدى وأنفع ، ولكنها جذبت الكثيرين فى تيارها مما كان لها آثارها السيئة والخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين فى الأندلس . ولا نستغرق فى تفصيلات هذا النزاع الذى حدث فى عصر الولاة وإنما نوجز الحديث عنه فى خلال حكم بنى أمية .

لقد استغل عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) هذا الأوضاع السائدة من العصبية والاضطرابات حتى يصل إلى هدفه فى إعادة دولة آبائه وأجداده مرة أخرى فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق(٣) فأخذ فى مراسلة موالى الأمويين بالأندلس الذين نشطوا لذلك وحاولوا استمالة الصميل بن حاتم زعيم القيسية لنصرة عبد الرحمن،

---

(٤) أنظر نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠ وبعدها ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٩ ، احمد امين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٥ .

(٥) يرى ابن عذارى رأيا فريدا حين يذكر أن دولة بنى امية لم تنقطع وأن دولتهم فى المشرق اتصلت بدولتهم فى المغرب حتى سنة

ولكنه ابدى ترددا فلما يئسوا من مناصرة ربيعة ومضر ، عملوا على جذب اليمنية لمناصرته .

وقد وجدها اليمنيون فرصة سانحة للأخذ بثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة شقندة جنوبى قرطبة سنة ١٣٠ هـ(٦) ولاسترداد مكانتهم التى فقدوها .

=

٤٥٤ هـ ويبنى رايه على ان عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية من قبل بنى امية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الاندلس الذى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فى عهده ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة وفائدة عجيبة (البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩) ، وكان من الممكن أن يعتد بهذا الراى لو أن يوسف تنازل لعبد الرحمن وسلم إليه إمارة الأندلس ، ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على ان الدولة الأموية قد انتهت بالمشرق وأن عبد الرحمن هو الذى استطاع بجهوده إعادتها بعد ست سنوات من السقوط (١٣٢ — ١٣٨ هـ) . (المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٤٠) .

(٦) يروى المؤرخون فى سبب هذه المعركة أن رجلين اختصما عند أبى الخطار اليمنى والى الاندلس احدهما يمنى والآخر مضرى ، فقضى ابو الخطار لليمنى ، فاعتبر المضرى ان ذلك الحكم غير عادل فشكا إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم فذهب ليكلم ابا الخطار فى شأن الرجل واشتد الجدال بينهما حتى اغلظ ابو الخطار للصميل فى القول وامر جنده باخراجه وضربه فخرج من مجلسه وقد مالت عمامته فلما سأله البعض : ابا حوشب ما بال عمامتك مائلة ؟ قال : إن كان لى قوم فيسيقيمونها .

وكان ذلك سببا فى قيام المضرية بالثأر لزعيمهم فى تلك المعركة التى كان من نتائجها عزل ابى الخطار وتوليه يوسف بن عبد الرحمن الفهرى مكانه . (الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٨٦ ، الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٨١ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٢) .

يقول ابن عذارى (وكانوا قوما قد وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثارهم)(٧) .

فأبدوا استعدادهم لمناصرته بزعامة ابى الصباح اليحصبى شيخ اليمنية فى غرب الأندلس وعلقمة الجذامى ، وابى علاقة الجذامى ، وزياد بن عمر الجذامى ، وغيرهم من زعماء اليمنية ولم ينضم إلى عبد الرحمن من المضرية سوى الحصين بن الدجن العقيلى لما كان بينه وبين الصميل بن حاتم المضرى من خصومة وتباعد(٨) .

وقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس واستطاع بمساعدة اليمنية وموالى الأمويين أن ينتصر على يوسف الفهرى فى موقعة المصارة سنة ١٣٨هـ ويتولى مقاليد الأمور فى الأندلس واعتبر اليمنية هذه الموقعة هزيمة للقيسية .

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار لعبد الرحمن ، فقد كان بداية لمسيرته الطويلة فى الكفاح والنضال فى سبيل بناء دولته وتوطيد

=

وكان زعيم اليمنية فى هذه المعركة يحيى بن حريث ، وكان زعيما المضرية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم . ويصف صاحب أخبار مجموعة هذه المعركة بانها « اول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة — ربما يقصد فى الأندلس — لم تكن حرب قبل هذه الوقيعة وهى الفتنة العظمى التى بها يخاف بوار بالأندلس إلا أن يحفظه الله » . (اخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٥٩) ، كما يصفها ابن عذارى بأنها « لم يعهد حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصفين » (البيان المغرب جـ ٢ ص ٥٣) .

(٧) البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٥ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٥ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

أركانها حيث كانت الأندلس تموج بالفتن والعصبيات التى لم تكن قاصرة على مضر واليمن فقط بل شملت كل قبيلة وكل بطن التفت حول زعاماتها ، وكانت لها مصالحها الخاصة ، وتمسكت باستقلالها ، وأبت الخضوع لأية سلطة عامة ، وشملت كذلك البلديين والشاميين(٩) . كما شملت البربر الذين حرصوا على الاحتفاظ بما حصلوا عليه خلال الفتن من أراض وضياع .

وكان هناك ما هو أشد من ذلك خطرا وهو الممالك النصرانية فى الشمال التى تخطت سريعا مرحلة الهزيمة وبدأت تستعد لحرب المسلمين ، وكذلك مملكة الفرنجة التى تمكنت من انتزاع ما فتحه المسلمون خلف جبال البيرنيه (البرانس)(١٠) .

قامت دولة عبد الرحمن الداخل على عون كبير من العرب اليمنيين ، الذين تصوروا أن الكلمة أصبحت لهم(١١) — معتقدين أنهم

---

(٩) يقصد بالبلديين العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس مع الفتح أو فى أثنائه وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الفتح ، ولهم قصب السبق ولذلك ينبغى ألا ينازعهم أحد فيه .

ويقصد بالشاميين العرب الذين قدموا فى طائعة بلج بن بشر سنة ١٢٤ هـ ورفضوا الخروج من الأندلس لما راوه من خيراتها وثرواتها وتم توزيعهم على كور الأندلس المختلفة . (انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ٦١ — ٦٣ ، ، المقتبس ص ٣٠٨ تحقيق د. محمود مكى ، د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٦ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس هامش ١٣ ص ٢٥٦ .

(١٠) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٤ ، د. منى محمود : المسلمون الأندلس ص ٥٧ .

(١١) يذكر ابن القوطية : أن أبا الصباح اليحصبى زعيم اليمنية قال لثعلبة الجذامى وكان من وجوه جند فلسطين بعد موقعة المصارة « يا ثعلبة هل لك رأى فى فتحين فى فتح ؟ قال له وكيف ذلك ؟

لا يزالون فى عصر الولاة ، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد يحاول ان يزيل آثار ما سبق ويجعل الجميع وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد فى مواجهة الأخطار الخارجية . فاعتبروا ذلك إنكارا لجهودهم ولذلك قاموا بثورات عديدة ضد من ساعدوه بالأمس فى الجزيرة الخضراء ، وفى إشبيلية وطليطلة وباجة وغيرها . وانضم الكثير منهم إلى ثورة العلاء بن مغيث التى قامت فى باجة سنة ١٤٦ هـ وكان يدعو إلى طاعة أبى جعفر المنصور وخلع عبد الرحمن بن معاوية(١٢) ولكن عبد الرحمن استطاع بعد جهود كبيرة القضاء على هذه الثورات(١٣) .

وللأسف الشديد فقد تعاون بعض الزعماء العرب مع شارلمان للاستيلاء على الثغر الأعلى (سرقطة وما حولها) مثل سليمان بن يقظان الكلبى (ابن الأعرابى) والى برسلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة انتقاما من عبد الرحمن الداخل ، وهان عليهم تعريض الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر فى سبيل أهواء وأحقاد ومطامع

=

قال : قد استرحنا من يوسف ، فاسترح بنا من هذا — يقصد عبد الرحمن الداخل — وتكون الأندلس قحطانية . ولكن ثعلبة أخبر عبد الرحمن بذلك ، فاحتاط وضم مواليه إليه ، وجعلهم حراسه ، ولما رأى اليمنية ذلك عدلوا عن خطتهم . وهذا يدل على تطلعهم للملك والسلطان (أخبار مجموعة ص ٣١) .

(١٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ ، أخبار مجموعة ص ١٠٢ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٧ .

(١٣) عنها انظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٩ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٢ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

شخصية . لولا ان اخفقت هذه المحاولات بفضل تماسك جمهور المسلمين تحت راية عبد الرحمن . وكانت مؤامرة المغيرة بن الوليد ابن معاوية سنة ١٦٨ هـ من سلسلة المؤامرات التى دبرت ضد عبد الرحمن — وكان ابن اخته — وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم زعيم المضرية ولكن تم اكتشافها ، وكذلك مؤامرة محمد بن يوسف الفهرى الذى أعلن الثورة فى قسطلونة شرق الأندلس وكان مصيره الهزيمة فى ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ(١٤) .

وفى عهد ابنه هشام ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى ومعه عدد كبير من اليمنيين وتمكن من الاستيلاء على طرطشونة فهزمه موسى بن فرتون القومس والى الثغر الأعلى واستطاع أن يستردها ، كما ثار مطروح بن سليمان الأعرابى بعد مقتل أبيه واستطاع أن يستولى على سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله(١٥) .

ثم جاء الحكم بن هشام بالربضى الذى تعتبر إمارته بداية النهاية لعصر القلاقل والاضطرابات التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية ، وكان كثير من زعمائهم حتى ذلك الوقت لا يسلمون بالطاعة والانقياد لها ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة لعصر العصبيات والفوضى . وكان لقوة الحكم وشدته وشجاعته اثر كبير فى القضاء على الكثير من الثورات التى قامت فى عهده .

ثم جاء عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى كان على العكس

---

(١٤) د. سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٣ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الأول ص ٢٢١ د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢١٤ : د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من أبيـــه لين الجانب هادىء الطباع فعادت العصبية العربية من جـديـد بين المضرية واليمنية فى كـورة تدمير لسبب تافه(١٦) أدى إلى قيـام حرب بين الفريقين استمرت نحو سبع سنوات (٢٠٧ — ٢١٣هـ) وقـد اضطر عبد الرحمن إلى إرسال جيش بقيادة يحيى بن عبـد الله بن خلف فأوقـع بهم فى موقعة المصارة بلورقـــة وهزمهم وقتـل منهم نحو ثلاثة آلاف . وفى سنة ٢٠٩ هـ أرســل قائده أميـة بن معـاوية بن هشـام إلى تدمير فاشتبك مـع اليمنية بقيادة أبى الشماخ محمد بن إبراهيم الذى ظـل عـدة سنوات يتحـدى سـلطان الإمارة ولم تهـدأ حركته إلا بعد طلبه الأمان وعـودته للطاعة سنة ٢١٣ هـ . وكان ذلك سببا فى أمـر عبد الرحمن بهـدم حاضرة تدمير (مدينة ألة) سـنة ٢١٠هـ وبنـــاء مدينة مرسية مكانها سنة ٢١٦ هـ(١٧) .

* * *

---

(١٦) يذكر ابن عـذران أن السبب كان قيـام أحـد المضريين بنزع ورقة داليـــة من جنان يمانى فقتله (البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤) ، بينما ذكر الحميرى العكس وهـو أن رجلا من اليمنية أخـذ ورقـة من كرم رجـل مضرى ليغطى بها قلة فأنكر ذلك المضرى ، واعتقد أنه فعـل ذلك استخفافا به (الروض المعطار ص ١٨١) . بينما يذكر د. حسين مؤنس : أن معظم جند تدمير (مرسية بعـد ذلك) كانوا من اليمنية ، ولكن المضرية كانوا يحاولون السيطرة عليها رغم قلتهم ، ومن هنـا كانت الفتنة . وهـذا ما نميل إليه لأنه السبب الأقـوى من وجهة نظرنا . (أنظر معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٠) .

(١٧) عنـان : دولة الإسـلام فى الأندلس ص ٢١٤ .

النزاع بين العــرب والبربر

كثرت انتفاضات البربر وثوراتهم ضــد العــرب فى بلاد المغرب ، وكان من أخطــر هــذه الثـــورات التى لهــا أثــر فى ثورات البــربر بالأندلس ثورة ميسرة المدغرى(١) الذى اعتنق مذهب الخوارج ، ونصب نفسه إماما وتسمى بالخلافة والتف حــوله الكثير من البربر الذين تشبهوا بالخــوارج الأزارقة وأهل النهروان من أصــحاب الله بن وهب الراسبى فحلقــوا رءوسهم(٢) .

وقــد انتهــز ميسرة فرصــة خروج حبيب بن أبى عبــدة بجيش من العرب فى حمــلة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقض طاعة عبيد الله ابن الحبحاب والى إفريقية فى طنجة وأقاليمها ، وتداعى البربر فى المغرب بأسره وثاروا فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ .

ووثب ميسرة على عمر بن عبد الله المرادى والى طنجــة فقتــله ، وولى مكانه عبد الأعلى بن حــديج ، وزحف إلى إسماعيل بن عبيــد الله ابن الحبحاب فى منطقة السوس فقتله أيضا .

وهكذا أصبح موقف عبيد الله حرجا وســاء موقف العرب ، فغضب لقتل ابنــه وعامله على طنجة ، وكتب إلى قائده حبيب يأمره بالعــودة حتى يتمكن من مواجهة هــذه الثورة الخطيرة ، والتقى الفريقان بالقرب من طنجــة ، وتحقق النصر للعرب فى البداية ، وتراجــع ميسرة ، ممــا أدى إلى ثورة البربر عليــه وقتله وتولية ابن حميد الزناتى مكانه الــذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصــار كبير فى موقعــة عرفت بغزوة

---

(١) يسمى أيضــا المطفرى ويلقب بالحقير بائع المــاء بسوق القيروان (ابن القــوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤) .

(٢) أخبــار مجموعة فى فتــح الأندلس ص ٣٢ .

الأشراف حيث قتل فيها « حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها » كما يقول ابن عذارى(٣) .

وكان لهذه الهزيمة القاسية وقعها الأليم فى نفوس العرب بالمغرب فانتشر الذعر الشديد بينهم ، وانتقضت البلاد عليهم وعمت فيها الفوضى ، وبلغ خبر هذه الثورة بلاد الأندلس فوثب أهلها على أميرهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى . ولما بلغ ذلك الخليفة هشام عزل عبيد الله عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ وقال « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى »(٤) .

وبعث بجيش تعداده سبعة وعشرون ألفا من أهل الشام وانضم إليه ثلاثة آلاف من مصر وجعل على قيادته كلثوم بن عياض القشيرى الذى ولى المغرب بدلا من عبيد الله وجعل الأمر من بعده لابن أخيه بلج بن بشر القشيرى إن أصيب ومن بعده لثعلبة بن سلامة العاملى وكان من غلاة القيسية وانضم عرب إفريقية الذين استوطنوا بعد الفتح إلى هذا الجيش فأصبح عدده نحو سبعين ألفا(٥) ، ولكن هذا الجيش لقى هزيمة أخرى قاسية عند بلدة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤ هـ قتل فيها عدد كبير على رأسهم كلثوم وحبيب ولم ينج منه إلا نحو عشرة آلاف على رأسهم بلج بن بشر لاذوا بمدينة سبتة وتحصنوا بها ، وحاصرهم البربر حصارا شديدا حتى أشرفوا على الهلاك . واضطر بلج إلى الاستعانة بعبد الملك بن قطن الفهرى

---

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ .
(٤) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ .
(٥) أخبار مجموعة ص ٣١ .

والى الأندلس (١٢١ — ١٢٥ هـ) وطلب منه السماح باللجوء إلى الأندلس له ولمن معه خشية الاستئصال والهلاك ولكن عبد الملك تقاعس عن نصرتهم خشية على سلطانه خاصة وأنه كان فهريا من عرب الحجاز الذين شهدوا موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ وما حدث فيها من جند الشام بالمدينة . ولما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك أمدوهم بقاربين من شعير وادم ولكن لم يكن ذلك كافيا(٦) .

وتغير الموقف فجأة عندما ثار البربر فى الأندلس بعد أن علموا بانتصار إخوانهم فى المغرب « حيث انقضوا على عرب جليقية وقتلوهم ، واخرجوا عرب استرقة والمدنيين التى خلف الدروب » وكان البربر اكثرية بهذه المناطق .

واحس عبد الملك بالخطر الداهم عندما وجد أن البربر يتقدمون نحو قرطبة بقيادة ابن هدين الذى يقال له (ابن زقطرتق)(٧) .

---

(٦) اخبار مجموعة ص ٣٧ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٤٢ .

(٧) اخبار مجموعة ص ٣٩ لا تذكر لنا المصادر شيئا واضحا عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس — رغم أنهم قد اشتركوا سويا فى الفتح — وكل ما نفهمه أنها يمكن أن تكون امتدادا طبيعيا وصدى لثورتهم فى إفريقية التى كانت بسبب استبداد بعض الولاة وسوء معاملتهم للبربر . وقد ذهب الكثيرون إلى أن هذه الثورة كانت بسبب سوء معاملة العرب للبربر ، واختصاصهم أنفسهم بأجود الأراضى والمناطق الخصبة تاركين البربر المناطق الجبلية القاحلة . وذلك غير صحيح لأن جماعات كثيرة من البربر استقرت فى مناطق خصبة من الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كانت هناك اماكن تكاد تكون مقصورة عليهم مثل الجزيرة الخضراء ، ومن هذه

تخشى على مصيره ومصير بنى جنسه خاصة بعد هزيمة جيوشه التى أخرجها لقتال البربر مما جعله مضطرا إلى مد يد العون لبلج وجنده المحاصرين فى سبتة للتعاون فى القضاء على هذا الخطر الداهم . فأرسل إليهم السفن للعبور إلى الأندلس ، واشترط عليهم العودة إلى سبتة مرة أخرى بعد القضاء على ثورة البربر ، وأخذ بعض الرهائن تنفيذا لذلك وأنزلهم بالجزيرة الخضراء(٨) .

والتقى الفريقان العرب البلديون وجند الشام من ناحية والبربر من ناحية أخرى على وادى سليط فى حوز طليطلة فهزم البربر هزيمة نكراء .

=

الأماكن الخصبة التى نزل بها البربر مع غيرهم من العرب كورة فحص البلوط شمال قرطبة ، وكورة السهلة وكانت من أخصب المناطق فى الأندلس ونزلها بنو رزين من البرانس فنسبت إليهم واستقلوا بها فى عصر ملوك الطوائف . والعرب لم يكونوا من الكثرة بحيث ينفردون بكل المناطق الخصبة فى بلد واسع كالأندلس . وكان البربر يتفوقون عليهم فى العدد نظرا لقرب بلادهم وكثرة هجراتهم .

ويبدو أن سكنى الكثير من البربر فى المناطق الجبلية كان بناء على رغبتهم بحسب ما اعتادوا عليه فى بلادهم ، وكان العرب والبربر بعد الفتح ينزلون فى المناطق المناسبة لهم وبحسب اختيارهم دون ضغط أو اكراه أو تحديد لأماكن معينة ينزل بها هؤلاء أو هؤلاء فسكنوا سويا فى مناطق ومنفردين فى أخرى . انظر : د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٢٨ ، ٣٨٨ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٣٧ — ١٣٨) .

(٨) يذكر البعض أنه اشترط عليهم ان يعودوا بعد سنة واحدة (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٨) .

ولما انتهت الثورة طلب عبد الملك من بلج وأصحابه مغادرة الأندلس، فسألوه أن يهيىء لهم السفن التى تقلهم إلى تونس من ساحل إلبيرة وتدمير ، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء لنقلهم إلى سبتة ، فقالوا له : أتريد أن تعرضنا لبربر طنجة ، ولما راوا ما يراد بهم وثبوا عليه وأخرجوه من قصره وبايعوا بلجا مكانه فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ(٩) .

ويبدو أن الشاميين كانوا يبيتون النية للبقاء فى الأندلس والإقامة فيها بعد ما حدث لهم فى إفريقية خاصة وأنهم سمعوا عن خيراتها ومحاسنها ، ولم يجدوا وهم فى موقفهم الحرج أثناء حصارهم فى سبتة إلا أن يوافقوا على شروط عبد الملك . ثم أخذوا يبحثون عن ذريعة تمكنهم من البقاء حتى وجدوا ذلك فى اتهامه بقتل رجل غسانى من أشرافهم كان ضمن الرهائن فى الجزيرة الخضراء ، وأدى ذلك إلى قتلهم له ، بالرغم من محاولة بلج أن يردهم عنه ولكنه لم يستطع خشية من تفرق كلمتهم وانفضاضهم من حوله(١٠) .

وقد أدى مقتل عبد الملك بن قطن إلى تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمنية . حيث أثار موجة من الغضب واتحد العرب البلديون — بقيادة ولدى عبد الملك قطن وأمية — مع البربر الذين كانوا يتلهفون للأخذ بثأرهم من أهل الشام ، والتقى هؤلاء مع جيش الشام بقيادة بلج فى موضع يقال له (أقوة برطورة) وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين وكان معظمهم من اليمنية وقتل بلج فتولى مكانه ثعلبة بن سلامة العاملى ، ولما علم الخليفة

---

(٩) أخبار مجموعة ص ٤٠ — ٤١ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٤٢ .

هشام بن عبد الملك بذلك نصحه العباس بن الوليد بن عبد الملك بتولية احد اليمنيين على الاندلس فولى ابا الخطار بن ضرار الكلبى بعد ان كتب إليه بأبيات يقول فيها :

افادتم بنى مروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كانكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا
وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رايتم واقد الحرب قد خبا
وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا
بلاء وانتم ما قد علمنا لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
تصرم حبل الوصل وانقطع الهوى
الا ربما يأوى فينقطع الحبل(١١)

وفد ابو الخطار إلى الأندلس فى رجب سنة ١٢٥ هـ ومعه سجل الولاية من والى إفريقية (حنظلة بن صفوان) وبرفقته ثلاثون رجلا هم الطائفة الثانية من العرب الشاميين . وكانت الحرب ما تزال ناشبة بين الشاميين والبلديين ، فبعد مقتل بلج تولى ثعلبة العاملى وقام بمحاربة العرب البلديين والبربر فى ماردة وهزمهم وسبى كثيرا منهم (نحو

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ — ١٩ .
ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٦٤ مع بعض الاختلاف فى الألفاظ .

عشرة آلاف) ، واخذ فى بيع شيوخ البلديين من العرب لمن ينقص من اثمانهم حتى قيل إنه باع احد رجال عرب المدينة بكلب(١٢) وإن كنا نشك فى ذلك لما فيه من مبالغة شديدة . فلما اقبل أبو الخطار أمر بإطلاق سراح الأسرى والسبى فتسمى عسكره لذلك عسكر العافية(١٣) .

ونظر فى توزيع جند الشام على كور الأندلس بدلا من تجمعهم فى قرطبة حتى يقضى على عوامل الاضطراب فأنزل جند دمشق بالبيرة وسماها دمشق ، وأنزل جند الاردن بكورة رية ، وجند فلسطين بشذونه ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند قنسرين بجيان وجند مصر بباجة وتدمير (مرسية) ، وكان إنزالهم على اموال اهل الذمة من العجم من ارض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص(١٤) .

وفى عهد عبد الرحمن الداخل قامت ثورة خطيرة للبربر فى شمال شرق الأندلس سنة ١٥٠ هـ وكان زعيمها فقيها بربريا يعلم الصبيان ويدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة ، وقد ادعى أنه من ولد الحسن ابن على ، وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمى تسمى بعبد الله ابن محمد ، وذاعت دعوته بين البربر فى هذه الناحية نظرا لكونهم أكثرية فيها ، واستطاع بهم أن يستولى على شنت بريه جنوب غرب طليطلة وجعلها مقرا له ، ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعظم خطره وتمكن من هزيمة الجند الذين أرسلهم إليه حاكم

---

(١٢) اخبار مجموعة ص ٤٥ .

(١٣) اخبار مجموعة ص ٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦١ — ٦٣ . نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٦١ — ١٦٢) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

طليطلة بقيادة سليمان بن عثمان مما أدى إلى اتساع دعوته واستفحال حركته ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢هـ فالتجأ الثائر بمن معه إلى الجبال المحيطة بالمنطقة مما اضطر عبد الرحمن إلى العودة إلى قرطبة ، ثم أرسل مولاه بدرا لمقاتلته سنة ١٥٤هـ فامتنع بالجبال حتى لا يلتقى بالجيش الأموى ، ثم عاد عبد الرحمن لمقاتلته سنة ١٥٥هـ بجيش جعل عليه هلال المديونى كبير البربر فى شرق الأندلس — بعد أن استماله واقره على ما فى يده وعهد إليه بولاية الأنحاء التى تغلب عليها شقنا بعد استخلاصها منه — وكان لذلك أثره فى بث الخلاف فى صفوف البربر ، فانفض عن شقنا كثير من أنصاره — واضطر إلى الانسحاب للاعتصام بالجبال مرة أخرى . وكانت المشاكل التى واجهت عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثائر مما جعل ثورته مستمرة قرابة عشر سنوات ، كما كان لاعتصامه بالجبال وتجنب اللقاء المباشر أثر فى هذا الاستمرار .

وبذلك لم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له أثنان من أصحابه بمساعدة هلال المديونى حيث قتلاه وحملا راسه إلى قرطبة وبذلك انفضت جموع البربر من حوله ، وخبت ثورته بعد أن ظلت نحو عشر سنوات تهدد سلطان عبد الرحمن ، وبذلك حققت المؤامرة فى لحظات ما لم تحققه الحملات والجيوش المتعاقبة فى سنوات(١٥) .

وفى عهد هشام بن عبد الرحمن قامت ثورة للبربر سنة ١٧٨ هـ فى تاكرنا من إقليم رندة ، وكانوا كثرة فى هذا الإقليم ، فخرجوا على

---

(١٥) انظر اخبار مجموعة ص ١٠٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥، ابن خلدون : السير ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٧ .

الطاعة ، وقتلوا كثيرا من السكان العرب فأرسل إليهم هشام جيشا استطاع هزيمتهم ، وفروا من تاكرنا التى ظلت خالية طوال سبع سنوات إلى طلبيرة وترجيلة(١٦) .

كما قامت ثورة أخرى للبربر فى ماردة سنة ١٩٠ هـ بقيادة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس بسبب وقيعة قام بها بعض خصومه فخشى أصبغ من الحكم وشدته فدخل ماردة وثار بها والتف حوله البربر ، فخرج إليه الحكم بنفسه وحاصره ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى قرطبة بسبب فتنة قامت فيها ، ثم تابع حملاته بعد ذلك سبع سنوات ولكنه لم يستطيع القضاء على هذه الثورة ، وأخيرا استطاع استمالة جماعة من أهل ماردة من ثقاة أصبغ ففارقوه مما دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم وخرج من ماردة وأقام بقرطبة(١٧) .

وفى سنة ٢١١ هـ ثار طوريل البربرى بتاكرنا فى عهد عبد الرحمن ابن الحكم (الأوسط) فأرسل إليه قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم فظفر به وقطع عاديته(١٨) .

وفى سنة ٢١٣هـ قامت ثورة للبربر فى ماردة أيضا وتزعمها رجل بربرى يدعى محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين ويدعى

---

(١٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٤٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٠ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٣٤ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

سليمان بن مرتين ويلقب (بقعنب) ، وشقا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقى ، فأرسل فرقة حاصرت المدينة سنة ٢١٤ هـ إلا أنها لم تحقق نصرا يذكر ، فسار عبد الرحمن فى السنة التالية وحاصرها حصارا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها إلا فى سنة ٢١٩ هـ . بعد أن فر منها الثائران حيث قتل سليمان سنة ٢٢٠ هـ ، وقتل محمود سنة ٢٢٥ هـ . وقد سجل عبد الرحمن إخضاعه لهذه الثورة ببناء قصبتها التى تعرف لدى العامة إلى اليوم باسم الدير وبها نقش عربى محفوظ إلى اليوم بمتحف القصبة فى ماردة يحمل تاريخ ٢٢٠هـ(١٩) .

وفى سنة ٢٣٦هـ ثار أحد البربر ويدعى حبيب البرنسى بجبال الجزيرة الخضراء والتف حوله جماعة من المفسدين فأخرج له الأمير عبد الرحمن الأجناد ففرقوا جموعه وقتلوا عددا كبيرا من رجاله(٢٠) .

وفى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كثرت الفتن والثورات كثرة بالغة من العرب والبربر والمولدين . ومن أشهر الثوار البربر فى هذا العهد الذين حاولوا الاستقلال بنو موسى بن ذى النون وكان أول من ثار منهم الفتح ومطرف اللذين ثارا فى شنت بريه واتخذاها حاضرة لهما ، وأقاما فيها الكثير من المنازل والقرى والمعاقل والحصون فعمرت وكثرت فيها المرافق ، وقد استقل مطرف

---

(١٩) انظر : ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١٠ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢٠) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ .

بحصن وبدة ، ويحيى بحصن ولمة وكان اكبر الحصون ، وبنى الفتح حصن إقليش ومصره وعمره . وقد قتل الفتح سنة ٣٠٣هـ ، ودخل أخوه يحيى فى خدمة الخليفة الناصر وتوفى أثناء غزوة سرقسطة سنة ٣٢٥ هـ ، أما مطرف فقد خدم الناصر أيضا واشترك معه فى بعض غزواته فولاه مدينة الفرج من الثغر الأوسط(٢١) .

وكذلك ثار عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى ، وكان من بربر قرية الملاحة من كورة جيان ، وكان مجرد جندى من جنود عاملها فوثب عليه وقتله واستطاع الاستيلاء على قصبتها ، واستفحل امره واخذ يعيث فسادا فيما جاورها من بلدان ، فارسل إليه الأمير عبد الله جيشا بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة فتمكن من هزيمته والقبض عليه والقدوم به إلى قرطبة .

وكذلك ثار زعال بن يعيش بن فرانك النفزاوى وكان من بربر نفزة وخرج على الأمير عبد الله ، فى حصن ام جعفر فى ماردة واستطاع أن يستقل بهذا الحصن استقلالا جزئيا حيث ظل متمسكا بطاعة الأمير ولو اسميا ولما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى حتى استنزل من الحصن ايام عبد الرحمن بن محمد(٢٢) .

كما ثار خليل وسعيد ابنا مهلب بكورة البيرة واستطاعا الاستيلاء على حصن قرذيرة واشبرغرة ورغم ثورتهما إلا أنهما كانا يدينان بالطاعة للأمير عبد الله فولاهما على ما فى أيديهما حتى كانت ايام الأمير عبد الرحمن ابن محمد فاستنزل سعيد — بعد موت اخيه — ضمن من استنزل من الثوار من حصونهم(٢٣) .

---

(٢١) ابن حيان : المقتبس ص ١٩ تحقيق ملشور انطونية .
(٢٢) د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢٥٦ — ٢٥ .
(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٨ .

ثم جاء عهد المنصور بن أبى عامر الحاجب فازداد نفوذ البربر زيادة كبيرة حيث استكثر منهم واعتمد عليهم وجعلته شيعته وانصاره فى مواجهة خصومه ومنافسيه من الأمويين والعرب الذين كانوا يحقدون عليه لاستبداده وسيطرته على الخليفة الأموى هشام المؤيد ودليل ذلك يتجلى من خلال وصيته لابنه عبد الملك الذى تولى الحجابة بعده سنة ٣٩٢هـ حيث يقول له « ولا تنظر بك وأصحابك السلامة فتنسبوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة »(٢٤) .

وقد أدى ذلك إلى مزيد من التنافس بين العنصرين . حيث قدم المنصور البربر وآخر العرب وأسقطهم عن مراتبهم . وإذا كان ابن خلدون يرى أن سبب ذلك هو ضعف عصبية العرب مما أدى لاعتماده على البربر(٢٥) فإننا نرى أن ذلك هو الذى أدى إلى ضعف عصبية العرب ونفوذهم ، وكان سببا من أسباب انهيار دولة بنى أمية بالأندلس.

وقام صراع عنيف بين العنصرين تجلى بصفة خاصة فيما يعرف بالفتنة العظمى أو البربرية التى استمرت نحو عشرين عاما وبدأت فى مستهل سنة ٤٠٠هـ . وقام البربر فيها بالكثير مما أدى إلى تخريب الكثير من مظاهر الحضارة والعمران فى الأندلس وخاصة فى قرطبة ومدينة الزاهرة ، وإشاعة الكثير من مظاهر الفوضى والانحلال فى المجتمع مما كان له أثره فى سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ(٢٦) .

---

(٢٤) ابن بسام الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٥٧ .

(٢٥) المقدمة ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢٦) عن هذه الفتنة بالتفصيل انظر : بهجة المجالس ج ١ ص ١٠ ، ابن بسام : الذخيرة ج١ ق٤ ص ٢٥ ، ابن حيان : المقتبس ص ١١٥ وبعدها ، البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٤٧ وبعدها ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٩ وبعدها .

الفتن بين العرب والمولدين فى الأندلس

كثرت الفتن والثورات فى كل ناحية من نواحى الأندلس فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ) ، ولم تقتصر على المناطق الجبلية فقط بل امتدت إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ، ولم تقتصر هذه الثورات على عنصر بعينه وإنما شملت الكثير من العناصر ، فشارك فيها المولدون والعرب والبربر ونشبت معارك عنيفة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر فضلا عن المعارك التى دارت بين العرب انفسهم ، واستطاع الكثير من هؤلاء ان يستقلوا بأماكن كثيرة ، حتى لم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى العاصمة وأحوازها فقط(١) .

ويلخص لنا ابن الاثير الأوضاع فى عهد الأمير عبد الله فيقول « وفى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وصار فى كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته »(٢) .

والحقيقة ان هذا الأمير لم يقعد عن مواجهة هذه الثورات ، وإنما بذل قصارى جهده للقضاء عليها ، وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لانقاذ دولة آبائه واجداده من الانهيار ، واستنفذ ذلك منه الكثير من موارد الدولة ، حتى ذكر ابن خلدون : ان خراج الأندلس قبله كان ثلاثمائة الف دينار مائة الف منها للجيوش ومائة الف للنفقة فى النوائب . وما يعرض من الخطوب ، ومائة الف ذخيرة ووفر

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣١ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ٤٣٥ ، العبر ج ٤ ص ١٣٣ .

فانفق الوفر فى تلك السنين وقل الخراج(٣) .

ويبين لنا الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب اسباب انتشار الثورات والفتن فى هذا العهد فيقول : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الأول : منعة البلاد وحصانة المعاقل وباس اهلها بمقارنتهم بعدو الدين فلهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

والثانى : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة اشراف يانف بعضهم من الأذعان لبعض .

والثالث : الاستناد عند الضيقة أو الاضطرار إلى الجبل الاشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض » .

وقد كانت السياسة التى جرى عليها بنو امية فى الأندلس منذ بداية أمرهم فى اصطفاء الموالى قد اخذت تحدث اثرها فى نفوس القبائل العربية التى أصبحت ترى فى هذه السياسة نوعا من المهانة لها ، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى والمناطق الجنوبية على يد ابن حفصون وجدت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها والانتصاف لعصبيتها وكرامتها(٤) .

وكان المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم الحكومة الأموية من ضروب

---

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٤٤ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣٤٠ ، د. زيتون : المرجع السابق ج ١ ص ٣٢١ .

(٤) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، القسم الثانى ص ٣٥ .

الرعاية والتسامح يضمر أكثرهم لهـا الخصومة والكيد ، ولا يدينـون بالولاء لهـا على الدوام ، وينتهزون الفرص للخروج عليها ، وكانوا يلقون العـون والتأييد من بنى جنسهم من النصارى المعاهـدين(٥) .

ولذلك انضموا إلى ثورة ابن حفصون الذى كان مولدا ويرجـع إلى أصـل أسـبان مسيحى وكان يجيش بالمسيحية وعاد إليها بعـد أن أسلم وسبقه أبوه قبـل ذلك بعـدة أعـوام(٦) .



(٥) عنان : المرجـع السابق ص ٧٤ .

(٦) نفسـه ص ٤٢ ، معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٠٣ وبعدها تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون

وقد كان من أخطر هذه الشورات التى قامت فى الأندلس ثورة ابن حفصون المولد(1) الذى كان يمثل فى ثورته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب من بغض وكراهية ، فكان يدعوهم ومن إليهم من العجم المستعربين إلى الخروج على سلطان العرب ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف واضطهاد على أيديهم ، وانه قام ليرفع عنهم ذلك ويرد إليهم حريتهم وهو فى ذلك لا يبغى سوى تقوية نفوذه وتوطيد سلطانه الذى بسطه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية من الأندلس فيما بين البحر ووادى شنيل(2) .

---

(1) عن هذه الثورة بالتفصيل : انظر البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢ وبعدها ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها ، عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ وبعدها ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٣٢٢ وبعدها . وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان ابن فرغلوش بن أذفونش القس ، ثار بالأندلس فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبدأت ثورته سنة ٢٧٠ فى جبل بربشتر (ببشتر) فيما بين رنده ومالقة وانضم إليه الكثيرون من المولدين والخارجين على الطاعة والمفسدين ، واستولى على غرب الأندلس إلى رنده وعلى السواحل من استجة إلى البيرة وظل مستمرا فى ثورته حتى مات سنة ٣٠٦ هـ فخلفه أبناؤه إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ فى عهد عبد الرحمن الناصر .

(انظر : العبر ج ٤ ص ١٣٤٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ عنان : دولة الإسلام ص ٢٠) .

(2) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (عصر الفتنة الكبرى) ص ٣١،٢٧ .

ويبـدو انه كان يطمع فى الإستيلاء على مقاليـد الأمور فى الأندلس بدليـل أنه أظهر الميـل للدولة العباسية وقـد قاوم هـذه الثورة الأمير محمـد وابنـه المنذر كما قاومهـا الأمير عبد الله مقـاومة شـديدة وفى سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفيه فعـاد إلى النصرانية وتسمى بصمويل . وقد أدى ذلك إلى انصراف الكثير من المولدين المسلمين عنه بينما فرح العجم بذلك ، واشتد السخط عليه فى أنحاء الأندلس وجـد المسلمون فى قتاله حيث رأوا أن حربه من الجهاد(٣) .

وحـاول ابن حفصون أن يعوض ما فقـده من أنصـار ويقـوى مركزه فخاطب الفونسو الثالث ملك ليـون وعقـد معه محالفة كما تودد لبنى قسى فى الثغر الأعلى ، وخاطب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه ، وكذلك الفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس ، وأظهر الدعـوة العباسـية بالأندلس ، كما أظهر الدعوة لعبيد الله المهدى(٤) .

وقد كان للحملات التى أرسـلها الأمير عبـد الله أثرها فى استنزاف قـوة ابن حفصون بحيث لم يعـد يشن حربا هجـومية كما كان يفعـل سابقا فى عهد الأميرين محمد والمنـذر وفى السـنوات الأولى من حـكم عبد الله ، وكان لهـذا كله أثره فى إضعاف ثورته التى استمرت ما يقرب من النصف قرن حتى قضى عليها فى عهـد الخليفة عبد الرحمن الناصر سـنة ٣١٥ هـ(٥) .

---

(٣) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٣٢٥ ، عنـان : دولة الإسـلام فى الأندلس ص ٤٣ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ . د. محمد زيتون : المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٦٥ .

١ ـ الفتنة بين العـرب والمولدين فى البيرة

ولم يكد يمضى عام واحـد من إمارة عبد الله حتى اشتعلت نيران فتنة شـديدة بين العرب والمولدين فى كورة البيرة ، وكانت مدينة قسطلة حـاضرة هـذه الكورة (التى عرفت باسم غرناطة فيما بعـد) تذخـر بعـدد هائلَ من أهل الذمة من نصـارى ويهود وكان المسلمون فيها قلة حتى أنها سميت (بإغرناطة اليهود) نظرا لكثرتهم فيها كما كانت تضـم الكثير من المولدين ، وكان النصـارى والمولدون ـ برغم إسـلامهم ـ يؤلفون فى عهـد الأمير عبد الله رابطـة قـوية متآلفة متحـدة المصالح والأهداف حيث كان يغمر أكثرهم شعور بالكراهية ضـد السكان العرب ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة المستعمرين المغتصبين لبلادهم ، ومن هنا فقد اضطر العرب إلى تأليف جبهة قـوية لمناهضة جبهة المولدين والمعاهدين وعرفت هـذه الجبهة (بالعصبية)(٦) .

وكان أول من تزعم هـذه الجبهة عربى من ناحية البراجلة فى كورة البيرة يدعى (يحيى بن صـقالة القيسى) وكان شديد التعصب للعرب ضـد المولدين والعجم ، فغـدوا يترصـدون له حتى أتى إلى حـاضرتهم قسطلة فقتـلوه بالرغم من عقـده معهم أمانا مؤكدا واستولوا على حصن منت شاقر (منت شقند) بالقرب من البيرة .

فخلفه على رئاسـة عصبية العرب سـوار بن حمـدون القيسى « وكان فارسـا شجاعا محاربا فكثر أتباعـه واشتدت شـوكته واعتزت العـرب به »(٧) .

---

(٦) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٦ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ٣٥ .

(٧) ابن حيـان : المقتبس ص ٥٥ .

وقام سوار فى بداية سنة ٢٧٦ هـ بالثورة فى ناحية البراجلة وانضمت إليه بيوتات العرب من كورة ألبيرة وجيان وريه وغيرها ، للأخذ بثار يحيى واسترداد حصن منت شاقر الذى استولى عليه المولدون والعجم وكان فيه نحو ستة آلاف منهم ، واستطاع استرداد الحصن وقتل الكثيرين فيه ، ثم اخذ فى فتح حصون المسالمة والنصارى واحدا بعد الآخر ، وقتل الكثير منهم حتى ضجوا منه واستغاثوا بجعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على البيرة ودعوه إلى قتاله ، وبينوا له انهم على طاعتهم للسلطان ، فخرج وخرجوا معه فى جيش كثيف لمقاتلة سوار ولكنه تمكن من هزيمتهم ، واعمل فى المولدين السيف حتى ذكر انه قتل منهم سبعة آلاف واسر جعدا واساء معاملته ثم اطلق سراحه لكونه عربى ، وقد عرفت هذه الموقعة (بوقيعة جعد)(٨) .

وقد أدى هذا الانتصار إلى قوة نفوذ سوار واشتداد بأسه فكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح ، وصاروا يدا على المولدين والنصارى . وخاطب المولدون الأمير حتى يكف بأس سوار عنهم ، وراسله الأمير فأظهر الامتثال لطاعته وعقد مع أهل قسطلة الصلح ، ويظهر انه طلب من الأمير عزل جعد فعزله وولى مكانه عمر بن عبد الله بن خالد وكان شريكا لسوار ، وخرج سوار للاسهام فى مقاتلة ابن حفصون وأغار على حصونه فى سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب أهل قسطلة لذلك وجمعوا جموعهم لقتاله فيما يزيد على عشرين الفا ، واستطاع سوار هزيمتهم وقتل منهم نحو احد عشر الفا وسميت هذه

---

(٨) ابن حيان : المقتبس ص ٥٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ .

الموقعة (بوقعـــة المدينـــة) حيث دار القتال فى سهل وادى شنيل بالقرب من غرناطـــة(٩) .

وأمام ذلك لاذ المولـدون بابن حفصـــون وخلعـــوا طـــاعة الأمير عبد الله ، واشتبك ابن حفصون مع سوار فى معركة هزم فيهـــا وأصيب بجراح كثيرة فاضطر للعودة إلى حصنه فى ببشتر . وترك قائده حفص ابن المرة لمقاتلة ســـوار ، حتى استطاع أن يستدرجه للقتال فى نفر قليل سنة ٢٧٧ هـ ، ونصب لـــه عـــدة كمائن خرجت عليه وتمكنت من قتـــله وجىء بجثته إلى قسطلة فأظهر المولدون والنصارى فيها الشماتة والفرحة حتى ذكر « أن الثكالى من نسائهم قطعن لحمـــه مزقا ، وأكله كثير منهن حنقـــا عليه لمـــا قـــد نالهن من الثـــكل فى بعـــولتهن وأهليهـــن واليتم فى أبنـــائهم »(١٠) .

وقـــد أدى ذلك إلى تصـــدع جبهة العرب ، فاختاروا بعـــده سعيد ابن سليمان بن جودى الذى حاول جمع شملهم ، ولكنه لم يتمـــكن من سد الفراغ الذى تركـــه ســـوار ، فلم يكن مثـــله فى القـــوة والشجاعة والسياسة ، وظـــل رئيسا للعرب فى البيرة نحـــو سبع سنوات حتى تمكن أعـــداؤه من قتله غيلة فى ذى القعدة سنة ٢٨٤ هـ(١١) .

---

(٩) أنظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٢ وهو يذكر أن جموعهم كانت ٢٣ ألف ، ابن حيان : المقتبس ص ٥٧ ، السيد سالم : مرجـــع ســـابق ص ٢٦٧ .

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ٦٠ .

(١١) ذكر ابن عـــذارى أنه قتـــل فى دار عشيقة له يهودية . (البيـــان المغـــرب جـ ٢ ص ٢٠٤) .

ويقال إنه قتـــل بتدبير الأمير عبد الله بسبب أبيات قالها فى ذم بنى =

وقام برئاسة العرب بعده محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمذانى صاحب حصن الحامة (الحمة) فسار على سياسة سلفه ، ولكنه هزم فى إحدى المعارك مع ابن حفصون وأسر وافتداه أصحابه بمال جزيل ، ومن ذلك الحين فقد العرب الزعامة المماثلة لسوار فى القوة والشجاعة والسياسة فتفرقت كلمتهم وانحلت عصبيتهم ضد المولدين ، وشبت العصبية فيما بينهم ووقع الاختلاف فتفرغوا للقتال مع بعضهم(١٢) .

٢ — الفتنة بين العرب والمولدين فى لبلة

ومثلما حدث فى البيرة حدث فى لبلة حيث الف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسالمة ، وتزعم هذه الجبهة رجل يسمى عثمان ويعرف بابن عمرون .

وقد ثار على واليها عمرو بن سعيد القرشى واستطاع الاستيلاء على دار الإمارة وإخراج الوالى من المدينة ، وما لبث أن انضم إليه جماعة من العرب فاغار بهم على قرى إشبيلية . ولما علم الأمير عبد الله بثورته بعث إليه عثمان بن عبد الغافر ليستميله فنجح فى ذلك ، وعاد ابن عمرون إلى إظهار ولائه للأمير وفرق اتباعه ، وسكنت الفتنة إلى حين ، ثم لم تلبث

=

امية جاء فيها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب
نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنا
إنما الملك لأبناء العرب

(١٢) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٨ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (عصر الفتنة) ص ٣٦ .

ان اشتعلت من جديد بين العرب المولدين ، فسار ابن عمرون إلى حصن قرقبة فاستولى عليه وتحصن فيه ، وانضم إليه عثمان ورجاله وخرج العرب بقيادة عثمان لملاقاة المولدين فهزموهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وامتدت نيران هذه الفتنة إلى منت ميور التى ثار فيها رجل من المولدين يدعى ابن خصيب ، كما ثار مولد آخر يدعى ابن عفير فى جبل العيون وهو من حصون لبلة وأخذت نيران هذه الفتنة تمتد شيئا فشيئا حتى وصلت إلى إشبيلية(١٣) .

٣ ــ الفتنة بين العرب والمولدين فى شبيلية

كانت إشبيلية تعد العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة ، وكان العدد الأكبر من سكانها من النصارى المولدين ، بالإضافة إلى مجموعات من السكان العرب أمثال بنى موسى وبنى الجد ، وبنى الحجاج وبنى خلدون وغيرهم وكذلك من البربر . وكانت هذه القبائل العربية تؤلف فيما بينها العصبية العربية فى إشبيلية ، وقد قامت بعد الفتح مصاهرات بين العرب والإسبان فى إشبيلية وغيرها من كور الأندلس فكثر زواج العرب بالاسبانيات ونشأ جيل عرف بالمولدين أصبح يشكل أغلبية السكان بمضى الزمن واحتفظ كثير منهم بأسمائهم القديمة مثل بنى انجلين وبنى شبرقة وغيرهم .

غير انه بمضى الزمن أخذت العصبية تلعب دورها فأصبحنا نرى فى إشبيلية عصبية عربية يمثلها بنو أبى عبدة بزعامة أمية بن عبد الغافر وبنو حجاج برئاسة عبد الله وأخيه إبراهيم وبنو خلدون بزعامة كريب وخالد بن عثمان وهم قوم المؤرخ المشهور ابن خلدون ، وعصبية من

---

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ٦٦ ــ ٦٧ .

المولدين يمثلها بنو انجلين وبنو شبرقة ، كما وجد فريق محايد من العرب والبربر والموالى لم يتعصبوا لفريق وظلوا على ولائهم للإمارة الأموية(١٤) .

وكان التنافس بين العرب والمولدين على النفوذ والرياسة من اهم اسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكان المولدون فى إشبيلية كما يصفهم ابن حيان « أغلظ أهلها شوكة ، وأوسعهم نعمة وأعزهم جانبا ، وأحضرهم عدة ، يعتدون فى اثنى عشر رئيسا ، لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتد بها »(١٥) .

وكان السبب فى اشتعال نيران هذه الفتنة هو قيام كريب بن عثمان بن خلدون بالتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بشذونة ، وعثمان بن عمرون الثائر بلبلة وكانا من اليمنية ، وكذلك جنيد ابن وهب القرمونى من البربر البرانس ضد المولدين والموالى باشبيلية وعندئذ كون هؤلاء حلفا مع المضريين ، والبربر البتر من اهل كورة مورور المجاورة ونلاحظ هناك تداخل العصبيات فاليمنية والبربر البرانس فى جهة ، والمضرية والبربر البتر فى ناحية . وهذا يدل على مدى ما فعلته العصبية بالإضافة إلى المصالح فى الفتن والصراعات التى قامت بين عناصر السكان فى الأندلس .

ولكن كريب لم يستطع أن يحقق اهدافه فى السيطرة والنفوذ على إشبيلية أمام تكتل المولدين والموالى فاضطر إلى الخروج من إشبيلية ، واستوطن قرية تشرف عليها تسمى (البلاط) ، ومن هناك حرض بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فأغاروا على قرية

---

(١٤) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٩ كان الفريق المحايد يتألف من عرب قرشيين وبعض الموالى الأمويين وبعض البربر .
(١٥) المقتبس ص ٧٥ .

تسمى طلياطه فقتلوا الكثير من أهلهـــا واستباحوها وسبوا الكثير من نسائهم وذراريهم ، فخرج موسى بن أبى العاص والى إشبيلية لصدهم ولكنهم استطاعوا هزيمته ، وانطلقوا يشنون غاراتهم على جميع جهاتها فادى ذلك إلى عزل الأمير عبد الله له ، وتوليـــه حسين بن محمد المـــورى مكـــانه .

وفى عهد هذا الوالى ظهر بين قرطبة وإشبيلية قاطع طريق بربرى الأصل يدعى ((الطماشكة)) فقـــام أهل استجه من المولدين وعلى راسهم محمد بن غالب بإقامة حصن فى قرية شنت طرش — بموافقة الأمير — وقام وبعض أتباعه من البربر البتر والموالى والمولدين بحراسة الطريق بين قرطبة وإشبيلية حتى علا شأنه ، وتردد ذكر اسمه . فحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية من العرب فهاجموه ليـــلا للقضاء عليـــه حتى تكون لهم الكلمة العليا ولكنه استطاع هزيمتهم وقتل أحدهم فشكوا إلى والى إشبيلية فطالب بثار المقتيل من ابن غالب ، فأرسلهم إلى الأمير ، فالتبس عليه الحكم فى قضيتهم نظرا لتضارب الأقوال والشهادات ، وعـــزل الوالى حســـين ابن محـــمد المورى وولى مـــكانه محـــمد بن خـــالد الخـــالدى المعـــروف بالمعوج ، ثم ما لبث أن عزله أيضا وولى مكانه ابن عمه أمية بن عبد الغافر الخالدى فاستقر مع محـــمد ابن الأمير عبـــد الله فى قصر إشبيلية ، ووكل الأمير إلى ابنه البت فى القضية ، فجمع الفريقين ولكنه وجد تعصبا فى كل فريق لرأيه ، فاضطر إلى إرجـــاء النظر فى القضية أيضـــا وسمح لابن غالب بالعـــودة لحصنه ، فأدى ذلك إلى غضب العـــرب وازدادت قلوبهم كراهيـــة وتعصـــبا ضـــد المولدين ، وخـــرجوا من إشبيلية وأرســـلوا إلى محالفيهم ، وشقوا عصا الطاعة على الأمير عبد الله .

واستطاعوا الاستيلاء على مدينة قرمونة ، وحصن قورية وجـــزيرة

الأسيلة ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير اشار عليه وزراؤه بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب حتى يدخلوا فى طاعته مرة اخرى ، فاخذ الأمير بذلك .

وقد اثار مقتل ابن غالب ثائرة المولدين والموالى ، فوثبوا على عامل إشبيلية امية بن عبد الغافر بعد أن ارسلوا إلى حلفائهم من المضريين والبتر فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

وفر امية للاحتماء بمحمد ابن الأمير عبد الله ، فأرسل إلى محمد بن خطاب بن انجلين زعيم المولدين بإشبيلية للتفاهم معه فى إطفاء نيران الفتنة ، وكان زعيم المولدين قد اتفق مع اصحابه من المحاصرين للقصر على مهاجمته عند اذان الظهر إذا لم يخرج هو ومن معه ، ولما مضى الوقت المحدد اقتحم المولدون القصر ونهبوا خيله ومراكبه ، وكان امية ورفاقه قد قبضوا على ابن خطاب ومن معه وامر غلمانه بالاستعداد لصد المهاجمين ، واستمر حصار المولدين للقصر حتى اليوم التالى واستنجد الأمويون بالجعد بن عبد الغافر فاقبل بعسكره من قرمونة ودخل إشبيلية واستطاع هزيمة المحاصرين وقتل منهم عددا كبيرا .

وامر محمد بضرب اعناق ابن انجلين ورفاقه ومصادرة اموالهم ونهب دورهم وكتب إلى ابيه بذلك فامره بالعودة إلى قرطبة ، واستقدم امية والى إشبيلية سادات العرب وقربهم فاقاموا فيها بعض الوقت ، ثم ما لبثوا ان عادوا للثورة مرة اخرى . وكان لمقتل الجعد فى كمين للطماشكة هو واخويه أثره فى حزن امية عليهم ، وفى عودة العصبية بين العرب والمولدين من جديد حيث حمل عرب إشبيلية وقرمونة على

المولدين والأعاجم فى إشبيلية وما جاورها حملة عنيفة قتلوا فيها الكثيرين منهم .

وظلت الكلمة للجبهة العربية وحلفائها حتى استطاع الأمير عبد الله القضاء على شوكتهم بالقوة تارة ، وبالحيلة تارة اخرى إلى أن تمكن ابراهيم بن الحجاج من الاستقلال بإشبيلية سنة ٢٨٦هـ بعد أن كانت مقسمة بينه وبين حليفه كريب بن خلدون(١٦) .

واستمر إبراهيم فى حكم إشبيلية وقرمونة حتى توفى سنة ٢٩٨ هـ فخلفه ولداه عبد الرحمن فى حكم إشبيلية ، ومحمد فى حكم قرمونة حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الخليفة الناصر(١٧) .



---

(١٦) انظر الرواية كاملة فى المقتبس ص ٦٧ ــ ٨٥ .

(١٧) راجع تفاصيل ثورة بنى الحجاج فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ ــ ١٣٥ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٥ ، ج ٧ ص ٢٨٠ ــ ٣٨١ . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣٨ ــ ٤٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٨ ، ٢٨١ .

رابعـا : العـلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

كان فتـح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) فاتحـة عصر جـديد ، وبداية تطـور هام بالنسبة لها ، فقـد كانت تعانى قبل الفتح الإسـلامى لهـا من كثير من مظاهر الجور والعسف والاستبداد تحـت حكم القوط ، حيث كانت أقليـة من الحكام والأمراء والنـبلاء تمتـع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب أغلبية فرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال ، فلمـاء جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله ، وأشاع مبادىء العـدالة والمساواة والحرية . وأقبـل عليه الكثير من أهـل هـذه البلاد ، لمـا لمسوه فيـه من قيم ومبادىء نبيلة خلصتهم ممـا كانوا فيـه .

أما من بقى على دينـه منهم : فقـد ترك لهم المسلمون الفـاتحون الحرية الكاملة فى ممارسـة شعائر عقائدهم الدينية ، وضربوا بذلك مثلا أعلى فى التسامح . كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التى كانت مفروضة عليهم ، واكتفوا منهم بأداء الجزية التى كانت تتراوح قـلة أو كثرة على حسب مقـدرة الشخص المـالية .

وكان الخراج يفرض بالتساوى على من يحوز الأرض سـواء كان مسلما أو ذميا . وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الاقطاع والرق القديم ، وتملكوا الأراضى وأصبح لهم حـق التصرف فيها . ولم يكن لهم هـذا قبـل الفتـح(1) .

---

(1) عنـان : دولة الإسـلام فى الأندلس ج ١ ص ٧٤ ، لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٤ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠ .

وقـــد عومل أهل الذمة فى الأندلس بمقتضى معـــاهدات تنظم ذلك ، ويعتبر العهد الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حـــاكم شرق الأندلس خير مثال لذلك . وهـــذا نصـــه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هـــذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غنـــدر يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه ، ومـــا بعث به أنبياءه ورسـله ، وأن لـــه ذمة الله عز وجـــل ، وذمة محمـــد ﷺ ، ألا يقـــدم لـــه ولا يؤخر لأحـــد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائســـهم ، ولا يكرهـــون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائن ، وانه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحـــل ما انعقد ، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه امره ، ولا يكتمنا خبرا علمـــه ، وأن عليـــه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حـــر دينار وأربعة أمـــداد من قمـــح ، وأربعة أمـــداد من شعير ، وأربعة أقساط خـــل وقسطا عسل وقسط زيت ، وعلى كل عبـــد نصف هـــذا — شهد على ذلك عثمـــان بن عبـــد الله القرشى ، وسليمان بن قيس التجيبى ، ويحيى بن يعمر السهمى ، وبشير بن قيس اللخمى ، ويعيش بن عبد الله الأزدى ، وأبو الأصـــم الهـــذلى ، وكتب فى رجب ســـنة أربع وتسعين »(٢) .

ولقـــد استطاع المسلمون الفاتحون أن يقضوا فى أعوام قليلة على الكثير من عناصر القلق والاضطراب ، وأن ينظمـــوا إدارة البلاد ، فقـــد

---

(٢) ابن الدلائى : ترصـــيع الأخبـــار وتنـــويع الآثار ص ٥ ، تحقيـــق د. الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ســـنة ١٩٦٥ م . الحميرى : الروض المعطار ص ٦٢ — ٦٣ مطبعـــة لجنـــة التأليف القاهرة سنة ١٩٣٧م . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١١٤ — ١١٥ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

أبقـوا لأهـل الذمة شرائعهم وقضائهم ، وعينوا لهم حكاما من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعـون الضرائب المقـررة منهم ، ويفصلون بينهم فى الأحكام ، كما عينوا الكثير من الأكفـاء منهم فى مناصب هامة فى الدولة مثل أرطباس الذى عينه عبد الرحمـن الداخـل أول قـومس للنصـارى بالأندلس(٣) ، وجيزون قاضى النصارى بقرطبة الذى عينه الحكم المستنصر واتخـذه إلى جانب ذلك مترجما له(٤) ، وحسداى بن شبروط اليهودى الذى اتخـذه الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا خاصـا لـه وغـدا من أصحاب النفوذ والثراء فى عهد المستنصر(٥) .

وهكذا تمتع أهـل الذمة بالكثير من الحقـوق فى ظـل الحـكم الإسلامى ، وكـان لهـذا التسامح أثره فى رضائهم بالنظام الجـديد ، واعترافهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقـوط كما يقـول لين بول(٦) .

ويعترف بهـذه الحقـائق بعض المستشرقين والمؤرخـين الغربيين المعتـدلين فيقول دوزى مثـلا : « لم تكن حـال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى ممـا يدعـو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لمـا كانوا عليـه من قبـل ، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقـوا أحـدا فى شؤون الدين ، ولم يغمط النصارى للعرب هـذا الفضـل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعـدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج .

ويقـول معترفا بآثار الفتح الإسلامى الإيجابية « كان الفتح العربى

---

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٨ .
(٤) المقرى : نفـح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .
(٥) ابن أبى أصيبعة : عيـون الأنباء ج ٢ ص ٥٠ .
(٦) لين بول : العـرب فى أسـبانيا ص ٣٨ ، عنان : دولة الإسـلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٤ — ٦٥ .

نعمة لأسبانيا ، فقد أحدث ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على الكثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد من قرون ... الخ » .

ويقول لين بول : « يجب الا يخطر ببال أحد أن العرب عاثوا فى البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين » .

ويقول ايضا « وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم ، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف . وكان التسامح الدينى سائدا فلم يدع للأسبان سببا للشكوى »(٧) .

ويقول المؤرخ الأمريكى سكوت : « كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية ، والأحبار يزاولون لشؤونهم فى سلام . أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون للعرب فيها أفظع المثالب فهى محض مبالغة وافتراء » .

وإن كنا لا نوافقه فى أن المسلمين كانوا يسمحول للملاحدة بالمجاهرة بآرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التى سيأتى ذكرها .

وينوه المؤرخ الأمريكى الدكتور (لى) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وعن بغض الأجناس والتفرقة بينهما .

---

(٧) أنظر : العرب فى اسبانيا ص ٣٨ وبعدها ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٧ — ٢٨ .

ويذكر المستشرق (التاميرا) أن أغلبية الشعب الإسبانى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضائها وأساقفتها ، وكنائسها ، وبالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل ، وقنع الولاة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية » .

وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصا من الاعتراف بذلك مثل المستشرق الإسبانى سيمونت الذى يقول « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة »(٨) .

انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة ، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض ، أو للخلاص من دفع الجزية ، أو لرفع مكانته الاجتماعية .

ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها ، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين – وسموا بالمسالمة – أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يتلون شيئا فشيئا وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم . وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم – برغم بقائهم على دينهم – فأخذوا يقلدونهم فى كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب ، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموا بالمستعربين . وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضا

---

(٨) أنظر : عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٠ – ٦٥ .

د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ١٨٧ – ١٩٠ .

من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد ان وجدت فى فتحهم لإسبانيا خلاصا لها من الجور والاضطهاد الذى كانت ترزح تحته اثناء حكم القوط(٩) .

وبالرغم من هذا التسامح التام الذى ابداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى ، إلا أن فريقا من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مغتصبون ، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمروق والخيانة للدين والوطن .

وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة ، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها ، وكانوا يبغضون المسلمين ، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسلمين من إسبانيا(١٠) .

وكان تغلغل حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد احدث رد فعل قوى لديهم فأخذوا يبدون اسفهم الشديد وتحسرهم لذلك . وحاولوا عبثا وقف هذه الحركة دون جدوى ، فلم يجدوا أمامهم سبيلا إلا الطعن فى الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيهم معتمدين

---

(٩) انظر د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩ – ٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٥ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٣ .

(١٠) عن هذه الحركة راجع : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٦٨ وبعدها . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (العصر الأول) ص ٢٠٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١ وبعدها ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٣٨ وبعدها .

على طائفة من الخرافات والاباطيل التى يروجها رجال الكنيسة .

ولم تكن العوامل الدينية هى وحدها مبعث ذلك التعصب ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضا دور فى ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير قلوبهم ما يحيط بالحكم الإسلامى فى الأندلس من مظاهر العز والسؤدد ، وما يظهر به الحكام المسلمون من مظاهر الفخامة والعظمة ، وما ينعم به المجتمع الأندلسى من حياة رغدة آمنة مستقرة(١١) .

وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم ما يتعرضون له — نتيجة لتعصبهم — من معاملة خشنة وخاصة من العامة . وبلغ هذا التعصب مداه فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى بدأت حضارة الأندلس فى عهده فى التالق ، وأصبحت الأندلس فى عداد الدول العظمى فى العالم الإسلامى والمسيحى على السواء(١٢) .

وكان فى وسع هؤلاء المتعصبين فى طليطلة وغيرها من المدن البعيدة عن العاصمة (قرطبة) أن يرفعوا علم الثورة أو ينضموا إلى الثورات التى تقوم ضد الأمويين ، ولكنهم فى قرطبة قاموا بحركة دينية خطيرة سنة ٢٣٧ هـ حيث عمدوا إلى تحقيق أهدافهم بوسيلة بسيطة وخطيرة فى نفس الوقت وهى المجاهرة بسبب الإسلام ونبيه فى الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا على ذلك ، وأن تلك جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة القتل ، غير أنهم انزلقوا فى هذا المنحدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين فيؤدى ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة(١٣) .

---

(١١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٩ .

(١٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٩ — ٢٤١ .

(١٣) يذكر أن هذه الفتنة التى سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحوار دار بين قسيس من قرطبة يدعى برفكتوس مع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعيسى ، وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال
=

وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولوخيوس او (أيلوج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه، ويحبب لأتباعه الاستشهاد فى سبيل نصرة المسيحية ضد الإسلام، وكان يساعده فى ذلك شاب مسيحى من أغنياء قرطبة يدعى (الفارو) أخذ ينتقد الأسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وآدابها ويتركون اللاتينية وشروحها. وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى (برفكتوس)، وفتاة أسبانية تدعى (فلورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت. وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معا، فاستدعى مجلسا من الأساقفة عقد فى قرطبة برئاسة (ريكفارد) مطران إشبيلية، ومثل الأمير فى هذا المجلس كاتبه النصرانى جوميز ابن أنطونيان بن جوليان عامل أهل الذمة(١٤) وتم فى هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الغلاة من عواقب خطيرة، وأصدر المجلس قرارا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين، ويحذر باقى النصارى من الانضمام إليهم، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك.

غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة، فقد تمادى هؤلاء فى غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم فى السجون، وقدموا للمحاكمة فأخذوا يطلقون ألسنتهم بالسب والقذف فى الإسلام ونبيه،

=

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم مما أدى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استغلال ذلك وعلى رأسهم يولوخيوس للقيام بدعاياتهم ضد الإسلام (د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٥).

(١٤) يسميه ابن القوطية قومس بن أنتنيان بن يليانه وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وسمى بحمامة المسجد (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣).

وحاول القضاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجد نفعا ، عند ذلك أخذوا يحكمون عليهم بالقتل جزاء ما يصنعون ، وكان الأحبار يكرمون رفات هؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضراما ، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فرأوا عدم مقابلتها بالعنف حتى لا تزداد اشتعالا فأخذوا فى مراجعة هؤلاء المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتل ولكنهم كانوا يطالبون بالموت حتى يلحقوا بإخوانهم الشهداء ، حتى أن القاضى الذى حاكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن أخذت تطالبه بالحكم عليها بالإعدام وتمادت فى السب والقذف أمامه حتى حكم عليها بالموت ، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحو أحد عشر متعصبا فى شهرين(١٥) .

واعتقل يولوخيوس وغيره من زعماء الحركة ، ورغم ذلك استمرت الفتنة ، ولما توفى الأمير عبد الرحمن أفرج عنه وعين أسقفا لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هذه الفتنة فهدأت قليلا ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبض عليه وأعدم فى مارس سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م بأمر من الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن ، وبقتله أخذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت ، وهكذا انتهت هذه الفتنة الخطيرة التى استمرت ما يقرب من ثمانى سنوات ٢٣٧هـ / ٨٥١م — ٢٤٥هـ / ٨٥٩م ولم تحقق شيئا من أهدافها بل على العكس أدت إلى مقتل نحو أربعة وأربعين من المتعصبين ، وإلى إثارة السخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يقدرون تسامح المسلمين(١٦) .

---

(١٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١ عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٨ — ٢٦١ .

(١٦) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٧ ، د. أحمد شلبى : المرجع السابق ج ٤ ص ٥١ د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٤٢ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٦١ .

الفصل الثالث

الحالة الدينية

من الطبيعى أن يكون التدين ، والعنـــاية بشعائر الدين أمرا واضحا ، وسمة مميزة فى بلد شـــغل بالحروب طويلا ، واتقدت فيه روح الجهـــاد والمرابطة كالأندلس . وقد كان لمجاورة المسلمين للنصارى فى اســـبانيا وأوربا اثر بالغ فى ازدياد هـــذا الشعور(١) .

ولذلك فقد اتصف أهل الأندلس عامة بالتدين والمحافظة على شعائر الدين إلا القليلين ، وكانوا يجلون رجـــال الدين ويقدرونهم وخاصة الفقهاء ومن هنا كان لقب فقيه عندهم من أرفع الألقـــاب ، وكانوا إذا ما ارادوا تكريم عالم أو أمير عظيم اطلقوا عليه هـــذا اللقب .

كما كانوا يقيمون الحـــدود الشرعية ، وينكرون التهاون فى تعطيلها إذا راوا فى ذلك تهاونا من قبل السلطان كما ذكر ابن سعيد المغربى(٢) .

وعندما دخل المسلمون الأندلس اظهروا حماسة بالغـــة فى نصـــرة الإسلام ونشره ، وخاضوا من أجل ذلك معـــارك شتى ، وحروبا تكاد تكون متصلة ضـــد الأعداء بحيث يمـــكن القول : إن حيـــاة المسلمين فى الأندلس كانت فى مجموعها أو مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم من ناحية بفعـــل العصبية والتنافس على الملك والرئاســـة ، وبينهم وبين النصارى من ناحيـــة أخـــرى . ويلخص بعض المؤرخـــين الإســـبان

---

(١) يقول القزوينى : « ومن عجائب الدنيـــا .... المملكة الإسلامية بالأندلس مع إحاطة الفرنج بها من جميع الجوانب » عجائب المخلوقات ص ٣٨٨ .

وهى أعجوبة حقـــا بذل المسلمون فى ســـبيل تكوينها الكثير ، ومكثوا فى صراع لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد لمدة ثمانية قرون ، واستطاعوا فى خـــلال فترات الهـــدوء والاستقرار القليـــلة إقامة تلك الحضارة الباذخة .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

تاريخ المسلمين فى الأندلس مع الأسبان وحلفائهم من النصارى بأنها (معركة القرون الثمانية Labatalle de Ocho) . ولذلك فإن الحروب المتتالية للمسلمين مع الأسبان وحلفائهم من الأوربيين كانت تبعث فى نفوسهم الحمية والحماسة الدينية فيما عدا فترات قليلة تعاون فيها بعض الطامعين فى الملك والرئاسة — وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — مع هؤلاء الأعداء ، خاصة وانهم أدركوا أن بقاءهم وبقاء دولتهم فى الأندلس رهين ببقاء الإسلام والالتزام بنصرته ، فيذكر المقرى عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق « أن أهل الأندلس أصحاب جهاد متصل »(٢) .

أولا — المذاهب الفقهية

وإذا كان المسلمون قد شهدوا فى المشرق نشأة الفرق والأحزاب السياسية والدينية التى أدت إلى مزيد من الصراع والتشتت والانقسام الفكرى والدينى والسياسى ، فإنهم لم يشهدوا مثل ذلك الصراع فى الأندلس ، حيث كانت مذاهب أهل السنة هى المعمول بها فى الأندلس .

فقد كان مذهب الإمام الأوزاعى إمام أهل الشام (١٥٧ هـ / ٧٤٤ م) هو المذهب المعمول به فى بداية الأمر ، ثم بدأ مذهب الإمام مالك فى دخول الأندلس منذ عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضا (١٧٢هـ — ٧٨٨م — ١٨٠هـ/٧٩٦م)(٣) .

---

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٧١ .

(٣) يذهب ليفى بروفنسال إلى أن مذهب مالك دخل الأندلس قرب نهاية حكم الأمير هشام الأول أو فى السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم (الحضارة العربية ص ١٥٨) . وقد ذهب د. حسن ابراهيم حسن وكذلك د. حسن على حسن : إلى أن مذهب مالك لم ينتشر

يقول ابن الفرضى فى ترجمة زهير بن مالك البلوى : « كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه اهل الاندلس قبل دخول بنى امية »(٤) .

وكان تلميذ الإمام الأوزاعى فى الأندلس ، والذى يرجع إليه الفضل فى نشر مذهبه الفقيه صعصعة بن سلام الشامى (قاضى قرطبة وصاحب الصلاة فيها ت ١٩٢ هـ)(٥) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن مذهب الإمام مالك قد بدأ فى الانتشار فى الأندلس فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وان اول من ادخله زياد بن عبد الرحمن اللخمى الملقب بشبطون (ت ١٩٣ هـ) . وكان قد رحل إلى المدينة بعد عام واحد من إمارة هشام ، وتتلمذ على يد الإمام مالك الذى كان معاصرا لهشام وكان يثنى عليه وعلى حسن سيرته ، ثم أصبح المذهب العام والسائد والرسمى منذ عهد الحكم ابن هشام ولذلك يذكر ابن سعيد « أنه لا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به »(٦) .

إلا فى عهد الحكم بن هشام (انظر الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٠٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) .

والحقيقة أن معظم المصادر تتفق على ان هذا المذهب قد بدأ فى الانتشار فى عهد هشام ، واصبح المذهب الرسمى فى عهد الحكم .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ص ١٥٣ . الدار المصرية للتاليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م القاهرة .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٥٩ ، ١٥٨ .

(٦) وقد ذكر البعض : أن الغازى بن قيس (ت ١٩٩ هـ) هو اول من أدخل الموطأ إلى الأندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وكان مؤدبا بقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وأدرك نافع بن أبى نعيم القارىء ، وأخذ عن الأوزاعى ، ويقال إن عبد الرحمن عرض عليه القضاء فأبى واشتغل بالفقه والفتوى

وتختلف الروايات فى سبب تحول الأندلسيين عن مذهب الإمام الأوزاعى إلى مذهب الإمام مالك . فمن قائل : إن العلماء والفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قابلوا الإمام مالك فى المدينة فأعجبوا بشخصه وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة ، والذى يميل إلى الناحية العملية — فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض من أوامره ونواهيه — وقد اخذت المذاهب الأخرى من هذه القاعدة بأطراف ولكن الإمام مالك يعمم ذلك ، ويجعله قاعدة ولم يكن يلجأ إلى الرأى إلا فى حالات الضرورة القصوى(٧) .

ومن قائل : إن الإمام مالك سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن اميرهم هشام فأثنوا عليه خيرا — وكان تقيا ورعا مجاهدا — فقال مالك — وكان فى نفسه من بنى العباس شيىء — : ليت الله أن يزين موسمنا بمثله ، أو ليت الله أن يزين حرمنا بملككم » .

فلما سمع هشام هذا سمح لتلاميذه من امثال الغازى بن قيس ، وزياد ابن عبد الرحمن (شبطون) ويحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، وقرعوس بن العباس بتدريس مذهبه ونشره ، وأمر القضاة بالعمل به .. ومن هنا أخذ مذهب مالك فى الانتشار حتى غدا المذهب الرسمى فى الأندلس(٨) .

=

(أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ج ٢ ص ١٧٧) .

(٧) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ .

(٨) أنظر د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم والأندلس ص ٢١٨ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٤ — ٥٥ . ويذهب د. الشكعة : إلى

=

ويذكر المقرى سبب دخول مذهب مالك إلى الأندلس فيقول : « ذهب الجمهور إلى أن السبب فى ذلك هو رحلة علماء الأندلس إلى المدينة ، وعند رجوعهم افاضوا فى الحديث عن فضل مالك ، وسعة علمه ، وجلال قدره ، ومن هنا اقبلوا على مذهبه ، على أن هناك رأيا يذهب إلى أن مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة أميرهم فسره ما سمع من حسن سيرته وعدله فى حكمه » وقد كان مالك يكره سلوك بنى العباس وخاصة المنصور ، وذلك لما فعله بالعلويين فى ثورة النفس الزكية ، ومن هنا تمنى أن يهب الله المشرق خليفة عادلا ، وبلغت امنيته الحكم بن هشام فحمل الناس على اتباع مذهبه وترك مذهب الأوزاعى(٩) .

كما نقل المقرى عن ابن حزم رأيه فى ذلك حيث يقول (ابن حزم) : « مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبى حنيفة فى المشرق ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاء ، وكان لا يلى قاضى فى أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس

=

أن الحكم بن هشام هو الذى نشر مذهب مالك بن جمهرة الناس ، وخلط بين هشام وبين ابنه حين قال « فسمع الحكم ثناء مالك عليه » . وقد اتفقت غالبية المصادر على أن هشام هو الذى أثنى عليه الإمام مالك (أنظر الأدب الأندلسى ص ٧٤) .

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

ويمكن دمج الرأيين فى رأى واحد فنقول : إن مالكا سأل بعض علماء الأندلس الذين التقوا به وتتلمذوا على يديه واسوا جلال قدره وسعة وعلمه عن أميرهم فأثنوا عليه خيرا مما جعله يثنى عليه فتمنى ما تمنى مما كان سببا فى إقبال الناس فى الأندلس على علمه ومذهبه وقام هؤلاء التلاميذ بدور أساسى فى ذلك .

سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به أغراضهم(١٠) . ولكننا لا نوافق ابن حزم على أن السبب فى إقبال الناس فى الأندلس على مذهب مالك هو طمعهم فى الدنيا ، والحق أن مذهب مالك مذهب واقعى أو عملى يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين وفى صالح جمهورهم يعد من الإسلام ما لم يتناقض مع مبادئه وأحكامه أو أوامره ونواهيه ، هذا فضلا عن أنه مذهب أهل المدينة مستقر رسول الله ﷺ ومثواه والتى عاش فيها كثير من صحابته ، وتهوى إليها النفوس .

ويضيف ابن خلدون سببا آخر على طريقته فى فلسفة أحداث التاريخ فيذكر أن البداوة كانت هى الغالبة على أهل المغرب والأندلس وانهم لم تكن لهم حضارة أهل العراق ، فكانوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة(١١) . ونضيف إلى ما قاله ابن خلدون أن مذهب مالك يعتمد على النصوص أكثر مما يعتمد على العقل والقياس ، وهذا أيضا مما يناسب البداوة . ويعد أكثر ملائمة لعقلية الأندلسيين .

ويفسر الأستاذ العبادى انتشار مذهب مالك بعوامل سياسية فيذكر أن النفور كان شديدا،والخصومة مستحكمة بين الأمويين والعباسيين حيث كان العباسيون على المذهب الحنفى لأن مالكا لم يكن يستريح لسياسة العباسيين(١٢) .

وبالاضافة إلى هذه الأسباب فإننا نستطيع أن نضيف سببا آخر له أهميته وهو أن الأندلس لم تكن بمنأى عن التيارات المذهبية فى المغرب الذى لا يفصلها عنها إلا مضيق صغير ، وكان المذهب المالكى قد انتشر فى بلاد المغرب على يد سحنون وأسد بن الفرات الذين

---

(١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .
(١١) المقدمة ص ٤٢٥ المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ .
(١٢) المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٨٩ .

ادخلاه إليها وعملا على نشره مع طائفة من الفقهاء(١٣) .

ومن هنا امتد هذا المذهب إلى الأندلس حيث كان كثير من البربر الذين شاركوا فى فتحها على المذهب المالكى الذى غدا بمثابة الهوية والقومية بالنسبة للسكان فى المغرب والأندلس(١٤) .

وقد كان شبطون أول من ادخل الموطأ كاملا إلى الأندلس على رأى الكثيرين واخذه عنه يحيى بن يحيى الليثى المصمودى ، الذى اشار عليه زياد بالرحيل إلى المدينة للتتلمذ على يد الإمام مالك فلازمه مدة وسمع عنه الموطأ ، ثم رحل إلى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ، كما سمع بمصر عن فقيهيها الليث بن سعد وعبد الرحمن بن القاسم العتقى ، ولما عاد إلى الأندلس عمل هو الآخر على نشر مذهب مالك، وتولى الرئاسة فى الفقه والقضاء واصبح إمام عصره ، وغدا له منزلة سامية ومكانة عظيمة فى عهد هشام الذى قرب الفقهاء حتى سمى عصره بعصر نفوذ الفقهاء(١٥) .

وكذلك غدا له منزلة كبيرة فى عهد حفيده عبد الرحمن الأوسط وبلغ من نفوذ يحيى انه كان لا يولى احدا فى القضاء إلا بمشورته .

---

(١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ . وسحنون هو عبد السلام بن سعيد ، وكان من أشهر فقهاء المالكية بالمغرب ، وعليه تتلمذ الكثيرون من فقهاء الأندلس . فيذكر أنه كان بكورة إلبيرة سبعة سمعوا كلهم منه فى زمن واحد واصبحوا يدورون حول كتابه المدونة الذى جمعه من آراء عبد الرحمن بن القاسم العتقى تلميذ مالك وفقيه المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ هـ .
(انظر : الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ١٤٠ — ١٤١ ، ابن حيان المقتبس ص ٣٠٣ تحقيق د. محمود مكى) .
د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة ص ٢٤ ، ص ٢٥ . الحياة الدينية فى المغرب ص ١٠٣ .

(١٤) د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ص ١٠٧—١٠٨ .

(١٥) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ٤٤ .

وقد اصبح المذهب المالكى فى الواقع هو المذهب الوحيد المعترف به رسميا فى الاندلس واقام الغالبية العظمى من فقهائه انفسهم حراسا له وتحمسوا له تحمسا شديدا وصل بالكثير منهم إلى درجة التعصب له ، وانتهى بهم إلى التقليد والجمود .

وقد وصل التعصب بالبعض لدرجة انه إذا تناظر فقيهان فى قضية او مسألة وقال احدهما : قال رسول الله رد الآخر قائلا : وقال مالك وهذا من الجهل المؤدى إلى العصبية لأن مالكا ما استقى إلا من الرسول ﷺ .

كما وصل التحمس لدرجة أن بعضهم الف كتبا فى مناصرة هذا المذهب على غيره مثل عبد الوهاب بن نصر البغدادى الذى الف كتابا فى مائة جزء كما يذكر المقرى عن « الوادى آشى » سماه (النصرة لمذهب إمام الهجرة) ويذكر أن الكتاب وقع فى يد احد قضاة الشافعية بمصر فألقى به فى النيل لما فيه من عصبية شديدة(١٦) .

ظل الأندلسيون فى الأعم الأغلب على هذا المذهب وتحمسوا له وتعصب بعضهم له تعصبا شديدا ، ولذلك لم تعد الأندلس تسمع غير صوت هذا المذهب بفضل التأثير الذى مارسه فقهاؤه ، ولكن كان هناك أناس اعتنقوا مذاهب اخرى غير أن صوتها كان خافتا ، وكان هناك امراء عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء المالكية كالحكم الربضى ، ويسمحون بل ويشجعون دخول تيارات فكرية ومذهبية جديدة ما دامت لا تمس سلامة العقيدة ولا تهدد نظام الحكم مثل الأمير محمد الأول (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) ولكن الفكر المناصر للمذهب المالكى حاول التقليل - إن لم يكن القضاء - على هذه التيارات

---

(١٦) انظر المقرى ج ٣ ص ٢٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٥٤ .

الوافـدة ، وإهمال شأنها ، وقصر النشاط الدينى فى مجالات الفقـه والتشريع على هـذا المذهب وحـده(١٧) .

وقد كانت سيادة مذهب مالك مما قلل من المذاهب الأخرى المخالفة لأهـل السنة عموما ، وجعل الأندلسيين من عامة وعلماء يصـدرون فى الغالب عن رأى واحد وعاطفة واحدة(١٨) .

غير أن سيادة هـذا المذهب لم تلغ وجـود مذاهب أخرى سـواء اكانت مذاهب فقهية كالمذهب الشافعى والمذهب الحنفى والمذهب الظاهرى ، او مذاهب دينية كالخوارج والشيعة والمعتزلة .

موقف فقهـاء المذهب المـالكى من المذاهب الأخرى :

تعصب فقهـاء المـالكية لمذهب مالك تعصبا شديدا ، وتحمسوا له تحمسا بالغا ، ولذلك وقفـوا ضـد انتشار المذاهب الأخرى سواء أكانت مذاهب فقهية أو دينية . فقـد كان الإمام مالك عندهم هـو صاحب الكلمة العليـا والأخيرة فيما يتصل بالفقه والعقيدة وعلم الكلام .

ودليـل ذلـك موقفهـم من بقى بن مخـلد الذى ادخـل مصـنف ابن أبى شيبة كاملا ، كما أدخل كتاب الفقه الكبير للشافعى ، كما أدخـل ايضـا كتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى ، وصنف تفسير القرآن ومسند النبى ﷺ ليس لأحد قبله كما قيل . واحتفظ بلون من الاستقلال الفكرى فلم يكن يتبع مذهبا معينا وإنما يصـدر فتاواه تبعـا لاجتهاده الشخصى معتمدا على القرآن

---

(١٧) ليفى بروفنسال : الحضـارة العربية فى اسبانيا ص ١٥٤ .

(١٨) ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان ص ٤٥ تحقيق د. رضـوان الداية دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

والسنة(١٩) وهو شيىء لم يكن لفقهاء المالكية أن يتركوه عليه .

ولكنهم لم يستطيعوا مهاجمته مباشرة وانتهزوا فرصة تدريسه لمسند ابن أبى شيبة الذى يعرض آراء مالك وآراء الفقهاء الآخرين فهاجموه .

وقد واجه بقى معارضة عنيفة من فقهاء المالكية وعلى رأسهم ابن مرتنيل(٢٠) ، وأصبغ بن خليل الذى ينسب إليه انه قال « لأن يكون فى تابوتى راس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند ابن أبى شيبة »(٢١) ، ومحمد بن حارث(٢٢) . وقد أخذ هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المالكية فى إثارة العامة ضد بقى واقترح بعضهم إصدار فتوى بإباحة دمه وقرر بقى الرحيل فرارا بنفسه ، وبلغ الأمير محمد ما يحدث فاستدعاه وجميع الفقهاء وعقدت مناظرة دافع فيها بقى عن آرائه بقوة فطلب منه مسند ابن أبى شيبة ليطلع عليه ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب لا تستغنى عنه خزائننا فانظر فى نسخة لنا ، وقال لبقى فى صراحة : انشر علمك وارو ما عندك . ونهاهم عن أن يتعرضوا له(٢٣) .

وإذا كان هذا مثل واحد يبين لنا كيف كان موقف فقهاء المالكية من المذاهب الفقهية ، فما بالنا بموقفهم من المذاهب الدينية والكلامية مثل مذهب المعتزلة والشيعة والخوارج ، لا شك أن الموقف كان أشد ويدلنا على ذلك قول المقدسى (وهم يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى او شيعى ونحوهما ربما قتلوه)(٢٤) .

---

(١٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٨٣ .
(٢٠) انظر ترجمته فى ابن الفرضى المرجع السابق رقم ٢٤٥ .
(٢١) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٦٢٢ .
(٢٢) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ١١٠٧ .
(٢٣) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٢٨١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ .
(٢٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ .

ويكفى أيضـا لفهم ما صـنع المـالكية بالتعليم فى الأندلس حيث قصروه فى الغالب على دراسـة المذهب المـالكى وعادوا ما سواه ولكن كانت هناك أوقات يستطيع فيها أصحاب المذاهب الأخرى تدريس مذاهبهم ولكن على استحياء أو فى خفاء غالبا . ومن ثم فقد فشلت هـذه المذاهب فى أن تجـد لها اتباعا كثيرين مثل المذهب المـالكى(٢٥) .

ومع مجىء المنصور بن أبى عامر اشتدت قبضـة الفقهاء المـالكية حيث كان فى حاجة إلى التأييد من جراء استبداده بالسلطة فقربهم إليـه وامر بحرق كتب الفلسفة ، واطلق لهم العنان فى محاسـبة الكثيرين على عقائدهم فاتهم الكثيرون بالزندقة(٢٦) ، ولذلك اخـذت حرية العلمـاء تقيد فى إلقـاء دروسهم . ويبدو أن المنصور قد قام بذلك سياسة حـيث يقال إنه كان محبا للفلسفة فى قرارة نفسه(٢٧) .

كما واجـه ابن حزم الظاهرى نفس الموقف فاحرقت كتبه فى ميادين إشبيلية(٢٨) .

وفى بعض الأحيـان كانت تخف حـدة المواجهـة للمخـالفين فى المذهب نظرا للحاجـة إلى توحيد الصف ضـد العـدو المسيحى المتربص بالمسلمين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم . وربمـا كان لهـذا الاعتبار اثره فى عـدم انتشار المذاهب المخـالفة للمذهب المـالكى فى الأندلس كثيرا .

---

(٢٥) ريبرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٢٥ – ٢٦ ترجمـة د. الطاهر مكى . دار المعارف سنة ١٩٨١ .
(٢٦) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٦٧ ط بولاق .
(٢٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، ريبرا : التربية الإسلامية ص ٢٦ – ٢٧
(٢٨) انظر : الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم ط ٢ مكتبة وهبة سنة ١٩٧٧ م .

المذهب الشافعي

بالرغم من سيادة المذهب المالكي بالأندلس إلا أن المذهب الشافعي وجد له طريقا إلى هذه البلاد منذ حكم الأمير محمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٣هـ) الذي كان أول أمير أموي يتسامح ويشجع دخول المذاهب الأخرى ، لما رآه ولمسه من قوة نفوذ الفقهاء المالكية ، ورغبته في الحد من نفوذهم كما حاول الحكم الربضي ذلك من قبل ، وأيضا توسيع آفاق الحياة الفقهية بحيث لا تقتصر على مذهب واحد . وذلك بالرغم من تحذيرات الفقهاء المالكية له(١) .

وكان قاسم بن محمد بن سيار القرطبي أول دعاة المذهب الشافعي في العاصمة الأندلسية ، حيث كان قد تفقه في المشرق على هذا المذهب وارتبط به ولما عاد إلى الأندلس دعا إلى ترك التقليد ، والأخذ بالحجة والنظر والاستنباط والاعتماد على الاجماع والقياس ، وأخذ يدرس هذا المذهب في قرطبة تحت رعاية الأمير محمد ، الذي منحه الحماية في مواجهة دعاة التقليد من فقهاء المالكية بخاصة ، وعهد إليه بتحرير وثائقه وشروطه ، وظل في هذا المنصب حتى توفي سنة ٢٧٦ هـ/٨٩٠ م .

---

(١) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٦٤ .

(٢) قاسم بن محمد بن سيار : هو مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قال عنه ابن الفرضي : « كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ومال إلى مذهب الشافعي . يذكر أن اباه أوصاه بالأخذ برأي الشافعي ، ولم يكن مثله في حسن النظر والبصر والحجة قال عنه أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة (ما رأينا أفقه من قاسم ابن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحل) وذكر انه توفي سنة ٢٧٧ ، ٢٧٨هـ (تاريخ علماء الأندلس ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ترجمة رقم ١٠٤٩ .

وقد تأكد هذا التشجيع من الأمير محمد عندما شمل برعايته فقيها آخر هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد القرطبى صاحب التفسير الذى اشاد به ابن حزم وقال عنه :

« الكتاب الذى أقطع قطعا لا استثنى فيه ، أنه لا يوجد فى الإسلام تفسير مثله لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »(٣) .

وقد قام بمحاولات لإدخال المذهب الشافعى إلى الأندلس إلا أنها لم تؤد إلى نتائج هامة فى سبيل نشر هذا المذهب(٤) .

وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وسمع من عدد من الأعلام فى مكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد ، واختلف إلى علماء المالكية والشافعية ، كما سمع من الإمام أحمد وروى عنه وعن ابن أبى شيبة ، كما سمع بإفريقية عن سحنون وغيره ولم يتبع مذهبا معينا ، وإنما كان يصدر فيما يعرض له من قضايا بحسب ما يتراءى له من اجتهاد معتمدا على الكتاب والسنة ، وأخذ يدرس الحديث فى قرطبة ويقرأ مسند ابن أبى شيبه ، وأصبح له تلاميذ ساروا على نهجه من أبرزهم محمد ابن وضاح(٥) ، وقد صنف فى الحديث كتابا رتبه على أسماء الصحابة روى فيه عن الف وثلاثمائة صحابى وعلى أبواب الفقه المختلفة فهو مصنف ومسند قال عنه ابن حزم « وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته

---

(٣) انظر ترجمته فى البغية ص ٢٤٥ وبعدها (٥٨٤) ، الجذوة ص ١٧٧ وبعدها (٣٣١) ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩١ وبعدها (٢٨٣) .

(٤) بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ص ٦٠ .

(٥) هو محمد بن وضاح بن بزيع مولى عبد الرحمن الداخل ، كان من الرواه المكثرين طوف بالمشرق فى طلب العلم ، وسمع من كثيرين منهم سحنون بن سعيد التنوخى بافريقية ويحى بن يحيى الليثى بالأندلس ، واخذ يحدث بالأندلس مدة طويلة وروى عنه كثيرون ونشر علما كثيرا وتوفى سنة ٢٨٦هـ (بغية الملتمس ص ١٣٣ — ١٣٤ ترجمة رقم ٢٩١) .

وضبطه وإتقـــانه وإحتفاله فيـــه بالحديث وجودة شيوخه »(٦) .

وقد ملأ الأندلس حديثا ورواية ، وقد ثار عليـــه فقهاء المـــالكية لأن مسند ابن أبى شيبة الذى كان يقرأه لم يكن يعرض وجهـــة نظر اهل المدينة فقط ، وإنما كان يعرض آراء خصومهم ايضـــا مما جعلهم يثيرون عليـــه العـــامة ويغرون به الأمير محمد ، وينكرون عليـــه ما ادخـــله من كتب الاختلاف وغريب الحديث مما جعل الأمير يتحدث إلى وزيره هشـــــام ابن عبد العزيز فى هـــذا الأمر ويدعوه إلى أن يضع له حـــدا ، فأحضره وخصومه من المـــالكية أمام الأمير الذى تصفح الكتاب ثم قال لخازن كتبه « هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنـــه فانظر فى نسخه لنـــا » ثم قال لبقى انشر علمك واروا ما عندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له .

فأخذ في نشر حديثه وقراءة روايته وانتشر الحديث من يومئذ بالأندلس ثم تلاه تلميذه ابن وضـــاح « فصارت الأندلس دار حديث وإسناد وكان الغالب عليها قبـــل ذلك حفـــظ راى مالك واصـــحابه » كمـــا يقـــول ابن الفرضى .

وكان مما انفرد به بقى انه ادخل مصنف ابى بكر بن ابى شـــيبة كاملا ، وكتاب الفقه للشافعى وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى . وقد اعتبره بعـــض المؤرخين شافعى المذهب على حين اعتبره البعض الآخـــر مستقلا عن اى مذهب فقهى(٧) .

وقد عرفت الأندلس بعـــد ذلك عددا من فقهاء الشافعية الذين تولوا تدريس المذهب ونشره فيهـــا وخاصة فى عهد الحـــكم الثانى (المستنصر)

---

(٦) بغيـــة الملتمس ص ٢٤٥ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩٢ ، بغية الملتمس ص ٢٤٦ .

بعـــد أن كانوا فى عهد أبيـــه الناصر قـــد التزموا جانب الظل فيما يبدو ، حيث لم يعد صوتهم قويا كما كان فى عهد الأمير محمد ، بينما عاد صوت المـــالكية قويا ، واشتدت قبضتهم على مقاليـــد الحيـــاة الدينية والثقافية من جديد فى حماية المنصور بن أبى عامر(٨) .

وقد كان الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر احـــد الدعاة النشطين للمذهب الشافعى فيقول عنـــه الحميدى « كان فقيها شـــافعيا شـــاعرا اخباريا متنسكا »(٩) . وقد اتهم بالاشتراك فى مؤامرة ضـــد والده فكان مصيره القتل سنة ٣٣٨هـ/٩٥٠م .

وكان من اتبـــاع المذهب الشـــافعى أيضـــا ابو الجعـــد أســـلم ابن عبد العزيز بن هاشم القرطبى الذى تتلمذ على يد بقى بن مخلد ، ورحل للمشرق سنة ٢٦٠هـ ، ولقى بمصر عددا من أصحاب الشافعى ومنهم محمد ابن عبد الحـــكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم . وقد ولى قضاء الجماعة مرتين فى عهد الناصر ، وبالرغم من انه كان يميل للمذهب الشافعى إلا انه كان يقضى طبقا للمذهب المـــالكى لأنه المذهب الرسمى للدولة ، وقد توفى ســـنة ٣١٩هـ »(١٠) .

ومنهم أحمد بن بشر بن محمد بن اســـماعيل التجيبى المعروف بابن الأغبش وكان من أهل قرطبـــة سمع من ابن وضاح والخشنى وغيرهما ، وكان متقدما فى معرفة لســـان العرب والبصر بلغاتها منفردا فى ذلك ، وكان مشاورا فى الأحـــكام ، ويذهب فى فتيـــاه إلى مذهب الشـــافعى ويميل إلى النظر والحجة وتوفى سنة ٣٢٧هـ(١١) .

---

(٨) بروفنســـال : الحضارة العربية ص ١٦٦ .
(٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ ترجمة (٥٥٥) .
(١٠) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٨ ، جذوة المقتبس ص ٣٢٢ ، الخشنى : قضاة قرطبة ص ١٨٢ - ١٨٨ ، ١٩٠ - ١٩١ .
(١١) ابن الفرضى ص ٣٣ ترجمة (١٠٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بابن صلى الله ، من أهل قرطبة . كان حافظا للفقه ، عالما بالاختلاف ، بصيرا بالحجاج حسن النظر ، وكان يميل إلى مذهب الشافعى ، وله سماع من شيوخ وقته صحب عبيدا الشافعى وتفقه معه ، وكان له حظ وافر من العربية واللغة وسار فى جملة القابلين للمستنصر ، وكان ينسب أيضا إلى مذهب الاعتزال(١٢) .

وخلال السنوات التى حفلت بالاضطرابات والفتن ، وسبقت سقوط الخلافة الأموية وجد المذهب الشافعى بعض انصار له فى قرطبة من ابرزهم ابن حزم الذى درس المذهب المالكى ، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعى بعض الوقت ، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الظاهرى، واصبح اكبر داعية بالأندلس ، وسخر مواهبه لبعثه وإحيائه من جديد(١٣) .



---

(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٤٧ ترجمة ١٥٤ .

(١٣) د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ص ٥٨ .

المذهب الحنفى

الواقع أن هذا المذهب لم يجد له اتباعا فى الأندلس فى عصر بنى أمية إلا أفرادا قلائل . وقد أبدى المقدسى دهشته من ذلك حين ذكر : إنهم فى الأندلس يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك ، على حين أن ثمة اتباعا كثيرين لمذهب أبى حنيفة فى المغرب .

وكان الرد عليه أن هذا من فعل الأمير ، ثم يروى قصة ينسبها إلى هذا الأمير الذى لم يذكر اسمه — ولعله هشام بن عبد الرحمن — فيقول : إن الأحناف والمالكية تناظرا بين يديه ذات يوم فقال : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، قال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة . فقال : عالم دار الهجرة يكفينا . وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان(١) .

ولكن يبدو فى هذه القصة طابع الصنعة والتكلف بالرغم من ذكر المقدسى أنه سمعها من عدة مشايخ فى الأندلس وهى من نوع الحكايات التى تجرى على ألسنة الناس دون تحقق من صحتها . فهل كان الأمير الأموى يجهل موطن أبى حنيفة ومالك حتى يسأل عن ذلك ؟ . ويظهر أن السبب فى ذلك هو عدم ميل الأمويين لهذا المذهب نظرا لأنه كان مذهب خصومهم العباسيين ، ولذلك مالوا إلى مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام أولا ، ثم إلى مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة الذى أثنى على سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل بعكس العباسيين ، هذا بالإضافة إلى أن مذهب أبى حنيفة مذهب يعتمد على العقل والمنطق أكثر من مذهب مالك الذى

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٧ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ١٦٣ — ١٦٤ .

يعتمد اكثر على النصوص ، مما جعل الأندلسيين — وكان فيهم كثير من البربر الذين انتشر مذهب مالك فى بلادهم قبل ذهابهم إلى الأندلس — يقبلون عليه اكثر نظرا لتوافقه مع طبيعتهم وثقافتهم البسيطة ، ثم إنه مذهب اهل المدينة مثوى رسول الله ﷺ ، ولها من المنزلة والمكانة ما لها .

ومن أشهر اتباع المذهب الحنفى فى الأندلس الذين عثرنا عليهم فى كتب التراجم الأعشى القرطبى الذى كان أول من تاثر من الأندلسيين بفقه اهل العراق(٢) .

ويظهر ذلك من خلال رايه فى شرب النبيذ فقد ذهب مذهب ابى حنيفة فى هذه المسألة(٣) حيث قال : يقصر اسم الخمر على عصير العنب فقط . واما ما اتخذ من غير العنب من الأشربة كالتمر والشعير فيسمى نبيذا وهو حلال إذا لم يسكر اما إذا اسكر فإنه يلحق بالخمر فيصير محرما .

ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ : حرمت الخمرة بعينها والسكر من كل شراب ، وبما روى من أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا ناكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها فى بطوننا(٤) .

---

(٢) وهو ابو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافرى المعروف بالأعشى القرطبى ، رحل من الأندلس إلى مكة سنة ١٧٩هـ ، وسمع من سفيان بن عيينة وغيره ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب إلى مذهب اهل العراق توفى سنة ٢٢١هـ (نفح الطيب ج ١ ص ٣٥١) .

(٣) عن هذه المسألة راجع : تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ٢٧٧ وبعدها، الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام ابى حنيفة ص ٧٩ — ٨٠ .

(٤) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤١٢ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٣ ص ٢٠٣ . يروى الجهشياوى : ان شريكا القاضى تحدث مع معاوية بن يسار وزير المهدى العباسى يوما بحديث فى تحليل النبيذ فقال عافية القاضى وكان حاضرا :

ويتجلى ذلك من قصته (الأعشى القرطبى) مع القاضى محمد بن زياد الذى قبض على رجل شرب نبيذا فحبسه ليقيم عليه الحد ، فذهب الأعشى إلى حارسه واخبره بأن القاضى قد أمر باطلاق سراح الرجل فأطلق سراحه ولم يكن القاضى قد أمر بذلك . وكان قد عرض على الأعشى القضاء فرفض واشتهر بمزاحه وانه صاحب حكايات ونوادر(٥) .

ومن الذين ذهبو مذهب أهل العراق أيوب بن سليمان بن حكم ابن عبد الله بن بلكايش بن إليان القوطى ، وقد رحل إلى المشرق ، ودخل العراق فسمع بها وعاد ومعه الكثير من كتب أهلها ، وكان يميل إلى الحجة والنظر ولا يرى التقليد ، ولذلك انصرف عنه الطلاب ولم يتتلمذ عليه إلا ابنه(٦) .

وقد وجد اتباع هذا المذهب اضطهادا فى الأندلس كما يستدل على ذلك من قول المقدسى : « أما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فإن ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه »(٧) .

=

ما سمعنا بهذا الحديث فقال شريك : وما يضر عالما إن جهل جاهل . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد العلماء عن النبيذ فقال : حلال وقد أدركنا بعض أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه . أما مذهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل الورع فقد عدوا كل مسكر خمرا وحرموا كل أنواع المسكرات من العنب وغيره . (انظر الوزراء والكتاب ص ١٤٤ ، ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ١ ص ٢٠٢) .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ص ٢٣١ تحقيق د. محمود مكى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥ .

(٦) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٧٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ١٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

المذهب الظاهرى

تأسس هذا المذهب بالعراق على يد داود بن على بن خلف الأصبهانى البغدادى (٢٠٠ — ٢٧٠هـ) . وكان على المذهب الشافعى أولا ، ثم خرج عنه واظهر القول بالظاهر . وهو على حد قول الخطيب البغدادى : « أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس فى الأحكام(١) .

وقد نشأ هذا المذهب كرد فعل للمذهب القياسى والإسراف فيه ، ويقوم على الأخذ بظواهر النصوص والتأويل ، ويتلخص فى جعل مدارك الشرع كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، ورد القياس الجلى والعلة المنصوص عليها إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع مجاليها(٢) . وجعل المصادر الشرعية هى النصوص فقط وإبطال القياس . وعدم الأخذ به . ويذكر أن دواد لما سئل عن ذلك وقد أخذ الشافعى به قال : أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس(٣) .

وقد دخل المذهب الظاهرى إلى الأندلس على يد عبد الله بن محمد ابن قاسم بن هلال القرطبى المتوفى سنة ٢٧٢هـ تقريبا وذلك فى عهد الأمير محمد الأول . وكان عبد الله قد رحل إلى المشرق وتلقى العلم على

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٧٤ .
(٢) د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ص ١١٣ ، د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه ص ١٥٨ ، د. صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٨ .
(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ص ٣٧٠ .

يد داود مؤسس المذهب وكتب عنه كتبه كلها وأدخلها إلى الأندلس وغلب عليه هذا المذهب(٤) .

كما وجد عدد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق ومهدوا للفقه الظاهرى بعد عودتهم ومن أشهرهم بقى بن مخلد وأبو عبد الله محمد ابن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، حيث كانوا من علماء الحديث .

ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يجهروا بظاهريتهم وعلى رأسهم القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م الذى كان « يؤثر هذا المذهب ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل بالأندلس »(٥) . ولذلك فإنه يعتبر الممثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس . يقول عنه ابن الفرضى « وكان مذهبه فى الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن على

---

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس رقم ٦٥٥ .

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٣ . وقد لقب بذلك نسبة إلى موطن نشأته وهو فحص البلوط بالقرب من قرطبة ، ولى قضاء الأندلس فى عهد الخليفة الناصر سنة ٣٣٩هـ ، وظل فى هذا المنصب فى عهد المستنصر حتى توفى سنة ٣٥٥هـ فكانت ولايته القضاء ست عشرة سنة لم يؤخذ عليه فيها جور أو هوى — كما ذكر المقرى — وكان خطيبا مفوها خطب فى الاحتفال بسفارة قنسطنطين بعد أن أرتج على أبى على القالى سنة ٣٣٨هـ .

قال عنه ابن حزم « كان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على الانتصار له ، ومن مصنفاته (الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله (والإبانة عن حقائق أصول الديانة . (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٣ ، بغية الملتمس ص ٤٦٦ ، جذوة المقتبس ص ٣٤٨ — ٣٤٩)

ابن خلف العباسى ويحتج له ، وكان بصيرا بالجدل ، منحـرفا إلى مذهب أهل الكلام لهجا بالاحتجاج (٦) .

وكذلك أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت (ت ٤٢١ هـ) ، الذى تتلمذ عليه ابن حزم ، وأخذ عنه المذهب يقول عنه الضبى « فقيـه عالم، زاهـد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حـزم ، وكان أحـد شيوخه »(٧) .

ويعتبر ابن حزم أكبر داعية لهذا المذهب بالأندلس ، فقد ناضـل من أجل إحيـائه ونشره بعـد أن كان قد خبـا فى المشرق ، ولولاه لاندثرت فروعه فضلا عن أصـوله وبقى أشتاتا متفرقات فى بطون الكتب هنـا وهنـاك .

وليست لدينا نصوص صريحة تبين سبب تحول ابن حـزم إلى هذا المذهب واعتناقه له ويمكن إرجـاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ ـ ضـيق صدر ابن حـزم بكثرة الآراء والاختلافات فى المسألة الواحـدة مما جعله يرد المصـادر الأخـرى غير النصوص والإجمـاع ، ويرفضها ويؤلف الرسائل فى إبطالها . مثـل كتابه (ابطـال القيـاس والاستحسان) ، وكتابه (المحـلى) الذى بين فيـه ضعف هذه المصادر وتهافتها .

٢ ـ الخصومة والتنازع والفرقة بين أتبـاع المذاهب المختلفة نتيجة للاتباع والتقليد لأصحابها ، مما جعله يحمل على التقليد ويرى أن الاختلاف بين المذاهب ليس رحمـة كما يقـال ، وإنما هو شر كله ولا يمكن أن يأتى

---

(٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤٤ ، ترجمة (١٤٥٤) .
(٧) بغية الملتمس ص ٤٦٧ ، جذوة المقتبس ص ٣٥٠ .

بخير ابدا ، ووجـد فى منهج الظاهر الراحة للنفس والاطمئنان للقلب .

٣ ـ الفساد الخلقى والنفاق الاجتماعى الذى جعل طائفة من العلماء والفقهاء فى عصره يتقربون إلى الحكام بلوى عنق النصوص مستخدمين فى ذلك القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها . فانكر هذه الوصولية والأدوات التى استخدمها هؤلاء فى سبيل الوصول إليها .

٤ ـ اقتناعه ببطلان التقليد ، وأن اتباع مذهب معين بدعة لأن « سيرة الصحابة والتابعين وطريقتهم هى الاجتهاد ، وطلب سنن النبى ﷺ ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه »(٨) .

٥ ـ سعة علمه وكثرة اطلاعه على كتب السنن والآثار والفقه وغيرها مما جعله يرى نفسه مجتهدا توافرت فيه صفات الاجتهاد . ويطمح إلى أن يكون صاحب مذهب يقول عنه الذهبى « كان رجلا من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة »(٩) .

ويقول عنه الكوثرى « وحيث كانت نشأته فى بيت عز واعتزاز كان يطمح إلى التفرد بمذهب ليكون متبوعا لا تابعا »(١٠) .

ولا غرو فقد بلغت تصانيفه فى علوم شتى نحو أربعمائة مجلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين الف ورقة وهذا شىء لم يجتمع لأحد قبله إلا لابن جرير الطبرى الذى ذكر أنه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا(١١) .

---

(٨) رسائل ابن حزم : رسالتان اجاب فيهما عن سؤالين ص ٩٢ .

(٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٣ .

(١٠) مقدمة كتاب النبذ فى أصول الفقه الظاهرى ص ٥ ، تحقيق الكوثرى مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٩٤٠م .

(١١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٩٩ . المراكشى : المعجب ص ٣٠ ـ ٣١ .

ويعتمد منهج ابن حزم الظاهرى على أصلين : الأول : القول بظاهر الكتاب والسنة والاجماع . والثانى : إبطال القول بالقياس والاستحسان والرأى والتقليد .

ويعد ابن حزم من أشد دعاة المذهب الظاهرى وإمامه فى عصره ، وكتبه تعتبر المرجع الباقى للتعرف عليه حتى قيل « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهرى ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلى »(١٢) .

ولعل خير ما يوضح مذهب الظاهرية كتابه فى أصول الفقه المسمى (الإحكام فى أصول الأحكام) الذى سلك فيه مسلكا يدل على التجديد والابتكار حيث تحدث فيه عن مسائل لم يتحدث فيها ظاهرية المشرق . وقد عقد فيه فصلا بين فيه معنى الظاهرية ، وأنهم لا يعتمدون فى استنباط الأحكام على القياس بل على النص فقط ، وإذا كان النص مطلقا أخذ على إطلاقه إلا إذا قيده نص آخر . بيد أن اعتماد الظاهرية على النصوص فقط قد أوقعهم أحيانا فى بعض المتناقضات ومثال ذلك : أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يوجبون غسله من ولوغ الخنزير مع أنه أشد نجاسة لعدم ورود النص .

وبينما يوجبون غسل اليد ثلاثا بعد القيام من النوم ، ويحكمون بنجاسة الماء الذى مسته يد مستيقظ لم يغسل يده ، نراهم يجيزون للجنب قراءة القرآن والجلوس فى المسجد . إلى غير ذلك من المسائل التى جعلت البعض يحمل عليهم بشدة(١٣) .

---

(١٢) صلاح الدين رسلان : السياسة والأخلاق عن ابن حزم ص ٥٣ .
يعد مذهب الإمام أحمد أقرب المذاهب للظاهرية لأنه يترك القياس إلا فى أضيق الحدود ، ويأخذ بالمأثور ، ويقف عند النصوص .

(١٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٤ .

وقد أخذ ابن حزم يدعو إلى مذهبه الظاهرى الجديد الذى يقوم أول ما يقوم على التفسير الحرفى للنصوص فنراه يقول « ولذا وجب علينا اتباع النص لانه كاف بنفسه واضح ظاهر » ، ويقول : « وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغـة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك افسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله »(١٤) . ولكنه يجيز التأويل حين يكون هنـاك نص آخـر محيل لهـذه الدلالة ، او إجماع متيقن أو ضروة حس فحينئذ يعمل بالتأويل المخالف للظاهر على مقتضى البلاغة العربية(١٥) .

وكنتيجة حتمية للتمسك بالنصوص يرفض ابن حزم القياس والتقليد والراى والاستحسان لأن هـذه فى نظره هى التى فتحت باب الخـلاف والنزاع على مصراعيه . فنراه يقول : « فجميع أهل القياس مختلفون فى قياساتهم ، وهم كلهم مقرون على أن كل قياس ليس صحيحا ، ولا كل راى حقـا »(١٦) .

ولم يقتصر ابن حـزم فى منهجه الظاهرى على ميـدان الفقه واصول الفقه فقط وإنمـا حـاول تطبيقه على العقائد والمذاهب الكلامية . ويعتبر تطبيقه لهـذا المنهج فى هـذا المجال من المبتكرات التى انفرد بها(١٧) .

وقد أصبح ابن حزم صـاحب مذهب نسب إليـه شمل كثيرا من الأتبـاع الذين سموا بالحزمية ، وهو فى كتابه المحلى يدعه إلى مذهبـه

---

(١٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ١١٦ ، جـ ٣ ص ٣ .

(١٥) صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٦ .

(١٦) المحلى جـ ١ ص ٥٨ . القاهرة سنة ١٣٤٧هـ .

(١٧) ديلاس أوليرى : الفكر العربى ومكانته ص ٢٤٠ ، د. طه الحاجرى : صـور اندلسية ص ٨٢٩ .

هـذا دعوة صريحة ، نراها واضـحة فى كل صفحة من صفحات هـذا الكتـاب(١٨) .

ومن اشهر اتباعه : ابن عبد البر القرطبى ، والحميدى صـاحب جذوة المقتبس ، كما اخـذ بلون منه محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور الذى اخـذ بمنهج الظاهرية فى العبـادة والفروع ، والفيلسوف الكبير ابن رشد وابن تومرت زعيم الموحدين ، والمنصور الموحدى الذى جعل مذهبه المذهب الرسمى لدولته(١٩) .

ولكن لم يجد مذهب ابن حزم قبـولا لدى الكثير من الاندلسيين فى العصر الأموى حيث كانوا على المذهب المـالكى الـذى كان بمثـابة دين لهم ، وجـزءا لا يتجزءا من شخصيتهم .

وقد ثارت بينـه وبين الفقهاء — وخاصة المـالكية — مسـاجلات عديدة ومناظرات عنيفة ولذلك فقـد عاش شـطرا كبيرا من حياته فى عنت وأذى ومضايقات دفاعا عن آرائه . ودارت بينه وبين معاصريه من العلماء والفقهاء مناظرات شديدة وخاصة بينه وبين أبى الوليد البـاجى الفقيه الأشعرى المعروف .

يقول المقرى « إنه لمـا قدم الأندلس وجـد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا انه كان خارجا عن المذهب (يقصد المذهب المـالكى) ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجـادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها ، وتبعه اهلها ، فلما قـدم ابو الوليـد كلموه فى ذلك فدخل إليـه وناظـره ، وشهر باطله ، وله معـه مجالس كثيرة »(٢٠) .

---

(١٨) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٥ .
(١٩) الشيخ ابو زهرة : ابن حزم ص ٥١٧ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٦٣ .
(٢٠) نفح الطيب جـ ٦ ص ١٧٦ تحقيق د. فريد رفاعى ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٩ وبعدها .

وكان من اشهر الذين تصدوا للرد على آرائه ونقدوه نقدا لاذعا بعد وفاته (٤٥٦هـ) القاضى المالكى ابو بكر بن العربى فى كتاب سماه (الدواهى والنواهى) يصف فيه الظاهرية بأنهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على رضى الله عنه يوم صفين فقالوا : لا حكم إلا لله وكان اول بدعة لقيت فى رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم ، نشأ وتعلق بالمذهب الشافعى ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل ، واستقل بنفسه وزعم انه إمام الأمة يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرا للقلوب منهم ... الخ » (٢١) .

وقد اضطهد ابن حزم وشدد عليه وشرد عن وطنه واحرقت كتبه علنا فى إشبيلية فى عهد المعتضد بن عباد . ويصف ابن حزم شيئا من ذلك فيقول « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء ارباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح ، وأرزمت الفتنة — الفتنة البربرية — وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤هـ وتقلبت فى الأمور » (٢٢) .

ويقول الذهبى « وقد امتحن هذا الرجل ، وشدد عليه ، وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه

---

(٢١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٩ .

(٢٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .

فى ائمة الاجتهاد ، باقبح عبارة وافظ محاورة وامنع رد »(٢٣) .

لقد كان ابن حزم ضيق الصدر ، متقلب المزاج ، حاد اللسان ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ – مرض الكبد والطحال الذى أصيب به فى صباه وهو يشير إلى ذلك فيقول : « لقد اصابتنى علة شديدة ولدت وفى ربو فى الطحال شديد ، فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر أمرا جاشت نفسى فيه ، إذا أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ووضح عندى أن الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده » . وهذا تحليل دقيق ينم عن ثقافة طبية واسعة .

٢ – ما عاناه من جمود الأندلسيين على مذهب مالك وحده وتعصبهم له ، ورفضهم لأى مذهب آخر سواه ، مما الجاه إلى هذا الأسلوب العنيف لنشر مذهبه خاصة وأنه لقى صدا وهجوما عنيفا فبادله بمثله .

٣ – الظروف السياسية المتقلبة التى عاش فى ظلها ، واكتوى بنارها هو واسرته مما ادى به إلى التنقل المستمر وهو يشير إلى ذلك فيقول « انت تعلم ان ذهنى متقلب وبالى مضطرب مما نحن فيه من نبو الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال وتبدل الأيام »(٢٤) .

ويشير ابن حزم فى قصيدة له إلى مذهبه وما لقيه بسببه فيقول :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت

اقوالهم واقاويل العدى محن

---

(٢٣) سعيد الأفغانى : ابن حزم ص ١٢١ ، ١٣٠ وصفه البعض بقوله « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » . (الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٥) .

(٢٤) طوق الحمامة ص ١٥٤ .

فقلت هل عيبهم لى غير انى لا
اقول بالراى إذ فى رايهم فتن
واننى مولع بالنص لست إلى
سواه انحو ولا فى نصره اهن
لا انثنى نحو آراء يقال بها
فى الدين بل حسبى القرآن والسنن

ويقول فى قصيدة اخرى بعد أن احرقوا كتبه ساخرا :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن انزل ويدفن فى قبرى
دعونى من إحراق كاغد وقولوا
بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بداة
فكم دون ما تبغون لله من ستر(٢٥)

واخيرا ننهى حديثنا عن ابن حزم بقول عبد الواحد المراكشى — الذى كان قريبا من عصره — عنه « وهو اشهر علماء الأندلس اليوم ، واكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك ، واستبداده بعلم الظاهر . ولم يشتهر به أحد قبله ممن علمنا ، وقد كثر اهل مذهبه واتباعه عندنا اليوم بالأندلس »(٢٦) .

---

(٢٥) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ طبعة فريد رفاعى .
(٢٦) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٤٦ وبعدها .

ثانيا ـ المذاهب الدينية (الكلامية)

مذهب الشيعة

كان الفاطميون بعد تأسيس دولتهم فى المغرب يهدفون إلى نشر مذهبهم الشيعى فى الأندلس ، وإلى غزو هذه البلاد لجعلها مع المغرب وحدة واحدة تخضع لسلطانهم ولمذهبهم ، وبهذا ينقسم العالم الإسلامى إلى قسمين :

قسم شرقى تابع للخلافة العباسية ، وقسم غربى تابع للخلافة الفاطمية . ولهذا أخذ الفاطميون فى إرسال عيونهم إلى الأندلس للتعرف على أحوالها مثل أبو اليسر الرياضى ، وابن هارون البغدادى ، وابن حوقل النصيبى .

وقد لعب هؤلاء العيون (الجواسيس) دورا مهما فى الدعاية للفاطميين والمذهب الشيعى بالأندلس ، بالاضافة إلى جمعهم للمعلومات عن أحوالها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم الأمويين .

وقد دخل هؤلاء متسترين إما بغرض العلم كابن هارون البغدادى أو بغرض الرحلة والتجارة كابن حوقل النصيبى ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتجسسون للفاطميين(١) .

يقول ابن الفرضى عن ابن هارون « أدخل بعض كتب أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية ، وانصرف إلى المشرق بعد ما تردد فى الأندلس أعواما واخبرنى سليمان

---

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٨٧ .

ابن ايوب أن أبا جعفر البغدادى — وهــذه كنيته — إنما دخل الأندلس متجسسا »(٢) .

وقد قدم ابن حوقل تقريرا مفصلا للفاطميين عن الأندلس يغــرى بالزحف عليها جــاء فيــه أنها بلاد غنية طيبة الهواء ، كثيرة المــاء ، وان حكومتها ضعيفة لا تقوى على المقــاومة .

ومما قاله فى تقريره « ومن أعجب ما فى هــذه الجــزيرة بقــاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضــعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة »(٣) .

وقد بدأ الفاطميون لذلك يرســلون دعــاتهم متخفين إلى الأندلس ، ونجحوا فى اجتذاب بعض أنصار لهم فيها مثل ابن أبى المنظور الذى رحل إلى المغرب وتولى القضــاء للخليفــة المنصــور الفاطمى ، وابن هانىء الأندلسى الشاعر المشهور الذى التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله(٤) .

---

(٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦ ترجمة (٢٠١) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ ، د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٦٠ ، د. مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٥ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى ، أصله من بنى المهلب الأزديين بافريقية ، انتقل أبوه إلى الأندلس وسكن البيرة فولد له محمــد الذى برع فى الشعر واشتهر . يذكر أنه قصد جعفر بن على الأندلسى ملك الزاب من المغرب الأوسط فوجد بابه عامرا بالشعراء ، فتزيا بــزى بربرى وكتب على كتف شاة بيتين من الشعر هما :

اللبــل لبــل والنهــار نهــار

والبغــل بغــل والحمــار حمــار

=

=

والديك ديك والدجاجة زوجه

وكلاهما طير له منقار

وأدخلهما إلى وزيره فأراد أن يضحك الملك فأبلغه بذلك فأمر بدخوله فأنشده قصيدة مدح رائعة منها :

كأن لواء الشمس غرة جعفر

رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

فقام إليه جعفر وعانقه بعد أن عرفه ، وخلع عليه وظل عنده حتى كتب له المعز الفاطمى ليتوجه إليه ، فاتصل به فى المغرب ، ولما توجه إلى مصر تبعه ابن هانىء ، ثم عاد لأخذ أولاده ولكنه قتل برقة سنة ٣٦٢ هـ. وكان المعز يؤمل عليه آمالا كبارا وأسف لوفاته اسفا شديدا وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

وله قصائد كثيرة فى مدح الفاطميين وخاصة المعز ، وكان شيعيا متحمسا ، وبلغ من تحمسه أن وصف سيفه بالتشيع كذلك حيث يقول :

لى صارم وهو شيعى كحامله

يكاد يسبق كراتى إلى البطل

إذا المعز معز الدين سلطه

لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل

وقد بالغ ابن هانىء فى وصف المعز حتى جعله فى مرتبة الأنبياء بل نسب إليه بعض صفات الألوهية والقدرة على الإتيان بالمعجزات ومن أجل ذلك اتهم بالكفر . مثل قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

ويذكر المستشرق ليفى بروفنسال : أن الدعوة للمذهب الشيعى قد بدأت فى الأندلس خلال حكم عبد الرحمن الناصر ، ولكنه لا يعرفنا على وجه التفصيل كيف بدأت ؟ ولكننا نعتقد أنها بدأت قبل ذلك منذ أن استطاع الفاطميون تأسيس دولتهم فى المغرب فمدوا أبصارهم إلى الأندلس التى كون الأمويون لهم فيها دولة .

ويبدو أن عددا من عيون الفاطميين ودعاتهم المتخفين قد تولوا أمر هذه الدعوة فى الأقاليم الأندلسية القريبة من المغرب ، والمطلة على البحر المتوسط لسهولة الوصول إليها والخروج منها بسبب موقعها الجغرافى ، وبعدها النسبى عن العاصمة الأندلسية (قرطبة) .

وقد أشار ابن حزم فى القرن الخامس الهجرى إلى وجود نواة

=

وكانما أنت النبى محمد
وكانما أنصارك الأنصار

انظر : ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ترجمة (٤٠٩) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ ، ديوان ابن هانىء ص ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ طبعة بيروت سنة ١٣٢٦هـ . وإن ذهب البعض إلى أنه تشيع لا عن عقيدة ، ولكن طمعا ذهب المعز وعطاياه .

وقد فسر البعض أمثال هذه الأقوال حسب نظرية المثل والممثول التى آمن بها الشيعة حيث جعلوا الإمام مثل العقل الكلى الذى يعتبر فى نظرهم أول ما خلق الله ، ولذلك فالإمام عندهم متصل بالله لأن ممثوله وهو العقل الكلى متصل بالله . ولذلك فإنها فى نظرهم لا تعد كفرا (انظر : د. محمد كامل حسن : نظرية المثل والممثول القاهرة سنة ١٩٤٨م دار الفكر العربى) .

للشيعة بين سكان إقليمى المرية ، وبلفيق ، ولكننا لا نعرف عنهم المزيد من الأخبار(٥) .

وقد استطاع القاسم بن حمود — الذى ينتمى إلى الأدارسة العلويين — أن يعتلى عرش الخلافة الأموية مرتين فى الأندلس ٤٠٨هـ ، ٤١٣هـ لعدة شهور قبل سقوطها ، وجاهر بآرائه الشيعية ، وقدم نفسه كممثل لهـا ، وهى بلا شك نفس آراء الأدارسة الذين حاصر الأمويون نشاطهم المعادى لهم فى شمال المغرب(٧) .

ويذكر المراكشى والضبى : أن القاسم كان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا(٨) . وعلى أى الأحوال فإنه يعد من الشيعة بالأندلس سواء جاهرا أو لم يجاهر ، كما كان من الشعراء المتشيعين بالأندلس الشاعر والمؤرخ أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذى تشتم من كتاباته وأشعاره رائحة التشيع والتعصب ضد بنى أمية وهو ينتسب إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى ، واشتهر بالموشحات ،

---

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٦) بنو حمود : أسرة يتصل نسبها بأدارسة شمال إفريقية ، وكانت تقيم فى سبتة ، ثم دخلت قرطبة ، وقبضت على زمام الأمور ، وأخذت تعبث بالخلفاء الأمويين فمرة تضع خليفة دون أن يكون له من الأمر شىء ، ومرة يتولى أفراد منها الحكم ويدعون أنهم خلفاء . ولم يستطيع بنو حمود أو الأمويين الذين وضعوهم على عرش الخلافة أن يحافظوا على وحدة الأندلس فسقطت الخلافة سنة ٤٢٢هـ وبدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

(٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٨) المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ٣٣ ، بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٢٨ .

واتصل ببنى جهور بعد انهيار الخلافة الأموية ، واختص ببنى حمود العلويين ، ولذلك كله اتهم بالتشيع(٩) .

وممن ذكرتهم المصادر الاندلسية على أنهم من المتشيعين الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، وكان من وادى الحجارة ، ورحل إلى المشرق نحو خمسة عشر عاما فسمع بصنعاء ومكة وبغداد ومصر ، ولقى جماعة من أصحاب الإمام أحمد وكان كما ذكر المقرى « إماما فى الحديث ، حافظا للعلل ، بصيرا بالطرق ، ولم يكن بالأندلس قبله ابصر بالحديث منه ، لم يذهب مذهب مالك ، وكان يظن به التشيع لشىء كان يظهر منه فى حق معاوية » وقد توفى بقرطبة سنة ٣٠٥هـ(١٠) .

ونظرا لشدة الخصومة بين الفاطميين الشيعة بالمغرب وبين الامويين السنة بالأندلس فقد أخذ الأمويون وبخاصة منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مجابهة الفاطميين بعدة وسائل وأساليب منها :

١ — التلقب بألقاب الخلافة حيث تلقب الناصر بألقاب الخليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لتوطيد مركزه ، وتثبيت دعائم دولته فى الداخل والخارج ، وإظهار انه لا يقل عن الخليفة العباسى أو الفاطمى . وأن دولته لا تقل عن الدولة العباسية أو الفاطمية بل تنافسهما .

٢ — بث بذور الفتن والخلافات والقلاقل بين القبائل البربرية فى بلاد المغرب لإزعاج الفاطميين ، واجتذاب بعض زعماء هذه القبائل . ومد الخارجين على الفاطميين بما يحتاجونه .

٣ — الحرص على تقوية الأسطول الأندلسى لمنافسة اسطول

---

(٩) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الأندلس ص ٣٤٥ — ٣٤٦ تحقيق د. محمود مكى .

(١٠) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٦ .

الفاطميين فى البحر المتوسط ورد هجماته والسيطرة على مضيق جبل طارق بعد الاستيلاء على طنجة وسبتة وهما معبرى الأندلس من المغرب .

٤ — توطيد العلاقة ببعض الدويلات المغربية بالرغم من مخالفتها فى المذهب مثل دولة بنى رستم الخارجية فى تاهرت(١١) .

٥ — عقد المعاهدات مع أعداء الفاطميين من الدول الأجنبية مثل ملك إيطاليا هوجو البروفانس (هوجو دى بروفانس) الذى كان يحنق على الفاطميين لمهاجمتهم ميناء جنوه وتدميره ، وامبراطور بيزنطة الذى كان يهدف إلى استرجاع جزيرة صقلية من أيدى الفاطميين ، والاخشيديين فى مصر لمجابهة محاولات الفاطميين المتكررة لغزوها .

٦ — محاربة المذهب الشيعى فكريا فى الداخل والخارج : وحظر التاليف فى مسائل الفكر الشيعى والمعتزلى . حتى استقر فى أذهان الأندلسيين أن تناول هذه المسائل يعتبر خروجا عن الدين الإسلامى القويم الذى يمثله المذهب المالكى . ولذلك ذكر المقدسى عنهم قولهم « لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك »(١٢) .

٧ — تأليف الكتب فى الرد على هذا المذهب الذى كان يخشى من تسربه إلى الأندلس ، ومن تعدد الفرق المذهبية فتصاب البلاد بالتمزق والانقسام مرة أخرى بعد أن بذلت جهود مضنية فى توحيدها بالقوة سياسيا وبالمذهب المالكى دينيا .

كما نرى الناصر يرسل مجموعة من الفقهاء المالكية إلى مصر فى

---

(١١) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢١ .

(١٢) احسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣

عهد الإخشيديين لمجابهة مذهب الشيعة فى الخارج . مثل محمد بن القاسم ابن شعبان المعروف بابن القرطى(١٣) .

٨ — استقبال العلماء والأدباء المناوئين للفاطميين والفارين منهم مثل الخشنى صاحب كتاب (قضاة قرطبة) . الذى فر من بطشهم ، واتصل بالحكم وحبب إليه العلم وغرس فيه هواية جمع الكتب . ومثل حكم بن محمد ابن هشام القيروانى المقرىء الذى فر منهم إلى الأندلس فأكرمه المستنصر وأجرى عليه العطاء حتى توفى سنة ٣٧٠هـ(١٤) .

وقد أثمرت هـــذه السياسة التى اتبعها الناصر تجـــاه الفاطميين فأدت إلى فشلهم فى النيل من الأندلس ، والتوجه ناحية مصر لفتحها .

كما اهتم الخليفـــة الحـــكم المستنصر بمحـــاربة الفاطميين ومذهبهم الشيعى مثل أبيـــه وســـار على سياسته تجاههم قبـــل رحيلهم إلى مصر . وبالغ فى ذلك حيث رأى فى محاربتهم نوعا من الجهـــاد ضـــد خصـــوم سياسيين ودينيين فى آن واحـــد . وكان حماسه للفقه السنى على مذهب مالك مما جعـــله ينظر إليهم على أنهم زنادقة تجب محاربتهم خشية انتقال مذهبهم إلى الأندلس(١٥) .

هـــذا فضـــلا عن أنه — مثل بقية بنى أمية — كانوا ينظرون إليهم على أنهم مدعين للنسب الفاطمى ، ودليـــل ذلك تلك الرسائل المتبـــادلة بينـــه وبين العزيز بالله الفاطمى فقد ذكر ابن خلكان : أن العزيز كتب إلى الحـــكم رسالة يسبه فيها ويهجوه فرد عليـــه الحـــكم قائلا « أما بعـــد

(١٣) د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ . ويذكر أن الناصر أرسل إليه عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية بمصر ، فأخرج الإخشيد مثلها لشيوخ الشافعية . انظر : خوليان ريبرا : التربيـــة الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٤) .

(١٤) د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ ص ٣٥٢ ، تاريخ علماء الأندلس ص ١٢١ .

(١٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »(١٦) .

كما ذكر العينى : أن الحكم كتب إلى العزيز كتابا هجاه فيه وذكر انه دعى فى نسبه وأن جده ميمون القداح ينتسب إلى الباطنية(١٧) .

ويبدو انه بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وزوال خطرهم عن الأندلس نهج المستنصر نهجا آخر حيث كان محبا للعلم والثقافة — مثل المأمون العباسى — فاتسعت حركة التأليف والترجمة فى عهده ، لتشمل الوان الفكر المختلفة بما فيها الفكر الشيعى حيث لم يعد هناك ما يخشى منه من تهديد أمن البلاد . وأصبح لدى الأندلسيين من الوعى الدينى ، والتعصب الشديد للمذهب المالكى ما يضمن عدم تحولهم عنه أو انحرافهم لمذهب آخر . فنراه يطلب من بعض العلماء التصنيف فى أخبار الفاطميين وانسابهم ، فيؤلف له معاوية بن محمد بن هشام المروانى المعروف بالشبانسى أو ابن الشبانسية (ت. ٢٩٠هـ) كتابا فى نسب العلويين سماه (التاج السنى فى نسب آل على) ويحتوى على أخبار الشيعة فى المغرب والأندلس(١٨) .

والخلاصة أن الفاطميين لم يتمكنوا من نشر مذهبهم الشيعى فى الأندلس ، كما فعلوا فى المغرب ، ولم يسجل هذا المذهب إلا نتائج محدودة وغير ذات أثر كبير تمثلت فى تلك الأقليات الشيعية التى عاشت فى بعض البلاد الأندلسية وخاصة بعد عصر الخلافة الأموية كما أشار إلى ذلك ابن حزم فى القول الذى ذكرناه آنفا .

---

(١٦) عقد الجمان ج ١٩ ص ٣٩٦ ، تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٣٠ .

(١٧) د. محمد زغروت : مجلة البحوث الاسلامية ص ٣٥٢ .

(١٨) التشيع فى الأندلس : ج ٢ ص ١٢٦ مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد مجلد سنة ١٩٥٤م ، الحلة السيراء : ج ١ ص ٤٠ هامش ٣ ، د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الاسلامية مجلة البحوث الاسلامية عدد ١٧ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

مذهب المعتزلة

وجـدد دعاة المعتزلة كغيرهم من دعاة المذاهب الأخرى ـ كالشيعة والخـوارج ـ متنفسـا لهـم فى بلاد المغرب ، واستطاعوا نشر آرائهم وافكارهم فى أوساط البربر بصفة خاصة . ويرجع نشـاط المعتزلة إلى أوائل القرن الثانى الهجرى حيث أرسل واصل بن عطاء الذى ينسب إليه تاسيس المذهب مجموعة من الدعاة لنشره فى كثير من الأقطار كما يتضح من شعر صفوان الأنصارى احـد شعراء المعتزلة حيث يقول عن واصل :

له خلف شعب الصـين فى كل ثغرة
إلى سوسها الأقصى وخـلف البـرابر

رجـال دعـاة لا يفـل عزيمهم
تهكم جبـار ولا كيـد مـاكر(١)

وكان من هؤلاء الدعاة الذين أرسلهم إلى بلاد المغرب لنشر المذهـب عبد الله بن الحارث(٢) ويبدو أن نشاطه قد لقى رواجا فى أوساط البربر حيث تشير بعض المصـادر إلى اعتنـاق بعض قبـائل البـربر لمذهب الاعتزال(٣) .

وإذا كان مذهب الشيعة قد وجـد مقاومة شديدة من الأمويون فى الأندلس ولذلك لم ينتشر ولم يحرز إلا نتـائج محدودة ، فإن مذهب المعتزلة

---

(١) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٨ بيروت سنة ١٩٦٨م .
(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٩٢ .
(٣) انظر : د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب فى القـرن الثالث الهجرى ص ١٤١ .

قد وجـد مجالا أوسع وعددا أكبر من المؤيدين ربما يفوق بكثير ما أورده لنا المؤرخون الأندلسيون الذين ترجموا لعلماء وطنهم .

ولعل السبب المهم فى ذلك يعود إلى أن الأمويين كانوا ينظرون إلى المذهب الشيعى على أنه مذهب يريد به أصحابه أن يصلوا إلى أهداف سياسية ، بخلاف مذهب المعتزلة الذين لا يبغون من ورائه إقامة دولة مثل الشيعة والخوارج ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأمويين قد رحبوا بهذا المذهب بل إنهم قاوموه أيضا ولكن لم تكن مقاومتهم له مثل مقاومتهم للمذهب الشيعى وبخاصة أولئك الأمراء والخلفاء الذين اهتموا بالعلم والثقافة ، وحاولوا مقاومة نفوذ وتسلط الفقهاء المالكية على مقاليد الحياة الفكرية والدينية فى الأندلس .

وما لا شك فيه أن تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المالكى قد جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية والدينية (الكلامية) نظرة تشدد واضطهاد . كما يستدل على ذلك من قول المقدسى السابق . « وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه » (٤) .

وقد واجه فقهاء المالكية هذا المذهب باستنكار شديد ، والذى كان يكتشف أمره وأنه يدعو لهذا المذهب كان يتم إبعاده من أولى الأمر بواسطة تأثيرهم وتدخلهم كما حدث عندما وصل إلى قرطبة أبو الطيب ابن أبى بردة سنة ٣٦١هـ ، فى عهد الخليفة المستنصر فأحسن استقباله على أنه من كبار الشافعية ، ولما اكتشف أنه من المعتزلة أبعد على الفور سنة ٣٧٣هـ(٥) .

---

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٣ .
(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٠ .

ورغم ذلك فقد وجد من يعتنق مذهب المعتزلة ، ويدعو إليه ، ويبدو أن سبب ذلك هو أن المعتزلة التزموا العمل سرا أكثر من الشيعة ، واستطاع بعضهم أن يبث آراءهم خفية دون أن يلحظهم احد ، أو يثيروا غضب المتشددين من فقهاء المالكية الحريصين على الاتجاه السنى المحافظ . ودليل ذلك ما يذكره ابن حزم « من أن وادى بنى توبة كان كله معتزليا »(٦) .

ومن الصعب تحديد الوقت الذى بدأت فيه آراء المعتزلة تتسلل تدريجيا بين أكثر عناصر الشعب الأندلسى ثقافة ـ نظرا لطبيعة هذا المذهب الذى يعتمد على العقل كثيرا ـ وإن كنا نعتقد ان ذلك لم يحدث قبل حكم الامير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ) الذى سمح للكثير من الآراء والأفكار بالدخول إلى الأندلس فدخلت كثير من كتب المعتزلة إلى الأندلس وتلقفها الكثير من المثقفين وخاصة القضاة(٧) .

ومن أوائل القائلين بهذا المذهب فى الأندلس : احمد بن موسى ابن حدير الذى كان يقول : إن الله عاقل واحمد بن عبد الوهاب بن يونس . كما كان منذر بن سعيد البلوطى يتهم بالميل إلى هذا المذهب أيضا . أما ابنه الحكم فقد كان راس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم كما يقول ابن حزم(٨) ، ومنهم أيضا عبد الأعلى بن وهب القرطبى ت ٢٦٢هـ(٩)

---

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ، دراسات عن ابن حزم ص ٦٠ .

(٧) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٧٢ ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمة ١٥٤ ، وترجمة ١٤٥ .

(٩) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٨٣٧ .

وكان من الفقهاء المشهورين الذين آمنوا بحرية الاختيار ونفى خلود الروح(١٠) .

وكذلك خليل بن عبد الملك بن كليب القرطبى الذى اشتهر باسم خليل الغفلة(١١) وكان معاصرا لبقى بن مخلد ، وقد رحل إلى المشرق ، ودرس على الكثيرين واخذ يتحدث بعد عودته إلى الأندلس عن استقلال الإرادة ، وحرية الإنسان فى أفعاله ورفض مبدأ الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور فى أفعاله(١٢) .

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بآرائه دون تستر ، وكان فى أول أمره صديقا لمحمد بن وضاح فلما تبين له امره هجره وكان يؤول كثيرا من الأشياء . ويذكر أنه جاء إلى بقى بن مخلد فسأله بقى عن أربعة أشياء . قال : ما تقول فى الميزان ؟ قال عدل الله ونفى أن تكون له كفتان . فقال : ما تقول فى الصراط ؟ قال : الطريق (يريد الإسلام) فمن استقام عليه نجا ؟ قال فما تقول فى القرآن ؟ فلجلج ولم يقل شيئا وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال : ما تقول فى القدر ؟ قال : اقول إن الخير من عند الله والشر من عند الرجل . فقال بقى : لولا حالتك لأشرت بسفك دمك ، قم فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت(١٣) .

ويظهر انه لم يتعرض لأذى فى حياته ، وإن تعرض للهجر والمقاطعة من أصدقائه نظرا لآرائه ، ولكنه بعد وفاته جاء جماعة من الفقهاء المالكية ومنهم أبو مروان بن أبى عيسى وأخرجوا كتبه من بيته وأحرقوها إلا ما كان فيها من كتب المسائل (الفقهية)(١٤) .

---

(١٠) الحضارة العربية ص ١٧١ .
(١١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٤١٩ جا ص ١٣٩ وبعدها .
(١٢) الحضارة العربية ص ١٧٢ .
(١٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .
(١٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وكان لخليل مؤيد قوى فى مذهبه وهو تلميذه ابو بكر يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة (ت ٣١٥هـ) وكان كما يقول ابن الفرضى « متصرفا فى ضروب من العلم ، متفننا فى الآداب ورواية الأخبار ، مشاركا فى الفقه والرواية وعقد الشروط ، بصيرا بالاحتجاج وعلم الكلام ، نافذا فى معانى الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب » .

وكان قد رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين ، ثم عاد إلى الأندلس واصيب بمرض النقرس ، وظل ملازما لداره يقصده فيها الكثيرون ، وكان يعلن بالاستطاعة أخذ ذلك عن أستاذه خليل ابن عبد الملك (١٥) .

ويبدو ان مذهب الاعتزال قد اخذ يشق طريقه رويدا رويدا بين المثقفين والعامة أيضا حيث يصف ابن حزم سكان وادى بنى توبة بأنهم من المعتزلة(١٦) كما ذكر ايضا : أنه كان فى الأندلس قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون فيه(١٧) .

وبعد ذلك وخلال عصر الخلافة الأموية طوى الصمت مذهب المعتزلة الكلامى البحت وظهر مذهب جديد على يد ابن مسرة الابن (ولد سنة ٢٦٩هـ وتوفى سنة ٣١٩هـ)(١٨) .

---

(١٥) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٨٨ ترجمة (١٥٨٠) .

(١٦) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٤ .

(١٧) انظر أحمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٩ .

(١٨) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلى القرطبى ، كان ابوه مولى لرجل من البربر من أهل فاس ، وقيل لبنى هاشم ، وقيل لبنى امية ، رحل الأب إلى المشرق وسمع بالبصرة عن كثيرين . والمعروف أنها كانت مقر المعتزلة الأول ، ولذلك كان متهما بالقول بالقدر وكان يكتم ذلك ولا يظهره ، وكان خليل الغفلة صديقا له ، وكان ورعا فاضلا طويل الصلاة ، رحل فى آخر عمره إلى المشرق

=

وقد تتلمذ على يد أبيه الذى اعتنق المذهب ، كما تتلمذ على يد محمد بن وضاح الخشنى وخرج إلى المشرق فى أواخر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة(١٩) . ودخل القيروان ولبث فيها مدة ، وهناك رآه الخشنى فى مجلس أستاذه أبى جعفر أحمد بن نصر أحد تلاميذ سحنون ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج وزار قبر الرسول وظل بالمدينة مدة يتتبع آثاره فدل على دار زوجه مارية القبطية وكانت دارا بسيطة ، وفى أعلاها سقيفة ، فصلى بها ، وحددا مساحتها ، ولما عاد إلى الأندلس بنى مثلها لسكناه فى جبل قرطبة(٢٠) .

وقد صحبه فى هذه الرحلة اثنان من معتنقى مذهبه وهما محمد ابن حزم بن بكر التنوخى ويعرف بابن المرينى وكان من أهل طليطلة ، وأيوب بن فتح ، واثنان آخران هما أحمد بن غانم ، ومحمد ابن وهب المعروف بابن الصيقل(٢١) .

=

ونزل بمكة وتوفى بها فى ذى الحجة سنة ٢٨٦هـ ويقال : إن خروجه كان بسبب دين عليه ، ولكن يبدو أنه اتهم بالاعتزال وطورد فكان ذلك سببا لخروجه (انظر تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٢١٧ - ٢١٨) .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٣٩ ترجمة رقم (١٢٠٤) . حدد د. إحسان عباس مولده بأنه سنة ٢٩٩هـ (تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٥٢) وربما كان خطأ مطبعيا ، والصحيح أنه ولد سنة ٢٦٩هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى فى ترجمته له (تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٣٩ ترجمة ١٢٠٤) . كما حدد خروجه فى سنة ٣١١هـ فى أواخر عهد الأمير عبد الله وربما كان هذا خطأ مطبعيا أيضا لأن عبد الرحمن الناصر قد ولى الحكم سنة ٣٠٠هـ ، ولذلك ذهب البعض إلى أنه خرج فى عهد الناصر سنة ٣٠١ هـ (د. محمود حماية ابن حزم ومنهجه ص ٣٨) .

(٢٠) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ٣٦٥ .

(٢١) التكملة ص ١١ ، ص ١٩٩ ، ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الفرضى : أن ابن مسرة اشتغل فى الشرق بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الأندلس فأظهر النسك والورع ، واختلف الناس إليه وسمعوا منه ، ثم انقسموا فى موقفهم منه إلى فريقين : فريق رآه إماما فى العلم والزهد ، وفريق آخر طعن عليه ووصف مذهبه بالفساد وسوء المعتقد والابتداع والخروج عن العلوم المعلومة بالأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم(٢٢) .

ويبدو من الأخبار القليلة التى وردت عنه فى كتب التراجم والتاريخ ان مذهبه كان يجمع بين التصوف والاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا ولا باطنيا خالصا(٢٣) .

فأما مبادىء الاعتزال التى كان يقول بها فهى القول بالاستطاعة ، وانفاذ الوعيد والتأويل فى كثير من القرآن(٢٤) . يقول ابن حزم « إن ابن مسرة شارك المعتزلة فى القول بالقدر ، وكان يقول : إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان ، وأن لله تعالى عامين احدهما : أحدثه جملة وهو علم الكتاب أو علم الغيب ، والثانى : علم الجزئيات وهو علم الشهادة فإنه لا يعلم منه شيئا حتى يكون واستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾(٢٥) .

---

(٢٢) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٣) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنه كان معتزليا كأبيه ، وأسر مذهبه مثله ، ولذلك اعتزل الناس ، ولم يستطع المحافظة على ذلك طويلا فاتهم بالإلحاد ، وفر من الأندلس واظهر التقية وأخذ يبث تعاليمه (ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠) .

(٢٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(٢٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٨ مصر سنة ١٣١٧هـ .

وقد ذكر ابن الفرضى : انه كان يحـرف التـأويل فى كثير من آيات القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ، ومحاسـبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى المصرى ، وابى يعقوب النهرجورى ، وانه كان له لسان يصـل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفـاظ وإخفاء المعـانى وانه وفد عليـه جماعة من اهل المشرق منهم ابن زياد الأعرابى وابن سالم التسترى(٢٦) .

واما المبادىء الباطنيـة فى مذهبـه فإنه بنـاها على آراء نسبت لانبيذوقليس الفيلسوف اليونانى الذى يعـد أول الحكماء اليونانيين السبعة ونسبت إليـه كرامات كالصوفية ، والحقيقـة انهـا بعض آراء فيـلون الاسكندرى وافلوطين .

ومن هـذه الآراء المنسوبة إليـه الجمع بين معانى صـفات الله ، وانهـا كلها تؤدى إلى شىء واحـد ، وانه إذا وصف بالعـلم والجـود والقـدرة الخ فليس هو ذا معـان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة ، بل هو الواحـد بالحقيقة الذى لا يتكثر بوجه . وتزعم الفرقة الباطنيـة ان له رموزا قلما يوقف عليها(٢٧) .

وقد يستنتج مما جـاء فى كتب ابن مسرة ان النبـوة من الممـكن اكتسابها وانه قد يصل إليها من بلغ الغـاية فى الصلاح وطهارة النفس وإن انكر بعض اصحابه نسبة هذا القول إليه(٢٨) .

وقد ابرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية كانت موجودة عنـد افلوطين

---

(٢٦) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٤٠ ترجمة سنة ١٢٠٤ .
(٢٧) القفطى : اخبار الحكماء جـ ١ ص ١٣ .
احمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٦٩ — ٧٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢٨) ابن حزم : الفصل جـ ٤ ص ١٩٩ .

وهى القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهيــة . واعتبرت هذه المــادة أول صورة برزت للعالم العقلى الذى يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . ويذكر المستشرق الإسبانى بالنثيا : أن ابن مسرة قــد دافع عن هــذا المذهب تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(٢٩) .

ويذكر ليفى بروفنسال : أنه أراد بنــاء منهج فلسفى يقوم على مبدأ وحــدة الوجود ، وأن أصــالة فلسفة ابن مسرة تكمن فى الاستفادة من هذه الفــكرة ، وأنه بنى على هذا المذهب فكرته عن كونية العالم ، وعقيــدته فى الإرادة الحــرة ، والعلم الإلهى السابق وعدم تطهير الروح إلا بعــد عودتها للعالم الروحانى(٣٠) .

ويرى جولد زيهر : أنه تأثر بنظرية الأفلاطونية الحــديثة التى كانت منتشرة بالمشرق فى ذلك الوقت وكون مدرسة تدعو إلى حرية الفكر(٣١) .

وقد انتهى المستشرق الإسبانى آسين بلاسيوس إلى نتــائج تختلف بعض الشىء عن نتــائج ليفى بروفنسال وجولد زيهر فهو يرى وجــوب الفصل عند دراســة أفكار ابن مسرة بين المنهــج اللاهــوتى والمنهــج الفلسفى . وحــاول أن يتبين خصائص كل منهما معتمدا على آراء اثنــين من الأندلسيين وهما ابن حــزم وصاعد الطليطلى ، واثنين من المشــارقة وهما الشهرزورى والشهرستانى(٣٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع ابن مسرة أن يجتذب إليــه تلامــذة

---

(٢٩) تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٨٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

(٣٠) الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٨٠ ترجمة د. الطاهر مكى .

(٣١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٣٢) الحضارة العربية فى أسبانيا ص ١٨٠ .

كثيرين عاش معهم فى عزلة بجبل قرطبة ، وكان كما تصوره الروايات ذا قدرة ساحرة مؤثرة فى النفوس ، والف بعض الكتب فى مذهبه ومنها كتاب الحروف وكتاب التبصرة ، ويذكر ابن الابار : انه لم يكن يخرج كتابا إلا بعد أن يتعقبه حولا كاملا(٣٣) . وكانت بعض كتبه معروفة فى الأندلس ورأى ابن حزم عددا منها(٣٤) .

وقد أثارت آراء ابن مسرة خصومات جدلية فى الأندلس والمشرق ، وتصدى للرد عليها علماء من الأندلسيين والمشارقة فممن تصدى للرد عليه من المشارقة أحمد بن محمد بن زياد الأعرابى ، وأحمد بن محمد بن سالم التسترى .

وممن تصدى للرد عليه من الأندلسيين ابن أبيض الذى الف كتابا كبيرا فى ذلك اكثر فيه من الحديث والشواهد(٣٥) ، وكذلك الزبيدى العالم اللغوى المشهور الذى ألف كتابا فى الرد عليه أيضا(٣٦) ، والقاضى ابن زرب (محمد بن يبقى) الذى كان يعارض آراء ابن مسرة معارضة شديدة والف كتابا اخذ عنه عدة مرات بقرطبة(٣٧) . وقد منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سلطات واسعة ومعه الزبيدى لمحاصرة

---

(٣٣) التكملة ص ٢٨٤ — ٢٨٥ . يذكر أنه كان حريصا على عدم اطلاع أحد على كتبه حتى المقربين إليه من تلاميذه ويقال : إنه لما ألف كتاب التبصرة احتال صاحبه يحيى بن عبد الملك الذى كان يسكن معه فى خلوته بالجبل فاستخرج هذا الكتاب ونسخ منه نسخة لنفسه ثم أراها له فلما تصفحها قال : لا نفعك الله به ولم يخرج هذا الكتاب بعد ذلك لأحد (التكملة ص ٢٨٥) .

(٣٤) احسان عباس : مرجع سابق ص ٥٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٤٤ .

(٣٦) الصلة ص ٤٦٥ .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٤ .

آراء ابن مسرة ، فأمر باعتقال تلاميذه وطلب منهم التبرؤ من افكارهم علنا ، واحرق كتبهم التى نسخوها من كتبه خارج مسجد قرطبة .

ثم جاء عهد الخليفة الحكم المستنصر فخفت حدة ملاحقتهم بعض الشىء نظرا لاهتمام هذا الخليفة بالعلوم العقلية ومنها الفلسفة إلى جانب العلوم الدينية . ولكن ما إن جاءت خلافة ابنه هشام المؤيد الذى تولى حجابته المنصور بن ابى عامر حتى عادت ملاحقتهم من جديد — حيث كان المنصور شديدا على المشتغلين بالفلسفة — وتم تعيين ابن زرب قاضيا للجماعة ، فاهتم بالكشف عنهم وتتبعهم واستتابتهم فتاب على يديه عدد منهم وأحرق ما وجده من كتبهم وكان ذلك فى حدود سنة ٣٧٠هـ (٣٨) .

وفى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٩م اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطى القاضى المشهور فى عهد الناصر والمستنصر وقد حكم على عبد الملك بالقتل والصلب حيث اتهم بأنه معتزلى وانه ضم ثلاثة من إخوته وهم سعيد وعبد الوهاب والحكم إلى مذهب ابن مسرة ، وأخذوا يبثونه فى قرطبة ، وساعدهم فى ذلك نظام الخلوة التى اقامها ابن مسرة بعيدا عن العاصمة فى جبل قرطبة . وتكوين مقر آخر لاتباع المذهب فى مدينة بجانة(٣٩) .

وكان هناك أناس انضموا إلى مذهب ابن مسرة دون أن يلتقوا به أو يتتلمذوا على يديه ومنهم طريف الروطى ، وأضحى بن سعيد وكانا من

---

(٣٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ ، د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : مرجع سابق ص ٥٨ .

(٣٩) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ — ١٨٢ .

اهل الزهد والخير وقد الف بعضهم كتابا فى اخبار ابن مسرة واصحابه نقل عنه ابن الأبار فى التكملة(٤٠) .

ومن اشهر اتباع ابن مسرة وتلاميذه أيضا : إلياس بن يوسف الطليطلى ت ٣٢١هـ ، واخوه عون بن يوسف الطليطلى ، وخليل ابن عبد الملك (ت ٣٢٣هـ) الذى تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان يجاهر بالقول بالاستطاعة والقدر والتأويلات التى تفسر لنا شيئا من تأويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق أى الإسلام ، والميزان هو عدل الله(٤١) .

وأيوب بن سليمان بن اسماعيل الطليطلى ت ٣٤٣هـ وكان قديم الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له(٤٢) ، ومحمد بن مفرج المعافرى (ت ٣٧١هـ) الذى لم يقف عند حد الاعتقاد بالمذهب وإنما كان يدعو إليه(٤٣) ، ومحمد بن فضل الله بن سعيد الذى تفقه بكتب ابن مسرة ، واحمد بن وليد (ت ٣٧٦ هـ) وهو من أهل بجانة وكان من الذين استتابهم القاضى محمد بن يبقى(٤٤) ، ورشيد بن فتح الدجاج من أهل قرطبة (ت ٣٧٦هـ) وكان يتهم بمذهب ابن مسرة ولما توفى صل عليه القاضى محمد بن يبقى ودفن بمقبرة قريش ويظهر انه استتابه(٤٥) .

وأبان بن عثمان (ت ٣٧٧هـ) من أهل شذونة وكان نحويا لغويا ،

---

(٤٠) التكملة ص ١٢ ، ٣٤٦ .
(٤١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٣٩ .
(٤٢) ابن الأبار : التكملة ص ١٩٩ .
(٤٣) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٨١ — ٨٢ ترجمة رقم (١٣٣١) .
(٤٤) تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٥٣ ترجمة (١٨١) .
(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ ترجمة (٤٣٩) .

لطيف النظر . جيد الاستنباط ، بصيرا بالحجة متصرفا فى دقيق العلوم ، حسن الشعر ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة(٤٦) .

وعبد العزيز بن حكم الأموى (ت ٣٧٨هـ) وكان مائلا إلى الكلام والنظر وقد غض منه انتحاله لمذهب ابن مسرة كما يقول ابن الفرضى(٤٧) ومحمد بن أحمد بن حمدون القرطبى المعروف بابن الإمام (ت ٣٨٠هـ) وكان مشهورا باعتقاد مذهب ابن مسرة يجاهر به ولا يتستر، وكان مولعا بالتشريق فى صلاته(٤٨) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسى القرطبى (ت ٣٨٢هـ) وأصله من جيان وكان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ويبدو أنه تاب عنه(٤٩) .

وآخر من عرف من أصحاب ابن مسرة اسماعيل بن عبد الله الرعينى وهو متأخر عن الجيل الثانى من أتباعه ، وقد أدركه ابن حزم ولكنه لم يلقه وقال عنه « وكان من المجتهدين فى العبادة المنقطعين فى الزهد »(٥٠) . وقد أحدث فى المذهب أقوالا نفرت سائر من بقى من أتباعه منه وكفروه لذلك إلا القليل منهم ومنها قوله : إن الأجساد لا تبعث أبدا وإنما تبعث الأرواح ، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ، ويصير إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وأنها لا تبعث إلا على هذا الوجه أبدا .

وقوله : إن العالم لا يفنى أبدا ، وكان لا ينسب الفعل إلى الله

---

(٤٦) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٢ ترجمة (٥٤) .
(٤٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ ترجمة (٨٣٦) .
(٤٨) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٣ ترجمة (١٣٦١) .
(٤٩) المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦ ترجمة (١٣٦٦) .
(٥٠) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

وينزهه عن ذلك ، ويرى أن العرش هو الذى يدير العالم وينسب قوله هذا إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال فى كتبه .

ولكن ابن حزم يدافع عن ابن مسرة فى ذلك قائلا : « ليس فيها لعمرى دليل على هذا القول » ويذكر انه عرض هذه الأقوال على ابن لإسماعيل فأنكرها ، ولما برىء منه أتباع ابن مسرة بقيت ابنة له تتبعه وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة(٥١) .

ويذكر ابن حزم أيضا انه رأى من أصحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون .

ويبدو أن اسماعيل قد حاول تكوين مذهب جديد يكون إماما له ونادى بمبادىء جديدة وانه اتبعه أناس على هذا المذهب ويستشف ذلك من قول ابن حزم : « وهناك أمور لا شك فيها وهى أنه كان عند فرقته إماما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض ، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق ، وأن الذى يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينا ، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط ، وصح أنه كان يقول بنكاح المتعة »(٥٢) .

وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت فى سبيل القضاء على هذا المذهب سواء من الخلفاء أو الفقهاء المالكية إلا أن ذلك لم يؤد إلى منع بعض مبادئه إن لم يكن كلها من البقاء لتأخذ فى الانتشار بعد ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لتحدد بدقة ووضوح ملامح الحياة الصوفية الجماعية فى الاندلس وتطورها(٥٣) .

---

(٥١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .
(٥٢) انظر الفصل ج ٤ ص ٢٠٠ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .
(٥٣) بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨٢ .

مذهب الخـــوارج

إذا كان مذهب المعتزلة قــد لقى معارضة شديدة فى الأندلس ، فإن مذهب الخوارج بلا شك قد لقى معارضة ومقاومة أشد .

ومن المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية والصفرية(١) .

---

(١) **الإباضية :** تسمية أطلقت عليهم من قبـــل خصومهم وهى نسبة إلى عبد الله بن إباض الذى اشتهر بالدفـــاع عن المذهب . ومؤسسه الحقيقى هو الإمام جابر بن زيد أســـتاذ عبد الله ، وقــد استخدم أسلوب التقيـــة الدينية فى البصرة ، وعرف بأنه أحـــد التـــابعين المحدثين الثقـــات ومن فقهاء البصرة وعلمائها . (الحياة الدينيـــة فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٩٧) وهـــم لا يعتبرون أنفسهم من الخوارج وإنما هم الجماعة المؤمنة ولذلك يتبرأون من فرق الخوارج الأخرى التى حكمت على مرتكبى الكبائر بالشرك وأحــلت دماءهم وأموالهم . وقد بين الشهرستانى وغيره من كتاب الفرق آرائهم حيث قالوا : « إن مخالفينا من أهل القبلة غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حـــلال وما سواه حـــرام ، وحرام قتلهم ، وسبيهم فى السر غيـــلة إلا بعـــد نصب القتـــال وإقامة الحجة ، وقالوا إن دار مخـــالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى ، وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وقالوا فى مرتكبى الكبـــائر إنهم موحدون لا مؤمنون » (الملل والنحل ص ١٣٤ ، مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ١٧١) .

وفى هـــذه الآراء نلمس مدى المسالمة والاعتدال الذى اتسم به الإباضية بالقياس إلى الفرق الأخرى من الخوارج التى كفرت المسلمين واستباحت دماءهم وأموالهم وأعراضهم (انظر د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٠١) .

قد وجـد له مجالا وصدى فى بلاد المغرب ، ووجـد اتباعه فيها مجـالا خصبا لبث افكارهم وتشريعاتهم بعيدا عن قبضـة الخلافة ، واقبل عليـه الكثير من البربر لأنه كان يتلائم مع نزعتهم وعقلياتهم وطبيعتهم بمـا فيـه من بسـاطة ووضوح من ناحية ، وصلابة وتشدد وقوة مراس من ناحيـة اخـرى .

الصفرية : أصـحاب زياد بن الأصفر ، وقيل سموا بذلك نظـرا لاصفرار وجوههم نتيجـة لكثرة العبـادة . ومبـادئهم فى الجملة كمبادىء الأزارقة فى أن مرتكبى الكبائر مشركون ، غير أنهم لا يرون قتل مخالفيهم مثل الأزارقة ، وهم يقولون بموالاة عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير السـعدى واتباعهما من المحكمة الأولى ويقـولون بإمامة أبى بلال مرداس الخـارجى وعمران بن حطـان السدوسى بعده (الفرق بين الفرق ص ٧٠ ــ ٧١ ط ٢ بيروت سنة ١٩٧٩م) .

وقد أشـار الشهرستانى إلى الخـلاف بين الصفرية من ناحيـة والأزارقة والنجـدات والإباضـية من جهة أخرى فقـال « إنهـم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقـاد ولم يسقطوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفـال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النـار ، وقالوا التقية جائزة فى القول دون العمل . وأمـا قضـية الإيمـان والشـرك والبـراءة عنـد الصفرية فيلخصـها قـول نسـب لزيـاد « نحـن مؤمنون عنـد أنفسـنا ولا ندرى لعلنـا خرجنا من الإيمان عند الله . والشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بانكار النعمة ، وكفر بانكار الربوبية والبراءة براءة من اهـل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود فريضة » (الملـل والنحـل ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م) .

ويشير ابن خلدون إلى شىء من ذلك فيقول : « ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بهـا ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية ... الخ »(٢) .

وقد ساهمت الظروف والأوضـاع السياسية والاجتماعية التى كان يمر بهـا المغرب فى تمهيد السبيل لانتشار مذاهب الخوارج فيه ، والمتصفح لأسماء القبـائل التى انضمت للمذاهب الخارجية يجـد انها شملت البتر والبرانس أصـل البربر . فقد أعتنقت زناتة المذهب الإباضى ، وساندت الدولة الرستمية الإباضية ، مما دفـع أحـد ولاتها إلى القول « بأن هـذا الدين إنما قام بسيوف نفوسة وأموال زناتة »(٣) .

وكذلك قبيلة نفوسة التى تعـد من أكبر قبائل البربر ، وقد اعتنقت المذهب الإباضى ، وقبيلة لمـاية التى اعتنقت المذهب الإباضى أيضـا . وقبيلة هوارة التى تنتمى للبرانس التى اعتنق اغلبها المذهب الإباضى(٤) .

والى جانب المذهب الإباضى التى انتشر فى مناطق كثيرة من بلاد المغرب فقـد وجـد المذهب الصفرى الذى انتشر ايضـا واعتنقه العديد من البربر وخاصـة قبـائل مكناسة ومطغرة وبرغواطة وكانت أول ثورة خارجية تندلع على ارض المغرب سـنة ١٢٢هـ بقيـادة ميسرة المدغرى (المطغرى) ويعرف بالحقير بائع المـاء بسوق القيروان(٥) .

وقـد اسـتطاع ميسـرة ان يقـود جمـوع اتبـاعه من الخـوارج الصـفرية وغيـرهم ليقـضى عـلى ولاة طنجـة وإقليم السوس واتبعه هؤلاء وبايعوه بالخـلافة وخاطبوه بأمير المؤمنـين وفشت دعوته فى سـائر القبائل بافريقية(٦) . ويذكر أن اتباعه كانوا

---

(٢) العبر جـ ١ ص ١١٠ ط بيروت سنة ١٩٧١م .
(٣) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٥٤ ــ ١٢٥ .
(٤) العبر جـ ٦ ص ٥٨٦ .
(٥) الكامل جـ٥ ص ١٩١ ــ ١٩٢ ، العبر جـ٤ ص ١٨٩ ، تاريخ افتتـاح الأندلس ص ١٤ .
(٦) عن هذه الثورة انظر السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٤ ــ ١٥٥

يحلقون رءوسهم تشبها بالخوارج من الأزارقة وأهل النهروان من أتباع عبد الله بن وهب الراسبى(٧) .

وقد استطاع المذهب الخارجى بشقيه الإباضى والصفرى أن يحقق نجاحا سياسيا بإقامة دولتين خارجيتين إحداهما دولة صفرية فى سجلماسة فى المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ والأخرى إباضية فى المغرب الأوسط وهى الدولة الرستمية سنة ١٦٠هـ(٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق الذى دخل الأندلس وهى مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة وكلها متفرعة من زناتة(٩) . ومن المعروف أن قبيلة مطغرة كانت تعتنق المذهب الصفرى ومنها ميسرة المدغرى الذى قام بأول ثورة خارجية فى المغرب وامتد صداها إلى الأندلس .

ولا شك أنه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتنق المذاهب الخارجية وإن كانت المصادر لم تورد لنا كثيرا من ذلك . والدليل على ذلك أن هناك ثورات بربرية رفعت شعار الخوارج وتشبهت بهم ومن أخطرها ثورة ابن هدين أو زقطرتق سنة ١٢٥هـ التى حلق فيها البربر رءوسهم اقتداء بميسرة « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا » وقد ذكر ابن حزم : أن النكارية كانوا هم الغالبين على خوارج الأندلس(١٠) .

ويذكر دوزى : أن رجع ثورة البربر بقيادة ميسرة فى افريقية كان شديدا فى إسبانيا حيث رحب بربرها بمبعوثى الخوارج الوافدين من إفريقية لدعوتهم إلى حمل السلاح لاستئصال شأفة العرب فنشبت فتنة سياسية دينية كفتنة إفريقية(١١) .

---

(٧) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٣٢ ، د. السيد سالم : تاريخ : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٥٤ .
(٨) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٨ .
(٩) القيروان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ١٠٦ وبعدها .
(١٠) أخبار مجموعة ص ٣٩ — ٤٠ ، الفصل : ج ٤ ص ٢٠٢ .
(١١) تاريخ مسلمى إسبانيا ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م .

التصـــوف

هنـــاك ناحية جديرة بالبحث فى الحالة الدينية وهى ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف فى المشرق فى القرن الثانى ، كذلك نشأ فى الأندلس فى نفس القرن بعـــد الفتح غير أن التصوف فى المشرق كان مزيجـــا من التعاليم الإسلامية وتعاليم الفرس واليونان والهنود وتصوف الأندلس كان مزيجا من تعاليم الإسلام والأفلاطونية الجديثة والتعاليم اليونانية والرومانية وما جاء من قبل المشرق من تعـــاليم فارسية وهندية ، حيث كانت الأندلس تجـــاور هـــذه البـــلاد .

يضاف إلى ذلك أن الأندلس قد كثر فيها العنصر البربرى ، وقـــد اشتهر هـــذا العنصر من قديم بأن أهله أصـــحاب خيـــال واعتقاد بالمغيبات وسرعة تصـــديق أصحاب الدعاوى الغيبية ولا ننسى ما لقيـــه العرب عند فتحهم للمغرب من شـــدة مقاومة هـــذا العنصر وخاصة على يد امرأة تدعى (الكاهنة) حيث التف حولها الكثيرون ، وقاوموا العرب مقاومة شديدة . وحتى الآن فى كثير من بلاد المغرب لازال للبربر شهرة قوية فى فتح الكتاب، وكشف الكنوز وقراءة الكف والتنجيم وإدعاء معرفة المستقبل وهى اشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى ولذلك كله اتسعت عند الأندلسيين حـــركة التصوف (١) .

واول من عرف تصوفه فى الأندلس ابن مسرة محمد بن عبد الله المولود سنة ٢٩٦هـ وقد عرف أبوه بالاعتزال وكان ذلك المذهب قليـــلا وغير مرغوب فيـــه فاضطر أن يخفى ذلك . وأورث هـــذا المذهب لابنه فاعتزل الناس قبل الثلاثين فى خلوة بجبل قرطبة يتعبد فيـــه ويبث هـــذا المذهب لاتباعه . وساعدته عزلته على ســـعة الخيـــال وعمق التفكير والصفاء ولكن ما لبث أن انكشف أمره فاتهم بالزندقة فخرج من الأندلس مظهرا انه يريد الحج

---

(١) احمد امين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ ، إحسان عبـــاس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

حتى كانت خلافة عبد الرحمن الناصر فعاد مرة أخرى وأخذ فى نشر مذهبه فازداد أتباعه ، ويبدو أنه اتخذ التقية وسيلة لاخفاء حقيقة مذهبه الذى يجمع بين الاعتزال والتصوف(٢) .

ويبدو أن تطور مذهب الاعتزال وانتشاره فى الأندلس قد ارتبط بحياة الزهد والتصوف(٣) .

وهنا يصح لنا أن نتساءل هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف ، أو أن ميله الطبيعى ومزاجه وتعاليم النصارى الإسبان والفلاسفة اليونان هى التى أنتجت ذلك ؟ فيكون التصوف الأندلسى مستقلا عن التصوف فى المشرق . ليس بين أيدينا ما يقطع بالاجابة خصوصا وقد كان فى الأندلس قبل الإسلام زهاد من الرهبان المسيحيين انقطعوا للعبادة . ولا مانع من أن يكون التصوف الأندلسى قد أخذ من هذا وذاك . وعلى أية حال فقد كان ابن مسرة أول من عرفنا فى الأندلس من المتصوفة وكان من تلاميذه أبو بكر محمد الهاشمى الذى أخذ عنه محيى الدين ابن عربى وكان متقشفا زاهدا ولم نعرف له كتبا ، وعاصره صوفى آخر يدعى أبو عبد الله القرشى الهاشمى الذى نسبت إليه أقوال صوفية كثيرة منها « من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبه فيها » ، « من لم يراع حقوق الإخوان يترك حقوقه حرم بركة الصحبة » وقد توفى ببيت المقدس سنة ٥٥٩هـ وكان الناس يتبركون بضريحه هناك(٤) .

ويرى أسين بلاسيوس أن حياة الزهد كانت هى الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة فى عصر الخلافة لمن يريدون الفرار من سيادة رجال

---

(٢) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٦٩ .
(٣) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .
(٤) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٧٠ .

الدين المالكية فى الأندلس ، وأن يبثوا تعاليمهم فى دائرة ضيقة من الأتباع والمريدين دون أن يتعرضوا لخطر جسيم .

واستطاع هؤلاء الزهاد بورعهم أن يكتسبوا مكانة عند السلطان والفقهاء والعامة ، واستعانوا بالتفسيرات الرمزية للتوفيق بين النصوص وبين الأفكار الباطنية المشرقية(٥) .

وكان هؤلاء يشكلون على نحو ما رواد الحركة الصوفية فاعتزلوا الحياة فى المدن ، واعتكفوا فى الجبال والغابات ، واجتهدوا فى العبادة والطاعة وحرمان النفس من الشهوات والملذات ، وآثروا الفقر على الغنى وكانوا يقطعون الليل فى تلاوة القرآن ، والنهار فى الصيام ولا يأكلون إلا القليل ، ويصبرون على المرض ويفضلون حياة العزوبية ، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء ، يفتدون الأسرى ، ويقطعون حياتهم فى العزلة والتأمل والفكر والعبادة ، أو يرابطون فى الثغور لمحاربة النصارى طلبا للشهادة .

وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون عليهم العباد والنساك والزهاد والصوفية وكان الكثيرون منهم قد قطعوا كل صلة لهم بالحياة العامة فى مجتمعاتهم بينما أبقى البعض منهم على صلاته بالأوساط العلمية والدينية . وتميزوا بملابسهم الغريبة الخشنة ، وحياتهم القاسية ، وممارسة الأعمال اليدوية للتعيش منها ، ومن حين لآخر يشاركون فى الحملات الحربية الموجهة ضد النصارى .

وقد قدم لنا الضبى فى كتابه بغية الملتمس نموذجا حيا لواحد من هؤلاء الزهاد ويدعى محمد بن طاهر القيسى فيقول عنه « ورع فاضل من أهل بيت جلالة وصلاح برع بخصاله المحمودة فكان فى نفسه فقيها عالما زاهدا خيرا ناسكا متبتلا فى طلب العلم ، ورحل فى التماسه إلى

---

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

قرطبة فروى الحديث بها وتفقه بأهل الشورى المفتين وناظرهم وأخذ بحظ وافر من العلم ، ثم ارتحل إلى المشرق عند إتمام الثلاثين فسكن الحرمين ثمانية أعوام يتعيش من عمل يده بالنسخ ، ورحل إلى بيت المقدس ثم إلى العراق ، ودخل مدينة واسط ، واستكثر من لقاء العلماء والفقهاء ، وصحب الأخيار والنساك وتألفهم واقتدى بهم ولبس الصوف وقنع بالقرص وتورع جدا وأعرض عن شهوات الدنيا فأصبح عالما عاملا منقطع القرين ، قد جربت منه دعوات مجابة ، وحفظت له كرامات ظاهرة ، يطول القول فى تعدادها حملها عنه رواة صدق » .

ثم قدم تدمير سنة ست أو سبع وثلاثمائة ولم يزل بمدينة مرسية قاعدة تدمير وطنه ، ونزل خارجا عنها فى القرية المنسوبة إلى بنى طاهر ، وابتنى لنفسه بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطرفاء(٦) آوى إليه وكانت له هناك جنينة يعمرها بيده ويقتات بما يزرعه فيها من البقل والثمر . وكان لا يدع فى خلال ذلك الجهاد مع محمد بن أبى عامر وقوادة وشهد معه فتح مدينة سمورة ، وقلمرية من قواعد مملكة جليقية المسيحية ثم ترك قريته ورحل إلى الثغر . وواصل الرباط بفروجه المخوفة .

وكان ذا بأس وشجاعة وثقافة تحدث بها أهل الثغر فى حكايات عجيبة وظل مرابطا بطليرة حتى استشهد سنة ٣٧٩هـ(٧) .

وثمة نموذج آخر وهو عثمان بن محامس ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م قال عنه الضبى « زاهد عالم مشهور بالعزوف عن الدنيا من أهل استجة ....

(٦) ورد فى نفح الطيب بحطب السدر ، وفى هامشه بحطب الشعراء والسدر شجر النبق ، والشعر والشعراء شجرة ليس لها ورق ولها أهداب تحرص عليها الأبل أشد الحرص (بغية الملتمس ص ٨٤ هامش ٢) .

(٧) الضبى : بغية الملتمس ترجمة رقم (١٥٤) (ص ٨٣ — ٨٤) .

كتب على باب داره (ياعثمان لا تطمع) »(٨) .

ويقول عنه ابن الفرضى « كان حافظا للتفسير ، عالما بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب ينقل أكثره عن ظهر قلب وتوفى رحمه الله سنة ست وخمسين وثلاثمائة »(٩) .

وخلال عصر الخلافة بدأت الأندلس تستقبل أعدادا من هؤلاء النساك الجوالين الذين أخذوا يزدادوا فى القرون التالية وبخاصة فى شرق الأندلس ومملكة غرناطة ومن هؤلاء ابراهيم بن علق الديلمى الخراسانى ، وأحمد بن محمد بن صالح الأنطاكى(١٠) .

ونجد فى هذه الفترة نزعة زهد واضحة عند بعض الشعراء مثل ابن أبى زمنين والغزال وابن عبد ربه وأبى بكر الزبيدى وغيرهم(١١) ونحس فيها بأفكار شاعر الزهد أبى العتاهية ونظرته إلى الحياة والموت . ومن العسير أن نحكم بأن الشعراء الأندلسيين قد استعاروا هذه الموضوعات من أبى العتاهية أو اقتبسوها من شعره لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية ولا تجىء كلها اقتباسا ، فموضوع الحياة والموت مشترك بين الناس جميعا ، ولكن أثر أبى العتاهية فى تقوية هذه النزعة الزاهدة فى الشعر الأندلسى لا يمكن إنكاره فعندما تنظر إلى الزبيدى فى قوله :

تفكر فى الممات فعن قريب ... ينادى بالرحيل إلى الحساب
وقدم ما ترجى النفع منه ... لواء الخلد واعمل بالكتاب
ولا تغتر بالدنيا فعما ... قريب سوف تؤذن بالخراب

---

(٨) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١١٩٤ ص ٤١٣ .
(٩) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٣٠٥ ترجمة ٩٠١ .
(١٠) انظر ترجمتهما فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٠ ص ٢٠ ، ورقم ٢٠٤ ص ٦٢ — ٦٣ .
(١١) راجع عن أشعار الزهد عند الغزال وكذلك ابن عبد ربه ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٠٩ — ١٢٣ .

فإننا نجده قد اتفق فى الشكل والموضوع بل والقافية مع قول أبى العتاهية :

لدوا للموت وابنو للخراب فكلكم يصير إلى تباب

وإذا نظرنا إلى قول ابن أبى زمنين :

ايها المرء إن دنياك بحر طامح موجه فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها مبين وهو اخذ الكفاف والقوت منها (١٢)

وإلى قول أبى العتاهية :

كل اهل الدنيا تعوم على الغفلة
منها فى غمر بحر عميق
يتبارون فى السباح فهم ما
بين ناج منهم وبين غريق

فاننا نجد الموضوع واحدا بينها وإن اختلفت الصورة فالصورة عند أبى العتاهية غير تلك التى يرسمها ابن زمنين وهى اقرب إلى أن تكون اندلسية أصيلة من تلك الصورة التى رسمها لنا الزبيدى فى أبياته السابقة(١٣) .

ويذكر د. إحسان عباس : أن شعر الزهد فى الأندلس قد ولد فى احضان ثورة الربض التى قامت ضد الحكم بن هشام ، حيث كان الفقهاء والاتقياء ينظمون اشعار الزهد ، ويتغنون بها ليلا ، ويعرضون فيها بالحكم ، ثم أخذ هذا النوع يقوى ردا على الحياة اللاهية ، وانقيادا لدواعى التقى أيام الشيخوخة ، كما نرى فى زهديات الغزال وممحصات ابن عبد ربه — وهى قصائد نظمها بعد أن تقدمت به السن

---

(١٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٤١٠ .
(١٣) إحسان عباس : الأدب الأندلسى ص ٩٤ — ٩٥ .

لينقض بهـا قصائد اللهو التى قالها أيام شبابه(١٤) ووجـد من الأتقياء من تخصص فى هـذا النوع من الشعر مثل ابن ابى زمنين صاحب ديوان (النصائح) ، وقاسم بن نصير الذى الف كتابا فى شعر الفقهاء تكملة لهذا الاتجـاه الذى كان قد انتهجه فى شعره(١٥) .

ولكننا نعتقد أن شعر الزهد كان موجودا قبل ثورة الربض لأن الزهد ليس من الأمور التى تحدث فجاة فى المجتمع ، فأى مجتمع من المجتمعات يجتمع فيـه الجانبان جانب الترف واللهو وجانب الزهد والتصوف ، وقـد يتغلب اى منهما على الآخـر في بعض الفترات لكن لا يخلو الأمر من وجود احدهما إلى جانب الآخـر ولكن بدرجات مختلفة حسب ظروف كل مجتمع من المجتمعات ودرجة تدينه .

ودليل ذلك اننـا نجـد فى كتب التراجم الأندلسية اسـماء لزهاد وجـدوا حتى منـذ بداية دخـول المسلمين إلى الأندلس وقال البعـض منهم أشعارا فى الزهد والحكمة(١٦) .

وقد كان تيـار الزهد فى الأندلس ثم التصوف بعـد ذلك رد فعل شديد لتيار الإسراف فى الترف واللهو الذى جـذب الكثيرين فـكان من الطبيعى أن يعلو صوت هـذا التيار الذى يهون من شأن الدنيـا ويبصر بحقيقتها ويدعو إلى الآخـرة فى مقـابل صوت الفريق الذى ينادى باللذة والمتعـة .

ويبدو أن عـدد الزهاد فى الأندلس كان من الكثرة بمـكان حتى إن

---

(١٤) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ١٢٢ .

(١٥) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سـيادة قرطبة) ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(١٦) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، بغية الملتمس فى تاريخ رجـال أهل الأندلس للضبى ، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس للحميـدى ، د. مصـطفى الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٥٧ وبعـدها .

ابن بشكوال ـ حسب ما ذكر ابن الآبار ـ صنف كتابا بعنوان (زهاد الأندلس وأئمتها) ولكنه لم يصل إلينا(١٧) .

وإذا كان الأدب هو ظل الحياة فى المجتمع وهو المرآة التى تنعكس عليها فإننا نستطيع من خلال الكثير من النصوص أن نتبين بوضوح جانب الزهد فى المجتمع الأندلسى .

ومن هنا فإن أشعار الزهد فيه تكاد تكون أضعاف مثيلاتها فى المشرق ولا غرابة فى ذلك حيث كان المجتمع مليئا بوسائل الترف وأسباب اللهو ومن هنا كان رد الفعل قويا ، فإذا كان الخليفة الناصر مثلا محبا للعمران والبناء ، مفتنا فى مظاهر الأبهة والترف محبا لاقتناء الجوارى والقيان ، فإن ابنه عبد الله كان شديد الزهد مبتعدا عن ترف الحياة ومتعها مستنكرا لإسراف أبيه فى الترف(١٨) .

يقول عنه الحميدى والضبى (وكان فقيها شافعيا شاعرا إخباريا متنسكا)(١٩) .

---

(١٧) انظر التكملة لكتاب الصلة ص ٧١٨ .

(١٨) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٥٧ دار العلم للملايين بيروت . وقد ذكر الدكتور الشكعة أن استنكاره لإسراف أبيه وإغراقه فى الإقبال على الدنيا دفع به إلى التآمر عليه للتخلص منه ولكن مؤامرته باءت بالفشل فقبض عليه وقتله أبوه بيديه يوم عيد الأضحى . والحقيقة أن هذه المؤامرة كانت بسبب حسده لأخيه الحكم على العهد إليه بالخلافة ، حيث سول له بعض خاصته ومنهم الفقيه أحمد بن عبد البر وأحمد بن العطار وياسر الفتى وغيرهم قتل أبيه قبل أن يسلم الحكم لأخيه فانكشف أمر هذه المؤامرة وقتل عبد الله ومن شارك معه فى ذى الحجة ٣٣٨هـ (انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء جـ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، تحقيق د. حسين مؤنس ط٢ سنة ١٩٨٥ دار المعارف بمصر ، محمد دياب : تاريخ العرب فى إسبانيا جـ١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩ مصر سنة ١٨١٤ م) .

(١٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ ـ ترجمة (٥٥٥) ، بغية الملتمس ص ٢٤٧ ترجمة (٩٣٢) .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية

العمـــارة

اولا ـ العمـارة الدينيـة

المســـاجد

اقترن عصر الفتوحات الإسلامية للبـلاد الأجنبية خـارج شـبه الجزيرة العربية بإنشاء مراكز عمران إسلامية (أمصـار) كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز لجيوش المسلمين الفاتحة من ناحية ، ولصبغ البـلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من ناحية اخرى .

وقد كانت المساجد هى الأساس الذى اعتمـد عليـه الفـاتحون المسلمون فى صـبغ المدن المفتوحة بالصبغة الإسلامية ، حيث يصـبح المسجد الجامع بمرور الزمن هو مركز المدينة وقلبهـا النابض . فمنه تتفرع الأزقة والطـرق المؤدية إلى ابوابها ، وحـول ساحته أو قريبـا منـه تقـام الأسواق والفنادق والقيـاسر والحـمامات وغيـرها ، وهو مركز الاجتماعات السياسية ، ومقر توزيع الجيوش ، ومـكان عقـد الحلقـات العلمية ، والفصل فى الخصومات وغير ذلك ، فضـلا عن كونه مـكان إقامة شـعائر الإسـلام . فليس غريبـا أن يسيطر المسـجد فى المدن الإسلامية فى تلك العصور على مناحى الحيـاة . وهكذا كان بناء المسجد الجامع فى الإسلام أساس الحـركة العمرانية فى المدن الإسلامية .

وعندما فتح المسلمون الأندلس شاطروا الأسـبان فى كنائسهم فى قرطبـة وغيرها حيث اقاموا فى جزء من كنيسـة (شـنت بنجنت) الكبرى بقرطبة مسجدا بسـيطا متواضع البنـاء ، وقـام حنش الصنعانى وابو عبد الرحمن الحبلى التابعيان بوضع قبلته بأيديهما ، وترك القسم الآخـر للأسبان يقيمون فيـه شعائرهم .

فيذكر المقرى نقـلا عن الرازى : (انه لمـا افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله ابو عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر من مشاطرة الروم بالشام فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذ صلحا ، فشاطر المسلمون فى الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى وكانوا يسمونها (شنت بنجنت) (سانت فنسنت Sant Vencent) — وكانت فى الأصل معبـدا رومانيا — وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعـا ، وبقى الشطر الثانى بيـد النصارى الخ »(١) .

كما أقام المسلمون جامعـا بالجزيرة الخضراء على انقـاض كنيسة قديمة على يد عبد الله بن خالد ، وكذلك جامعا فى طرطلة .

وإذا تحدثنا عن المساجد التى بنـاها الأمويون فى الأندلس فإننـا نجد الكثير(٢) وسوف نقتصر على ذكر أشهرها :

١ — **مسجد قرطبة** : يعتبر المسجد الجامع بقرطبة من أروع أمثـلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط . قال عنه الحميرى : (إنه الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصـانع الدنيا كبر مساحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقـان بنيـة . تهمم به الخلفـاء المروانيون فزادوا فيـه زيادة بعـد زيادة ، وتتميما إثر تتميم حتى بلغ الغـاية فى الإتقان . فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٥٦ ط الأزهرية ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ وكان له عدة تسميات كالمسجد الجامع ، والجامع الأعظم والجامع المبـارك والجامع المكرم .

(٢) يذكر أن عدد المساجد فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩١ مسجدا ولا شك أن معظمها كان مساجد صغيرة ووصلت فى عهد المنصـور ابن أبى عامر إلى ١٦٠٠ مسـجد فى روايـة ، ٣٨٣٧ فى روايـة أخرى ، (انظـر : الحميرى : الروض المعطـار ص ١٥٧ ، المقرى : نفـح الطيب ج ٢ ص ٧٨ — ٧٩ ، ويذكر ابن غـالب نقـلا عن ابن حيان أن مسـاجد قرطبة بلغت عنـد انتهاء اكتمالها ١٨٣٦ مسجد ، (انظر فرحة الأنفس ص ٢٧) .

حسنه الوصف ، فليس فى مساجد المسلمين مثله تنميقا وطولا وعرضا »(٣) .

ولذا أصبح يضرب به المثل في العظمة والفخامة والاتساع والزخرفة . وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفا ضافيا كالمقري وابن بشكوال وابن الخطيب وابن عذاري وغيرهم . وكان يعد مفخرة من مفاخر قرطبة وفى ذلك يقول القاضي أبو محمد بن عطية :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة … منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة … والعلم أكبر شيء وهو رابعها (٤)

وقد بدأ بناء هذا المسجد الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ، وذلك بعد أن ضاق المسجد القديم – الذى كان جزءا من الكنيسة – بالمصلين بعد تكاثر عدد المسلمين الوافدين على الأندلس وخاصة العاصمة قرطبة ، وشاهد عبد الرحمن ما يعانونه من زحام ومتاعب بسبب تقارب السقف من الأرض حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يقوم فى اعتدال وبخاصة فى المؤخرة حيث كان مستوى الأرض يرتفع كلما اتجهنا شمالاً لأن أرضية الجزء القبلى من المسجد كانت منحدرة نحو النهر ، ولما كان المسجد يشغل الجزء الشمالى من الكنيسة فقد كان طبيعيا أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية وليس القبلية حيث المحراب . وعلى هذا فقد سبب انخفاض السقائف مضايقات شديدة للمصلين . ومن هنا فقد عزم عبد الرحمن الداخل على حل هذه المشكلة ، وذلك بضم ما بقى من الكنيسة للمسجد ، وإعادة بنائه من جديد ليتسع لجميع المصلين ، وليتناسب مع عظمة وفخامة الدولة الجديدة .

---

(٣) الروض المعطار فى خبر الأمطار ص ١٥٣ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٦ ، جـ ٢ ص ١٤٦ .

ولذا فقد ساوم نصارى قرطبة فى بيع نصيبهم ، واوسع لهم ، فرفضوا فى البداية ، فظل بهم حتى وافقوا أخيرا بشرط أن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم خارج الأسوار وشرع فى هدم الكنيسة والمسجد القديم وبناء جامع قرطبة بأسلوب جديد فى سنة ١٦٨هـ (٧٨٤م) ، وتم بناؤه واكتملت أسواره فى سنة ١٧٠هـ (٧٨٦ م) . ويذكر أنه أنفق على بنائه ثمانين الف دينار ، واشترى نصيب النصارى بمائة الف(٥) وفى ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوى مادحا له :

وانفق فى ذات الإله ووجهه
ثمانين الفا من لجين وعسجد
توزعها فى مسجد اسه التقى
ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب التارى فوق سموكه
يلوح كبرق العارض المتوقد(٦)

وكان المسجد الجديد الذى بناه الداخل على قسمين : قسم مسقوف وهو بيت الصلاة وقسم مكشوف وهو الصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة على اثنى عشر عقد (قوس) فى كل بلاطة ، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام جلبت من الكنائس الخربة(٧) .

وكان الصحن مغروسا بالأشجار حيث عهد عبد الرحمن الداخل إلى

---

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ .
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٢ ، نفح الطيب : جـ ٢ ص ٢٦٢ .
(٧) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٤ والبلاط أو البلاطة : المساحة الواقعة ما بين أربعة أعمدة .

صعصعة بن سلام الشامى (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد — وكان على مذهب الإمام الأوزاعى — أن يغرس فى صحنه الأشجار ، واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك فى بقية مساجد الأندلس . ولذلك يقال : إن الأثر الباقى من مذهب الأوزاعى فى الأندلس بعد انتشار مذهب الإمام مالك يتمثل فى هذا .

وتوفى الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣هـ قبل أن يتم بناء المسجد فلم تكن له مئذنة أو سقائف لصلاة النساء . فجاء ابنه هشام من بعده فأقام له مئذنة من خمس شىء (أربونة) ، وبلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو عشرين مترا ، كما أقام فى نهايته مما يلى الجوف (الصحن) سقائف للنساء ، كما أمر ببناء ميضأة فى شرقيه (٨) .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام زيدت بلاطات المسجد من تسع إلى احد عشر بلاطا ليتسع المسجد وذلك سنة ٢١٨هـ ٨٣٣ م ، وجعل هذين البلاطين الجديدين فى سقيفتين ، ووصلهما بالسقائف التى كانت معدة لصلاة النساء . وبنى فى مؤخرة الصحن سقيفة أخرى ، كما زاد فى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م فى بيت الصلاة فاتسع المسجد من جهة القبلة ، وبلغ طول هذه الزيادة نحو خمسين ذراعا وعرضها نحو مائة وخمسين ، وعدد سواريها ثمانين سارية (٩) . ونقل

---

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٢ .

لم يقدر لهذه المئذنة أن تعيش طويلا حيث تصدعت فى آخر عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠هـ) فهدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقام أخرى بدلا منها ، وقد تمكن احد المهندسين الأثريين الأسبان من الاهتداء إلى أساسها وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار (انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٨٧) .

(٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٣ .

المحراب القديم إلى جدار القبلة الجديد ، وفتح فى بيت الصلاة بابين فى جانبى المسجد الشرقى والغربى ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح له أربعة أبواب اثنان فى الجهة الشرقية ، وآخران فى الجهة الغربية .

وتوفى عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، فجاء ابنه محمد فأمر فى سنة ٢٤١هـ (٨٥٥م) « بإتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه » ، ثم أمر سنة ٢٥٠هـ بصنع مقصورة خشبية حول المحراب لها ثلاثة أبواب ، ولما تم ذلك صلى فيه فقال فى ذلك موسى ابن سعيد :

لعمرى لقد أبدى الإمام التواضعا
فأصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجدا لم يبن فى الأرض مثله
وصلى به شكرا لذى العرش راكعا
فطوبى لمن كان الأمير محمد
له إذ دعا فيه إلى الله شافعا(١٠)

وفى عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم فى صحن المسجد بيت المال على غرار بيوت المال فى جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأموى بدمشق ، كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف(١١) .

وفى عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد أنشأ ساباطا (طريقا مغطى) معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، وفتح إلى المقصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بنى أمية ، وتابعه فى ذلك من جاء بعده(١٢) .

---

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .
(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .
(١٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٨٩ ، غون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وفى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر هدمت المئذنة القديمة التى أقامها هشام بعد أن تصدعت ، وأقيم مكانها مئذنة جديدة سنة ٣٤٠هـ (٩٥٠م) كانت تسمو على شعائر مبانى قرطبة ، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار على مياه البحر الهداية السفن . وتم بناؤها فى ثلاثة عشر شهرا بالحجارة الضخمة ، وجعل لها سطحان منفصلان لا ينفذ بعضهما بعد أن كانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد ، ولكل مطلع مائة وسبع درجات ، ولا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها ، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا حتى مكان المؤذن أى ضعف ارتفاع المئذنة الأولى ، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعا ، ونصب بأعلاها سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة(١٣) وبنى إلى جانب هذه المنارة حجرة للمؤذنين(١٤) .

كما قام الناصر بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن بعد تصدعها ، وأصلح الباب المواجه للقصر فى الجانب الغربى وكان يعرف بباب الوزراء (باب سان استبيان) ، وأقام على الصحن ظلة لوقاية الناس من حر الشمس تستند على كوابيل على نمط تلك التى تقوم عليها واجهة بيت الصلاة .

وقد سجل أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل فى البلاط الأوسط ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله - أطال الله بقاءه - ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ،

---

(١٣) الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

(١٤) الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وجزيل الذخر مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب . »(١٥) .

وقد أنفق الناصر فى بناء المئذنة وغير ذلك مما قام به فى المسجد سبعة أمداد وكيلين ونصف من الدراهم القاسمية كما ذكر ابن عذارى(١٦)

أما أعظم زيادة فى مسجد قرطبة فقد تمت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد تضاعف عدد سكان قرطبة بحيث لم يعد المسجد يتسع لجموعهم الغفيرة . وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى بذلك ، فجلبت الأحجار من جبال قرطبة ، وأشرف الحكم بنفسه على تقدير الزيادة وتفصيل بنائها وأحضر لذلك الأشياخ والمهندسين فرسموا بأن تكون بمد بلاطات المسجد جنوبا على اثنى عشر عقدا ، واستمر البناء فيها أربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا (١٧) .

ويصف ابن سعيد هذه الزيادة بقوله « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار فى حد يقصر الوصف عنه »(١٨) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٥٤هـ أتم بناء قبة المحراب وأحاطها بقبتين جانبيتين وقبة أخرى على مدخل زيادته بالجامع تجاه قبة المحراب ، وهناك نقش يدور بعقد المحراب ومنه « أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر

---

(١٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ . انظر د. السيد سالم : تاريخ ص ٣٩١ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .
(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .
(١٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٩ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤ .
(١٨) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٧ .

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هــذه البنية ، فتم بعون الله بنظــر محمد بن تمليخ ، واحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم اصــحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب »(١٩) .

كما شرع فى تزيين المسجد بالفسيفساء الذى كان ملك الروم قـد بعث إليه به مع صــانع يتقن ذلك ، ومنه تعلم بعض الصناع المسلمين حتى حذقوا ذلك وتفوقوا فى الصنعة . ويوجد فى أعلى عقد المحراب نقش بالخط الكوفى جـاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم امير المؤمنين اصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بعمل هذه الفسيفساء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة اربع وخمسين وثلاثمائة »(٢٠) .

كما أمر الحكم بوضع المنبر القـديم إلى جانب المحراب سنة ٣٥٥هـ، ونصب فى قبلة الزيادة التى زادها مقصورة من الخشب منقوشــة من الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولهــا خمســة وسبعون ذراعا ، وعرضـها اثنــان وعشرون ، وارتفاعها ثمانية اذرع وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش(٢١) .

كما أمر بصنع منبر جـديد « ليس على معمور الأرض أتقن منــه ، ولا مثله فى حسن صنعته وخشبه ساج وابنوس وبقم وعود قاقلى » .

---

(١٩) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٩٢ .
(٢٠) نفس المرجــع ص ٣٩٣ .
(٢١) ابن عذارى : البيــان المغرب ج ٢ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ويذكر ابن غالب الأندلسى : أن باب هــذه المقصورة كان من الذهــب المضروب ، وان عضادتاه كانتا من الابنوس ، بينما كان طــوله واوصاله من الفضة (انظر نص اندلسى جديد من فرحة الأنفس مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١ ص ٢٨ تحقيق د. لطـفى عبد البديع) .

ويذكر أنه كان يعمل فيه ثمانية صناع ، واستغرق العمل فيه سبع سنوات ، وأن عدد درجاته تسع درجات ، وعدد حشواته ست وثلاثون الف حشوة سمرت بمسامير من الذهب والفضة ورصعت بهما ، وكان هذا المنبر يسير على عجل ، ويوضع بعد صلاة الجمعة فى غرفة خلف المحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك فى المغرب(٢٢) .

وفى سنة ٣٥٦هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التى كانت تقع بفناء المسجد ويجلب لها الماء من بئر الساقية ، والتى أنشأها هشام ، وبنى بدلا منها أربع ميضآت فى الجانبين الشرقى والغربى للفناء ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة فى قناة حجرية متقنة البناء جعل فى جوفها أنابيب من الرصاص لحفظ الماء من الدنس والأوساخ وكانت تصب فى أحواض من الرخام ، كما أجرى الماء إلى سقايات من الرخام أيضا اتخذها على أبواب الجامع فى الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ، وفى ذلك يقول الشاعر محمد ابن شخيص :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف
من أعذب الماء نحو البيت تجريها

طهر الجسوم إذا زالت طهارتها
رى القلوب إذا حرت صواريها

قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا
فى أمة أنت راعيها وحاميها(٢٣)

---

(٢٢) الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦١ ذكر ابن عذارى أن المنبر كان من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندى وبلغت تكلفته ٣٥,٧٠٥ دينار وكان تمامه فى خمسة أعوام (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٠) .

(٢٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

واخيرا فقد اختتم الحكم بناء المسجد بإقامة دار للصدقة فى غربيه لتكون مكانا لتوزيع صدقاته ، كما أقام فى ساحته وحوله مكاتب لتعليم أولاد الأيتام والمساكين وفى ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتبا لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وراعيها(٢٤)

وتعتبر زيادة الحكم أعظم زيادة فى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة حيث جعلته متناسقا متعادل الأجزاء ، وأهم ما فيها تلك القباب التى تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة فى أشكال هندسية رائعة وقد كان لهذه القباب أثرها فى أوربا حيث أوحت للفنانين الفرنسيين بالقبوات القوطية الشهيرة(٢٥) .

أما المحراب الجديد فيعتبر أجمل عنصر معمارى فى المسجد أضافه الحكم ، حيث عنى به المهندسون عناية كبيرة ، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامى ونقشوه من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينوا عضادتيه بلوحات من الرخام عليها حفر غائر على هيئة زخارف نباتية وتوريقات تتمشى مع الأسلوب البيزنطى .

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب بابا يؤدى إلى الساباط الجديد الذى يصل بين القصر والمقصورة ، ويتصل هذا الباب بمخزن لحفظ الأدوات والعدد والطسوت والحسك الخاص بإيقاد الشموع فى ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) وذكر أنه كان يحفظ

---

(٢٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٠ — ٣٤١ ويذكر ابن عذارى أن عدد المكاتب التى أنشأها الحكم بلغ سبعة وعشرين مكتبا منها ثلاثة حول المسجد والباقى فى الأرباض (أحياء قرطبة) .

(٢٥) د. السيد سالم : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ — ٣٦ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٩٤ .

بهذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه اربع أوراق من مصحف عثمان الذى كان يقرأ فيه يوم قتل وفيه نقط من دمه(٢٦) . وكان يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، وله غشاء بديع الصنع ، وكرسى يوضع عليه ، ويقوم الإمام بقراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى مكانه .

ويذكر أن هذا المصحف ظل بالمسجد حتى آل الأمر إلى الموحدين فى الاندلس فأخرج فى ١١ شوال سنة ٥٥٢هـ أيام عبد المؤمن بن على فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بنى مرين ، وكان السلطان أبو الحسن المرينى يحمله معه فى أسفاره دائما ، حتى هزم فى موقعة طريف فوقع المصحف فى يد البرتغاليين ، وتحايل المسلمون فى استرداده حتى جاء به إلى فاس أحد تجار أزمور سنة ٧٤٥هـ ، وحفظ بالخزانة السلطانية(٢٧) .

ثم كانت الزيادة الأخيرة فى مسجد قرطبة على يد المنصور ابن ابى عامر والتى امتدت طولا من اول المسجد إلى آخره . وبدات فى سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م حيث اضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية ، وذلك نظرا لاتصال الجانب الغربى منه بقصر الخلافة فوصلت جملة البلاطات تسع عشرة بلاطة . وذلك لما زاد الناس بقرطبة وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم ، وقد كان قصد المنصور إتقان البناء ، والمبالغة فى إحكام البنية دون الزخرفة .

---

(٢٦) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٨ — ١٠ . وقد شك المقرى فى نسبة هذا المصحف وما فيه من أوراق لعثمان حيث قال « وما توهموه من أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحدا منها ، وإنما جمع عليها بعضا من الصحابة » (نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٥) .

(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وبالرغم من ذلك فإن الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا (٢٨) .

وقد قام المنصور بنزع ملكية الأراضى والدور الواقعة فى شرق الجامع ، وتعويض أصحابها بما يرضيهم من مال أو عقار وبلغ عدد سوارى المسجد بعد هذه الزيادة ١٤١٧ سارية ، وعدد ثرياته ٢٨٠ سرية . وبلغ عدد الأئمة والمقرئين الأكفاء والمؤذنين والخدم والموقدين وغيرهم ١٥٩ شخصا (٢٩) .

وظل العمل فى هذه الزيادة مدة عامين ونصف كان المنصور فيها يعمل بنفسه فى أحيان كثيرة ، واستخدم مجموعة من أسرى النصارى فى ذلك . وأصبح المسجد مؤلفا من تسع عشرة بلاطة ، ففقد المسجد تناسقه وتعادل أجزائه وأصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع فى محور الجامع ، وهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل الشروع فى الزيادة ، وفتح فى الجدار الشرقى ببيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، كما فتح فى الجدار الشرقى الجديد ثمانية أبواب فأصبح عدد الأبواب المؤدية إلى بيت الصلاة ١٦ بابا يضاف إليها خمسة أبواب تفتح على جوانب الصحن فيكون عدد أبواب المسجد ٢١ بابا كانت ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما رائعا (٣٠) .

---

(٢٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢٩) ذكر ابن بشكوال : أن المنصور كان يطلب من صاحب الأرض أو الدار أن يطلب ما يشاء ثمنا لها ثم يضاعفه له ، حتى أن امرأة كان لها دار بها نخلة ، فقالت لا أقبل عوضا إلا مثل ذلك فأمر بأن تشترى لها دار بنخلة حتى ولو ذهب فيها مال بيت المال . (المقرى نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤) .

(٣٠) تاريخ المسلمين ص ٣٩٧ ، الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٢٦ .

وقد احتفظ المسجد بصورته تلك دون أن يطرأ عليه تغيير في نظام بنائه حيث لم تضف إليه أى اضافات فيما عدا أعمال الترميم اللازمة وخاصة فى عصرى المرابطين والموحدين وظل كذلك حتى سقطت قرطبة فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦م فتحول إلى كنيسة عرفت باسم كنيسة سانتا ماريا العظمى أو الكبرى(٣١) .

ويعكس المسجد الجامع بقرطبة التأثيرات السورية سواء فى زخارفه المعمارية او فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو فى وضع المئذنة ، او فى تصميم المجنبات حول الصحن كما تذكرنا عقوده المتعامدة على جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى .

ولا شك أن عبد الرحمن الداخل قد استعان بعرفاء ومهندسين شاميين فى بناء هذا المسجد ، كما فعل حفيده الأمير عبد الرحمن بن هشام عندما استعان بأحد الموالى الشاميين ويدعى (عبد الله بن سنان) فى بناء سور إشبيلية سنة ٢٣٠هـ بعد غزو النورمان لها(٣٢) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل فضل كبير فى تطعيم حضارة الأندلس بالتأثيرات المشرقية وعلى رأسها التقاليد السورية .

وقد كان لهذا المسجد تأثيرات كبيرة فى العمارة الإسلامية والمسيحية على حد سواء . ففى العمارة الإسلامية كان نموذجا يحتذى فى كثير من المساجد التى أقيمت فى الأندلس بعد ذلك فى نواحى شتى مثل نظام القباب ذات الضلوع ، ونظام البلاطات المتجهة عموديا على جدار القبلة ويتضح ذلك جليا فى جامع الباب المردوم بطليطلة ، ومثل اتساع الصحن

---

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٨ ، انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٨ .

(٣٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ .

ونظام العقود وأسلوب الزخارف كما يتضح فى جامع إشبيلية الذى انشىء فى عصر الموحدين . كما امتد تأثيره الفنى إلى بعض بلاد العالم الإسلامى كالمغرب ومصر والشام فمئذنة جامع ابن طولون تجلو عليتا عقودا من النوع الشائع فى جامع قرطبة ، والقنطرة التى تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاورين على الطراز القرطبى وبأسفلها كوابيل من نفس نظام كوابيل مسجد قرطبة(٣٣) .

وأما عن تأثيراته فى العمارة المسيحية فتتضح فى إسبانيا حيث ترى واضحة فى بعض الكنائس مثل كنيسة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس ديل ، وكنيستى سانتيا جو دى بينالبا ، وسان مرتينيو بجليقية ، وكنيستى سان ميان ، وسان ثبريان فى مملكة ليون وغيرها(٣٤) .

٢ ـ **جامع إشبيلية** : وقد أنشىء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين أمر قاضيه عمر بن عدبس بتشييده سنة ٢١٤هـ/٨٢٩ ـ ٨٣٠م ولذلك نسب إليه . وقد سجل تاريخ إنشائه على بدن عمود من الرخام لا زال محفوظا فى متحف الآثار الأهلى بإشبيلية بخط كوفى ونصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الآمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى إشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتب عبد البر بن حرون »(٣٥) .

وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة فى نظامه العام وفى عدد بلاطاته حيث كان يشتمل على أحد عشر بلاطا متجهة عموديا على جدار القبلة الذى بلغ طوله ما بين ٤٨ ـ ٥٠ مترا ، وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعا وارتفاعا . وأقيمت له مئذنة فى منتصف الجدار

---

(٣٣) انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٧٢ . تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٩ ـ ٤٠٠ .

(٣٤) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠٠ هامش ٢ .

(٣٥) تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

الشمالى تشبه نظام المآذن القرطبية التى ترجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مربعة من الخارج مستديرة من الداخل بلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٨٨ر٥ م .

وقد غرس فى صحنه أشجار النارنج والبرتقال ، وكانت تتوسطه قطعة من الرخام تنبثق منها نافورة على شكل محارة(٣٦) .

ويصفه المستشرق الألمانى (فون شاك) « بأنه جاء عملا رائعا وشهيرا ولكنه لم يكمله على ما أراد له » . كما يذكر أن المؤرخين العرب يقصون : أن عبد الرحمن رأى فى نومه عند تمامه أنه دخله فوجد النبى عليه الصلاة والسلام ميتا ومسجى فى قبلته فانتبه مغموما وسأل أهل العبارة عن ذلك فقالوا : هذا موضع يموت فيه دينه . فحدث على أثر ذلك غلبة المجوس (النورمان) على المدينة (إشبيلية) واستيلائهم عليها ، وتحقق معنى الحلم عندما حاولوا هدم المسجد ، وقذفوا سقفه بالسهام الملتهبة المحمية ، وجمعوا كثيرا من الوقود ، وكوموه فى إحدى البلاطات لإحراقه ، وعندما هموا بذلك ظهر من جانب المحراب ملاك فى صورة غلام نادر الجمال فطردهم من المسجد(٣٧) .

ولا ندرى من أين جاء هذا المستشرق بهذه القصة ففى المصادر الأندلسية التى رجعنا إليها وهى كثيرة ومتعددة لم نجد أية إشارة ولو من بعيد لمثل ذلك ، ويبدو أن خيال هذا المستشرق هو الذى صور له تلك القصة ، أو خيال المستشرق دوزى الذى نقل عنه ذلك ، وعملية ظهور الملاك والتصديق به شىء موجود لدى هؤلاء فأرادوا أن يطبقوه على تاريخنا الإسلامى ، وللأسف فإن مترجم الكتاب لم يعلق على هذه القصة المزعومة بالرغم من تعليقاته الضافية فى مواضع كثيرة .

---

(٣٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .
(٣٧) الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٦٢ ترجمة د. الطاهر مكى .

وقد أصيب المسجد ببعض الأضرار نتيجة لغارة النورمان على إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وقد ظل يحتفظ بنظام بنائه ومساحته دون أن تدخل عليه زيادات لمدة ثلاثة قرون حتى ضاق بالمصلين فى عصر الموحدين فأنشىء إلى جانبه جامع القصبة الكبير بإشبيلية . وحدث فى سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) أن هدم الجزء الأعلى من مئذنته على أثر زلزال شديد فجددها المعتمد بن عباد فى شهر واحد فقط ، كما تصدعت جدرانه الغربية ومالت بعد مدة بتأثير هذا الزلزال ، كما تآكلت جوائز سقفه وظل كذلك حتى أمر أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٢هـ بترميمه وإقامة ركائز قوية تسند هذه الجدران وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت متوقفة فيه منذ سنة ٥٧٠هـ(٣٨) .

وبعد سقوط إشبيلية فى يد الإسبان سنة ١٢٤٦م حول إلى كنيسة سميت (سان سلفادور) ثم أصيبت المئذنة بأضرار بالغة سنة ١٣٥٦م نتيجة زلزال عنيف هدم الجزء العلوى منها فأقام الأسبان مكانها برج النواقيس ، ثم قاموا بهدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١م باستثناء ما بقى من المئذنة والبهو لبناء الكنيسة الجديدة مكانه وتم بناؤها سنة ١٧٢١ م ولم يتبق من المسجد فى الوقت الحالى سوى جزء من الصحن وجزء من المئذنة يبلغ ارتفاعه ½ ٩ م فى داخله درج حلزونى عرضه ٨٠ سم يدور حوله دعامة اسطوانية ضخمة . وهو يعطينا صورة عن المآذن الأندلسية فى هذا العصر(٣٩) .

٣ — **مسجد الباب المردوم بطليطلة** : وقد قام بتأسيسه قاضى طليطلة أحمد بن حديدى من ماله الخاص . فقد تولى الوزارة أيام اسماعيل بن ذى

---

(٣٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٣٤ .

(٣٩) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠١ .

النون ملك طليطلة . وتعلو واجهته كتابة تاريخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم . أقام هـذا المسجد احمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة ، فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (٤٠) .

وهو مسجد صغير المساحة ولكنـه يعتبر من أهم مساجد الأندلس بعـد مسجد قرطبة نظرا لاحتفاظه بتسعة قبـاب قائمة على الضـلوع المتقاطعة تمثل أول مراحل التطور التى مرت بها قباب جامع قرطبة (٤١) .

وقد شيد من الحجر الجرانيتى والآجـر وفقـا للأسـلوب الـذى اختصت به طليطلة . وهو على شكل مربع لا يتجاوز طول الجـانب منـه ثمانية أمتـار . ويتألف من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعـة أعمـدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منهـا اثنـا عشر قوسا على شكل حـدوة الفرس ، ويعلو كل اسطوان من هـذه الأساطين قبـة تتقـاطع فيهـا الأقواس على نحو ما رأينـاه فى قباب قرطـبة ، والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى .

أما واجهة المسجد الرئيسية — وهى الجنوبية الغربية — فتطل على الطريق المؤدى إلى البـاب المردوم بثلاثة عقود ، ويوجد فى أعلاها نص التأسيس السابق . ويعلو هـذه العقود الثلاثة بائكة صـماء من أقواس متقاطعة . ويتوج هـذه البائكة إفريز بداخله شبكات مخرمة على شـكل معينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاورة تعتبر بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاورة صماء يتناوب

---

(٤٠) عرف هـذا المسجد بذلك الاسم نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائما ويعرف بالباب المردوم .

(٤١) ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ١١٨ ، ابن الخطيب : أعمـال الأعلام ص ٢٠٧ .

فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الآجر والحجر على نظام أقواس جامع قرطبة(٤٢) .

وقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة سنة ١٠٨٥م أطلق عليها سانتا كروز ، واضيفت إليه فى الجانب الشرقى حنية من الطراز المدجن فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ووهبه الملك ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ويعرف اليوم باسم كنيسة (الكريستو دى لالوث El Cristo de Laluz)(٤٣) .

٤ — **المسجد الجامع بالمرية :** يعتقد العالم الأثرى الإسبانى (توريس بلباس) ان هذا المسجد قد شيد فى عهد الحكم المستنصر بعد زيادته فى جامع قرطبة بسنوات قليلة ، وانتهى بعد دراسة ما تبقى منه من آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان — وهى لا تعدو المحراب وجزءا من جداره — أنه كان يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وأن البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات اتساعا ، وأن المحراب كانت تعلوه قبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى اليوم .

وأن نظام البناء — كما يتجلى من خلال ما بقى من جدار المحراب — كان على نمط النظام القرطبى القائم على تناوب حجرين عرضا مع حجر طولا وهو ما يعرف فى عصرنا باسم (آدية شناوى) . وقد أضيفت إلى هذا المسجد زيادات من جوانبه الثلاثة الشرقى والغربى والشمالى بواسطة زهير العامرى الصقلبى كما يتجلى من قول ابن الخطيب « وهو الذى بنى هذا المسجد وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة »(٤٤) .

وكان صحن هذا المسجد مغروسا بأشجار الليمون والبرتقال ، ومفروشا بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء ، شأن نظام مساجد الأندلس .

---

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .
(٤٣) تاريخ المسلمين ص ٤٠٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٣ .
(٤٤) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

وقد تحول إلى كنيسة سنة ١٤٩٠م وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢م وسميت بكنيسة (سان خوان) ، وقد حولت هذه بدورها إلى مخزن للمدافع والمهمات العسكرية سنة ١٨٤٥م . ثم سلمت إلى جماعة الآباء فرنسسكان فحفظت بقاياها وبقايا الجامع . وقد عثر فى أرضية هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة إلا انها تختلف عنها فى كثرة زخارفها القائمة على التوريقات وتبدو فيها أوراق مبسوطة متشنجة على أصابع ، وتتشابه مع زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة مما يرجح انها من عصر المعتصم بن صمادح(٤٥) .

٥ - **مسجد الزهراء :** كما أقام الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينة الزهراء التى أقامها إلى جانب قرطبة مسجدا كان يعمل فى بنائه كل يوم ألف رجل منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتى نجار ، وخمسمائة من الصناع والأجراء وتم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوما سنة ٣٢٩هـ ، وكان يتكون من خمس بلاطات ، كان البلاط الأوسط منها اكثر اتساعا ، وكان صحن المسجد مفروشا بالرخام الخمرى اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعا وهى شبيهة بالمئذنة الأولى لجامع قرطبة التى أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل . أما منبره فقد جاء فى غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب بديعة الصنع . وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف (الصحن) سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعا(٤٦) .

---

(٤٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٤٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٤ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٥- ٣٦٢ . هذا وقد ذكر د. حسن ابراهيم : أن الذى بناه هو الحكم ابن الناصر وأنه قد تم بناؤه فى شعبان سنة ٣٢٩هـ وهذا خطأ واضح حيث أن الحكم لم يل الخلافة إلا بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠هـ ، إلا إذا كان المقصود انه هو الذى أشرف على بنائه . (انظر تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٤٧٣) .

العمـارة المدنيـة

القصـور والـدور

حظيت قرطبة منـذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس بنصيب كبير من عنـاية ولاة الأندلس وأمرائها وخلفائها ، وغـدت حـاضرة للمسلمين فى الأندلس ، وظلت تحتل المكانة الأولى بين المدن الأندلسية حتى سـقوط الخـلافة الأموية(١) .

---

(١) قرطبة مدينة قديمة ، يرجـح أنهـا انشـئت فى العصر الأيبيرى ويستدل على ذلك من اسمها الأيبيرى Corduba الذى عربه المسلمون إلى قرطبـة ، ومن الحفائر الاثرية التى أجريت فى نطاقها حيث عثر على تماثيل برونزية ايبيرية . وقـد ظلت تتمتع بمكانة لائقـة حتى أواخر القرن السابع الميلادى حيث أخذت تفقد أهميتها شيئا فشيئا أمام طليطلة فى العصر القوطى .

وعنـدما جاء الفتح الإسلامى لشبه جزيرة إيبيريا كانت قرطبـة من بين المدن التى فتحها المسلمون حيث ارسل إليها طارق بن زيـاد قائده مغيث الرومى فى سبعمائة فارس ففتحها بسهولة عن طـريق الحيلة والمفاجأة . واصبحت قرطبة منذ ولاية أيوب بن حبيب اللخمى حاضرة الأندلس فى سنة ٩٩هـ ، ونقلت إليها العاصمة من إشبيلية التى كان موسى بن نصير قد اتخذها قاعدة للحكم بعـد الفتـح ، وظلت عاصمة للأندلس نحو ثلاثة قرون حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ .

وتقـع قرطبة على سهل مرتفع فى سفح جبـل قرطبة (جبـل العروس) ، الذى يعتبر جـزء من سلسلة جبـال سيراموربنا ، وتشرف من جهـة الجنوب على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير

=

يقول ابن حوقل الرحالة الشيعى فى وصفها ، وقد زارها فى القرن الرابع الهجرى فى عهد الخليفة الناصر : « وهى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(٢) .

ويرجع الفضل فى تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة فيها إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، فقد كان عصر الولاة عصراً مضطرباً سادت فيه المنازعات والقلاقل نتيجة للعصبية القبلية بين اليمنية والمضرية . فلما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل بدأ فى إرساء قواعد الحكم والإدارة التى كانت سائدة فى الدولة الأموية بالمشرق ، وسرعان ما ارتفعت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة . ويشير ابن حيان إلى هذا التطور الكبير فيقول « لما ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً ، غفلاً من حلية الملك عاطلاً ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فاكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك هيبته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا

=

وترتفع عن سطح البحر بما يتراوح بين ١٠٠ — ١٢٣ م ، وهى تعتمد فى ثروتها على الزراعة خاصة فى سهلها الجنوبى الذى يعرف بالكنبانية وأهم محاصيلها الكروم والزيتون ، كما تشتهر بالكثير من المعادن والأحجار كالفضة والزئبق وحجر الشادنة الذى يستعمل فى التذهيب . كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ .

حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها »(٣) .

وقد عمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة ملكه بهالة من الأبهة والفخامة يعيد به ملك آبائه وأجداده ، فزود حاضرته بالكثير من المنشئات والعمائر ، فقامت فيها حركة عمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت مظهر المدن والعواصم الكبرى فيذكر المقرى : أنه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور(٤) ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة ، نقل إليها غرائب الغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار .

ويقول فى موضع آخر « إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى قرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام »(٥) .

ويبدو الطابع السورى فى تلك المنشآت التى أقامها عبد الرحمن الداخل بقرطبة فقد حاول أن يعيد ما طمس لآبائه وأجداده من معالم الخلافة ، وما درس من آثارها ، ويطعم الحضارة الأندلسية بالتقاليد السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الأموية فى بلاد الشام .

(انظر : د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٥ وبعدها ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٩٣ وبعدها ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٥ ــ ١٦) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) ذكر المقرى أن عدد مساجد قرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩٠ مسجدا (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨) .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣.

قصر الإمـارة (الخلافة) فى قرطبة :

عندما فتح المسلمون الأندلس نزل قادتهم ورؤساؤهم بالقصور التى كانت موجودة فى المدن المفتوحة ، وعندما فتح مغيث الرومى قرطبة أقام فى قصر أميرها القوطى والمعروف ببلاط قرطبة . ورأى موسى بن نصير أن هـذا القصر أنسب لأن يكون مقرا للوالى فأعطى مغيث « دارا شريفة ذات مسقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت للملك الذى أسره وسميت بلاط مغيث » (٦) .

وتتـابع ولاة الأندلس فأقاموا فى قصر الإمارة بقرطبـة ، ونزل به عبد الرحمن الداخل وصار مقرا له ولأبنـائه ، ودخلت عليـه الكثير من الإضافات والزيادات ، وأصبح يعرف بالقصر الخلافى بعـد ذلك . ويقول عنه ابن بشكوال « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم وفيـه من المبـانى الأولية ، والآثار العجيبة — لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز عن الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيهـا — البـدائع الحسان ، وآثروا فيـه الآثار العجيبـة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيـه الميـاه العـذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل سـاحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصـانع (الأبنية المختلفة) صـور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ... إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » ويضيف ابن بشكوال قائلا : « وفى هـذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم يـر الراءون

---

(٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٤ .

مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها »(٧) .

وقد وصف المقرى قصر قرطبة بقوله « ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — فى قصرها البدائع الحسان ، وآثروا الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة لأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة ، وفى القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها »(٨) .

ويبدو أن هذا القصر كانت له مناظر تطل على نهر الوادى الكبير والربض الجنوبى من قرطبة ، وانه قد أضيف إليه فى عهد عبد الرحمن الأوسط « الذى اتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة »(٩) ولعله بنى القصر المسمى بالكامل أيضا(١٠) .

ويذكر ابن خلدون أن الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد قد اهتموا بتشييد المجالس (شبيهة بالاستراحات) فى هذا القصر ومنها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف . كما أضاف إليه الأمير عبد الله

---

(٧) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ج ٢ ص ١٠٢ .
(٨) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٩ .
(٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .
(١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ .

ابن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) ففتح فيه بابا عند الركن القبلى سماه باب العدل كان يجلس فيه يوما فى الأسبوع لمباشرة أحوال المتظلمين بنفسه ، كما أقام ساباطا (طريقا مسقوفا) يصل بين القصر وجامع قرطبة المواجه له ، كما أن الناصر أضاف إليه إضافات كثيرة . حيث يذكر ابن عذارى انه « لم يترك فى قصر الإمارة بنية إلا وترك فيها أثرا محدثا إما بتجديد أو بتزييد ، ومن هذه الاضافات بناء عرف بدار الروضة(١٢) بجوار المجلس الزاهر - الذى استقبل فيه سفير بيزنطة سنة ٣٣٨هـ - كما اسس الدار المعروفة باسم دار الرخام(١٣) .

ويغلب على الظن أن هذه المجالس أو القصور التى أقامها هؤلاء الأمراء فى قصر قرطبة القديم كانت أبنية جديدة على أجزاء من أنقاض القصر القديم .

وكان هذا القصر يضم قصورا أو مجالس داخلية منها - بالاضافة إلى ما مر ذكره - المجدد ، والحائر ، وقصر الوزراء ، والمعشوق ، والمبارك، والرشيق ، والسرور ، والتاج ، والبديع ، والبستان(١٤) .

وكان لهذا القصر عدة أبواب منها باب السدة وهو الباب الرئيسى فى الناحية القبلية ، وباب قورية ، وباب الصناعة فى الناحية

---

(١١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١١٢ .
(١٢) لعلها سميت بذلك لأنها كانت تطل على تربة الخلفاء داخل القصر والمعروفة بالروضة . (انظر ابن حيان : المقتبس ص ٣ نشر ملثور انطونيه) .
(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٣ نشر د. عبد الرحمن الحجى . ويبدو أن السبب فى تسميتها بذلك هو استخدام الرخام فيها بكثرة .
(١٤) المقتبس ص ٢٣٠ نشر الحجى ، نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٢ ، جـ ٢ ص ١٥٣ .

الشمالية ، وباب الجامع فى الناحية الشرقية وكان يدخل منه الأمراء يوم الجمعة . اما الجهة الغربية من القصر فلم يكن فيها أبواب حيث كانت تلها بساتين وروضات(١٥) . وقد تعرض هذا القصر للتخريب عقب دخول البربر قرطبة سنة ٤٠٣هـ فيما يسمى بالفتنة البربرية(١٦) .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦م سمى بالقصر الأسقفى بدلا من القصر الخلافى ، ثم حوله الأسقف (دون سانشورى روخاس) فى القرن الخامس عشر إلى قصر من الطراز القوطى ، وتهدمت واجهته الجنوبية فى أوائل القرن السابع عشر ، ثم أحرق سنة ١٧٤٥م ولم يبق منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار جامع قرطبة ، وجزء من الجدار الشمالى ، ويحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة بما فى ذلك الركائز التى تدعمها(١٧) .

قصر الرصافة :

كان عبد الرحمن يحن إلى قصور آبائه واجداده وخاصة رصافة جده هشام(١٨) فأقام المنية المعروفة بالرصافة — على بعد ٢ كم —

---

(١٥) عنها بالتفصيل انظر : السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٦) نفح الطيب : جـ ٢ ص ١٣ .

(١٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٦ .

(١٨) الرصافة : كان بعض الخلفاء الأمويين يتخذون قصورا لهم فى بادية الشام بعيدا عن العاصمة لقضاء بعض أوقاتهم فيها ومنها قصير عمرة الذى بناه الوليد بن عبد الملك ، وقصر المشتى الذى ينسب للوليد بن يزيد ، وقصر الحير المغربى الذى يقع على بعد أربعين ميلا جنوب غربى تدمر ، وقصر الحير الشرقى الواقع على بعد ستين

=

شمال غربى قرطبة وبنى بها قصرا للتنزه والسكنى فيه فى بعض الأوقات ، وسماها بذلك نسبة إلى رصـــافة جـده هشام(١٩) .

يقول المقرى « فاتخذ بهـــا قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه سفر بن زيد مولاه إلى الشام من النوى المختارة ، والحبرب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعتــرف بفضلها عــلى أنواعها »(٢٠) .

وقد كان من أشهر الفواكه التى غرست فى منية الرصـــافة (الرمان السفرى) الذى وصفه ابن حيان بأنه « الموصوف بالفضيلة ، المقدم على

=

ميلا إلى الشمال الشرقى منها واربعين ميلا من الرصافة . وقد أشار الطبرى إلى نزول هشام بهـــا وابتنائه قصرين فيها ولعلهما هذان القصران (قرطبة حاضرة الخلافة) (تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٥٠٢) . وأشار السيوطى إلى أن هشام قد بنى قصر الرصافة بقنسرين ليخلو فيه (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨) .

(١٩) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤ ، كما أقام ابنه عبد الله المعروف بالبلنسى ربضـــا ببلنسية سماه بالرصافة . ولعل هذه الرصافة التى أقامها عبد الله هى الولجة التى ذكرها ابن الأبار فى الحـــلة السيراء (انظر ج ٢ ص ١٢٧) وقد كان موضع منيـــة الرصافة التى انشأها الداخل بستانا يعرف باسم (رينالش) ولا زال هذا الاسم يطلق على ضاحية سكنية على بعـــد ٥ كم شـــمال شرق قرطبـــــة .

(٢٠) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٤ .

أجناس ، الرمان بعذوبة الطعم ، ورقة الحجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة » .

ويذكر أن أم الأصبغ أخت عبد الرحمن الداخل قد أحضرت نوعا من الرمان من رصافة هشام بن عبد الملك بالشام ، وأرسلته إلى أخيها عبد الرحمن الداخل مع رسول له ، فعرضه عبد الرحمن على خواصه مزهوا به ، وكان من الحاضرين سفر بن زيد الكلاعى من جند الأردن الذين قدموا الأندلس ، فأعطاه منه « فراقه حسنه وخبره ، فسار به إلى قرية بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله ، حتى طلع شجرا أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب فى حسنه » ، ثم حمل بعض ثماره إلى عبد الرحمن ، فلما سأله عن مصدره ، أخبره بطريقته فى استنباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وغرس منه فى منيته وغيرها ، فأدى ذلك إلى انتشار زراعته ، وغدا يعرف (بالرمان السفرى) نسبة إلى سفر الكلاعى(٢١) .

كما أرسلت أم الأصبغ إلى أخيها شتلات من أشجار النخيل فغرسها فى منيته بالرصافة . ويذكر أنه عندما نزل بها لأول مرة شاهد نخلة أهاجت أشجانه ، وذكرته بموطنه الذى تركه فارا منه ، فقال مرتجلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن أهلى

---

(٢١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ . ولا يزال هذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم فى اسبانيا (السفرى Azifri) . (انظر دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ص ٣٨٤) .

نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنتهى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل(٢٢)

ويقول أيضا فيها :

يا نخل أنت غريبة مثلى
فى الغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى مكبسة
عجماء لم تطبع على خبل ؟
لو أنها تبكى إذا لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلنى
بغضى بنى العباس عن أهلى(٢٣)

وكان عبد الرحمن يؤثر الجلوس فى علية بالرصافة لمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر الذى أنشأه بها ، وكان يحيط به سور له عدة أبواب منها : باب الجبل الذى عرف بذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(٢٤) .

---

(٢٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ . وقد ذكر ابن الأبار : انه قيل إن هذه الأبيات لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان قالها عند دخوله الأندلس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الداخل والمشهور أنها لعبد الرحمن كما فى الكثير من المصادر .

(٢٣) الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ وقد ذكر أيضا أن هذه الأبيات لعبد الملك بن عمر بن الحكم ولكن نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل أقوى كما ذكر ابن بشكوال أيضا (الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ — ٣٨) .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٤ ، مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس : ص ١١٥ .

ويمكن ان نستنتج مما ذكره صـاحب اخبار مجموعة : ان عبد الرحمن كان يلجأ إلى هـذا القصر ايضـا عندما كانت تواجهه مشـكلة كبيرة ، وبخاصة من الثائرين والمتمردين. ففيه أمر بقتل وهب بن ميمون ،وابن سليمان الأعرابى ، وهذيل بن الصميل ، ومغيرة بن الوليد ابن اخته الذى ثار عليه وساعده هذيل ، كما حبس فى هـذا القصر أيضـا جماعة منهم كيحيى ابن يزيد بن هشام ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام وأعوانهما ، ثم أمر بقتلهم فيـه ، وسحبت جثثهم إلى نهر قرطبـة حيث صلبت أمـام القصر(٢٥) .

وقد ظلت الرصافة من الاماكن الاثيرة لدى أمراء بنى أمية ، فزادوا فى عمارتها ، ونزلوا بهـا ، كما نزل بقصرها بعض ملوك الدول الأجنبية الذين قدموا إلى الأندلس ، مثل الملك أردون الرابع ملك قشتالة المخـلوع الذى اسـتعان بالخليفـة الحـكم المستنصر لاستعادة عرشه فوعـده بذلـك(٢٦) .

وقـد وصف هـذه الرصافة الكثير من الشعراء ، وظلت بعد سقوط الخلافة الأموية منتدى للأدباء ، وملتقى للشعراء ، يتبادلون فيها الأشعار .

ومن أمثلة ذلك قول قاسم بن عبود الرياحى :

اسـقينها إزاء قصر الرصـــافة
واعتبر قليلا فى مآل الخـــلافة
وانظر الأفـق كيف بدل أرضـا
كى يطيل اللبيب فيه اعترافه(٢٧)

---

(٢٥) أخبار مجموعة ص ١١٠ — ١١٥ .
(٢٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٩ .
(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦م ، أصبحت منية الرصافة ، مقرا لجماعة الآباء الفرنسيسكان . وقد بقى منها إلى اليوم بعض آثار جدران وقاعات ، وفى جوف هذه الأطلال باب يؤدى إلى نفق فى باطن الأرض يقال : إن عبد الرحمن كان يرتاده كلما أراد أن يخلو بنفسه ، ويصل ما بين الرصافة وقرطبة ، وهناك آثار نخلة قديمة هرمة قد تآكلت أجزاء كثيرة منها ، وتداخلت فيها قطع الحجارة ، وبقايا أبنية قديمة يقال إنها نخلة عبد الرحمن الداخل ويطلق عليها نخلة عبد الرحمن(٢٨) .

قصر الدمشق :

ولم يكن قصر الرصافة هو الوحيد الذى أقامه عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتضحت فيه التأثيرات الشامية (السورية) فهناك قصر آخر ذكره بعض المؤرخين ويعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن أنه من بناء عبد الرحمن أيضا ، وقد ذكر المقرى : أن هذا القصر شيد « بالصفاح والعمد ، وأبدع فى بنائه ، ونمقت ساحاته ، وكسيت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله فى ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة » .

وقد أضاف إليه أمراء بنى أمية بعد ذلك وزخرفوه ، واتخذوه « ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم » ، وقلدوا به قصور أجدادهم فى المشرق(٢٩) .

وقد ظلت أطلال هذا القصر قائمة فى عصر ملوك الطوائف ، وقد زاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار وقال فيه :

---

(٢٨) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٢ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٩ ، (٦٤) ص ١٢٧ .

(٢٩) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩٢ .

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم(٣٠)

قصر ابن الشالية :

ومن القصور التى تعود إلى العصر الأموى ايضا ، واقيم خارج قرطبة قصر عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية وعنه يقول الشاعر عبيديس ابن محمود وكان كاتبا له :

قصر الأمير ابى مروان منتسخ
من جنة الخلد بالسراء معمور
فيه مجالس قد شيدت بلا عمد
بنيانها مرمر بالتبر مطمور(٣١)

وكان عبيد الله من كبار الثوار فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، واستطاع أن يسيطر على جبل شمنتان وما يليه من كورة جيان ، ومد نفوذه إلى حصن قسطلونة وغيره . وبنى المبانى الفخمة ، واتصل بعمر ابن حفصون زعيم ثورة المولدين فى ببشتر ، وصاهره بتزويج ابنته من

---

(٣٠) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٧ .

(٣١) ابن حيان : المقتبس القسم الثالث ص ١١ تحقيق ملثور أنطونية ، دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ج ٢ ص ٢٦٣ ، فون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٦١ .

جعفر ولد ابن حفصون . حتى تم القضاء على ثورته فى عهد الخليفة الناصر(٣٢) .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت معالم الحضارة الاندلسية تتضح شيئا فشيئا ، وشهدت قرطبة العاصمة سيلا من التأثيرات المشرقية فى الفنون والآداب والعلوم . وكان عبد الرحمن « أول من فخم السلطنة بالأندلس ، فنظم الشرطة ، وميز ولاية المدينة عن ولاية الأسواق ، واحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخل المسلمون الأندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتا للوزارة فى قصره واتخذ القصور والمتنزهات ، وأحدث الطرز ، وكسا الإمارة ابهة الجلالة »(٣٣) .

وقد تشبه عبد الرحمن بجده الداخل ، بل وفاته فى بناء القصور ، وأسرف فى الإنفاق عليها ومنها : البهو والكامل والمنيف ، ويصف عباس ابن فرناس ما رآه فيها من فخامة وترف فيقول :

حنايا كأمثلة الأهلة ركبت
على عمد تعتد فى جوهر البدر
كأن من الياقوت قيست رءوسها
على كل مسنون مقيض من السدر
ترى الباسقات الناشرات فروعها
موائس فيها من مداولة الوقر

---

(٣٢) انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ترجمة رقم ٨٩ .

(٣٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٦ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٢٠ .

كان صناعا صاغ بين غصونها
من الذهب البادى عراجين من تمر
نشت لؤلؤا ثم استحالت زمردا
يؤول إلى العقيان قبل جنى البسر

وهـذا شاعر آخر يصف أحد هـذه القصور فيقول :

ومن عمد تزهى بماء محاسن
يصوب عنه كل طرف مصعد
حكت حمرها الياقوت والدر بيضها
ومن خضرها اشتق اخضرار الزبرجد
يجول السنا فيها مجال الشعاع فى
صفيحة سيف الصيقل المتقلد
عشيق ومعشوق وبهو زاهر
إلى كامل فى حسنه ومجدد(٣٤)

اما فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فقد وصلت قرطبة إلى الذروة ، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها ، وبلغت مستوى من التقدم والازدهار لم تبلغه أى حاضرة أخرى فى الأندلس من قبل ، بل إننا لا نبالغ عندما نقول : إنها صارت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد شهد لها الرحالة الشيعى ابن حوقل — برغم ما عرف عنه من عداء للأمويين — فقال : « هى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(٣٥) .

---

(٣٤) الكتانى : التشبيهات ص ٧٠ — ٧٨ .

(٣٥) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٨ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٨ .

وقد شهدت قرطبة فى عهد الناصر عصرا من الرخاء والازدهار والعمران لم تشهده حاضرة من قبل . وقد كان الناصر شغوفا بالبناء والعمران ، وساعده فى ذلك ما وصلت إليه جباية الأندلس وخراجها فى عهده من كثرة واتساع ، فجعل ثلثها للبناء والعمران(٣٦) . وينسب إليه انه قال :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
او ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظم الشان(٣٧)

ولذلك يقول ابن عذارى عنه إنه « أسس الأسوس ، وغرس الغروس ، واتخذ المصانع والقصور ، ولم يبق له فى القصر الذى هو من مصانع أجداده ، ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد أو بتزييد »(٣٨) .

ويقول ابن خلدون : « ولما استفحل الملك للناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمبانى »(٣٩) .

---

(٣٦) يذكر المقرى أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر خمسة آلاف ألف ألف دينار ، وأربعمائة ألف ألف وثمانين الف دينار ، ومن المستوق المستخلصة سبعمائة الف دينار وخمسة وستون الفا (نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(٣٧) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣٩) العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، وانظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

مدينة الزهراء :

يمكن أن نقسم المدن الإسلامية فى الأندلس إلى نوعين :

الأول : المدن السابقة على الفتح والتى نزل بها المسلمون مثل قرطبة وإشبيلية وغيرها .

والثانى : المدن التى أسسها المسلمون بعد الفتح ، واستقروا بها وصبغوها بالصبغة العربية والإسلامية ، وهذه المدن تنقسم إلى قسمين أيضا :

١ - مدن حربية أو عسكرية : مثل مدينة قلعة رباح ، وقلعة أيوب ، وحصن القصر ، وحصن الفرج ، ومدينة القلعة ، ومدينة القليغة وغيرها .

٢ - مدن أميرية يبنيها الأمراء والخلفاء للراحة والاستجمام وأحيانا للإقامة مثل مدينة الزهراء التى بناها الناصر ، ومدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر(٤٠) .

ويهمنا فى هذا المقام الحديث عن هذا النوع الأخير ونخص بالذكر مدينتى الزهراء والزاهرة .

أما الزهراء فإن تاريخ بنائها يحيط به نوع من القصص أقرب إلى الأساطير حيث ذكر المؤرخون فى سبب بنائها : أن الناصر قد ماتت له جارية تركت مالا كثيرا ، فأمر بأن يفتدى بذلك المال أسرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجد لديهم أسرى . فطلبت منه جارية له تدعى الزهراء - وكان مغرما بها - أن يبنى لها بهذا المال مدينة ويسميها باسمها ، فاستجاب لذلك وأخذ فى بناء المدينة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال أو نحو ذلك(٤١) .

---

(٤٠) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣٦ .
(٤١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ .

والواقع ان الناصر كان محبا للبناء والعمران بطبعه ، ويرى أن البناء إذا تعاظم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن كما قال ، وانه أحد أسباب تخليد ذكرى الإنسان . فرأى أن يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، خاصة وأنه قد تلقب بلقب الخلافة منذ وقت قصير سنة ٣١٧هـ(٤٢) .

ويبدو أن قصة الجارية إنما هى محض خيال من ابتكار المؤرخين العرب الذين يريدون أن يجعلوا لكل تسمية أصلا ، ويحبكون القصة حتى تبدو حقيقية ، فيذكرون أنه نقش صورة هذه الجارية فى تمثال وضعه على باب المدينة مبالغة فى حبه لها ، وحقيقة الأمر أن هذا التمثال لا يعدو أن يكون أحد التماثيل الرومانية التى نصبت على أحد أبواب المدينة تقليدا لتمثال على هيئة امرأة وضع على باب القنطرة بقرطبة ، والذى عرف بباب الصورة أو باب العذراء(٤٣) .

أما اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التى أسسها الخليفة فى هذه المدينة ، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار

---

(٤٢) يذكر د. حسن ابراهيم : أن عبد الرحمن الناصر لما وطد دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى جعفر المنصور عندما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ ، وعبيد الله المهدى حين بنى المهدية سنة ٣٠٣هـ ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد . وإذا كان للناصر ان يتمثل بالمنصور والمهدى ، فكيف يتأتى له أن يقتدى بالمعز ، والقاهرة لم تنشأ إلا سنة ٣٥٨هـ ؟ وهو قد بدأ بناء الزهراء سنة ٣٢٥هـ ! (انظر تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٤٧٠) .

على جبل قرطبة التى تقع المدينة على سفحه ، وخاصة أشجار التين واللوز(٤٤) .

وقد بدأ الناصر فى بناء هذه المدينة فى المحرم سنة ٣٢٥هـ ، على بعد خمسة أميال تقريبا إلى الشمال الغربى من قرطبة(٤٥) .

وقد كلف الناصر عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبى ، وعلى بن جعفر الاسكندرانى بجلب الأعمدة والرخام إليها . وكان يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية كما ذكر ابن عذارى ، أو بعشرة دنانير على كل رخامة كبيرة أو صغيرة كما ذكر المقرى ، فجلبوا لها الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع من رية ، والوردى والأخضر من قرطاجنة وإصفاقس . وكان يورد إليها من الجير والجص الف ومائة حمل كل ثلاثة أيام .

وقد ذكر ابن عذارى : أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة ، سوى التبليط فى الأساس ، وأن عدد السوارى التى جلبت لها بلغ (٤٣١٣) سارية ، جلب منها (١٠١٣) سارية من إفريقية ، وأهدى ملك الروم للناصر (١٤٠) سارية ، والباقى من رخام الأندلس من طركونة وغيرها .

وذكر أنه كان يعمل فيها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب الف وخمسمائة دابة ، وكان المشرف على البناء الحكم ابن الناصر . واستمر العمل فى بنائها بقية عهد الناصر وعهد

---

(٤٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .
(٤٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .
(٤٥) ذكر المقرى أن المسافة بين الزهراء وقرطبة أربعة أميال وثلث ، وطولها من الشرق إلى الغرب (٢٧٠٠) ذراع ، وعرضها (١٥٠٠) ذراع ، وعدد سواريها (٤٣٠٠) سارية ، وأبوابها تزيد على ١٥ الف باب (نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

ابنه الحكم إلى سنة ٣٦٥هـ أى نحو أربعين سنة(٤٦) .

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس (جبل قرطبة) ، وكانت تشتمل على ثلاث مستويات متدرجة فى البناء كما يتبين من وصف الإدريسى لهـا حيث قال « وهى فى ذاتهـا مدينـة عظيمة مدرجة البنية ، مدينـة فـوق مدينـة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجـزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط ، يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور . فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط للبساتين والروضـات ، والجزء الثالث للديار والجوامع »(٤٧) .

وقد جلب الناصر من القسطنطينية حوضـا من الرخـام منقوشـا بالذهب ، وعليه رسوم بارزة ، ونصـبه فى بيت المنـام بالقصر الشرقى بالمدينة ، الذى عرف بقصر المؤنس ، وأقام عليـه اثنى عشر تمثـالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس المصنوع بدار الصناعة بقرطبة(٤٨) .

كما أقام الناصر فى المدينـة القصر الخـلافى والذى عرف بالمجلس الزاهر ، وكان آية فى الترف . فقـد ذكر أنه اتخـذ فيه قبة قراميدها من الذهب والفضـة أنفق فيها مالا كثيرا ، وجعل فى وسطه صهريجا عظيما مملوءا بالزئبق ، إذا سطعت عليـه أشعة الشمس أحدثت نورا وبريقـا يخطف الأبصـار ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى ليخيل للناظر أن المجلس يتحرك ، وقيل إن الناصر كان إذا أراد أن يفزع أحـدا من أهـل مجلسه أومأ إلى أحـد الصقالبة ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس لمعان

---

(٤٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .
(٤٧) صـفة المغرب والأندلس (من كتاب نزهة المشتاق) ص ٢١٢ .
(٤٨) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٦ ، ابن عذارى : البيـان المغرب جـ ٥ ص ٢٣١ .

كالبرق . وقيل إن هـذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس أينما دارت ، وهـذا من قبيل مبالغات المؤرخين .

وكان فى كل جانب من جوانب هـذا القصر ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا قائمة على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافى ، وقد رصعت هـذه الحنـايا بالذهب وأصناف الجواهر . إلى غير ذلك من الأوصـاف التى تحمل فى طياتها كثيرا من المبالغة(٤٩) .

كما بنى إلى جانب المجلس الزاهر قصرا سماه (دار الروضة) . كما أخـذ فى بنـاء المتنزهات ، فاتخـذ منية الناعورة خـارج القصور ، وسـاق إلى هـذه القصور والمنيـات المـاء من أعلى الجبل على مسافة بعيـدة . ويصف ابن خلدون ما أنشأه الناصر فى مدينة الزاهرة فيقول : « وأنشأ فى مدينة الزاهرة من المبـانى والقصور والبساتين ما عفا على مبانى من سبقه ، واتخذ فيها دورا فسيحة للوحوش متباعدة السـياج ،

---

(٤٩) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . ويذكر النباهى : أن النـاصر لمـا بنى هـذه القبة جلس فيها وقال لمن حوله « هل رأيتم أو سمعتم ملكا فعل مثل هـذا ، أو قـدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين » وبينما هو كذلك فى غبطة وسرور دخل عليه القاضى منذر بن سعيد البلوطى فقـال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشـيطان يبلغ منك هـذا المبلغ ؟ فقال الناصر غاضبا : انظر ما تقول . قال : أليس الله يقول (**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضـة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لمـا متاع الحياة الدنيـا والآخرة عنـد ربك للمتقين**) .

فوجم الناصر وأطرق مليـا ثم بكى ، ودعـا للقاضى بخير ، وقام عن مجلسه وأمر بنقض سقف هـذه القبة ، وجعل قراميدها من التراب (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠) .

ومسارح للطيور مظللة بالشباك » ، كما بنى الناصر بهـا ايضـا دورا لصناعة الآلات من السلاح والحلى وغير ذلك(٥٠) .

وكانت هنـاك بحيرة بالقصر تربى فيها الحيتان ، وكان طعامها فى كل يوم ثمانمائة خبزة ، وقيل اثنى عشر الف خبزة ، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة فى كل يوم(٥١) .

قصر منيـة الناعـورة :

كما انشأ الناصر فى منية الناعورة(٥٢) غربى قرطبة قصرا له نسب

---

(٥٠) العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، بينما يذكر ابن عذارى أنه كان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرات ١٨ الف خبزة ويعلق على ذلك قائلا « وهذا من أعظم الأشياء » (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١) .

(٥٢) سميت بذلك نسبة للناعورة (الساقية) التى كانت ترفع الميـاه إلى بساتينها (قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٠٣) ، وكانت منية الناعورة فى بداية الأمر أرضـا تقع على شاطىء نهر قرطبة بجوار مصلى فحص المصـارة العتيق ، اشتراها الأمير عبد الله أيام والده محمد بن عبد الرحمن الأوسط بما حولها من المزارع من رجل يسمى خليل البيطار سنة ٢٥٣هـ « فأنشأها منيـة عجيبة ، واسـعة الخطة ، أرادها للفرجـة ، وأوسـع خطتهـا ، وأكثر غراساتها ، واقتصد مع ذلك فى الانفـاق عليها » وكانت بساتينها تسقى من نهر قرطبة بواسطة النافورة ولذلك سميت بهـا ثم انتقلت ملكيتها لعبد الرحمن الناصر ، فاقام بهـا هذا القصر ، وأجـرى له المـاء العـذب من جبل قرطبة فى جسر أو قنـاة على حنـايا معقودة استغرق بناؤها أربعـة عشر شـهرا ، وكان اثيرا لديه يقصده للراحة والنـزهة ، وخاصة بعـد عودته من الغزوات ،

إليها فى سنة ٣٢٩هـ « وأجرى له الماء العذب من جبل قرطبة فى قناة يجرى ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة ، يجوز الماء إلى عجزه فيمجه بفمه فى تلك البركة فيسقى جنان القصر على سعتها » كما ذكر المقرى(٥٣) .

وقد ذكر ابن عذارى : أن عدد الدور التى كانت تضمها مدينة الزهراء ١١٣ الف دار للرعية ، بخلاف دور الوزراء والكبراء . وهذا دليل على انتقال الكثير من الناس إليها من قرطبة ، وخاصة بعد أن اتخذها الناصر مقرا جديدا للخلافة . هذا بخلاف عدد دور القصر الخلافى وتبلغ اربعمائة دار لسكنى الخليفة وحاشيته وأهل بيته ، وذكر أن عدد الفتيان الصقالبة فى القصر بلغ ٣٧٥٠ فتى ، وعدد النساء من الجوارى والخدم بلغ ٦٣٠٠ امرأة ، وانه كان يصرف لهم من اللحم فى كل يوم ١٣ الف رطل سوى الطيور والأسماك(٥٤) .

وقد بالغ المؤرخون والرحالة فى وصف قصور الزهراء ، وما احتوته من مظاهر الثراء والترف بأوصاف لا يصدقها العقل فى كثير من الأحيان .

غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية التى أجريت فى موضع هذه

وفيه نزل الملك أردون الرابع ملك قشتالة لما قدم يستنجد بالمستنصر لرده إلى عرشه سنة ٣٥١هـ (انظر : المقتبس ص ٣٨ تحقيق شالمثور انطونيه ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤) .

(٥٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ هذا بينما يذكر المقرى أن عدد الفتيان الصقالبة بالزهراء ١٣٫٧٥٠ ، وعدد النساء ٦٣١٤ ، وقيل عدد الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ أو ٣٧٨٧ أو ٦٠٨٧ (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥) .

المدينة قد أثبتت صدق كثير من هذه الأوصاف إلى حد كبير(٥٥) .

وما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهى من بناء قصور الزهراء ، حتى شرع فى إقامة الأسواق والحمامات والخانات والمتنزهات بها ، وشجع الناس على السكنى فيها . ويذكر أنه أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس أن من يبنى بها دارا ، أو يتخذ بها مسكنا فله أربعمائة درهم معونة « فتسارع الناس إلى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيها الرعية »(٥٦) .

وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها حتى ازدحمت بالسكان ، وامتد العمران خارجها فى الطريق الممتد بينها وبين قرطبة حتى كادت الأبنية تتصل بينهما . وتوفى الناصر قبل أن يتم بناء المدينة بأكملها ، فأخذ ابنه الحكم المستنصر فى إكمالها . ولكن لم يتح لهذه المدينة الفخمة أن تنعم بالحياة والازدهار طويلا ، حيث شرع المنصور بن أبى عامر فى بناء مدينته الزاهرة سنة ٣٦٨هـ لمنافسة الزهراء فسلب منها الكثير من مظاهر النشاط والازدهار ونقل منها الدواوين ، وبيت المال ، والخزائن ، وغير ذلك ، حتى جاءت الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس لتعصف بحياتها مع الزاهرة ، ولم يتجاوز عمرها نحو ثلاثة أرباع قرن — وقد ندبها الكثير من الشعراء ومنهم السميسر الألبيرى الذى يقول :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أندب أشتاتا

---

(٥٥) انظر عن هذه الحفائر : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ملحق رقم ٣ ص ٢٠٨ وبعدها ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤١٠ — ٤١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٧ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٢ .

فقلت يا زهــرا الا فارجعى   قالت وهل يرجــع من ماتا ؟

فلــم ازل ابكى وابكى بهـــا   هيهات يغنى الدمع هيهـــاتها

وأبو الحزم بن جهور الذى زارها يوما ووقف على أطلالها فقال :

قلــت يوما لــدار قــوم تفــانوا

اين ســكانك العـــزاز علينـــا

فأجـــابت هنـــا اقـــاموا قليـــلا

ثم ساروا ولست اعلم اينـــا(٥٧)

مدينــة الزاهـــرة :

بعــد وفاة الخليفة الحــكم المستنصر ، وتولى ابنه هشام مقاليــد الخلافة وكان لا يزال غلاما فى العاشرة من عمره ، تولى محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور الحجابة له ، وأخــذ نفوذه فى الازدياد ، وســيطر على مقــاليد الأمور فى الأندلس ، وحجر على الخليفة الصغير بعــد أن تخلص من منافسيه .

وأراد أن يسجل ما وصل إليه من نفــوذ وسلطان فأقام على نهــر الوادى الكبير بالقــرب من قرطبـــة قصرا له كان نواة لمدينته التى سميت بالزاهرة ، وغدت منافسة لمدينـــة الزهـــراء التى بدأها النـــاصر وأكملها المستنصر .

ويعبر الفتح ابن خاقان عن ذلك بقوله « عندما استفحل أمره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، سما إلى ما ســمت إليـــه الملوك من اختـــراع قصر ينزل فيه ، ويحل به أهــله وذويه ، ويضم إليـــه رياسته ، ويتــم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيـــانه وغلمانه » .

---

(٥٧) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ، تاريـــخ المســلمين وآثـــارهم ص ٤١٠ .

كما يذكر المقرى أيضا انه « بنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة العامرية ذات القصور والمتنزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مخترعاته العجيبة »(٥٨) .

وهناك عامل آخر فى بناء المنصور للزهراء واتخاذها مقرا له وهو خشيته على نفسه من دخول قصر الخليفة هشام بعد أن حجر عليه ، واستبد بالأمر من دونه ، وكثر حساده ومنافسوه وخصومه(٥٩) .

وقد شرع المنصور فى بناء هذه المدينة سنة ٣٦٨هـ ، فحشد لها العمال والفعلة ، وجلب لها ما تحتاج إليه من مواد البناء ، وبدأ العمال فى تسوية ارضها تمهيدا للبناء . وقد وسع المنصور فى تخطيطها ، فامتدت رقعتها امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار عالية ، وفتح فيه عدة ابواب منها باب الفتح ، وباب السباع ، وباب الجنان .

وقد استغرق البناء فيها مدة عامين حيث انتقل إليها المنصور سنة وامتعته ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل داخلها الأهراء (مخازن الغلال) ، واطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازة المشيدة ، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حولها ، حتى اتصلت أرباضها

---

(٥٨) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٥٩) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٥٨ .

بأرباض قرطبة »(٦٠) .

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقدان الزهراء لمكانتها ، فقد أخذ الكثيرون من أهلها فى الرحيل عنها إلى الزاهرة ، ليكونوا بالقرب من صاحب النفوذ والسلطان .

وكان المنصور قد رتب جلوس الوزراء والكبراء والشيوخ بها ، وندب إليها أرباب الخطط ، وجعلها مقرا للشرطة ، وعين عليها واليا على نحو ما كان معمولا به فى الزهراء وقرطبة ، كما أقام بها مسجدا جامعا لتكتمل جميع مرافقها ، وتصبح مدينة مستقلة بذاتها ، وهكذا حلت محل الزهراء وأصبحت قاعدة الحكم ومركز السلطنة بالرغم من وجود الخليفة فى الزهراء . فقد كانت تصل إليها الضرائب والجبايات ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، وغدت مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى ، ومكانا لاستقبال الملوك والأمراء الأجانب . فقد استقبل فيها المنصور سنة ٣٨٢هـ شانجة (سانشو) ملك بنبلونة — الذى أهدى للمنصور ابنته فتزوجها وولدت منه عبد الرحمن المعروف بشنجول — استقبالا حافلا .

كما استقبله عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٤هـ ، واستقبل عبد الملك أيضا الخليفة هشام المؤيد فيها سنة ٣٩٨هـ بعد أن أعد له نزهة فيها(٦١) . وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا وتزايد فيها البناء وأقيمت فيها المنيات والمتنزهات ، والبساتين والرياض إلى جانب القصور .

---

(٦٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١٠ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٣ .

(٦١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٧٣ ، ٨٨ .

ومنها قصر ناصح ، وقصر الزاهى الذى كسيت جدرانه بالمرمر ، وأجريت فيه المياه والغدران التى تحف بها الأشجار والأزهار ، وقصر الحاجبية الذى أقامه المظفر إلى جانب المدينة خارج السور(٦٢) .

ومن منياتها : منية السرور ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين روضة وغدير(٦٣) وذات الواديين ، ومنية أرطانية ومنية اللؤلؤة(٦٤) .

ومن أشهر المنيات منية العامرية أو منية المنصور(٦٥) التى كان يقضى بها الكثير من أوقاته مع خاصته . وقد احتفى بها الكثير من الشعراء ، بسبب سحر حدائقها ومنهم ابن أبى الحباب الشاعر ، الذى دخل على المنصور فى منيته « والروض قد تفتحت انواره ، وتوشحت أنجاده وأغواره ، وتصرف فيها الدهر متواضعا ، ووقف بها السعد خاضعا » . ووقف على روضة فيها ثلاث سوسنات تفتحت اثنتان منهما دون الثالثة فقال :

---

(٦٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٢ .
(٦٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٦٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ .
(٦٥) أسسها المنصور سنة ٣٦٩ إلى جانب مدينة الزهراء وحاطها بالرياض والجنان وأجرى فيها قناة تنساب ملتوية كالثعبان بين بساتينها وعلى ضفتيها تكثر الأشجار ، وتقع آثارها اليوم على بعد ثلاثة كم من مدينة الزهراء وتسعة كم غربى قرطبة (انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٥ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢١٣) .

لا يوم كاليوم فى ايامنـــا الأول
بالعامرية ذات المـــاء والظـــل
هواؤها فى جميع الدهر معتـــدل
طيبـــا وإن حـــل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ســـاحتها
بالسعد الا تدل الشمس فى الحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل
ابدت ثلاثا من الســوســـان مائلة
أعنـــاقهم من الإعيـــاء والكســـل
فبعـــض نوارها للبعـــض منفتـــح
والبعض منغلق عنهن فى شـــغل
كأنهـــا راحـــة ضـــمت أناملهـــا
من بعد ما ملئت من جودك الخضل
واختهـــا بســـطت منهـــا اناملها
ترجو نداك كما عودتها فصل(٦٦)

ويذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخـــل على المنصور بهـــا وعنـــده صاعدا البغدادى فقال منشدا :

فالعـــامرية تزهى على جميع المبـــانى
وانت فيها كسيف قد حل فى غمدان(٦٧)

فقام صاعد وكان منافسا له فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه . هـــذا الشعر الذى قاله قـــد أعده وروى فيـــه ، اقـــدر

---

(٦٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧ .
(٦٧) غمدان : قصر سيف بن ذى يزن باليمن .

ان اقول احسن منـــه ارتجالا فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعـ واك فقـــال :

يا أيها الحــاجب المعتــلى على كيوان
ومن به قــد تناهى فخـــار كل يمان
العـــامرية أضــحت كجنـــة الرضوان
فريـــدة لفــــريد ما بين أهل الزمان

ثم قـــال فى وصــفها :

انظـــر إلى النهـــر ينســـاب كالثعبان
والقضب تلتف سكرا على ذرا الأغصان
والطير يخطب شكرا بميس القضـــبان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنـــة النعمان
وراحة الريح تمتـــا ر نفحة الريحان
فـــدم الدهر فيهـــا فى غبطـــة وأمان(٦٨)

وفى منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد البغدادى اللغوى :

اما ترى العين تجرى فوق مرمرها
زهوا فتجرى على احفافها الطربا
اجـــريتها فطمـــا الزاهى بجـــريتها
كما طموت فسدت العرب والعجما
تخال فيه جنود المـــاء رافـــلة
مستلئمات تريـــك الدرع والقلبـــا

(٦٨) نفح الطيب ج ١ ص ٤٨٤ ، ٥٨٢ .

تحفها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضة إذ اورقت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها
يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر ان ينشى لها مثلا
ولو تعنت فيها نفسه طلبا(٦٩)

وكان يكثر فيها النرجس والياسمين والبنفسج وقد وصف الوزير الجزيرى مجلسا للمنصور فيها فقال :

وتوسطتها لجة فى قصرها
بنت السلاحف ما تزال تنقنق
تنساب من فكى هزبر إن يكن
ثبت الجنان فإن فاه أخرق
صاغوه من ند وخلق صفحتى
هادية محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع فى عرشه
مثل المليك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج
وجنى خيبرى وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت
زهر الربيع فهن حسنا تشرق

---

(٦٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٥ .

كما أنشد الشاعر الجزيرى على لسان النرجس فيها مخاطبا المنصور :

حيتك يا قمر العلا والمجلس

أزكى تحيتها عيون النرجس

زهر تريك بحسنها وبلونها

زهر النجوم الجاريات الكنس (٧٠)

وإذا كانت حياة الزهراء قد امتدت نحو سبعين عاما ، فإن حياة الزاهرة لم تبلغ نصف هذه المدة ، حيث ثار العامة على عبد الرحمن شنجول سنة ٣٩٩هـ وهاجموها ونهبوها وهدموا مبانيها ومحوا رسومها ، فخربت وتلاشى أمرها وصارت كأمس الدابر ، وكانت كارثتها أعظم من الزهراء ، حيث أن موجة التخريب ضدها كانت أشد وأعتى نكاية فى العامريين .

وذكر أن بعض ما نهب منها بيع فى العراق وغيرها من بلاد المشرق . ويروى ابن عذارى : أن العامة نهبوا ما كان فيها من الأموال والسلاح والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب الضخمة وغيرها مما حوته القصور ، وصارت تباع بكل جهة .

ثم أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموى بهدمها ، وقلع أبوابها ، وتحطيم أسوارها ، وتشعيث قصورها ، وأضرمت النيران فيها حتى طمست معالمها ، وأعاد العاصمة إلى قرطبة (٧١) .

---

(٧٠) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٧١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٤ ، وقد وجد فى بهو الجص بقصر إشبيلية — الذى بنى فى عهد بنى عباد (ملوك إشبيلية ، وأضيف إليه فى عصر الموحدين — أعمدة تيجانها متخذة من أطلال الزاهرة والزهراء . (دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٨) .

ويبدو أن المنصور قد كان يتوقع خراب الزاهرة وضياع معالمها فقد ذكر ابن حزم : أنه كان مع المنصور وجماعة فى نزهة بالزورق فى نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه المدينة فقال : « ويها لك يا زاهرة الحسن لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تريك ، وعذب شربك . فليت شعرى من المريد الذى يعدمك ، ويوهن ركنك ويهدمك ، ويخلى ميدانك ، ويضوى قصبتك وأغنائك . فبؤسا له إذ لا يودنه حسنك . فكيف عن تغييرك ؟ . ألا تسبيه بهجة منظرك فكيف عن محو أثرك ؟ » قال ابن حزم : فاستعظمنا ذلك وأنكرنا ما صدر عنه وظننا أن الراح قد غلبت عليه ، وخيلت ذلك إليه فقال : « والله كأنكم لا تعلمون ذلك ، نعم سيظهر علينا عدونا فى أقرب مدة فيهدم هذا كله ويعدمه ، وكأنى بحجارتها فى هذا النهر »(٧٢) . وقد حدث ما كان يحس به المنصور بعد أن فرط فى حق الكثيرين ووصل إلى النفوذ والسلطان بكل حيلة ووسيلة ممكنة .

وذكر ابن سعيد : أنه كان فى بلنسية كثير من المتنزهات والمسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر ، تحيط بها الجنان والأنهار من كل جانب(٧٣) .

كما كانت هناك منيات أخرى أقيمت بها بالطبع مجالس أو قصور للإقامة أو النزول فيها ومن أشهرها :

منية نصر الفتى فى الربض : وكان مولى للأمير عبد الرحمن الأوسط ومن أكبر الفتيان الخصيان فى بلاطه ، وقد وكل إليه عبد الرحمن القيام ببناء الزيادة التى زادها فى جامع قرطبة(٧٤) . وقد اتخذ نصر هذه المنية

---

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٤) المقتبس ص ٢٤٤ تحقيق الحجى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

فى عـــدوة الربض التى تشرف على نهـــــر الوادى الكبير بجـــوار مقبرة الربض(٧٥) . وكان موضعها بيتـــا للرحا فى أيام أبى الخطار الكلبى فى عصر الولاة . ويبدو أنه أقيم مكانها فنــدق « كان متقبله من أهل الإضرار والفسق »(٧٦) فأمر عبد الرحمن بهــدمه بعــد مبايعته بالإمارة ســـنة ٢٠٦هـ .

ويظهر أن الأمير قــد أقطع فتاه ـــ وكان أثيرا لديه ـــ هــــذه الأرض فأقام عليها منيته ، وظلت بحوزته حتى مات مسموما سنة ٢٣٦هـ على يــد الأمير نظرا لتآمره عليه مع جاريته عجب(٧٧) ، ثم آلت إلى زرياب المغنى المشهور ، ثم آلت بعــده إلى الأمير عبد الله بن محمد حفيد عبد الرحمن « فشيد بنيانها وأتقن مصانعها » وكان يوزع أوقاته بينها وبين منية الناعورة السالفة الذكر . وفى عهد الخليفة الناصر آلت إلى ابنه الحــكم ولى عهده ، وفيها نزل سفراء الامبراطور البيزنطى قنسطنطين السابع فى صفر ســـنة ٣٣٨هـ عنــد قدومهم إلى قرطبة(٧٨) .

منيــة عجب : كما أقامت عجب جــارية الحــكم الربضى منية لهـــا فى الربض القبلى فى مواجهة رصيف قرطبة الكبير ـــ وهو الطريق المرصوف بالحجارة الذى كان يمتد من شرق قرطبة حتى الناحية الغربية للقصر ، ويقع ما بين الضـــفة اليمنى للنهر وبين القصر ، ويفتح عليــه البــــاب القبــلى للقصر المؤدى مباشرة إلى القنطرة المقــامة على النهر . وكانت هذه المنية تشتمل على عدة مساكن موقوفة على المرضى(٧٩) .

---

(٧٥) المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملشور أنطونيه .
(٧٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ .
(٧٧) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ ، المغــرب فى حلى المغـــرب ج ١ ص ٤٩ .
(٧٨) المقتبس ص ٣٨ تحقيق أنطونية .
(٧٩) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٠١ ، ٢١٩ .

قصر الفارسى : وكان من القصور المقصودة للنزهة والفرجة شمال قرطبة . وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بنى أمية التى شهدت أول إشراقة عشق ابن زيدون الوزير الشاعر لولادة بنت المستكفى . وفيه يقول أحد الشعراء :

ويهتاج قصر الفارس صبابة

لقلبى لا يألو زناد الأسى قدحا(٨٠)

منية ابن أبى الحكم بن القرشية : وكانت تقع على نهر قرطبة الأعظم (نهر الوادى الكبير) بمنطقة تعرف باسم (الشامات)(٨١) ، وكانت منيعة محصنة مرتفعة الأسوار ، بها عمارات مسورات ، وقد نزل بها أبناء على بن الأندلسى صاحب المسيلة ، وعيال أخيه جعفر عند قدومهم إلى قرطبة سنة ٣٦٠هـ فى عهد الحكم المستنصر مبالغة من الحكم فى إكرامهما بعد خروجها على المهدى الفاطمى .

منية ابن عبد العزيز : وكانت تقع فى الصحراء الممتدة ما بين قرطبة والزهراء وكان قاصدها يصل إليها بعد مروره على السدة والمصارة ومسجد الحاجب ابن أبى عبدة – الذى أنشىء فى عهد عبد الرحمن الأوسط – ثم ربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الإلبيرى أو البردى(٨٢) . وقد نزل فيها يحيى بن على المعروف بابن الأندلسى وأخوه جعفر فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ .

منية جعفر المصحفى : أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى فى خلافة الحكم المستنصر . وقد ذكر ابن عذارى أنها كانت فى منطقة تسمى

---

(٨٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .
(٨١) المقتبس : ص ٤٣ ، ٢٢٨ نشر الحجى .
(٨٢) نفسه ص ٤٦ .

الشى غربى قرطبة . وذكر أن السبب فى بنائها : أن الخليفة الحكم كان متخوفا على ابنه هشام من ابن أبى عامر ، وكان لشدة نظره فى الحدثان متيقنا من انه سينزع السلطان من ولده ، ويؤسس لنفسه مدينة فى موضع يسمى الشى (بفتح اللام) فأمر حاجبه بالمسارعة إليها والشروع فى البناء عليها وأنفق فيها مالا عظيما ، ولكنه اكتشف بعد بنائها أن هناك موضعا آخر يقع فى شرقها بنفس التسمية ولكن بضم اللام عند منزل رجل يسمى ابو بدر . وقد كان هذا الموقع فعلا هو الذى أختاره المنصور ابن أبى عامر لبناء مدينة الزاهرة التى جعلها مقرا له(٨٣) . وقد آلت هذه المنية بعد نكبة جعفر المصحفى إلى المنصور . وفيها يقول أبو بكر ابن جعفر :

قف بالمصحفية واندب مقلة اصبحت بلا إنسان
واسألنها عن جعفر وسطاه ونداه فى سالف الأزمان(٨٤)

* * *

---

(٨٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٥ .

(٨٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

الــــــدور

وإذا كانت قصور الأمراء والخلفـــاء والوزراء قـــد كثرت فى الأندلس فى العصر الأموى ، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا(١) . حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة فى البناء والعمران والزخرفة والتأثيث كل على قـــدر إمكاناته .

وليس من السهل تحـديد مواقع دور الخاصة فى قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، أو وصفها حيث لم تزودنا المصـــادر بالكثير فى هذا الصدد فيما عـــدا الإشارة إلى بعض دور المشاهير من القضاة والفقهاء والعلماء . بينما أفاضت فى وصف القصور . ويمـــكن تقسيم الدور فى الأندلس إلى قسمين : دور رسمية تابعـــة للدولة ، ودور خاصة بالناس . أما الدور الرسمية فكان منها بقرطبة :

دار الوزراء : ويبدو أنهـــا أنشئت فى عهـــد الأمير عبد الرحـــمن الأوسط لأنه كان « أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر » وذلك للتشاور معهم فى أمور الدولة(٢) وعلى هـــذا فإن هـــذه الدار كانت تقع بجانب قصر الإمارة ، أو أنهـــا كانت من ملحقـــاته . وقد ذكرها ابن القوطيـــة وابن حيـــان(٣) .

---

(١) ذكر المقرى : أن عدد دور الخاصة والكبراء وصـــل فى عهد المنصور ابن أبى عامر فى قرطبة وحـــدها (٦٠٫٣٠٠) دار ، وان عـــدد دور العـــامة فيها وصل إلى (٢١٣٫٠٧٧) دار ، سوى الدور التى أعدت للكراء ، وهو ما نطلق عليـــه فى العصر الحـــاضر مســـاكن الإيجار (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ انفتاح الأندلس ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ ، المقتبس ص ٢٥ تحقيق الحجى .

دار القومة : ويبدو أنها أنشئت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد الزيادة التى أضافها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكانت خاصة بسكنى قومه هذا المسجد ، وكانت تقع بداخله فى الجهة الشمالية . ويذكر أنها تعرضت لحريق « أتى على غرفها ، ودمر سقفها ، وأدى إلى تشعيثها » فى ليلة الجمعة لخمس خلون من شهر رجب سنة ٣٦٢هـ(٤) .

دار الرهائن : وكانت تجاور باب القنطرة ، وفيها كان يتم حبس بعض الرهائن حتى يتم الفصل فى أمرهم ، فقد حبس فيها صالح وعلى ابنا رافع صاحب حصن (حجبة) ونفر من بنى عمهما(٥) .

دار الصدقة : وقد أنشأها الخليفة المستنصر غرب المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة التى أضافها للمسجد وكانت مزودة بعلية وكان يتم من خلالها توزيع الصدقات(٦) .

بيت العمال : وكانت دويرة من ملحقات القصر الخلافى ، اتخذت فى الأصل لعمال القصر ، ثم تحولت إلى سجن ، وكان موضعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها كانت نفس سجن قرطبة القديم فى عهد الإمارة(٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الدور الرسمية بعض الدواوين والمصالح الحكومية مثل :

دار الصناعة : وكانت تقع بجوار مسجد أبى عثمان بقرطبة (وهو عبيد الله بن عثمان زعيم موالى الأمويين قبل دخول عبد الرحمن

---

(٤) المقتبس ص ١٠٤ تحقيق الحجى .
(٥) نفسه ص ١٧٦ .
(٦) نفسه ص ١٩ .
(٧) المقتبس ص ٢٠٢ تحقيق الحجى .

إلى الأندلس) ، وكان هـذا المسجد يقـع شمال القصر الخلافى حيث كان هنـاك باب للقصر يعرف (بباب الصناعة) لأنه كان يشرف عليها .

ويظهر أن هـذه الدار أنشئت فى عهـد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعـد غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٢٩هـ ، وكانت تصـنع فيها المراكب والسفن ، ولكنها اقتصرت منذ زمن الناصر على صناعة الآلات والحـلى والتماثيل فيما يبدو ، وذلك نظرا لكثرة دور الصناعة التى أنشئت لبنـاء السفن فى سواحل الأندلس ، وفيها تمت صـناعة الاثنى عشر تمثالا من البرونز المرصـع بالدر النفيس والتى وضعت فى مجلس المؤنس بمدينة الزهـراء(٨) .

دار الطراز والبرد : ويذكر أنها أنشئت فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فهو الذى أحـدثها واستنبط عملها كما ذكر ابن عذارى ، وإن كان ابن حيان يذكر أنها من بنـاء عبد الرحمن الداخل(٩) .

ويبدو أن الداخل هو الذى أنشأها واختصت بصناعة البرود الأميرية ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، واتسعت مرافقها ومهامها وما يصنع فيها . فقد ذكر ابن الخطيب « أنه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق »(١٠) .

ومعنى هـذا أنه أنشأ دار للطراز لنسج الثياب الأميرية له ولأهله وحاشيته ويبدو أنها أنشئت إلى جانب الدار البردية التى أقامها الداخل .

وفى عصر الخليفة الناصر اتسعت وأصبح ينسج فيها ما يحتاج إليه من الخـلع والكسوات وملابس الحريم وغير ذلك . ويذكر ابن الخطيب معلقـا على ذلك « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ،

---

(٨) ابن عذارى : البيـان المغـرب ج ٢ ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٤ .

(٩) المقتبس ص ٦٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .

(١٠) أعمال الأعـلام ص ٢ .

ويناقسون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب »(١١) . وقد أشار ابن حوقل إلى شهرة قرطبة فى زمن الناصر فى صناعة الجيد من الثياب والكسوة من الكتان والخز والقز(١٢) .

وقد ذكر ابن حيان : أن هذه الدار نقلت من موضعها الأول سنة ٣٦١هـ فى عهد المستنصر من غرب القصر إلى دار الزوامل بالمصارة فى غرب قرطبة ، وأما دار الزوامل فقد نقلت من موضعها إلى دار تقع بالقرب من المحبس عند قصر الناعورة . وأما دار البرد القديمة فقد أمر الحكم بإقامة حوانيت للبزازين مكانها(١٣) .

وكان لها قيم يشرف عليها حيث تولاها فى عهد الأمير عبد الله زيان الفتى ، وفى زمن الناصر خلف الفتى الكبير ، وفى زمن المستنصر فائق الفتى المعروف بالنظامى(١٤) .

دار السكة : وكان أول من أنشأها فى قرطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حيث لم تكن هناك دار سكة للمسلمين بعد فتح الأندلس ، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الأموية والعباسية وبعض العملات المغربية ، وكذلك بعض العملات التى كانت موجودة بالأندلس كالرومانية والقوطية ، وكانت تسك دراهم وفلوسا يتعامل بها الناس كل ستين فلسا بدرهم ، وفى سنة ٣١٦هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بإقامة دار جديدة للسكة داخل قرطبة بدل الدار القديمة التى كانت تقع بجوار

---

(١١) أعلام الأعلام ص ٤٠ .
(١٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٨ .
(١٣) المقتبس ص ٦٦ نشر الحجى .
(١٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٣ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ ، المقتبس ص ٦٦ ، ٣١٧ وأغلب الظن أنها كانت تقع بجوار قصر الإمارة فى قرطبة من الجهة الغربية استنادا إلى ما ذكره ابن حيان وابن الخطيب . (انظر المقتبس ص ٦٦ ، أعمال الأعلام ص ٤٠) .

بباب العطارين خارج قرطبة(١٥) لضرب الدنانير والدراهم الأندلسية ، وولى خطتها أحمد بن موسى بن حدير ، ثم نقلها بعد ذلك إلى مدينة الزهراء التى أسسها(١٦) .

اما دور الخاصة فكان من اشهرها : دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وكانت قريبة من باب القنطرة .

ودار القاضى منذر بن سعيد البلوطى : وكانت تقع بجوار مسجد السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة .

ودار بقى بن مخلد : وكانت تقع بظاهر المدينة فى فحص المطرف على شارع المبلطة الممتد من باب عبد الجبار .

ودار الأمير عبد الله بن محمد : وكانت تقع بجوار باب قرطبة الغربى ، ولها علية تشرف على الطريق .

ودار الفقيه المشاور ابى ابراهيم : وكانت تقوم بجوار مسجد ابى عثمان تجاه باب الصناعة من ابواب قصر قرطبة الشمالية .

ودار محمد بن سعيد الأموى : وكانت تقع بمنية عبد الله بالناحية الشرقية من قرطبة .

ودار ريان الوصيف : وكانت تقع بجوار منار الجامع بقرطبة . وغيرها(١٧) .

وقد كانت الدور فى الأندلس بصفة عامة تقوم حول فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حوله الغرف ، وتتالف من جزئين أساسيين : الواجهة الخارجية ، وداخل البيت . وبينما كانت الواجهة الخارجية بسيطة

---

(١٥) الهمذانى : مختصر كتاب البلدان ص ٨٨ تحقيق دى غويه ، ليدن سنة ١٨٥٥م .

(١٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٢١ .

(١٧) انظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

فى الغالب تكاد تخلو من الزخرفة ، كانت الغرف تزخر بالكثير من الزخارف الرائعـــة .

ويمكن تفسير ذلك بأن حياة الأسرة الأندلسية كانت تتركز فى داخل الدار حيث تقضى المرأة جل وقتها ، فكان من الطبيعى أن يتأنق النـــاس فى تزيينها من الداخل ، وكسوتها بنوع من الزجـــاج المفضض ، المعروف فى الشرق بالفسيفساء ، وكان يعرف عندهم (بالزليجى) ، وهو ذو ألوان عجيبة ، ويقوم عندهم مقام الرخام الملون المتخذ فى الشرق للزخرفة .

وكان له تأثير كبير فى ترطيب الأبهاء والقـــاعات فى فصل الصيف . هـــذا بالإضـــافة إلى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية الرائعـــة من آثار طيبة فى النفس . وكان المدخل فى دور الأثرياء عـــادة ما يفضى إلى ردهة تؤدى إلى البهو ، أما فى دور العـــامة فكان يفصل بممر منكسر على شـــكل زاوية قائمة حتى لا يرى المـــارة من فى الداخل .

وقد كانت المرأة الاندلسية تجـــد فى ذلك تعويضا عن العزلة التى تعانيها فى البيت . ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب الدور فى مـــدن الأندلس كانت تحتوى على عليـــات أو غرف علوية ، أو مصارى (جمع مصرية) وهى غرف بارزة عن جدران البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقـــاطعة وتسمى (بالشراجيب) . وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنـــازل المصرية . وهكذا كان يتاح للمرأة الأندلسية التمتع بمشاهدة الخارج دون أن يراها أحـــد .

وكان صحن البيت أو فناؤه عنصرا هاما باعتباره المكان الذى تقضى فيـــه المرأة معظم وقتها ، ومنـــه ينفذ الضوء والشمس والهواء إلى غرف الدار ، ولذلك فقـــد اهتموا بتزيينه ، وفرشه بالحجر أو الرخام أو غير ذلك ، وغرسه بالأشـــجار كالبرتقال والليمون ، ومده بالميـــاه الجـــارية

مما يزيده روعة وجمالا ، ويخفف فى نفس الوقت من حرارة الشمس(١٨) .

ولقد وصف ابن سعيد المغربى دور الأندلس بأنها « فى غاية الجمال لمبالغة أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها » وأضاف مقارنا بينها وبين الدور المصرية « إننى تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » . وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن فى بنائها ، واستخدام الطين فى تجصيصها ، وهو ما كان سائدا فى الريف المصرى إلى وقت قريب ، ويوجد منه أمثلة حتى الآن كما أثنى الشقندى فى رسالته على المبانى الأندلسية فقال « أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها ، واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى ، والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك »(١٩) .



(١٨) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٤ .

(١٩) عن دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢١ .

مجـالس الموسـيقى والغنـاء

ازدهر فن الغنـاء والموسيقى فى الأندلس ، وسـاعد على هـذا الازدهار عـدة عوامل نستطيع أن نجملها فيما يأتى :

١ ــ طبيعة بلاد الأندلس الجميلة التى تدعو إلى البهجـة والسرور واللهو والطرب .

٢ ــ ميل أهل الأندلس بصفة عامة للموسيقى والغنـاء ، وممـا يدل على ذلك تلك النقوش المحفورة على علب العـاج الأندلسية التى عثر عليها ، وفيها مجالس طرب وموسيقى وشراب ، وقد أمسك فيهـا بعض الأشخاص بآلات موسيقية .

٣ ــ ولع كثير من الأمويين بالأندلس بالغنـاء والموسيقى ، وإجزالهم العطاء لأهلهما . كما يتجلى من خـلال الروايات التاريخية ، ومن خـلال بعض النقوش المحفورة على بعض التحف التى عثر عليها ، ومنها علب العاج الأندلسية(١) .

٤ ــ قـدوم كثير من مشـاهير المغنين والمغنيـات من المشرق إلى

---

(١) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ١٤٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦ ــ ٨٧ . ويروى أن المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان شاعرا مفلقا عالمـا بالغناء (الحلة السيراء ج ١ ص ١٢٨) ، وكذلك اثنـان من إخوته أيضا (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩) . كمـا يروى أن أبا الأصـبغ عبد العـزيز ابن عبد الرحمن النـاصر كان مغرما بالغنـاء ، محبـا للشراب ، ولمـا انقطع عن الشرب سر أخوه المستنصر بذلك ، وتمنى أن يترك الغناء أيضا ، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال : والله لا تركته حتى تتـرك

الأندلس ــ وخاصة من الحجاز والعراق اللذين انتشر بهما الغناء ــ وعلى رأسهم زرياب .

٥ ــ اختراع الموشحات والأزجال فى الأندلس ، واستجابة الكثير من الأندلسيين لها ، لأنهم رأوها أقرب إلى التعبير عما فى أنفسهم ، وأسهل فى التلحين والغناء ، وأنسب للمغنيين المتجولين الذين يتكسبون بغنائهم(٢) .

=

الطيور تغريدها . (دائرة معارف الشعب ص ١٠٠ هامش ١) .

ومما يدل على أن الغناء والموسيقى قد أصبحا جزءا من كيان معظم أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم ما ذكره أبو بكر الطرطوشى (٥٠٢هـ) من أنهم فى أوساطهم الشعبية كانوا يقرأون القرآن بالألحان والرقص بالأرجل ، والتصفيق بالأيدى ، وهى عادات اخترعوها على حد قوله .

يقول : « وجعلوا لكل لحن من ألحانهم فى القرآن اسما مخترعا ، فقالوا : اللحن الصقلبى ، فإذا قرأوا قوله تعالى (**وإذا قيل إن وعد الله حق**) يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلهم وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على نغمات متوازنة ، ومن ذلك الرهب (الرهبان) أن نظروا إلى كل موضع فيه ذكر المسيح تمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة فى الكنائس » . (الحوادث والبدع ص ٧٧ ــ ٧٨ تحقيق محمد الطالبى) .

ولا نعتقد أن ذلك قد حدث إلا فى عصر ملوك الطوائف الذى وصل فيه الترف واللهو والتمزق إلى درجة كبيرة ، فانصرف الكثيرون إلى الدنيا ، ويمكن أن يكون فى قول الطرطوشى بعض المبالغة حيث نظر إلى تمايل البعض وإظهار إعجابه بالقراءة هذه النظرة ، كما هو حادث فى بعض سرادقات العزاء حتى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٤ ــ ٤١٥ .

٦ - قيام بعض الأندلسيين بتأليف الرسائل والكتب فى الموسيقى والغناء ، ومنهم عباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) الذى كان إلى جانب محاولاته فى الاختراع والابتكار(٣) « قد حذق الموسيقى ، وعانى ضرب العود وصوغ الألحان ، وهو أول من فك بالأندلس كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى »(٤)، وكذلك يحيى الخدج المرسى الذى ينسب إليه كتاب (الأغانى الأندلسية) على غرار كتاب الأغانى للأصفهانى(٥) .

ويذكر التيفاشى (ت ٦٥١هـ) : أن أهل الأندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقة النصارى - يعنى ألوان الغناء الشعبى التى كانت منتشرة فى أسبانيا قبل الفتح - أو بطريقة حداة العرب (فن الحداء)

---

(٣) من هذه المحاولات محاولته الطيران التى تعتبر أول محاولة إسلامية للطيران فى الهواء ويذكر أن رجلا يونانيا يدعى إيكاروس سبقه فى هذه المحاولة . فقد صنع لنفسه كساء من الريش له جناحان وضع فيهما ذراعيه ، وقفز من أعلى تل قرب بلنسية يسمى (مونت أجودو) فطار بضعة أمتار ، ثم سقط نظرا لأنه لم يجعل لهذا الكساء ذيلا لحفظ توازنه .

ومن هذه المحاولات كذلك التى كللت بالنجاح صنعه آلة عرفت (بالميقاتة) لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، واختراعه طريقة لصناعة الزجاج من طحين الأحجار .

(انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣) .

(٤) ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ تحقيق د. محمود مكى ، المقرى : نفح الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

الذى كان من الطبيعى أن ينتقل مع العرب الفاتحين . كما أنتقل الغناء الحجازى والعراقى أيضا مع القادمين إلى الأندلس من المشرق من مغنين ومغنيات .

ويقول « ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت الدولة الأموية ، وكانت مدة الحكم الربضى ، فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية من يحسن غناء التلاحين المدنية فأخذ الناس عنهم ، إلى أن وفد الإمام المقدم فى هذا الشأن على بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحاق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فجاء بما لم تعهده الأسماع واتخذت طريقته مسلكا ونسى غيرها »(٦) .

ويذكر أنه كان بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل قينة تسمى العجفاء(٧) ، كانت جارية لمسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فاشتراها من الأمير وضمها إليه(٨) . وهذا يدل على ميل الكثير من الأمويين للغناء منذ بداية عهدهم فى الأندلس بالرغم مما صادفهم من صعوبات فى سبيل تأسيس دولتهم ، وتوطيد أركانها ، والقضاء على المخالفين .

ويبدو أن (علون وزرقون) كانا أول مغنيين دخلا الأندلس من المشرق ، وكان ذلك فى عصر الحكم الربضى (١٨٠ — ٢٠٦هـ) الذى

---

(٦) مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ٢٠ (حضارة الأندلس) .

(٧) لم تذكر لنا المصادر اسمها ، ويبدو انها اشتهرت بذلك اللقب لأنها كانت نحيلة ، وكانت تسكن مع مولاها فى بيت صغير متواضع مساحته اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وليس به الكثير من الفرش والأثاث سوى نمرقتين ومقعدين مفككين من قدمهما كما يذكر المقرى عن رواية الأرقمى (نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٨ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦) .

(٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

وصـــفه الكثيرون بالميـــل إلى الترف واللهو وخاصة فى مرحـــلة شـــبابه برغم قضـــائه على الكثير من الثورات التى قامت ضـــده وأشهرها ثورة الربض . كما اشتهر بالغنـــاء فى عصره رجل يسمى (منصور اليهودى) .

ولكن غناء هؤلاء ذهب لغلبة غنـــاء زرياب عليهم بعـــد قدومه إلى الأندلس(٩) .

ويعتبر الكثيرون عصر عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ — ٢٣٨هـ) عصر ازدهار لفن الغناء والموسيقى بالأندلس ، حيث كان أديبـــا شاعرا بعيـــد الهمة والغـــايات كما وصف . ويعتبر أول من اتخذ رسوم الخلافة وأبهتها . وكان كما ذكره المقرى « مولعـــا بالغناء مؤثرا له على جميـــع لذاته »(١٠) . ولذلك فقـــد رفـــد إلى الأندلس فى عهده بعض القيـــان المغنيات من المدينـــة ، فأفـــرد لهن دارا ملحقـــة بقصره ســـميت (دار المدنيـــات)(١١) .

ومن أشهر هؤلاء القينات (فضل المدينة) التى كانت جارية لإحدى بنـــات الخليفة هارون الرشيد ، ثم ذهبت إلى المدينة لتعـــلم الغنـــاء ، فاشتريت للأمير عبد الرحمن ومعها جارية أخرى تسمى (علم) ، وكان يؤثرهما لظرفهما وأدبهما وحسن غنائهما ، كما كانت هناك جارية أخرى تسمى (قلم) ، وكانت فى الأصل من سبى البشكنس ، ثم أرسلت إلى

---

(٩) نفح الطيب ج ٣ ص ١٣٠ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٠) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ .

(١١) نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، وقد ذكر د. أحمد هيكل (فى تاريخ الأدب الأندلسى ص ٧٣) أن الذى فعل ذلك هو عبد الرحـــمن الداخل وهو خطأ وربما كان سهوا أو نسيانا فجعل الداخل مكان الأوســـط .

المشرق ، فتعلمت الأدب والغنـاء ، وروت الشـعر ، وحفظت الكثير من الأخبـار(١٢) .

كما كان من القيـان الوافدات من المشرق أيضـا غير هؤلاء جارية بغدادية ذات فصاحة وبيـان ومعرفة بالألحان تسمى (قمر) ويصـفها المقرى بأنها « جمعت أدبا وظرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع وجمـال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها »(١٣) .

وقد كانت جارية لإبراهيم بن الحجاج اللخمى (ت ٢٨٨هـ) الذى ثار على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستقل بإشبيلية . ومن شعرها فى مدح إبراهيم :

ما فى المغـارب من كريم يرتجى
إلا حليـف الجـود إبراهـيم
إنى حللت عليـه منزل نعمـة
كل المنـازل ما عـداه سـقيم

ومن شعرها فى الحنين إلى موطنها :

آهـا عـلى بغـدادها وعـراقها
وظبائها والسـحر فى أحـداقها
ومجالها عنـد الفـرات بأوجـه
تبـدو أهلتهـا عـلى أطـواقها
متبخرات فى النعيـم كأنمـا
خلـق الهوى العذرى من أخلاقها

---

(١٢) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٤ ، دائـرة معارفه الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٣) نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٦ .

نفسى الفداء لها فأى محاسن
فى الدهر تشرق من سنا إشراقها(١٤)

كما كان للمنصور بن أبى عامر جارية شاعرة مغنية تسمى (أنس القلوب)، شغف بها وزيره أبو المغيرة بن حزم(١٥) .

كما كان من المغنيين الذين قدموا إلى الأندلس أيضا مغن من مصر يدعى عبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى الذى قدم حدثا متظرفا يشدو بشىء من الغناء ، واتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلما رأى نجابته نصحه بالإقلاع عن الغناء ، والاكتفاء بأدبه وفضله ، ففعل واتصل بالأمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه وصيره واليا ، ثم ترقى بعد ذلك إلى مرتبة الوزارة . وقد توفى سنة ٢٣٧هـ عن نيف وثمانين سنة(١٦) . على أن أهم وأشهر مغن دخل الأندلس هو أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب (١٧) تلميذ إسحاق الموصلى أشهر المغنين فى بغداد فى عصر الرشيد .

ويذكر أن الرشيد طلب من اسحاق أن يأتيه بمغن مجيد للصنعة فجاءه بزرياب ومعه عوده الخاص بدلا من عود أستاذه ، ولما سأله عن السبب قال : « عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس

---

(١٤) نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٣٠ ، ١٣٢ .
(١٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ ، الأدب الأندلسى ص ٨٨ — ٨٩ .
(١٦) ابن حيان : المقتبس ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ — ٨٦ .
(١٧) أطلق عليه هذا اللقب تشبيها له بطائر أسود اللون حسن التغريد وذلك لسواد بشرته وحسن غنائه (انظر : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧) .

خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والجدة أضعاف ما لغيرها من سائر الحيوانات ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها »(١٨) . ثم غنى أمام الرشيد :

يا أيها الملك الميمون طائره
هارون راح إليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد ، وعاتب إسحاق على أنه لم يخبره به ، وطلب إليه العناية به حتى ينظر فى شأنه ، فدب الحسد فى قلب إسحاق ، وخشى أن يحتل تلميذه مكانه ، فهدده بالقتل أو مغادرة بغداد ، فرحل إلى المغرب حيث قضى وقتا قصيرا فى بلاط زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب أمير القيروان ، وكتب إلى أمير الأندلس الحكم الربضى يسأله الإذن فى الوصول إليه ، ويعلمه بمكانه فى الغناء ، فأذن له فى دخول الأندلس(١٩) .

وأرسل إليه منصور المغنى اليهودى لاستقباله ، ونزل بالجزيرة الخضراء مدة ثم جاءته الأخبار بوفاة الحكم فهم بالعودة ، ولكن منصور ثناه عن ذلك ورغبه فى قصد من سيحل محل الحكم فى الملك ، ولما تولى عبد الرحمن الأوسط كتب إليه منصور يخبره بخبر زرياب ،

---

(١٨) نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠١ . وغنى أمام الرشيد :

(١٩) يذكر ابن عبد ربه : أن سبب مغادرة زرياب المغرب أنه غنى زيادة أبياتا لم تعجبه فأمر بصفع قفاه وطرده . (العقد الفريد ج ٧ ص ٣١ مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٣) . ولكننا نميل إلى أن سبب خروجه من المغرب دعوة الحكم له ، وانه توقع أن ينال فى الأندلس ما لم ينله فى بغداد وتحقق له ما كان يتوقعه .

فكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويوصلوه إلى قرطبة وأمر خصيا من أكبر خصيانه بتلقيه(٢٠) . ولما وصل أنزل فى دار فخمة ، واستقبله الأمير وبالغ فى إكرامه ، وجعل له رزقا شهريا قدره مائة دينار ، ولكل ولد من أولاده الأربعة عشرين دينارا ، كما جعل له ثلاثة آلاف دينار فى كل عام ، ألفا فى كل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة فى كل من عيدى النيروز والمهرجان ، عدا ما خصص له من القمح والشعير ، وما وهب له من الضياع والبساتين التى قدرت بأربعين ألف دينار(٢١) .

وقد أعجب عبد الرحمن بمواهبه فقربه إليه ، حتى قيل إنه جعل له بابا خاصا فى قصره يدخل منه كلما استدعاه(٢٢) . وقد أدت هذه المكانة إلى حسد البعض له فيذكر ابن سعيد : أن زرياب غنى يوما أمام عبد الرحمن وأطربه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، فاحتوشه جواريه وولده فنثرها عليهم ، فكتب أحد السعاة إلى عبد الرحمن بذلك قائلا : إنه فعل ذلك لأن ذلك المال لم يعظم فى عينيه وفرقه فى ساعة واحدة ، فوقع عبد الرحمن على هذه الرسالة :

---

(٢٠) يذكر ابن خلدون والمقرى : أن عبد الرحمن خرج لاستقباله بنفسه (العبر ج ٤ ص ١٧٤) ، (نفح الطيب ج ١ ص ١٦١) .

(٢١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٦ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٧ — ٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٨ — ٣٩ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٥ — ١٦٦ ، ويذكر الأخيران أن راتبه الشهرى كان مائتى دينار .

(٢٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤١٦ .
خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٩٤ .

« قد راينا انه لم يفعل ذلك إلا ليحببنا إلى اهل داره ، ويغمرهم بنعمنا وقد شكرناه ، واذنا له بالمال المتقدم ليمسكه لنفسه ، فإن كانت عندك مضرة أخرى فى حقه فارفعها إلينا »(٢٣) وهذا يدل على مدى حب عبد الرحمن لزرياب ، وعدم استماعه إلى وشاة الراشين فيه .

وقد ابدع زرياب فى تنسيق الألحان ، واظهر براعة فائقة فى الموسيقى والغناء حتى ادعى أن الجن هى التى تعلمه الأصوات ، ويبدو انه قد ورث هذا الشعور عن أستاذه اسحاق الموصلى الذى ورثه عن ابيه ابراهيم . وكان يهب من نومه سريعا ، فيدعو جاريتيه غزلان وهيندة ، فتمسك كل واحدة بعود ، ويمسك هو بعوده ، ويطارحهما الغناء ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه(٢٤) .

وقد كانت له ابتكارات فى مجال تطوير الآلات الموسيقية وعلى راسها العود ، فقد اضاف إليه وترا خامسا بعد أن كانت أوتاره أربعة ، واتخذ مضربه من قوادم النسر بدلا من الخشب . وقد اثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف بيت مقطوعة من الأغانى بالحانها(٢٥) . وبذلك يعتبر

---

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ص ٥١ .

(٢٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٧ .

(٢٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٤١٨ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ص ٦٩ . ويذكر ليفى بروفنسال أن الأوتار كانت ثلاثة ، ومعظم الباحثين أن الأوتار أربعة وهى : الزير والبم والمثنى والمثلث ، وكل منها يرمز إلى طبع من طباع النفس البشرية . وكان الوتر الخامس الذى زاده زرياب ولازال إلى اليوم وسطا بين الهادىء والحاد وسمى صول رمز له بالروح وهو أحد درجات السلم الموسيقى المعروف اليوم (انظر تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) .

زرياب هو المؤسس الحقيقى لمدرسة الموسيقى والغناء فى الأندلس ، حيث أورث فيها صناعة الغناء كما يقول ابن خلدون(٢٦) .

وقد تخرج على يديه الكثير من التلاميذ . ويذكر أنه كانت له طريقة فريدة مع تلاميذه المبتدئين ، فكان يبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والإهزاج .

وكان إذا أراد تعليم أحدهم أمره بالقعود على الوسادة المدورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت ، وإن كان لين الصوت أمره أن يشد على بطنه عمامة لأن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم فإن كان ألصق الأضراس لا يقدر على فتح فمه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق راضه بأن يدخل فيه قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع يجعلها فى فمه عدة ليال حتى ينفرج فكاه ، وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت من تلاميذه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته (ياحجام) أو يقول آه ، ويمد صوته ، فإن سمع صوته صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليمه وإلا أبعده(٢٧) .

ويذكر حسين مؤنس : أن زرياب ابتكر طريقة لكتابة موسيقاه . ولكننا لا نعرف إلى الآن كيف كان يكتبها ؟ وما هى نوتها الموسيقية ؟ وأنه ابتكر أيضا الفرقة الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن الصوت تلحينا يجمع بين العزف والإنشاد الجماعى والفردى ، وأنه يعتبر أول من أنشأ فى الأندلس التخت (المسرح الصغير) الذى تجلس

---

(٢٦) المقدمة ص ٣٠٠ المطبعة البهية .

(٢٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٣٩ .

عليه الفرقة الموسيقية ، وكان يسمى بالستارة ، وأن موسيقاه التى أدخلها أصبحت تمثل الموسيقى الراقيــة فى الأندلس ، ونسبت إليــه فعرفت (بالموسيقى الزريابيــة) ، وأصــبح الحــداء بمثابة الغنــاء العــامى أو الشعبى(٢٨) .

وقد علم زرياب أولاده الغناء والموسيقى ، وكانوا عنــد قدومه إلى الأندلس أربعة فأصبحوا ثمانية ذكور وبنتين هما عليــة وحمدونة ، فتعلموه ومارسوا صناعته ، وكان أشهرهم به عبد الرحمن الذى صــار مثــله فى الصــنعة والحظوة(٢٩) ، كما علم جــارية له تدعى (منفعــة) أحسن أغانيه ، وأهداها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك (مصابيح) جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل(٣٠) .

وإلى جانب هؤلاء المغنين والمغنيات فقد تعلم بعض رجــال الأندلس أصول فن الغناء مثل عباس بن فرناس ، وعقيل بن نصر الشاعر الذى كانت له أغان يجرى فيها مجرى اسحاق الموصلى . وقد أصبح لزرياب طرائق خاصة فى الغناء يتناقلها الناس وقــد ألف فيهــا البعض ، مثل أســلم ابن أحمد بن سعيد الذى ألف كتابا فى أغانيه(٣١) .

وصفوة القول : أن زرياب كان أشهر مغن فى الأندلس ووصل إلى مكانة مرموقة حسده عليها الكثيرون فى الأندلس والمشرق لدرجة أنه كان يركب فى مائة غلام(٣٢) .

---

(٢٨) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩ .
(٢٩) نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ .
(٣٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ .
(٣١) تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ .
(٣٢) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٨ — ٦٩ .

فهذا عبد الملك بن حبيب عالم الاندلس يقول مخاطبا عبد الرحمن :

قد طاح امرى والذى ابتغى
هين على الرحمن فى قدرته
الف من الحمر واقال بها
لعالم اربى على بغيته
زرياب قد اعطيها جملة
وحرفتى اشرف من حرفته(٣٣)

وهذا علوية الأعسر المغنى البغدادى يشكو للمهدى العباسى ويقارن بين ما هو فيه وما غدا فيه زرياب(٣٤) .

وإلى جانب قرطبة فقد اشتهرت اشبيلية باللهو والغناء ايضا — وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — فيذكر ابن خلدون « أنه طما من صناعة الغناء بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة الإفريقية والمغرب ، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها »(٣٥) .

ويقول صاحب منهاج الفكر « وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة »(٣٦) وكان يقال « إذا مات

(٣٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٧ .
(٣٤) الحضارة العربية ص ٦٩ .
(٣٥) المقدمة ص ٣٠٠ وقد اشتهر بالغناء فى إشبيلية أبو بكر الإشبيلى والسوسى وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة إلى اليوم بالمغرب وتعرف بموسيقى الأندلس (دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٢ هامش ١) .
(٣٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٦ .

عالم بأشبيلية فأريد بيــع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات مغن بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية لتباع فيها »(٣٧) .

ولمـــا ابتكرت الموشحات والأزجال أعجب بهـــا أهل الأندلس أيمـــا إعجاب ، وأخـــذت تغنى مثل القصائد الشعرية ، وازدهر فن الموشحات بصفة خاصـــة فى عصر ملوك الطوائف(٣٨) .

وإلى جانب المغنين كانت هناك شخصية الزامر الذى لا يستغنى عنه فى الحفلات والأعراس . ومن أشهرهم النكورى زامر عبد الرحمن الناصر الذى كان انيقـــا يلبس القلنسوه من الوشى والثوب من الخـــز ويتوسط الناس فى الحفل . ومنهم ابن مقيم وكان طيب المجلس صـــاحب نوادر . ومن أصحاب الطنابير زربوط الطنبورى الذى قتـــل هو وقنبوط الملهى فى موقعة قنطيش زمن فتنة البربر مع سليمان المستعين(٣٩) .

هـــذا وقد امتد اثر الغناء الأندلسى إلى المالك المسيحية فى أسبانيا ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكنانى المتطبب قال : « شهدت يوما مجلس العلجـــة بنت شانجة ملك البشكنس زوج الطاغيـــة شانجة بن غرســـية ابن فردلند .... لبعض ترددنا عن ثغرنا إليه فى الفتنـــة (الفـــة البربرية) وفى المجلس عـــدة قينات مسلمات من اللواتى وهبهن له سليمان ابن عبد الحـــكم (المستعين) أيام إمارته بقرطبة فأومأت العلجـــة إلى جارية منهن فأخـــذت العود وغنت :

---

(٣٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ص ٢٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٣١٧، هامش ١ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٩ ، دائرة معارف الشـعب (٦١) ص ١٠٤ .

(٣٨) عن الموشحات : انظر د. محـــمد عنانى : الموشحات الأندلســـية سلسلة عالم المعرفة (٣١) ســـنة ١٩٨٠م .

(٣٩) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ .

خليلى ما للريح تأتى كأنما
يخالطها عند الهبوب خلوق
أم الريح جاءت من بلاط أحبتى
فأحسبها ريح الحبيب تسوق
سقى الله أرضا حلها الأغيد الذى
لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادى فرقتين فعنده
فريق وعندى للسياق فريق

فأحسنت وجودت ، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنهن فلقات قمر »(٤٠) .

وقد كانت هناك مجالس غناء تعقد فى قصور الأمراء والخلفاء

---

(٤٠) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ مجلد ١ ص ٣١٨ .

وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية باقية حتى اليوم فى أسبانيا فيما يعرف بغناء (السجيريا) الذى يغنيه النور وهو غناء شعبى أشبه بالموال ، وفيما يسمى بالسوليارس أيضا ، وهو نوع من الغناء الشعبى كذلك . ويذكر بعض الباحثين أنه كان من عادة المغنيين والمغنيات فى الأندلس أن يبدأوا الغناء بجس اللحن فيكررون جملة منه وهو ما يفعله الأسبان اليوم حين يبدأون بالمقطع التالى : Ay, Ay, Ay, Ojriomio ومعناه : آه ، آه ، آه يا حبيبى ، ويؤكد المستشرقان الأسبانيان أنطونيو أرفالو وخوليان ريبيرا أن الغناء الأسبانى المشهور (بالفلامنجو) ليس إلا أثرا من آثار الغناء الأسبانى . (انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) ، كما كان لهذا الغناء أثره فى فرنسا وخاصة فى إقليم بروفانس عند شعراء التروبادور (تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٩).

والأغنياء ، وكانت القيـان المغنيات يغنين فيما يبدو من وراء ستارة (٤١) .

ومن أمثلة هـذه المجالس التى ورد ذكرها : مجلس غناء لسـعيد الخير أبى عثمان أخى عبد الرحمن الأوسط . فقـد بنى دارا جديدة ، واقام احتفالا ومجلس غناء دعـا إليـه الكثيرين ، وحـدث أن سقط المجلس على من كان فيـه ، ونجـا سعيد بفضل عمود من الأعمدة التى كان يقوم عليها ، ومعـه جاريته (منتهى المنى) أم ولده مروان ، وماتت أربع عشرة جـارية من جواريه ، فارتجت قرطبة بالخبر ، ووصل إلى عبـد الرحمن فسر بنجاته وعوضـه عما أصـابه ، وأعطاه بكل جارية ماتت جاريتين ، واعطاه مالا كثيرا ليعيد بناء ما تهدم من مجلسه(٤٢) . ومجلس غنـاء للمنصور بن أبى عـامر فى منيته السرور بمدينة الزاهرة ، كانت تغنى فيه جاريته أنس القلوب وكان معـه الوزير الكاتب أبو المغير بن حـزم فغنت شـعرا منـه :

يا لقومى تعجبوا من غـزال ... جائر فى محبتى وهو جـارى

ليت لو كان لى إليه سبيل ... فاقضى من الهوى أوطـارى

قال أبو المغـيرة : فلما أكملت الغناء أحسست بالمعنى فقلت :

كيف كيف الوصـول للأقمـار

بين سمر القنـا وبين الشـفار

---

(٤١) انظر : ابن حيان : المقتبس ص ٣٤٥ تحقيـق د. مكى ، جـذوة المقتبس ص ٧١ ، ويبدو أن لفـظ الستارة كان يطلق فى البـداية على المكان الذى تستتر فيـه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء والوجهاء ، ثم استخدم بعـد ذلك للدلالة على هؤلاء القيـان انفسهم حيث كن يغنين من وراء ستارة ، ثم استخدم للدلالة على المكان الذى تقـام فيـه مجالس الغناء .

(٤٢) المقتبس ص ٢٢٥ تحقيق د. مكى ، بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٣ .

لو علمنا بأن حبك حق
لطلبنا الحياة منك بثار
وإذا ما الكرام هموا بشىء
خاطروا بالنفوس فى الأخطار

وعند ذلك أحس المنصور بأن فى الأمر شيئا فأغلظ فى القول للجارية وقال لها لمن تشيرين بهذا ؟ فبكت وأنشدت :

اذنبت ذنبا عظيما   فكيف منه اعتذارى
والله قدر هذا   ولم يكن باختيارى
والعفو أحسن شىء   يكون عند اقتدار

فوهب الجارية لأبى المغيرة ، فانصرف بها فى الصباح إلى منزله(٤٣) .

وقد كان البعض يتبسط فى مجالسه إلى درجة كبيرة ، فيظهر الممازحة والهجاء ، ويسقط مئونة التحفظ(٤٤) . فقد ذكر ابن عذارى : أن الناصر طلب من وزيره أبى القاسم لب أن يهجو الوزير عبد الملك بن جهور ، فامتنع خشية من لسانه ، فطلب من ابن جهور أن يهجو أبا القاسم ، فامتنع أيضا ، فقال الناصر أنا اهجوه :

لب أبو القاسم ذو لحية طويلة فى طولها ميل
وعرضها ميلان إن كسرت
والعقل مأفون ومخبول
لو أنه احتاج إلى غسلها
لم يكفه فى غسلها النيل

---

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٤٤) انظر الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٥٦٠ ص ٢٦٤ .

وضحك الناصر ثم قال للب إنه هجاك فاهجه فقال :

قال أمين الله فى خلقه
لى لحية أزرى بها الطول
وابن عبير قال قول الذى
مأكوله القرضيل والفول
لولا حيائى من إمام الهدى
نخست بالمنخس شوقول

وكان عندما بلغ إلى قوله (شو) قد سكت ، فقال له الناصر (قول) فأتم له البيت على نحو ما كان أضمر ، وقال : أنت هجوته يا مولاى . فضحك الناصر وأمر له بصلة(٤٥) . كما كان البعض يظهر غضبه أيضا . فقد ذكر ابن عذارى أيضا أن محمد بن سعيد المكنى بابن السليم — وكان قد تولى عدة ولايات للناصر واحتجن مالا كثيرا — حضر بعض مجالس الناصر الخاصة وشرب فأخذ منه الشراب ، فشق الناصر تفاحة بسكين وقال معرضا به « وددت أن أشق هكذا رأس من أعرف له مالا كثيرا غاله دوننا ، ولم يسهم ببيت المال منه »(٤٦) .

وقد وصل الأمر بالبعض إلى حد خلع ثوب الوقار والرقص فى المجلس فقد ذكر المقرى : أن الوزير عبد الملك بن أحمد بن شهيد كان من وزراء المنصور بن أبى عامر ومن أخص ندمائه ، وكان يجتهد فى مرضاته ، ويحاول أن يدخل عليه السرور والمرح . وحدث أن قام وحاول أن

---

(٤٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقرضيل : أو القرط هو البرسيم ، وشوقول : لفظتان اسبانيتان باللهجة الرومانسية الأولى تدل على ضمير الغائب والثانية تعنى الردف أى نخست بالمنخس ردفه أى إليته (د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٢٧) .

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢٦ .

يرقص فى مجلس له متحاملا على أصحابه ، رغم مكانته وكبر سنه ، وذلك ليبهج المنصور(٤٧) .

كما ذكر ابن عذارى أيضا أن المنصور دعا جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى إلى مجلسه ليتخلص منه بالحيلة سنة ٣٧٢هـ ، فقدم إليه ساقى المجلس كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر، فاستخفه الطرب ، وقام يرقص ، فلم يبق أحد فى المجلس إلا فعل مثله ، وشرب كثيرا حتى ثقل وانصرف مع غلمانه ، فخرج إليه البعض ، وقتله وحمل رأسه إلى المنصور فأظهر الحزن عليه(٤٨) .

موقف الناس من الغناء بالأندلس :

وجد الغناء والموسيقى بالأندلس قبولا يكاد يكون عاما ، ولم يتحرج من سماعه الكثيرون ، بينما تورع عنه بعض الفقهاء والعلماء(٤٩) .

وقد تناول ابن حزم الأندلسى الغناء من الناحية الفقهية فى رسالته (الغناء الملهى وهو هو مباح أو محظور) ، ورد الأحاديث التى تقول بحظره(٥٠) .

إلا أنه وجد من بين علماء وفقهاء الأندلس من أنكر مذهب ابن حزم ، ورد عليه . وعندما أراد ابن حيان أن ينتقد أحد الفقهاء الذين يبيحون الغناء قال فيه « إنه رجل مرخص للسماع ، صب بإنشاد الأغانى

---

(٤٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

(٤٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٤٩) عن موضوع الغناء وموقف العلماء منه انظر : ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٢٢٣ — ٢٥٠ ، الشيخ محمد الغزالى : السنة بين الفقه والتشريع ، مائة سؤال عن الإسلام ج ١ ص ١٧٥ وبعدها .

(٥٠) رسائل ابن حزم ص ٩٣ وبعدها .

الفاتنة »(٥١) فجعل ذلك من معـــايبه . والحقيقـــة انه كان فى الأندلس كغيرها من المجتمعات الإسلامية دائما رأيان أو فلسفتان : فلسفة تقـــوم على التشديد والتحريم فى كثير من الأشياء ، وفلسفة تقوم على التوسط والاعتدال والمرونة وعـــدم التضييق ، والحكم على الأشياء من منطق أن الأصل فيها هو الإباحة ما لم يرد نص قاطع بتحريمها .

وقد تغلبت هذه الفلسفة فى كثير من الأوقات ، وكانت وجهة نظرها فى الغناء أنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن ، غير مثير للغرائز ، أو ماله عن الفرائض ، أو مؤد إلى الوقوع فى المحرمات فـــلا حرج فى ذلك ، أما الحرج فيأتى من الغناء الهابط المعنى واللحن ، المثير للغرائز ، الملهى عن الفرائض ، المؤدى للوقوع فى المحظور . ويرى أصحاب هـــذه الفلسفة ومنهم ابن حزم أنه لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغنـــاء(٥٢) .

ومن العسير أن نثبت أن كل رجـــال الدين فى الأندلس كانوا يكرهون الغنـــاء ، أو يشددون النكير على أهـــله ، بل كان منهم من يستمع إلى الغناء الجيـــد ويعجب به ولا يجـــد حرجا فى ذلك . ومن أمثلة ذلك قصة قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن أبى عيسى ، وكان عنـــد رجل من بنى حدير — وكانوا من بيوتات قرطبـــة — وجارية له تغنى بتلك الأبيات :

طابت بطيـــب لثاتك الأقـــداح
وزهـــت بحمرة خـــدك التفـــاح
وإذا الربيـــع تنسمت ارواحـــه
طابت بطيـــب نســيمك الأرواح

---

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ١/٢ ص ١٠٠ .
(٥٢) د. محمد الخطيب : دراســـات فى تاريخ الحضـــارة الإســـلامية ص ١٧٠ — ١٧١ .

وإذا الحنادس ألبست ظلماءها
فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتب القاضى هذه الأبيات على يده ، وخرج للصلاة على جنازة وهى مكتوبة على باطن كفه لم يغسلها(٥٣) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب العقد — وكان محافظا — مر ببعض الأحياء ، فسمع مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل تغنى ، فأعجبه غناؤها ، فوقف تحت الروشن منصتا حتى فرغت ، ثم ذهب إلى أحد المساجد فأخذ لوحا لبعض الصبية الذين كانوا يتعلمون وكتب عليه :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد
ما كنت أحسب هذا البخل من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما قرأ سيدها هذه الأبيات ، خرج مسرعا ولحق به ، وأدخله بيته ورحب به(٥٤) .

ويصف لنا ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) كثيرا من مجالس الغناء ، وما كان يغنى فيها من شعر ، ويصور لنا شدة تأثره ومن معه بما كان يسمع فيها من غناء .

ويذكر أن حفنى العامرية إحدى بنات المظفر عبد الملك ابن المنصور كلفته بصنع أبيات تلحنها ففعل ، وذكر أنها كانت تجيد

---

(٥٣) جذوة المقتبس ترجمة ١٠٧ ص ٧٥ ، بغية الملتمس ترجمة ٢١٨ ص ١١١ .
(٥٤) جذوة المقتبس ص ٩٥ .

الغناء ولهـا صنعة رائعة فى الإنشاد(٥٥) .

ويصف لنا التجيبى (شارح المختار من شعر بشار) مدى حبه للغناء وهو مريض بمدينة مالقة سنة ٤٠٦هـ فيقول « وكنت إذا جننى الليل اشتد سهرى ، وخفقت حولى أوتار العيدان ، والطنابير ، والمعازف من كل ناحية »(٥٦) .

***

(٥٥) طوق الحمامة ص ٣١ ، ١١٠ ، ١١٤ .

(٥٦) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤١ ، ٤٢ .

الطعـــام والشراب

لما فتح المسلمون من عرب وبربر الأندلس ، كانوا يعتمدون غالبا على الأطعمة التى عرفوها فى بلادهم ، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التى كانت موجودة فى هـذه البلاد شيئا فشيئا ، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان ، فأخـذت أطعمتهم تتغير وتتعدد ألوانها .

وقد كان من أطعمة العرب المعروفة : الثريد ، والخريزة ، والعصيدة والربيكة ، والجشيشة ، والسخينة وغيرها(١) .

وبمضى الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والأسبان اخـذت أنواع من الأطعمة الأسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين . وبدأت ألوان من التـرف والبذخ تتسرب إلى أطعمـة الأمراء والخلفـاء والخاصة ، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم (الجوارشنات) أو الأدوية الهاضمة ، إلى جانب أنواع الشراب الأخرى ، كما أن البعض كان يستشير الأطباء فيما يأكل ويشرب(٢) .

ولم تمدنا المصـادر الأندلسية إلا بالقليل النـادر فى هـذا المجال .

---

(١) انظـر د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسـلام ج ١ ص ٥٧٧ ، ج ٢ ص ٤٢٧ . الخريرة : اللحم يقطع صغيرا على المـاء فإذا نضـج ذر عليـه الدقيق ، والعصيدة : ماء ودقيق وسمن . والربيكة : من البر والتمر المعجون بالسمن ثم يسوى ، والجشيشة : دقيق مجروش خشن يوضع فى قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ويطبخ ، والسخينة : طعام من الدقيق والسمن كان العرب يكثرون من أكله فى أحـوال الشدة . (انظر : الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

(٢) انظر : د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

ولكننا نستطيع من خلال الأمثلة القليلة التى عثرنا عليها من أخبار الأمراء والخلفاء الأمويين أن نتبين مقدار الترف والبذخ فى طعامهم .

فقد ذكر المقرى : أن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء بلغ ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى دخالتهم من اللحم كل يوم بخلاف الطير والحوت (السمك) ثلاثة عشر ألف رطل . أى بمعدل نحو رطل للفرد الواحد أو أقل قليلا ، وأن المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء ١٢ ألف خبزة (رغيف) كل يوم ، وانه كان ينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم(٣) .

كما ذكر أيضا أن المنصور بن أبى عامر كان له كل يوم اثنا عشر ألف رطل من اللحم عدا الصيد والطير والحيتان ، وهذا لطعامه ومن فى قصره بمدينة الزاهرة من الخدم والحشم والجوارى(٤) .

ومما يدل على مدى التقدم والازدهار فى هذا العصر أنه كانت هناك أفران عامة — كما يبدو — يجهز فيها الناس طعامهم كما فى عصرنا الحاضر. فقد ذكر ابن حيان : أن سعيد بن سليمان القاضى صلى صلاة الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خرج متوجها إلى داره ، فلما انتهى إلى باب الفرن الذى كان يطبخ فيه قال لصاحبه : أطبخت خبزتى ؟ قال : نعم ، فأخذها تحت إبطه ، وسار إلى منزله ومعه جماعة أخروا دوابهم إجلالا له حتى أوصلوه (٥) .

وعندما قدم زرياب إلى الأندلس جاء معه بالكثير من ألوان الطعام البغدادى ، وأخذ عنه الأندلسيون طرق طهيه ، وابتدع ألوانا أخرى

---

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٣ .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ تحقيق د. محمود مكى .

من الأطعمة المطيبة بالتوابل والأفاويه ، كما أدخل لونا أطلقوا عليه اسم (النقـايا) يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحـلاة بالسنبوسق والكباب ، وابتكر نوعا من (التقلية) نسبت إليه فأصبحت تعرف بتقلية زرياب ، ويطبخ فيها الدجاج والأرانب فى ماء كثير الأفاوية والطيب .

ولعل الحلوى التى تعرف (بالزلابيا) حتى عصرنا تنسب إليه أيضا بعـد التحريف عن زريابيـا(٦) .

كما أنه نظم طريقة إعداد المـائدة ، وتقديم الطعام عليها ، حيث بدأ بالحساء ثم اللحوم والطيور ، ثم الفاكهة والحلوى من الفطـائر المصنوعة بالجوز واللوز والعسل ، والعجائن المحشوة بالبندق والفستق ، والمعقودة بالفـواكه . كما أنه فضل تقـديم المـاء والشراب فى أكواب زجاجيـة شـفافة على آنيـة الذهب والفضة والأكواب المعدنية ، وجعل غطـاء المـائدة من الأديم أو الجـلد الرقيق لسهولة تنظيفه بدلا من الغطاء المصنوع من القطن أو الكتـان .

وقد شـاعت تقـاليد زرياب ومبتكراته فى مجال الطعام والشراب ، وآداب المـائدة وبخاصـة فى أوسـاط الطبقة العليـا وعلى رأسـها الأمراء والخلفـاء(٧) .

أما عن الشراب : فقـد كان هناك من يشرب الخمر ، وقـد كانت زراعة الكروم منتشرة فى الأندلس قبل الفتح ، وبعـده أيضـا ، وكان يزرعها بدون شك كثير من الأسبان غير المسلمين لصناعة الخمور ، لدرجة

---

(٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، أحمـد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٣ .

(٧) انظر : لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٤ ، ص ١١٥ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

ان الخليفة المستنصر عـزم على قطع أشجارها فى جميع انحاء الأندلس ، حتى يقضى على صناعة الخمر ، وشاور فى ذلك فقيل له : إنهم يعملونها من التين وغيره من الفاكهة فتوقف عن ذلك ، ولكنه أمر بإراقة الموجود من الخمور وتشدد فى ذلك(٨) .

ويذكر ابن سـعيد المغربى أن الأمير عبد الرحمن الأوسـط استفتح دولتـه بهدم فنـدق الخمر ، ويبدو أنه فنـدق اشتهر بتقديم الخمر فسمى بهذا الاسم(٩) . ويذكر ابن عـذارى : أن الأمير عبـد الله بن محـمد ابن عبد الرحمن « كانت اللذات فى أيامه مهجورة ، ولم يشرب قـط نبيذا ولا مسكرا(١٠) . كما كان هناك أيضا من يشرب النبيذ على مذهب أهـل العراق مثل : أحمد بن ابراهيم بن فروة المذحجى ، وكان من أهـل قرطبة ، وقد وصـفه ابن الفرضى بأنه « كان مغفلا ، وكان يذهب فى شرب النبيذ الصلب مذهب أهـل العـراق » وقـد توفى سـنة ٢٩٠هـ زمن الأمير عبد الله(١١) ، ومثل : صهيب بن منيع القرطبى (ت ٣٠٨هـ) ، الذى تولى القضاء بقرطبة ، ويذكر الحميدى : أنه شرب مرة مع موسى بن حدير الحاجب وكان من عظماء الدولة ، فلما غفل أمر موسى باختلاس خاتمه ، وكان نقشه (يا عليمـا كل عيب كن رءوفا بصهيب) ، وأحضر نقاشـا فزاد عليه (واستر العيب عليه إن فيه كل عيب) ثم رده ، فظل يختـم به زمنا حتى فطن لذلك فغيره(١٢) .

---

(٨) ابن الأبار : الحـلة السيراء جـ ١ ص ٢٠٣ ، الحميدى : جـذوة المقتبس ص ١٣ ، الضبى : بغيـة الملتمس ص ١٨ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٤٦ .

(١٠) البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٤ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٢٣ ترجمة (٥٧) . انظر ما ذكرناه عن مسألة شرب النبيذ فى الفصل الثالث .

(١٢) جـذوة المقتبس ص ٢٤٥ ترجمة ٥١٣ .

الملابس والأزيــاء والزينــة

تميز الأندلسيون بعــدة خصائص وصفات مميزة . وصــفهم بهــا ابن سعيد المغربى : من أهمها حبهم الشديد للنظافة ، وميلهم الواضح للتأنق فى ملبسهم ، وانفرادهم بتقاليد فى الزى تختلف عن أهل الأمصار الأخرى ، وحسن تدبيرهم فى شؤون حياتهم ، وحبهم للعمل وكراهيتهم للبطــالة والتسول ، ورغبتهم الشديدة فى العــلم والتعلم ، وتدينهم ومحــافظتهم على قواعد ديانتهم والمحــافظة على إقامة حدودها ، وإنكار التهــاون فى تعطيلها وقيامهم بذلك إذا ما أحسوا تهاونا من السلطان فى إقامتها .

وحبهم الشديد للغناء وشغفهم بسماعه حتى إنهم ليفضلون الضرورى من العيش مع سماعه على العيش المترف دونه . وهــذا يدل على صــفة بارزة فيهم وهى رقــة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم ، هــذا بالإضــافة إلى ظاهرة القــلق والتناقض فى حياتهم أو التطــرف فى الأمور ، وتدبير المعاش والاحتياط فيــه حتى ينسبون إلى البخل .

يقول ابن سعيد « وهم أشــد خلق الله اعتنــاء بنظــافة ملابســهم وفرشهم وغير ذلك ، وفيهم من لا يكون عنــده إلا قوت يومه فيصوم ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ســاعة على حــالة تنبو العــين عنهــا »(١٣) .

وقد أشار ابن سعيد أيضــا إلى زى أهــل الأندلس فى عصره — ونعتقد أنه لا يختلف كثيرا عما كان عليــه الحــال فى العصر الأمــوى فقال : « وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما فى شرق الأندلس ، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضيا أو فقيها مشارا إليــه إلا وهو بعمامة ، وأما الأجناد والعــامة فقليل من تراه بعمامة فى الشرق

---

(١٣) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٤ .

او الغرب ، وكثيرا ما تزيا السلاطين والأجناد بزى النصارى المجاورين ، واكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ والمعظمون ، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا أو خضرا ، واما الصفر فمخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وإذا رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل الثياب »(١٤) .

ومن هذا النص يتضح أن الاندلسيين وخاصة فى شرق الأندلس كانوا يتميزون بكشف رءوسهم ، وعدم لبس العمائم ونحوها كما كان يفعل المشارقة . واما الذين يلبسون العمائم وخاصة فى غرب الأندلس فبحكم مناصبهم مثل القضاة والفقهاء ، ويتخذون عمائم مغايرة عن عمائم أهل المشرق . ولذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة بهم لا تكاد تعرف فى المشرق . وربما كان من أهم مظاهر تلك المغايرة اتخاذهم البياض بدلا من السواد فى الحداد . ومما يشير إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزنى
بأندلس فذاك من الصواب
الم ترنى لبست بياض شيبى
لأنى قد حزنت على شبابى(١٥)

---

(١٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(١٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١١١ ـ ١١٢ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٤٥ ـ ٤٦ ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨ .

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية أو (المصبغات) محبوبة فى الأندلس ، وأحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضى مناصبهم شيئا من الحشمة والوقار والاقتصاد فى الزينة والملباس . فالقاضى محمد ابن بشير قاضى قرطبة فى عهد الحكم الربضى — والذى اتصف بالحلم والورع — كان يعقد جلساته أحيانا فى جامع قرطبة فى إزار مورد ورداء معصفر وشعر مصبوغ .

حيث يذكر الخشنى : أنه أتاه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زيه من الجمة المفرقة والرداء المعصفر ، والكحل والخضاب ، والحناء فى يديه ، أعتقد انه ليس القاضى ، فطلب من بعض الحاضرين أن يدلوه عليه ، فأشاروا إليه فقال لهم : إنى أراكم تستهزءون بى أسألكم عن القاضى وتدلوننى على زامر ، فزجروه من كل ناحية فناداه ابن بشير وقال : اذكر حاجتك فذكرها ووجد من العدل والانصاف فوق ما كان يظن(١٦) .

وكان الفقيه يحيى بن يحيى الليثى — زعيم الفقهاء فى عهد الحكم ابن هشام وعبد الرحمن الأوسط — من أشد الناس تعظيما لهذا القاضى وثناء عليه فى حياته وبعد مماته . وقد سأل عن لبس العمائم فقال هى لباس الناس فى المشرق ، وعليه كان أمرهم فى التدين ، فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس فى لباسها . فقال : لقد لبس ابن بشير الخز

---

(١٦) قضاة قرطبة ص ٣٢ ، البيان المغرب جـ ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢٤ ويقول لسان الدين ابن الخطيب عن أهل غرناطة فى زمنه ونعتقد أن فيه شيئا من العصر الأموى : « ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء ... فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة » . أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣ .

فلم يتبعه الناس ، وكان أهلا لأن يقتدى به فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير(١٧) .

وكان القاضى سعيد بن سليمان الذى ولى القضاء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط يجلس للحكم فى المسجد وعليه جبة صوف بيضاء ، وفى رأسه أقروف أبيض وغفارة بيضاء من نفس القماش(١٨) .

وهذا مما يدل على عدم تقيد جميع أفراد كل طائفة أو طبقة بلباس أو زى معين ، ومدى حرية كل شخص فى اختيار ما يناسبه من الملابس . بيد أن اللباس العام الذى كان يلبسه الناس هو الطيلسان الموصول به غطاء الرأس — مثل لباس المغاربة الآن — أو الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضاة والفقهاء فى غرب الأندلس .

وكان الشيوخ والمعظمون يغطون رءوسهم بغطاء الطيلسان إذا لبسوه ، أما العامة فيتركونه متدليا خلف رقبتهم . كما صنع البعض القلانس من الخز وكان يغطى بها رأسه كمحمد بن بشير الذى كان

---

(١٧) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٣٦ .

(١٨) قضاة قرطبة ص ٦٢ — ٦٣ ، المقتبس : ص ١٨٩ تحقيق د. محمود مكى . يبدو أن الأقروف كان غطاء للرأس على شكل مخروط وأحيانا كانت كلمة الغفارة تطلق على البرنس أو نوع من الطيلسانات (الأدب الأندلسى ص ٣٥) . وكانوا يطلقون على القلنسوة اسم القالص (القالس) وكان يلبسها الفقهاء ، وكان الفقيه المقلص عندهم هو الذي يحفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث والمدونة . (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ — ٦٦) .

يصلى الجمعة بالناس فى جـامع قرطبة وعليه قلنسوة خز(١٩) وكانت القلانس غطاء للرأس عنـد أكثر العـامة .

وكان الكثيرون يستعملون غفـائر الصـوف الحـمراء أو الخضراء ، ويضعونها تحت القلانس ، ويتدلى جـزء منها على القفـا ، وكان اليهود لا يلبسون إلا الغفائر الصفراء تمييزا لهم .

وكان كثيرون من العلماء يرخون ذؤابات عمائمهم إذا ما تعمموا ، ولم يكونوا يجعلونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها تحـت أذنهم اليسرى(٢٠) . كما عرف البرنس وخاصـة بين البربر البرانس الذين تعودوا عليـه فى بلادهم ، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها(٢١) .

ويشير المقرى إلى أن المنصور بن أبى عامر حجر على الخليفة هشام المؤيد بحيث لم يكن يراه أحـد فى الغالب حتى لا يلتف النـاس حـوله ، وكان إذا أركبه للنزهة جعل عليـه برنسا ، وعلى جواريه مثل ذلك فـلا يعرف منهن(٢٢) .

كما كان الأندلسيون يطلقون على الثوب اسم الحـلة وتتـكون من قطعتين الرداء والإزار ، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديبـاج أو من الحـرير الموشى بخيوط ذهبيـة . وكانت هناك أنواع من الملابس الفاخـرة مثل الوشى اليوسفى والوشى الهشامى يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القضـاة والعلماء . فقد ذكر ابن حيان : أن الأمير عبد الرحـمن الأوسط أراد أن يركب للنزهة مع بعض كرائمه على العـادة ، فطلب من

---

(١٩) الخشنى : قضـاة قرطبـة ص ١٨ ، ٣٠ .
(٢٠) أحمد أمين : ظهر الإسـلام جـ ٣ ص ٨ ، د. الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .
(٢١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩ .
(٢٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٩١ .

الراشدة القائمة على رأسه أن تدخل إلى خزانة الكسوة لتأتى برداء يوسفى من أفخر أنواع الوشى ، وترسل به إلى عريف الخياطين بالقصر ليصنعه ثوبا يلبسه فى النزهة غدا(٢٣) .

وورد ذكر الوشى الهشامى فى قول الشاعر سعيد بن مؤمن فى وصف منية قنتيش (كنتيش) التى بناها عبد الرحمن الأوسط وما فيها من مبان فاخرة :

ولابسة وشيا كأن رقيقه رقيق الهشامى العتيق المنضد(٢٤)

وقد كان لتقدم صناعة النسيج فى الأندلس أثر كبير فى اهتمام أهلها بالزى واللباس ، حيث كانت هناك عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات المتنوعة ، وخاصة مدينة المرية التى كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات الفاخرة من الديباج والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والعتابى وغير ذلك .

وكانت هذه المنسوجات — برغم أن بعضها يحمل مسميات مشرقية — تصنع فى الأندلس وتصدر للمشرق وأوربا التى شغف كثير من أمرائها وملوكها بها حتى أن بعضهم طلب أن يكفن فى ثياب أندلسية من صنع هذه المدينة مثل الأمير دون فيليب وزوجته ، ودون رودريجو خيمنث دى دارا(٢٥) .

وقد كان الأندلسيون يتخذون الخفاف ، ويلبسون الجباب والثياب القطنية والسراويل ، وكانوا يطلقون كلمة الغفارة على البرنس ، أو نوع

---

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٦١ — ١٦٢ تحقيق د. مكى .
(٢٤) المقتبس : ص ٣٢٦ — ٣٤٩ . تحقيق د. مكى .
(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

من الطيلسانات ذات الغطاء . وكلمة الأرجوان على الصوف الأحمر فقط رغم شمولها للأحمر من الصوف وغيره . وكلمة الخمار على ما تغطى به المرأة رأسها من شقاق الحرير فقط رغم شموله لكل ما تغطى به المرأة رأسها من ثياب . كما كانوا يطلقون كلمة الجفافة على ما يجففون به الماء أو غيره من قطع القماش ، وكلمة الببطير على قطعة القماش التى توضع حول عنق الطفل لتصون ثيابه من اللعاب والطعام (٢٦) .

وكان من زينتهم الخضاب بالحناء والكتم والكحل والتطيب بالعنبر والغالية وغيرها .

أما عن ملابس النساء فكان طابعها الأناقة والنفاسة والترف وخاصة نساء الطبقة الراقية . حيث كن يتفنن فى لبس المصبغات والمذهبات والديباجيات من الثياب ، ويبالغن فى زينتهن من التحلى بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة فى ذلك الوقت (٢٧) .

يقول لسان الدين ابن الخطيب فى وصف أهل غرناطة — وهو وصف يمكن أن نعممه على أهل الأندلس إلى حد ما حيث لا تتغير العادات والتقاليد بين يوم وليلة — « صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم مرسلة ، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر ، وألوانهم زهر مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة يتخللها إعراب كثير وتغلب عليهم الإمالة ،

---

(٢٦) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٦ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٥ .

(٢٧) انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ حيث يذكر من أنواع الطيب العنبر الجيد المقدم على أجناسه فى الطيب ، ومن أنواع البخور عود الأنجوج الذى يضارع العود الهندى ذكاء وعطر رائحة . ويذكر الزعفران أيضا ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ ، ٩٢ ، ص ١١٣ ، ١٢٠ ، والحلة السيراء ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء ، فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الازهار المفتحة فى البطاح الكريمة ، وزى جندهم فى القديم زى أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الإفرنج . وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن ونعومة الجسم ، واسترسال الشعر ، ونقاء الثغر ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، يندر فيهن الطول ، ويبالغن فى التفنن فى الزينة والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر »(٢٨) .

هذا وقد كان لقدوم زرياب أثر كبير فى تطور الزى فى الأندلس حيث ادخل كثيرا من التقاليد فى هذه الناحية ، ومنها انه جعل لكل فصل من فصول السنة ملابس مناسبة ، وجعل هناك مواعيد للبسها فملابس الربيع خفيفة ملونة من الخز والدراريع التى لا بطانة لها ، وملابس الخريف قريبة منها إلا انها مبطنة ، أما ملابس الصيف فجعلها خفيفة بيضاء ، وملابس الشتاء ثقيلة داكنة ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ، وقد عدل فى هيئات الثياب وتفصيلها فقصرها ، وضيق أكمامها بعد ان كانت واسعة ، وأعطاها هيئة جميلة(٢٩) .

كما ابتكر زرياب أنماطا جديدة لترتيب الشعر وتصفيفه فقد كان

---

(٢٨) الإحاطة فى اخبار غرناطة ج ١ ص ٣٥ القاهرة سنة ١٣١٩هـ .
أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣ — ٤ ومن المعروف أن سكان غرناطة كانوا خليطا من سكان الأندلس الذين التجأوا إليها بعد سقوط الأندلس شيئا فشيئا ومن هنا يمكن التعميم .

(٢٩) انظر د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٥ — ٨٦ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

أهل الأندلس رجالا ونساء يرسلون الجمة مفروقة من وسط الجبين فينسدل شعرهم عاما على الصدغين والحاجبين ، فلما رأوا زرياب وأولاده ونساءه مقصرين شعورهم دون جباههم ، وقد سووها مع حواجبهم ، وأداروها (٣٠) وراء آذانهم ، وأسدلوها على أصداغهم هوت نفوسهم إلى ذلك واستحسنوه فأخذوا فى تقصير شعورهم من الجانبين وإرسالها وراء آذانهم ، كما ابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه ومنها (تصفيفة الجبهة) وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب كما يفعل بعض النساء اليوم .

كما ابتكر أنواعا من العطور فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والدهن ومال إلى الى العطور المستخرجة من الزهور (٣١) .

وهكذا تحكم زرياب فى كثير من العادات الاجتماعية فى الأندلس من ناحية الملبس والأزياء والزينة ، كما تحكم فى كثير من العادات فى الطعام والشراب ، وآداب المجالس ، والموسيقى والغناء .

يقول لين بول « وتحكم زرياب فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم بترونيس وبروميل الوسيم » (٣٢) .

---

(٣٠) محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ .

(٣١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

(٣٢) العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٠ — ٧٢ ، وبترونيس أو بترون كان قصاصا يونانيا اشتهر بكتاباته الساخرة وأعجب به بيرون وضمه إلى حاشيته . وبروميل انجلزى ولد فى لندن سنة ١٧٧٨م وكان مشهورا بالأناقة ابتكر كثيرا من الأزياء حتى لقب بملك الأناقة فى عصره وتوفى سنة ١٨٠٤م (انظر تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٠ هامش) .

ويقول المستشرق الإسبانى بالنسيا : « لم يستهو زرياب أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته فى إرسال شعره ، وولائمه البديعة التى كان يتفنن فى ترتيبها فأخذ الناس عنه كل ذلك ، وأصبح ذوقه مقياسا لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذى يحتذيه القرطبيون فى إعداد ملابسهم »(٣٣) .

ونستطيع أن نقول : إنه لم يستهو أفئدة أهل قرطبة فقط بل الأندلسيين بصفة عامة ، وأن ذوقه لم يكن مقياسا لأهل قرطبة فقط بل للأندلسيين على وجه العموم .

* * *

---

(٣٣) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

الأعيـاد والمواسـم والحفـلات

لم تمدنا المصـادر بالكثير من الأخبار فى هـذا الصدد ، وإن كنـا نستطيع من خـلال الإشارات والروايات القليلة التى وردت أن نقـول : أنه كانت هناك أعياد دينية إسلامية شـارك الأندلسيون إخوانهم المسلمين فى بقيـة العـالم الإسلامى الاحتفـال بها وعلى رأسها عيدى الفطـر والأضـحى .

وقـد كان الأمراء والخلفـاء يخرجـون فيهـا لحضور الصـلاة فى موكب حافل إلى المصلى(١) ، ثم يعودون إلى قصورهم حيث يتوافد عليهم كبار رجـال الدولة للتهنئة ، وما يتبع ذلك من ولائم تقـدم لهم ، وأعطيات وهبات تمنح لهم .

ويبدو انهم أخـذوا يحتفلون ايضـا بالمولد النبوى بعـد أن عرف الاحتفال به فى المشرق وخاصة فى مصر زمن الفاطميين(٢) ، ولعل ذلك

---

(١) كان من أشهر المصليات فى قرطبة مصلى المصارة ومصلى الربض . وكان مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، ولفظ (مصـارة) انتقل إلى المغرب من الأندلس ، ويعنى الفضـاء الفسيح الواقع خارج المدينة ، ويعد من متنزهاتها ، ولم تكن المدن الأندلسية تخلو من مصارة يخرج إليها الناس للنزهة فى أيام الأعياد ، وما زالت هناك مواضع فى أسبانيا تحمل نفس الإسم AL Muzara وكذلك فى المدن المغربية أيضا .

أمـا مصـلى الربـض : فـكان يقـع عـلى الضـفة اليسرى من النهر جنوب قرطبـة ، على مقربة من مصلى الربض ، وكان مصلى المصارة أقرب من الربض ، ولذلك كان الأمويين يصلون به غالبـا صلوات الأعياد والاستسقاء (انظر المقتبس ص ٢٩٣ — ٢٨٤) تحقيق د. محمـود مكى .

(٢) السندوبى : تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ص ٦٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سـنة ١٩٤٨م .

يرجع إلى تعظيمهم للنبى ﷺ بالاحتفال بمولده ودراسة سيرته الشريفة ، وإلى الشعور الدينى القوى لديهم الذى أدى بهم إلى التحدى لإثبات وجودهم فى هذه البلاد البعيدة التى تقع فى أوربا المسيحية ، وهذا يفسر لنا تلك الظاهرة الواضحة التى تميزت بها الأندلس كدولة إسلامية فى أوربا ، وهى ما يطلق عليه البعض ظاهرة (المشاركة والتحدى) .

وقد حرص الأندلسيون والمغاربة على الاحتفال به فى العصور المتأخرة احتفالا كبيرا لإيقاظ الشعور الدينى وخاصة بعد تساقط القواعد الإسلامية فى الأندلس واحدة إثر الأخرى وذلك على المستويين الرسمى والشعبى بمواكب الشموع التى لازالت موجودة حتى اليوم ببعض مدن المغرب وخاصة مدينة سلا(٣) .

كما يظهر أنهم كانوا يحتفلون كذلك بيوم عاشوراء بالصيام والتوسعة على أنفسهم وأولادهم فى هذا اليوم . فقد ذكر ابن حيان وابن عذارى والمقرى : أن الفقيه عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط فى يوم عاشوراء :

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشوراء
واذكره لا زلت فى الأحياء مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشمله
قولا وجدنا عليه الحق والنورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبنا
خير الورى كلهم حيا ومقبورا(٤)

---

(٤) د. احمد العبادى : المسلمون فى أرض الأندلس : مجلة المختار من عالم الفكر عدد (١) ص ١٤١ . الكويت سنة ١٩٨٤م .

(٤) المقتبس ص ١٨٤ — ١٨٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢١١ . وقد ذكر المقرى البيت الثالث بصيغة مختلفة ، وارجع ذلك إلى أنه قد نسى لفظه لطول العهد به فكتبه بالوزن والمعنى هكذا :

فيمن يوسع فى إنفاق موسمه أن لا يزال بذاك العام ميسورا

ومن هــذا نستشف أن الخلفاء والأمراء كانت لهم عطايا وهبات فى هــذا اليوم يوزعونها على بعض الناس .

وإلى جانب الأعياد الإسلامية فقد كانت هناك أعياد مسيحية شارك الأندلسيون الأسبان فى الاحتفال بهــا مثل عيــد الميلاد ، وعيــد العنصرة وخميس العهد أو خميس إبريل الذى يسبق عيــد الفصح بثلاثة أيام(٥) .

وقد أشار الطرطوشى إلى أن الأندلسيين كانوا فى هــذه الأعيــاد يبتاعون الفــواكه والحلوى من المجبنات والأسفنج كالعجم تمــاما واعتبر هــذا من البــدع(٦) .

وكانت مشاركة المسلمين لأهل الذمة فى هــذه الاحتفالات على أساس من نظرة الاحترام والتسامح الدينى ، والحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون هناك جنبــا إلى جنب فى المجتمع الأندلسى سنين طويلة .

وهناك أعياد قومية أو شعبية ، مثل عيــد العصير AL acir الذى كان يحتفل به عنــد جنى محصول العنب ، وكان محصولا رئيسيا ، فكانوا يقيمون فى الحقول فى جــو يسوده المرح والغناء والرقص ، وهى عــادة لازالت موجودة فى إسبانيا إلى اليوم(٧) .

وقد كان هناك من النساء من يشــارك الرجال فى الاحتفال بهــذه الأعياد ، حيث يشير كثير من المؤرخين إلى خروج المرأة للفرجة فى أيــام الأعياد ، وكن يذهبن إلى ســاحة المصلى ، حيث يقمن الخيام للتفــرج لا للصلاة كما يقول الطرطوشى(٨) : وقد ازدادت هــذه الظاهرة وضوحا فى أواخر العصر الإسلامى بالأندلس .

---

(٥) مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .
(٦) الحوادث والبدع ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٧) المختار من عالم الفكر ص ١٤١ .
(٨) الحوادث والبدع ص ١٤١ .

فيقول لسان الدين بن الخطيب فى وصف استقبال سلطان غرناطة ابى الحجاج يوسف : « واختلط النساء بالرجال ، والتقى أرباب الحجا بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود » .

ويقول فى وصف نساء مدينة رندة « يلبس نساؤها الموق (الخف) ، على الأملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المعشوق ، وينعشن قلب المشوق ، بالطيب المنشوق »(٩) .

ويتضح من خلال هذه النصوص وأمثالها ان تحرر المرأة فى الأندلس وخاصة فى العصور المتأخرة ، كان أكثر من بقية العالم الإسلامى ، وذلك بحكم تأثير الجوار مع المسيحيين بعد سقوط قواعد المسلمين فى أيديهم . وبحكم إرغام الأسبان لهم على التنصر ، وممارسة العادات والتقاليد المسيحية ، فتنصر منهم من تنصر .

وبالإضافة إلى ذلك فقد احتفل فى الأندلس بعيدى النيروز والمهرجان(١٠) .

---

(٩) د. أحمد العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس ص ٩٦ ، ١٠٠ .

(١٠) النيروز : من أعياد الفرس القديمة ، وهو بداية السنة عندهم فى فصل الربيع ، ويذكر البيرونى أن أول من احتفل به الملك جمشيد الفارسى ، حيث يقال : إنه لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم لما رد إليه بعد أربعين يوما عاد إليه الملك ، فقال الفرس مهنئين (نوروز آمذ) أى اليوم الجديد ، فسمى بذلك (الآثار =

الباقية عن القرون الخالية ص ٢١٧) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذين العيدين بعد فتح بلاد فارس ، ثم عاد الاحتفال بهما شيئا فشيئا ، حتى أصبحا من الأعياد الرسمية فى العصر العباسى .

وفى صدر الإسلام لم يكن للأعياد الفارسية شأن عند المسلمين . فيروى أن بعض الدهاقين من الفرس احتفلوا فى خلافة على رضى الله عنه بهذا العيد ، وبعثوا إليه بهدية من الحلوى على عادتهم ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إنه يوم نوروز قال : نوروزنا كل يوم . (تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٣٦) .

أما عيد المهرجان : فقد كان الفرس يحتفلون به فى آخر العام ويسمونه (روز مهر) أى محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم ، وكانوا يتخذونه دليلا على نهاية العام فى فصل الشتاء ، كما يتخذون النيروز دليلا على بدايته فى فصل الربيع .

وقد نسبوا إلى سلمان الفارسى أنه قال : كنا على عهد الفرس نقول : إن الله أخرج لعباده زينة من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر . وهم بذلك يحاولون أن يجعلوا له أصلا ، وهو قول يظهر فيه الوضع جليا .

وقد زعموا أن تعظيمهم لهذا اليوم يرجع إلى انتصار ملكهم أفريدون على أزدهاك (الضحاك) بفضل نزول الملائكة لمساعدته ، وكانوا يتهادون فيه مثل النيروز ويقدم فيه الملوك إلى الجند كسوة الخريف والشتاء . (انظر : الآثار الباقية ص ٢٢٢ — ٢٢٤ ، التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٥ ، د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره المقرى : من أن عبد الرحمن الاوسط لما قدم زرياب إلى الأندلس بالغ في إكرامه ، وقرر له راتبا شهريا الفا لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز الف لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز والمهرجان . عدا الشعير والقمح والضياع والبساتين التى وهبها له وقدرت بأربعين الف دينار(١١) .

ويصف عبد الرحمن بن عثمان الأصم وهو من شعراء عصر الناصر يوم المهرجان بقوله :

ارى المهرجان قد استبشرا
غداة بكى المزن واستعبرا
وسربلت الأرض افوافها
وجللت السندس الأخضرا
وهز الرياح صنابيرها
فضوعت المسك والعنبرا
تهادى به الناس الطافهم
وسامى المقل به المكثرا(١٢)

وهذا يدل على أن الناس كانوا يتهادون فيه ، ويتنافسون فى ذلك . ومن قول ابى جعفر احمد بن عبد الملك بن سعيد فى وصفه يوم المهرجان :

---

(١١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٧ .

(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٧٦ .

يا حسن يوم المهرجان وطيبه
يوم كما تهوى أغر محجل
سرح لحاظك حيث شئت فإنه
فى كل موقع لحظة فتأمل(١٣)

وإلى جانب الأعياد فقد كان هناك فى الأندلس ما يمكن أن نطلق عليه اسم أجازة رسمية ، فقد كان يوم الأحد من كل أسبوع بمثابة عطلة للموظفين . فقد ذكر ابن حيان (٤٦٩هـ) فى ترجمته لقومس ابن أنتنيان كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان نصرانيا فأسلم فى آخر حياته « أنه كان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة فى يوم واحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره ، وكان أول من دعا لى ذلك لتنسكه فيه ، فتبعه جميع الكتاب طلبا للراحة والنظر فى أمورهم ، فانتخبوا ذلك ومضوا إلى اليوم عليه »(١٤) .

ويشير ابن سماك العاملى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى إلى ذلك فى كتابه (الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة) حيث يقول عن المنصور بن أبى عامر « أصبح المنصور صبيحة أحد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين أعفوا فيه من الخدمة فى مطر وابل »(١٥) .

ويبدو أن هذا اليوم كان عادة مسيحية انتقلت بعد ذلك إلى

---

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(١٤) المقتبس ص ١٣٨ وحاشية رقم ٢٦٨ تحقيق د. محمود مكى بيروت سنة ١٩٧٣م .
(١٥) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٤١٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

الأندلسيين كما نراه اليوم حيث يتخذ الكثيرون وخاصة فى مصر من يوم الأحد يوم عطلة لهم .

وهذا يدل على أن التقليد الذى سنة (قومس بن أنتنيان) فى اتخاذ يوم الأحد عطلة رسمية للكتاب وأهل الخدمة قد ظل معمولا به في عصر المنصور وحتى أيام ابن حيان الذى توفى سنة ٤٦٩هـ ، ويبدو أنه ظل معمولا به بعد ذلك .

ولقد جرت عادة الأندلسيين على الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم وحفلاتهم بوسائل شتى مثل الغناء والموسيقى والرقص ، وألعاب الفروسية وسباق الخيل ، فضلا عن الاحتفالات الدينية التى تقام فى المساجد والأربطة والزوايا ، وكذلك القصور والبيوت حيث يتلى القرآن الكريم ، وتلقى القصائد الشعرية المناسبة ، إلى جانب الأناشيد والموشحات الدينية ، وحلقات الذكر التى قد يصاحبها العزف على بعض الآلات مثل الشبابة اليراعة ، والضرب على الدفوف ، وتوزع فيها الأطعمة . وهذه الاحتفالات فى مجموعها تتشابه فى مظهرها العام مع الاحتفالات فى المشرق إلا أنها تختلف فى بعض التفاصيل التى تتفق مع البيئة المحلية(١٦) .

* * *

(١٦) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ — ١٤٣ .

الحفــــلات

وإلى جانب الاحتفال بالأعياد والمواسم فقد وجـدت هناك الحفــلات المتنوعة مثل حفــلات الزواج والميــلاد والختــان وغيرها . ولم تمــدنا المصــادر إلا باشارات بسيطة لا نستطيع من خــلالها أن نجلى هــذا الموضوع أو نوفيه حقه . وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة لا تشبع نهمــا .

ففى حفلات الزواج مثــلا : لم تشر المصــادر التى رجعنــا إليها — بالرغم من كثرتها — إلا إلى زواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى صــاحب مدينة سالم فى عهد المستنصر حيث يقول المقرى « وكان أعظم عرس بالأندلس »(١) . ومن هــذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبذخ الذى كان فى هــذا العرس بالرغم من عــدم ورود تفاصيل عنه .

وفى حفلات الختان ، عثرنا على إشــارتين بسيطتين . حيث ذكر ابن عذارى أنه فى سنة ٣٢٠هـ صــنع الناصر صنيعا كبيرا بمناسبة فتح طليطلة ، ووافق ذلك تطهيره لبعض أولاده(٢) .

وذكر المقرى : أن المنصور بن أبى عامر قــد احتفــل بختان ولــده عبد الرحمن شنجول(٣) . ولا شك انه كان يقوم بذلك (المزين) أو المطهر، وقد يجلب فى الاحتفال بعض المغنين واصــحاب اللعب والفكاهة . وتقدم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، بنيت هذه المدينة فى الثغر الأوسط سنة ٢٣٥هـ فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان يشرف على بنائها غالب الناصرى ،ونزلها الكثير من المسلمين (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٤).

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٨ .

فيه الهدايا لوالد الطفل ، وتقام فيه الولائم ، وتوزع الأطعمة ابتهاجا بهذه المناسبة .

وفى حفلات الميلاد : روى أن الحكم المستنصر لم يرزق بأولاد ذكور قبل تقلده الخلافة ، وكاد أن ييأس من ذلك حتى رزق سنة ٣٥٤هـ بولد من جاريته صبح البشكنسية فسر بذلك سرورا عظيما ، وأقام احتفالا كبيرا حضره كبار رجال الدولة يهنئون ويلقون القصائد الشعرية . ومن ذلك قول جعفر المصحفى الحاجب :

اطلع البدر من حجابه
واطرد السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعالى
ليثبت الملك فى نصابه
بشرنا سيد البرايا
بنعمة الله فى كتابه
لو كنت أعطى البشير نفسى
لم أعطه حقا لما أتى به(٤)

وسائل اللهو والتسلية

لا شك فى أن الحياة المترفة التى عاشها الكثيرون فى الأندلس ، وخاصة فى الطبقات العليا ، قد اقترن بها فراغ كبير كان لابد من شغله . فمنهم من شغله بالعمل الجاد والعلم النافع والعبادة ، ومنهم من شغله بألوان مختلفة من ضروب اللهو والتسلية واللعب .

وقد كان الغناء والموسيقى على رأس هذه الوسائل حيث شغف به معظم الأندلسيين كما قدمنا ، وكانت له مجالسه التى تعقد فى القصور والمنى والمتنزهات ، ويتجمع فيها الكثيرون لسماع المغنيين والمغنيات .

---

(٤) د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ١٧ .

كما كان الصيد والقنص من هذه الوسائل أيضا ، وقد كان كثير من الأمويين يخرجون فى رحلات للصيد ، ومنهم عبد الرحمن الداخل الذى كان كلفا به فى أوقات فراغه . فقد ذكر ابن الأبار نقلا عن ابى الفرج الجيانى صاحب كتاب (الحدائق) : أنه أتاه فى بعض غزواته آت ممن كان يعرف كلفه بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الغرانيق(٥) واقفة فى جانب من معسكره وحثه على الخروج لصيدها فرفض قائلا :

دعنى وصيد وقع الغرانق
فإن همتى فى اصطياد المارق
فى نفق إن كان او فى حالق
إذا التظت اوافح الضوائق
كأن لفاعى ظل بند خافق
غنيت عن روض وقصر شاهق(٦)

ومنهم أيضا الحكم بن هشام الملقب بالربضى الذى كان شغوفا بالصيد واللهو والقنص ايضا . وكان هذا من الأسباب التى اتخذها الفقهاء لإثارة الناس ضده وإشعالهم ثورة الربض(٧) .

وكذلك ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى يقول عنه ابن حيان : « وكان

---

(٥) الغرانيق : جمع غرنوق وهو طائر مائى أسود أو أبيض ، وقيل الكركى ، وقيل يشبهه .
(٦) الحلة السيراء ج ١ ص ٤١ واللفاع والملفعة ما يتلفع به من رداء أو قناع أو غيره .
(٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٩٨ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٣ .

يخرج للصيد ، ويقعد للأنس مع جواريه ، ويستمع للأغانى »(٨) .

وقد ذكر الرازى أن عبد الرحمن الأوسط خرج مرة لصيد الغرانيق ، التى كان مولعا بهـا فأبعد ، وكان ذلك فى فصل الشتاء ، ومعه ابن الشمر الشاعر فقال :

ليت شعرى أم حديد خلقنا
أم نحتنا من صخرة صماء
كل عام فى الصيف نحن غزاة
والغرانيق غزونا فى الشتاء
إذ نرى الأرض والجليد عليها
واقع مثل شقة بيضاء(٩)

ويذكر ليفى بروفنسال : أنه كان يخرج فى رحلات مع حاشيته للصيد بالصقور ، وخاصة فى سهل الوادى الكبير الذى تطل عليه قرطبة ، وأنه كان يحب صيد الغرانيق ، ويحب ملاحقة طائر الكركى بصفة خاصة لأنه كان أكثر الطرائد طلبا(١٠) .

كما كانت هناك رحلات صيد للأمير عبد الله بن محمد فى جهة عدوة النهر الأعظم بقرطبة(١١) .

وهذا يدل على مبلغ حب الأمراء للصيد ، وخروجهم إليه فى رحلات منتظمة .

وإلى جانب رحلات الصيد فقد كانت هناك رحلات للنزهة

---

(٨) المقتبس ص ٢٢٤ تحقيق د. مكى .
(٩) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلي المغرب ج ١ ص ١٢٥ .
(١٠) الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٣ .
(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٦ .

يخرج فيها الأمراء ومعهم بعض أهليهم مع الحاشية . ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن حيان : من أن الأمير عبد الرحمن الأوسط طلبت منه بعض كرائمه النزهة على مقتضى العادة ، فأمر حاجبه عيسى بن شهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على اتم رسومها ، والتعجيل بذلك للتحرك فى صبيحة اليوم التالى ، وطلب من الراشدة أن تأتيه من خزانة الكسوة برداء يوسفى من الوشى ليصنع منه عريف الخياطين بالقصر ثوبا يلبسه فى هذه النزهة ، ولكنه لم يقدر له ذلك حيث توفى بعد صلاة المغرب ، فصار كفنا له(١٢) .

ويذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط خرج إلى الرصافة يوما للنزهة ومعه هاشم بن عبد العزيز الوزير ، فكان بها صدر نهاره على لذته ، فلما حل الظلام انصرف إلى القصر وبه اختلاط ، فقال له هاشم : يا ابن الخلائف ما أطيب الدنيا لولا الموت فقال له : يا ابن اللخناء لحنت فى كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت ، فلولا الموت ما ملكناه أبدا(١٣) .

كما كانت هناك ألعاب للرياضة والفروسية مثل اللعب بالصولجان وسباق الخيل فقد ذكر ابن عذارى : أن الحكم الربضى كان يلعب بالصولجان فى القصر ، فجاءه الخبر بأن جابر بن لبيد محاصر لمدينة جيان ، وكان أحد الخارجين عليه(١٤) .

ويذكر ابن عذارى أيضا : أنه فى سنة ٣٤٧هـ فى عهد الناصر خرج القائد أحمد بن يعلى صاحب الشرطة غازيا بالأسطول إلى المغرب لقتال

---

(١٢) المقتبس ص ١٦١ — ١٦٣ .
(١٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .
(١٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

الفاطميين ، وكان خروجا فخما ، فخرج الكثيرون من أهل قرطبة رجالا ونساء وأطفالا لمشاهدة العسكر وهم يمرون من الربض ، وأخذ العوام والغوغاء يتقاذفون بالحجارة محاكين صفى القتال ، فدخل بينهم قوم من الطنجيين من جند السلطان وحرشوهم ، فحمى الوطيس والناس يشاهدون ذلك ، فتغلب فريق على الآخر ، فمال الطنجيون على المنهزمين ، فنهبوهم ومن حولهم من المتفرجين ، وسلبوا النساء ثيابهم ، فأخذن يتوارين فى الحقول حياء وخجلا حتى يحين وقت التفرق(١٥) .

وهذا شبيه بما يحدث فى عصرنا من تجمع الكثيرين لمشاهدة مرور موكب من المواكب الرسمية ، أو عرض عسكرى أو رياضى ، وما قد يحدث نتيجة للتزاحم والاختلاط من مثالب وأحداث .

كما يبدو أنه وجدت فى الأندلس لعبة الشطرنج وإن كنا لم نعثر على أمثلة لها فى العصر الأموى إلا أنه قد وجدت مخطوطة لألفونسو الحكيم(١٦) . فيها رسم للعبة شطرنج معقدة .

ومن المعروف أن العرب قد اقتبسوا النرد والشطرنج عن الفرس ،

---

(١٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٢ .

(١٦) هو ألفونسو العاشر ابن فرناندو الثالث ملك قشتالة تولى الحكم فى مايو سنة ١٢٥٢م ولقب بالحكيم أو العالم لشغفه بالعلوم والآداب ، له المدونة الكبرى فى تاريخ أسبانيا أو تاريخ أسبانيا العام وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . وكانت له صلات بكثير من علماء الأندلس وتلقى منهم الكثير . (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ١٠٤ ، ص ١٦٩) ، (د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٦٩) .

وأدخلوا عليهما إضافات وتحسينات ، ثم انتقلت هاتان اللعبتان إلى أوربا واحتفظت ببعض الأسماء العربية(١٧) . وإذا كان الشطرنج قد عرف فى المشرق فلا شك وأن يكون قد انتقل إلى الأندلس أيضا ، كما عرف فى أوربا .

أما عن مصارعة الثيران : فالواقع أن العصر الأموى لم يشهد هذه الرياضة العنيفة حيث لم ترد إلينا نصوص تفيد ذلك ، وأول إشارة وردت إليها تعود إلى عصر الموحدين ، حيث ذكر أن الخليفة أبو يعقوب يوسف كان يروض الأبقار ، وأن حياته انتهت بطعنة من قرن بقرة فى صدره فقتل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ثم وردت إشارات كثيرة بعد ذلك من لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ غرناطة وابن زمرك شاعر الحمراء فى القرن الثامن تعطينا معلومات مفيدة عن هذه الرياضة(١٨) .

كما كان هناك ما يشبه حدائق الحيوان فى عصرنا . حيث يروى أن الخليفة الناصر عندما بنى مدينة الزهراء اتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك(١٩) . وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أماكن يقصدها أرباب اللهو والفسوق .

حيث يذكر ابن عذارى أن الحكم الربضى أمر بهدم فندق كان بالربض، وكان متقبله من أهل الإضرار والفسق ، ونستطيع أن نستشف منه أن هذا الفندق كان مكانا يجتمع فيه أهل اللهو والفساد لممارسة متعهم الدنيوية .

ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار فيقول إنه أظهر من الخلاعة

---

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .
(١٨) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(١٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

والمجون ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ، ومائة بوق للزمر ، ومائة عود للضرب ، وكان له غلام صقلبى يتعشقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية تسمى بستان كانت لأبى القاسم المصرى الخيالى ، وامرأة أبى الشرح وتسمى واجد ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المنتهكين فيها . ولم يزل طول مدته مشتهرا بالفسق مظهرا للخلاعة، لا يفيق من سكر ، ولا يرعوى عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى حتى قال بعضهم فيه :

أمير الناس سخنة كل عين
يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويأثم خد هذا
ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيها
ضعيف العقل شيئا غير زين

وقد هجاه كثير من الشعراء . يقول ابن عذارى « وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به »(٢٠) .

ومن الواضح أن مجالس اللهو والشراب كانت من الظواهر الموجودة فى المجتمع الأندلسى وخاصة فى وادى إشبيلية ، فيشير الشقندى فى رسالته فى تفضيل الأندلس على المغرب إلى أن هذا الوادى لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكرة ، لا ناه عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة(٢١) .

---

(٢٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ ، ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٢١) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٩ .

ويذكر المقرى : أن أهل الأندلس كان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد(٢٢) .

والحقيقة أن المجتمع الأندلسى قد اتسم بالحدة والتطرف فى نظرته للأشياء . فقد وجدت بيئات كلها علم وزهد وتقى ، كما وجدت إلى جانبها بيئات أخرى مالت إلى التحرر واللهو والترف والمجون ، وعاشت حياة صاخبة لاهية . وانساق الكثيرون مع هذا التيار العابث الذى فتنهم .

ونحن إذا قرأنا ما نظمه الشعراء الأندلسيون من شعر الخمر والغزل لخيل إلينا أن المجتمع الأندلسى لم يعرف غير ذلك ، وفى المقابل إذا قرأنا ما نظموه فى شعر الزهد والتصوف وما ألفه العلماء من مؤلفات لقلنا إن هذا المجتمع كان كله مجتمع زهد وتقوى وصلاح وعلم .

ولكن هذا المجتمع جمع بين هذين الجانبين شأن أى مجتمع آخر مع الاختلاف النسبى بين مجتمع وآخر فى ناحية من النواحى .

* * *

---

(٢٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٩٠ .

المـرأة ودورها

لعبت المـرأة فى المجتمع الأندلسى دورا لا بأس به ، وبرزت بعض النساء فى مجالات شتى سياسية واجتماعية وثقافيـة ودينية .

وتدل الكثير من الشواهد على أن المرأة فى الأندلس كانت تتمتع بقدر من حـرية الحركة ، والمشاركة فى الحيـاة العامة أكثر من قرينتها فى المشرق(١) .

وقد كانت نساء الأندلس على وجه العموم أشبه شىء بنساء المشرق من ناحية التعليم والحجاب ، فمن ناحية التعليم كان أكثرهن أميات ، ومن ناحيـة الحجاب فقـد غلب على الحرائر منهن ، أما الإماء والسرارى فكن يسفرن عن وجوههن غالبا ، ولذلك يذكر أن ولادة بنت المستكفى لـما جالست الرجال ، وشاركتهم فى الشعر والأدب قوبل ذلك منها بشىء من الاستهجان والاستغراب(٢) .

ولم تمدنا المصـادر بالكثير عن المرأة فى المجتمع الأندلسى وخاصة الحرائر ، وسنحاول من خـلال الأخبار القليـلة التى عثرنا عليها أن نتبين كيف كان وضع المرأة فى هـذا المجتمع .

لقـد كثرت الجوارى فى المجتمع الأندلسى نتيجـة لكثرة الحـروب والمعـارك التى خاضها المسلمون ضـد الممالك المسيحية فى اسـبانيا وبلاد الفرنجة ، وكذلك عن طريق تجـار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى فى أوربا وغيرها . يقول المراكشى عن المنصور بن أبى عامر : « ومـلأ الأندلس غنـائم وسـبيا من بنـات الروم وأولادهم ونسـائهم

---

(١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٦ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣٠ .

... الخ »(٣) . ويذكر ابن الأبار أنه فى إحدى غزواته لملكة جليقيـة سـنة ٣٧١هـ عاد بأربعة آلاف سبية(٤) .

وامتلأت بيوت المسلمين فى الأندلس بالأسبانيات وغيرهن ، حيـث تزوجهن الكثير من العرب والبربر ، وكان لبعضهم تأثير كبير على أزواجهن وأولادهن من النسل المولد من ناحيـة العادات والتقاليـد واللغة وغير ذلـك .

كما كان لبعض الجوارى وأمهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفـاء والكبراء . ويشير ابن حـزم فى بداية الفصل الأول من كتابه (طوق الحمامة) إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفـائها فيقول « وقـد أحب من الخلفـاء المهديين والأئمـة الراشدين كثير منهم باندلسنا ، عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم (هشام) المؤيد بالله وامتناعه عن التعـرض للولـد من غيرها ... وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصـوا . وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبى عـامر بواجد بنت رجل من الجنانين (البستانيين) حتى حمله حبها أن يتزوجها ... الخ »(٥) .

ومن الأمثلة التى وردت ما ذكر من أن الحـكم الربضى كان شغوفا بخمس جوار عنـده قـد اختصهن لنفسه ، وملكهن أمره ، فذهب يومـا

---

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .
(٤) الحـلة السيراء ج ١ ص ٢١٦ .
(٥) طوق الحمامة ص ١٩ — ٢٠ .

للدخول عليهن فأعرض عنـه وكان لا يصبر عنهن فقال :

قصب من البان ماست فوق كثبان
اعرضن عنى وقد ازمعن هجرانى
ناشـدتهن بحـقى فاعتزمن علـى
الهجـران حتى خـلا منهن هيمانى
ملكننى مـلك من ذلـت عزيمتـه
للحـب ذل اسير موثـق عـانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى
غصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

ولـما عدن عليـه بالوصال قال :

نلت كل الوصال بعـد البعـاد
فـكأنى ملكت كل العبـــاد
وتنـاهى السرور إذ نلت ما لم
يفـن فيهن تكاثف الأجنـاد(٦)

ويذكر أن من شعره فيهن قوله :

ظل من فـرط حبـه مملوكا
ولقـد كان قبل ذاك يدعى مليكا
إن بكى او شكى الهوى زيد ظلما
وبعـادا يدنى دماما وشـيكا
تركته جـآذر القصر صـبا
مستهاما عـلى الصعيد تريكا
يجـعل الخـد مـائلا فوق ترب
وهـو لا يرتضى الحـرير اريكا

(٦) الحـلة السيراء ج ١ ص ٥٧ .

هكذا يحسن التذلل للحر

إذا كان فى الهوى مملوكا(٧)

ومن أمثلة ذلك أيضا (طروب) جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط وأم ولده عبد الله التى وصلت إلى درجة كبيرة من النفوذ والسلطان ، نظرا لشغفه بها . بحيث ذكر أنها كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، ولم يكن الأمير يرفض لها طلبا . ويقال إنها دبرت مؤامرة مع هذا الخصى لقتل عبد الرحمن حتى تصير الإمارة من بعده إلى ولدها عبد الله بدلا من محمد الذى كان من جارية أخرى تدعى بهير(٨) . وبالرغم من انكشاف هذه المؤامرة ، ومعرفة الأمير بما كانت تضمره له إلا انه لم يعاقبها وظل على حبه لها(٩) .

ويذكر انه بلغ من حبه لها انها هجرته يوما ولزمت حجرتها فأراد

---

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٠ ، ويذكر ابن الأبار هذه الأبيات بشىء من الاختلاف فى بعض الألفاظ ويقول : وله فى النسيب ثم يذكرها ولا مانع من أن يكون النسيب فيهن . (انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٩) .

(٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٣ .

(٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٠ . ويشك د. حسين مؤنس فى هذه المؤامرة مستدلا على ذلك بأن الأمير لم يغضب على طروب ولم يعاقبها . ونقول إنه لا غرابة فى وقوع هذه المؤامرة فأمثالها كثير فى عصور التاريخ المختلفة . والسبب فى عفوه عنها هو حبه الشديد لها كما ذكرنا ، وعين الرضى عن كل عيب كليلة كما قال الشاعر . (انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ١١٤ هامش ١) .

ان يترضاها بعـــد ان تمنعت عليـــه فأمر بسد باب حجرتها ببدر الدراهم من الخارج . ولمـــا رضيت فتحت الباب فتساقطت البدر داخـــل الحجرة فأخذت فى جمعها ثم أقبلت عليه وأكبت على رجله تقبلها(١٠) .

كما يروى انه أعطاها عقـــدا قيمته عشرة آلاف دينار ، ولمـــا استعظم بعض وزرائه ذلك قال : ويحك إن لابس العقد أنفس خطرا ، وأرفـــع قـــدرا ، واكرم جوهرا ... الخ »(١١) .

ويذكر أن له فيها شعر يقول فيـــه :

فقدت الهوى مـــذ فقدت الحبيبا
فما أقطع الليـــل إلا نحيبـــا
وإما بدت لى شمس النهار طالعـــــة ذكرتنى طـــروبا
فيـــا طول شـــوقى إلى وجههـــا
ويـــا كبـــدا أورثتهـــا ندوبـــا
ويـــا أحسن الخـــلق فى مقـــلتى
وأوفرهم من فـــؤادى نصـــــيبا
لئن حال دونك بعد المـــزار من بعد أن كنت منى قريبا
لقد أورث الشوق جسمى الضنى
وأضرم فى القـــلب منى لهيبـــا

---

(١٠) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦٨ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٢ . ويذكر ابن عذارى أن مقـــدار هـــذه الدراهم كان عشرين الـــف درهم .

(١١) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ١١٦ وقد ذكر المقرى انه أعطاها حليـــا قيمته مائة الف دينار (نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣) .

عدانی عنــك مزارا لعـــــدا

وقودی إلیهم لهــا ما لهیبــا(١٢)

وذكر ابن سعید المغــربی أنه فی إحــدی غزواته جــاءه طیفها فی المنــام فاشتاق إلیها ، فاستخلف علی الجیش قائدا ، ورجع إلی قرطبــة للقــائها(١٣) .

ولكننا نعتقــد أن أمثال هــذه الروایات فیها شیء من المبـــالغة فلا یمــكن أن تصل الأمور به إلی هــذه الدرجة ــ مهما بلغ حبــه لها ــ بحیث یترك جیشه ویعود إلیها لمجرد أنه رأی طیفها فی المنام .

صحیح أن عبد الرحمن كان كثیر الأولاد ، حیــث بلغ عــدد أولاده مائة كمــا یقــال ــ خمســون من الذكور وخمسون من الإناث ــ(١٤) ، ووصــفه الكثیرون بأنــه كان مولعــا بالنســاء شــدید المیل لهن ، ولكن بالغ البعض فی ذلك مبالغة شدیدة لا تتفق ومقامه كحاكم أو أمیر مسلم .

---

(١٢) ابن الأبار : الحــلة الســیراء ج ١ ص ١١٤ ــ ١١٥ وقد أورد ابن عذاری هــذه الأبیات ابتداء من البیت الأخیر وبعــده الثمانیة أبیات الأخری التی ذكرها ابن الأبار ولم نذكرها خشیة الإطــالة وقال ابن عذاری : إن عبد الرحمن قالها عندما خــرج لغزو مملكة جلیقیة سنة ٢٣٥هـ ، ولكنه أخطــأ فقــال عبد الرحمن بن الشمر وصحتها ابن الحكم وربما كان هذا خطئا مطبعیا (البیان المغــرب ج ٢ ص ٨٥ ــ ٨٦) .

(١٣) المغرب فی حلی المغرب ج ١ ص ٤٧ .

(١٤) انظــر : ابن حیــــان : المقتبس ص ١٤٩ تحقیــق د. مكی ، ابن عذاری : البیان المغــرب ج ٢ ص ٥١ ــ ٥٢ ، نفح الطیب : ج ١ ص ٢٢٤ . ابن سعید : المغــرب ج ١ ص ٤٧ . وقــد ذكر ابن سعید أنه كان لا یتخذ منهن ثیبا البتة .

ومثال ذلك ما ذكره المقرى من انه بلغ من حبه للنساء أن وقع على جارية فى شهر رمضان كان يحبها ، فجمع الفقهاء وسألهم عن كفارة ذلك فقال له يحيى الليثى كبير الفقهاء : تكفر بصيام شهرين متتابعين ، فسكت بقية الفقهاء ولم يقولوا شيئا حتى انصرفوا ، فسأل بعضهم يحيى لماذا لم تفته بمذهب مالك فى التخيير ؟ قال : لو فتحنا هذا الباب له سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود(١٥) .

فلا يمكن لحاكم مسلم أن يفطر عمدا فى نهار رمضان من أجل جارية هى ملك يمين له فى أى وقت من الأوقات فى غير نهار رمضان .

ومن المبالغات أيضا قول بعض المستشرقين « إن عبد الرحمن ملك عليه امره طوال حياته أربعة : فقيه ومغن وجارية وعبد »(١٦) .

ويذكر انه كان لعبد الرحمن جوار أخريات منهن : (الشفاء) التى اعتقها وتزوجها ، وكانت جميلة تقية عاقلة خرجت معه فى إحدى غزواته فمرضت فأعادها إلى قرطبة ، فماتت فى الطريق ودفنت فى قرية مجاورة لطليطلة . وجارية أخرى تدعى (مدثرة) أعتقها وتزوجها كذلك(١٧) .

وجارية ثالثة تسمى (فخر) وهى التى ابلغته بخبر المؤامرة التى دبرت ضده بعد أن اخبرها الحرانى الطبيب الذى كلفه نصر بوضع

---

(١٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٨ .

(١٦) لين بول : قصة العرب فى اسبانيا ص ٧٦ ، يقصد بالفقيه يحيى الليثى كبير الفقهاء ، وبالمغنى زرياب ، وبالجارية طروب ، وبالعبد نصر الخصى .

(١٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ .

السم فى شرابه . بالإضافة إلى جواريه المغنيات (فضل وعلم، وقلم)(١٨) .

ويروى انه كان للخليفة عبد الرحمن الناصر جارية تسمى الزهراء كان شغوفا بها ، وبلغ من شدة حبه لها أن بنى لها مدينة سماها باسمها عندما طلبت منه ذلك . فقد ذكر الكثير من المؤرخين أن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر بأن يفتدى به أسرى المسلمين لدى الإفرنج ، فلم يوجد أسرى فشكر الله ، وقالت له جاريته الزهراء : اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى فبناها تحت جبل العروس شمال قرطبة(١٩) .

وهذه أيضا من مبالغات المؤرخين الشبيهة بالقصص الخيالية ، والواقع أن الناصر كان شغوفا بالبناء فرأى أن يؤسس مدينة جديدة تليق به وبدولته بعد أن تلقب بألقاب الخلافة . يقول ابن خلدون : « ولما استفحل ملك الناصر صرف همه إلى تشييد القصور والمبانى »(٢٠) .
ومما يدل على حبه للبناء لتخليد ذكراه تلك الأبيات التى تنسب إليه :

همم الملوك إذا ارادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
او ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشان

---

(١٨) الحلة السيراء ج ١ ص ١١٤ هامش ١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٤ .
(١٩) انظر المقرى ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢٠) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

كما كانت للناصر جارية تدعى مهرجان أو مرجانة استولدها ابنــه الحكم ، وأطلق عليها لقب (السيدة الكبرى) . ذكر أنهـا أرادت أن تبهج الناصر يوما ، فاشترت زرزورا وعلمته أبيـاتا من الشعر حتى إذا جلس الناصر للقصد ذات يوم فى بهـو المجلس الكبير المشرف على مدينة الزهراء ، وبدأ الطبيب فى العمل أطل الزرزور وصعد على إناء من ذهـب واخذ يردد : **أيهـا القاصد رفقـا بأميـر المؤمنينـا**

إنمـا تفصـد عرقا فيه محيا العالمينا

فسر الناصر بذلك واستظرفه ، وسأل عنه فذكر أن أم ولده هى التى فعلت ذلك ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار(٢١) .

كما كان لصبح البشكنسية(٢٢) حظيـة الخليفـة المستنصر ، وأم ولده هشام نفوذ كبير فى حيـاة زوجها وبعـد مماته عندما ولى ابنهـا الخـلافة وهو غلام صـغير فى العاشرة من عمره سنة ٣٦٦هـ ، وكان الحـكم قد تقدمت به السن دون أن يرزق بولد قبل الخـلافة ـــ يذكر أنه وصل إلى السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين ـــ وبعـد تقلده الخلافة بأربع سنوات رزق بهشام من حظيته صبح فسر بذلك سرورا عظيما وجعلها أم ولده وسمت مكانتها عنـده(٢٣) .

---

(٢١) العبر ج ٤ ص ١٣٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢٢) كان اسمها بالأسبانية أورورا ، ويعنى صبح بالعربية ، وكان الحكم يناديها بجعفر تدليلا لها (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٣٥) .

(٢٣) يذكر البعض أن الحكم كان قـد رزق بولد سماه عبد الرحمن سـنة ٣٥١هـ ولكنه توفى طفلا صغيرا . (انظر ابن الأبار : الحـلة السيراء ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ هامش ١) .

وقد اتخذت من محمد بن أبى عامر الذى لقب بالمنصور كاتبا لها ووكيلا للنظر فى أموالها وضياعها ، واستطاع بما لديه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه ، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به »(٢٤) . وخاصة بعد أن ولى دار السكة فكان ينفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه . فيروى أنه صاغ لها تمثالا من الفضة على هيئة قصر أنفق فيه مالا كثيرا ، حتى أخذ الناس يتحدثون بشأنه زمنا طويلا . وقد أعجبت به صبح أيما إعجاب ولما تحدث السعاة إلى الحكم بذلك ، لم يجد ابن أبى عامر سبيلا إلا رد قيمته ، فاقترضها من صديقه الوزير ابن حدير حتى ترتفع عنه الشبهة(٢٥) .

وبالرغم من ذلك فإن الشبهات أخذت تثور ، واتسع المجال للأقاويل عن العلاقة بين المنصور وبين صبح ، حتى قيل إنه كانت تربطها به صلة عاطفية ، وأن ذلك كان وراء ما بلغه من نفوذ ومكانة(٢٦) .

وأيا ما كانت صحة ذلك ، فقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة — بمثابة رئاسة الوزارة — بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة ، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه ، واستبد بالأمور فى الدولة حتى استطاع أن يؤسس ما اصطلح عليه البعض باسم الدولة العامرية التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية(٢٧) .

ويذكر أن الحكم كان شديد الكلف بصبح ، فعندما خرج فى غزوته

---

(٢٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ .
(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ .
(٢٦) د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ١٩ وبعدها .
(٢٧) د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٤ وبعدها .

المعروفة (بشنت اشتبين) سنة ٣٥٢هـ أكثرت من التعلق به والحزن لفراقه فقال مستعبرا :

عجبت وقد ودعتها كيف لم امت
وكيف انثنت عند الفراق يدى معى
فيا مقلتى العبرى عليها اسكبى دما
ويا كبدى الحرى عليها تقطعى(٢٨)

وكما تمتعت زوجات الخلفاء بشىء من النفوذ فقد كان لبعض زوجات الطبقات الأخرى نفوذ أيضا مثل (تكفات البربرية) زوجة محمد بن زياد اللخمى قاضى الجماعة بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت كما يقول ابن حيان « ذات دالة عليه على ما تفعله الزوجات الحظيات »(٢٩) .

وقد كان الكثيرون يتنافسون فى إقتناء الجوارى منافسة شديدة وصلت إلى حد الغيرة والقتل . فقد ذكر ابن الابار : ان مروان بن محمد ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر كان يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم استأثر بها دونه ، فاشتدت غيرته لذلك ، وانتهز فرصة خلو أبيه معها فقتله ، فاعتقل وسجن فى عهد المنصور بن أبى عامر ست عشرة سنة ، ثم أطلق سراحه فسمى (بالطليق) ، وكان اديبا شاعرا مكثرا شبهه ابن حزم بابن المعتز من بنى العباس فى ملاحة شعره وحسن تشبيهه(٣٠) .

---

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٢٩) المقتبس ص ٢١٠ تحقيق د. محمود مكى ، وقد ذكرها الخشنى : كفات بدون تاء فى البداية انظر (قضاة قرطبة ص ١٠٦) .

(٣٠) الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

وإلى جانب الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة السياسية فقد لعبت دورا مهما كذلك فى الحياة الاجتماعية وخاصة الجوارى المغنيات اللائى كان لهن أثر كبير فى مجال الغناء والموسيقى ، والملابس والأزياء والزينة ، وغير ذلك . كما كان للأسبانيات دور كبير فى إدخال الكثير من العادات والتقاليد إلى بيوت المسلمين الذين تزوجوهن . كما شاركت بعض النساء مشاركة ايجابية عن طريق إنشاء بعض المؤسسات الدينية كالمساجد وغيرها مثل عجب جارية الخليفة الحكم الربضى التى أقامت مسجدا نسب لها فى غربى قرطبة ، وأقامت مقبرة عرفت باسمها أيضا ، ومثل جاريته متعة التى اقامت مسجدا أيضا على نفقتها نسب إليها (٣١) . ومثل طروب جارية عبد الرحمن التى ينسب إليها إقامة مسجد بالربض الغربى فى قرطبة (٣٢) .

كما شاركت بعض النساء ايضا فى مجال الحركة العلمية . فيذكر المراكشى أنه كان فى الربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امراة لنسخ المصاحف بالخط الكوفى (٣٣) . وكان هناك بعض النساء اللاتى تعلمن وتفقهن فى الدين ودرس الأدب .

وكان كثير من الخاصة يعينون مؤدبات لبناتهم . فيذكر خوليان ربيرا : المستشرق الأسبانى انه كان لبنى حزم — وهم غير أسرة ابن حزم الفقيه المشهور — مدرسة من اشهر مدارس قرطبة — يقصد مكتبا — يدرس

---

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٢٧ .

(٣٢) طوق الحمامة ص ١٩ هامش ١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٣ .

(٣٣) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٢٤٨ ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ .

فيها الأب للصبيان والابن للفتيان والبنت للفتيات وذلك فى القرن الثالث تقريبا(٣٤) .

كما كانت بعض النساء ترحل للتعلم خارج الأندلس مثل راضية مولاة عبد الرحمن الناصر التى أعتقها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى الصقلبى وحجا معها ولقيا جماعة من العلماء أخذا عنهم ، ونسخا مجموعة من الكتب وقد توفيت فى حدود سنة ٤٨٣هـ(٣٥) .

ومن النساء اللائى برزن فى مجال الأدب الشاعرة حسانة التميمية بنت ابى الحسن الشاعر وكانت من اهل البيرة ، وقد تأدبت على ابيها ولما توفى ذهبت إلى الحكم الربضى ومدحته بأبيات منها :

إنى إليك ابا العاصى موجعة
أبا الحسين سقته المواكف الديم
قد كنت ارتع فى نعماه عاكفة
فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
انت الإمام الذى انقاد الأنام له
وملكته مقاليد النهى الأمم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه - وكان يقرض الشعر - وأمر بإجراء راتب عليها ، وكتب إلى عامله على إلبيرة ، فجهزها بجهاز حسن(٣٦) .

---

(٣٤) التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٢ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٣٥٤ طبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة ، التربية الإسلامية ص ١٦٢ .

(٣٦) انظر نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٠٦ - ١٠٧ . وانظر عن شاعرات الأندلس د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١١٩ وبعدها .

ومن اللائى برزن فى مجال الأدب كذلك الشاعرة حفصة بنت حمدون الحجارية وكان من شواعر الأندلس فى المائة الرابعة ، من وادى الحجارة ومن شعرها فى الغزل :

لى حبيب لا ينثنى بعتاب
وإذا ما تركته زاد تيها

قال لى هل رأيت لى من شبيه
قلت أيضا وهى ترى لى شبيها(٣٧)

ومن النساء اللائى اشتهرن بالعلم والزهد أيضا : البهاء بنت الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكانت من خيرات نساء بنى أمية ، وقد اشتهرت بالزهد والتبتل والعبادة ، ويذكر أنها كانت تكتب المصاحف وتحبسها على المساجد ، وينسب إليها مسجد باسمها من مساجد الرصافة وقد توفيت سنة ٣٠٥هـ(٣٨) .

وكذلك عابدة المدينة جارية ابن دحون الوليد بن حبيب المروانى ، وكانت جارية سوداء أهديت إليه عندما حج ، وقد اشتهرت برواية الحديث عن الإمام مالك وغيره حتى قيل : إنها كانت تسند عشرة آلاف حديث . أى تحفظها بسندها — وقد أعجب بها الوليد ، وقدم بها إلى الأندلس ، فتزوجها واستولدها ابنه بشر(٣٩) . الذى عرف بالحبيبى وأصبح من المشهورين بقرطبة ، وكانت له ابنة تسمى عبدة اشتهرت بالرواية عنه أيضا(٤٠) .

وليس من شك فى أن إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية فى مجال العلم والثقافة قد صقل من شخصيتها ، ووسع من مداركها وآفاق تفكيرها ، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى مجتمعها .

---

(٣٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ترجمة ٣٥٧ .
(٣٨) ابن حيان : المقتبس ص ٢٦٣ تحقيق د. محمود مكى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧٦ .
(٣٩) المقتبس ص ٢٢٨ .
(٤٠) خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

الحالة الاقتصادية

الحـــالة الاقتصـادية

موقـــع الأندلس ومناخها :

وصـــف كثير من المؤرخـين والجغرافيين والرحــالة بلاد الأندلس بأوصاف كثيرة من نواحى شتى . فقـد ذكر الرازى — وهو أحـد مؤرخى الأندلس المتقـدمين (ت ٣٤٤هـ) — « أن الأندلس تقـع فى الإقلـيم الرابع من الأقاليم السبعة التى هى ربع معمور الدنيـا . فهى موسـطة البلدان ، كريمة البقعة بطبع الخلقة ، طيبة التـربة ، مخصبة القـاعة ، منبسجة العيون الثراء ، متفجرة الأنهار الغزار ، قليـلة الهـوام ذوات السموم ، معتدلة الهـواء أكثر الأزمان ، لا تزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبـدان ، وكذا سـائر فصـولها فى أعم سنيها تأتى على قـدر من الاعتدال ، وتوسط الحال »(١) .

وأنها على شكل مثلث يعتمد على ثلاثة أركان الأول عنـد قادس ، والثانى ما بين أربونة وبرذيل شرقا ، والثالث ما بين الشمال والغـرب من إقليم جليقية(٢) .

وقال عنها ابن حوقل الرحـالة الشيعى الذى زارها فى القـرن الرابع الهجرى : « وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحـلة ، تغلب عليها الميـاه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والسـعة فى الأحوال ، من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولمـا هى به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهنيهم وأرباب صنائعهم لقـلة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم »(٣) .

وقال ابو عبيد البكرى (ت ٤٨٧هـ) ــ الذى يعتبر من اوائل الجغرافيين الذين انجبتهم بلاد الأندلس ــ : « الاندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، اهوازية فى عظيم جباياتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها »(٤) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ، ولذاذة الاقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض الوان الإنسان ، ونبل الأذهان وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار »(٥) .

وذكر ابو بكر بن عبد الحكم المعروف بابن النظام : أن الاندلس عند علماء اهله اندلسان : فالاندلس الشرقى ما صبت اوديته إلى البحر الرومى (البحر المتوسط) ما بين مرسيه إلى سرقسطة ، والأندلس الغربى ما صبت اوديته إلى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (المحيط الأطلسى) .

ويضيف البعض إلى هذا التقسيم قسما ثالثا هو وسط الأندلس الذى يضم من المدن قرطبة وطليطلة وجيان والمرية ومالقة وغرناطة .

---

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٨ .

(٤) نفسه جـ ١ ص ٦٣ .

(٥) المرجع نفسه جـ ١ ص ٦٤ .

اما شرق الأندلس فتقع فيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية ودانية وسرقسطة ، وأما غرب الأندلس فتقع فيه اشبيلية وماردة واشبونة (لشبونة)(٦) .

البيئة الطبيعية :

الأندلس عبارة عن شبه جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من اوربا ، تحيط بها المياه من كل جوانبها ما عدا الجانب الشمالى الشرقى حيث تفصلها جبال البرتات — أى المنافذ — (البيرينية — البرانس) عن فرنسا .

ويبلغ طولها نحو الف ومائة ميل ، وعرضها نحو ستمائة ميل . وتتألف من هضبة كبرى تسمى (مسيتا) تشغل جزءا كبيرا من مساحتها ، ومجموعة من السلاسل الجبلية التى تطوقها ، ومن اشهرها فى الجنوب جبال (سيرامورينا) أى سلسلة الجبال الحمراء ، ومن اهم جبال هذه السلسلة جبل قرطبة المعروف عند المؤرخين العرب باسم (جبل العروس)(٧) . وتفصل هذه الجبال بين الهضبة الكبرى والسهل الجنوبى الكبير المنبسط حتى اقصى الجنوب . وترتفع فى السهل الجنوبى سلسلة جبال اخرى تسمى (سيرانيفادا) أى سلسلة الجبال الثلجية ، وتمتد فى شرق الهضبة الكبرى سلسلة جبال اخرى هى الجبال الأيبيرية ، وتفصل هذه السلسلة بين الهضبة وبين السهل الشرقى المنبسط حتى

---

(٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

(٧) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٨ ، الحميرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار ص ٥٣ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

ساحل البحر المتوسط . وفى شمال الهضبة تمتد جبال أخرى هى جبال (كانتا برسيا) أو القنطرية كما تعرف فى المصادر العربية . وتلى هذه الجبال من الشمال بعض الأقاليم السهلية الضيقة ، ثم تنحدر الهضبة ناحية المغرب حتى تنتهى إلى السهل الغربى الكبير .

وتجرى فى الأندلس عدة أنهار أهمها نهر الوادى الكبير - الذى لا يزال معروفا بهذا الاسم فى أسبانيا حتى اليوم مع شىء من التحريف حيث يسميه الأسبان : (جواد الكبير Guad al Quivir) ويروى أراضى السهل الجنوبى ويمر بقرطبة وإشبيلية ويصب غربا فى المحيط الأطلسى ، ونهر التاجة ويسميه الأسبان التاخة ، ويمر بوسط الهضبة الكبرى ، وعليه تقع مدينة طليطلة ، ونهر دويرة فى الشمال منها ويطلق عليه الأسبان اسم دور ، وينحدر نحو الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

وهناك أنهار أخرى تصب فى البحر المتوسط ، ومنها نهر إبرة الذى تقع عليه مدينة سرقسطة ، ونهر شقر الذى يسميه الأسبان - خوكر - وعليه تقع جزيرة شقر التى كانت مصدر إلهام للكثير من الشعراء .

ونهر سجورا أو شقورة الذى يخترق مدينة مرسية ، ويروى قسما كبيرا من أراضى شرق الأندلس . وهناك أنهار أخرى صغيرة ، وعيون وآبار كثيرة اعتمدت عليها الزراعة إلى جانب مياه الأمطار والثلوج التى تعتمد عليها الزراعة أساسا فى منطقة الهضبة الوسطى(٨) .

---

(٨) انظر : د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٥ وبعدها ،
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٦ - ١٠ .
د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٥ - ١٦ .
دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ - ٤ .

وهكذا نرى ان طبيعة الأندلس ليست واحـــدة ، وإنما هى مكونة من سهول وهضـــاب وجبال وأودية ، ففيها المنـــاطق الخصبة ، والمنـــاطق الجليلة القاحلة ، وليس كما صورها الكثير من الشعراء على انها جنـــة ليس فيها لا السهول الخضراء ، والحقول الخصبة ، والحدائق الغناء . ونظرا لأن المسلمين قـــد نزلوا بالمنـــاطق الخصبة واقاموا فيهـــا وتركوا المناطق الشمالية الجبلية التى تقـــع ضمن الهضبة الكبرى ، واصبحت هى مركز المقـــاومة الإسبانية المسيحية ضـــد المسلمين لاسترداد البـــلاد شيئا فشيئا . فقد تصور الكثيرون ان الاندلس عبارة عن جنان وارفة ومياه غزيرة وبساتين مثمرة كما يقول الشاعر الأندلسى ابن خفـــاجة الهـــوارى (٤٥٠ ـــ ٥٣٣هـ) الذى عاش فى عهـــد المرابطين : ولقب بالجنان لكثرة وصفه للرياض والبساتين :

إن للجنـــــة بالأندلس
مجتلى حسن وريـــا نفس
فسنا صبحتها من شـــنب
ودجـــى ليلتهـــا من لعس
وإذا ما هبت الريح صبا
صحت واشوقى إلى اندلس(٩)

وقـــوله :

يا اهل اندلس للـــه دركم
ماء زرع واشـــجار وانهار

---

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٨ .

ما جنـة الخلد إلا فى دياركم

ولو خيرت هذه كنت أختار

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا

فليس تدخل بعد الجنة النار(١٠)

ومثل الشاعر الذى يقول :

حبـذا أندلس من بلـد

لم تزل تنتج لى كل سرور

طائر شـاد وظـل وارف

وميـاه سائحات وقصـور(١١)

ومن هنا نتبين أن شـبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة والمنـاخ من إقليم لآخـر نظرا لاتساعها الكبير ، وقد أدى هـذا الاختلاف إلى التنوع فى حاصلاتها الزراعية .

الزراعـة :

كان المسلمون عنـد فتحهم لبلـد من البلاد صـلحا يتركون الأرض بأيدى أهلهـا فى مقـابل أداء الخراج عنها ، وذلك حتى يتفرغوا لمواصلة فتوحاتهم لنشر الإسلام ، أما إذا فتحوها عنوة وعدل القائد أو الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على مصـالح المسلمين ، فيؤخذ عنهـا الخـراج أيضـا .

أما إذا قسمت الأرض بين المحاربين المسلمين ، فإنها تعتبر أرضـا

---

(١٠) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

(١١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢٤ .

دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٨ .

عشرية ، ولا يوضع عليها الخراج(١٢) . وعندما فتح المسلمون الأندلس قضوا على النظام الذى كان سائدا فى عصر القوط حيث كانت الأراضى فى يد عدد قليل من الأشراف والنبلاء ورجال الكنيسة ، بينما كان سائر السكان من المزارعين بمثابة الأقنان الذين يعملون فى هذه الأراضى لصالح تلك الفئات القليلة .

فأخذ الفاتحون فى تجزئة الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة ، وزعت على الفاتحين إلى جانب سكان البلاد الآخرين الذين أصبح لهم حرية التصرف فى هذه الأرض . وكان ذلك عاملا مهما فى تحقيق فكرة التضامن الاجتماعى بين السكان .

وأصبحت هذه الملكيات الصغيرة ركنا أساسيا فى دعم النهضة الزراعية بالأندلس . وكان ملاك الأراضى من المسلمين والمسيحيين واليهود وغيرهم يؤدون بالتساوى ضريبة الخراج . وكان هذا أيضا من العوامل التى ساعدت على تقدم النشاط الزراعى . ومنذ ولاية السمح بن مالك الخولانى ١٠١هـ أصبح مالك الأرض والمزارع شبه شريكين فيها ، وكذلك أصبح العرب شركاء للكثير من الأسبان بعد توزيع الأراضى بين عرب الشام والبلديين فى ولاية أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ على أثر توزيع الشاميين على كور الأندلس إلى جانب البلديين(١٣) .

وقد استطاع المسلمون فى الأندلس أن يوفقوا بين بيئتهم القديمة وبين البيئة الجديدة التى استقروا فيها ، ولم يكن تقدمهم فى مجال

---

(١٢) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(١٣) انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦١ — ٦٢ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٧ .

الزراعة بأقل من تقدمهم فى مجـال الحرب والجهاد ، ونجحوا فى تحويل اجزاء كبيرة من الأراضى المقفرة بالأندلس إلى أراض صالحة للزراعة(١٤).

كما ادخلوا محاصيل جـديدة من المشرق مثل النخيـل والرمان الذى ادخلت زراعته من الشام ــ وخاصة من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام ابن عبد المـلك ــ فى عهد عبد الرحمن الداخل واستطاع سفر بن عبيد الكلاعى وكان من جند الأردن ، تهجين نوع منه ينسب إليه فسمى بالرمان السفرى . ويصف ابن حيان هذا النوع بأنه (الموصوف بالفضيلة المقدم على اجناس الرمان بعـذوبة الطعم وغزارة المـــاء وحسن الصورة ، وكذلك النارنج الذى لازال يعرف فى الأسبانية بنفس الاسم Nakangi (١٥) .

والقطن الذى انتقلت زراعته إلى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، واشتهرت عدة بلاد بزراعته وعلى راسها إشبيلية ، وكذلك التفاح الذى تكثر زراعته فى جبال سيرانيفادا ، والبطيخ السندى الذى لازال يعرف فى الأسبانية باسم سانديا Sandía (١٦) .

كما أدخلت زراعة قصب السكر حيث يفهم من كتابات بعض المؤرخين الأندلسيين مثل الرازى وعريب بن سعد القرطبى انه كان ينتج بكميـات كبيرة بالأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، وكان من أهم مراكز زراعتـه البيرة ، ومالقة ، واشبيلية(١٧) .

---

(١٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .
(١٥) عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الأندلس فى القـرن الرابع الهجرى ص ٦٠ .
(١٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٧ ، د. السيد سالم : قرطبـة حاضرة الخلافة ص ٥٠ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا جـ ١ ص ٦٨ ــ ٦٩ .
(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٣ ، ٣٨٤ .

وكذلك الأرز الذى أدخلت زراعته فى شرق الأندلس وخاصة فى منطقة بلنسية التى تعتبر اليوم هى المستودع الرئيسى للأرز فى أسبانيا ، وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه ويسمى (بائليا Paella) .

ويلاحظ أن كلمة أرز قد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بنفس اللفظ Arroz وكذلك أدخلت بعض الخضروات التى لازالت تحتفظ بأسمائها العربية أيضا كالباذنجان والخرشوف والزيتون والزعفران ، والسلق وغير ذلك(١٨) .

وقد كانت أكثر حاصلات البلاد مما تجود زراعته فى حوض البحر المتوسط مثل القمح والشعير والقطن والكتان والأرز والبقول والموالح والكروم والزيتون والموز والتين والخوخ وغيرها . يقول الرازى مؤرخ الأندلس : « وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم »(١٩) . هذا إلى جانب الغابات الكثيرة المنتشرة فى أنحاء البلاد مثل أشجار البلوط والسنديان والصنوبر وغيرها(٢٠) .

وكان مما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس فى العصر الأموى الاهتمام بشؤون الرى مثل إنشاء الترع والجسور ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر إلى غير ذلك .

---

(١٨) الحميرى : الروض المعطار ص ٢١ — ٢٤ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

(١٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٨٣ .

(٢١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .

وهناك ظاهــرة طبيعية احسن المسلمون استغلالها فى الأندلس فى الاندلس فى مجال الزراعة ، وهى كثرة تساقط المياه من المرتفعات الجبلية فكانوا يوسعون القيعان حتى تصبح احواضا فسيحة تمتلىء بالمياه ، وترفع منها بالنواعير (السواقى) لتستخدم فى الرى . ولا تزال إحـدى هـذه القيعان (الأحواض) قائمة حتى اليوم فى جنوب بلنسية باسبانيا(٢٢) .

ومما يدل على إبداع المسلمين فى مجال الرى (محـكمة الميـاه) التى كانت تعقد ن الاهالى لتنظيم توزيع الميـاه على الفـلاحين ، وهى محكمة اهلية لا دخـل للحكومة بهـا ، وكان حكمها نافـذا على الجميع ، وما زال هـذا التقليـد معمولا به فى بلنسية حتى اليوم حيث تعقد المحكمة كل يوم خميس عنـد الظهر فى نفس المكان القـديم الذى كانت تعقد فيـه بجوار مسجد المدينة الذى تحول بعـد الاسـتيلاء عليها من الإسبان إلى كنيسة . ويلاحظ فى هـذا الصدد أن اسماء كثير من ادوات الرى والزراعة قـد دخلت فى اللغة الاسبانية ولازالت إلى اليوم مثل الناعورة Noria والساقية Acequia (٢٣) . كما كانوا يستخدمون الدواليب ومنها نوع كانوا يسمونه (الخطارة)(٢٤) .

وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف (بالتقويم القرطبى) اصبح

---

(٢٠) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ .

(٢٢) د. حسين مؤنس : رحلة الاندلس ص ٢٧٥ ط ١ مطـابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٢٣) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٧ .

(٢٤) انظر : الخشنى : قضـاة قرطبة ص ٧٦ .

دليـــلا تحـــدد على أساسه مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة ، وأخذه عنهم غيرهم من الأمم(٢٥) .

كما عرف الأندلسيون (نظـــام القلب والتـــذييل) لإعـــداد الأرض للزراعة ، واستخدموا الثيران فى حـــرث الأرض ، وكانوا يسمون المحصول باسم (الرفـــع) ، ويسمون المرعى باسم (المجشر)(٢٦) .

وقـــد وجـــد هناك نظام إقطاع عسكرى حيث يعطى جنـــد الجيش أراضى تقطع لهم ليزرعوها بأنفسهم أو عن طـــريق غيرهم ، ويتعيشـــون منها . وظل هـــذا النظام ـــ كما يبدو ـــ معمولا به حتى جـــاء المنصـــور ابن أبى عامر فاستبدله بنظام الأرزاق والرواتب فى الجيش ، وقـــد أفـــاد هـــذا النظام الجديد فى القضـــاء على العصبية القبلية والجنسية بين فرق الجيش المختلفة من عرب وبربر وصقالبة ، وظل الحال على ذلك حتى جاء المرابطون فأعادوا نظام الإقطاع العسكرى من جديد فى القرن الخامس .

ويفصل ذلك الطرطوشى فيقول : « وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ، وأمر العدو فى ضعف وانتقاص لمـــا كانت الأرض مقطعة فى أيدى الأجناد ، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربى التاجر تجارته . وكانت الأرض عامرة ، والأموال وافـــرة ، والأجنـــاد متوافرين ، والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر فى آخر أيام ابن أبى عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم واستصفوهم ، فتهاربت الرعـــايا ، وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضـــعفت

---

(٢٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٢٦) انظر : الخشنى : قضـــاة قرطبة ص ٩٣ ، المراكشى : المعجب ص ٢١ .

الأجناد وقوى العـدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العـدو فى ظهـور إلى أن دخلهـا المتلثمون (المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كان فى الزمان القديم »(٢٧) .

وقد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضيها وبساتينها وجنانها العامة التى كانت متاحة للجميع يتمتعون بهـا ، ولذلك فقد تميز الأندلسيون بنـزعة جمالية ، وميل كبير لحب النبات والورود والأزهار وزراعة الأشـجار . ونلمس ذلك بوضوح فى البيوت والدور ، فضـلاً عن العمائر والقصور ، بل حتى فى افنيـة المسـاجد . ودليـل ذلك أن مذهـب الأوزاعى الذى اعتنقوه قبل مذهب مالك كان يبيح غرس الأشجار فى صحن المسـجد ، ورغم تحولهم إلى مذهب مالك فى الأعم الأغلب الذى لا يجيز ذلك ، إلا أنهم ظلوا فى هـذه المسألة على مذهبهم السابق . ويتضح ذلك من قـول ابى الحسن النباهى « ومن المسـائل التى خالف فيها أهل الأندلس قديما مذهب مالك بن أنس ، هى انهم اجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها وهو مذهب الليث بن سعد ، واجازوا غرس الأشجار فى المساجد وهـو مذهب الأوزاعى »(٢٨) .

ولازالت هـذه العـادة موجودة فى اسبانيا إلى اليوم حيث توجـد اشجار الليمون والبرتقال فى صحن جامع قرطبـة ، وفى بعض الكنائس ايضـا(٢٩) .

---

(٢٧) سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢٨) المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٤٩ . نشر ليفى بروفنسال القاهرة سنة ١٩٤٨م .

(٢٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٩٩ .

الصــــــناعة :

اما عن الصناعة بالأندلس فقد كان للمسلمين ايضـــا أثـــر كبير فى نهضتها وترقيتها وقـــد ساعدت على ذلك عـــدة عوامل منها :

١ — استغلال المسلمين لثروات البــلاد الطبيعيــة ، وبذلهم جهودا كبيرة فى هــذا المجال(٣٠) .

٢ — روح التســامح التى ابداها المسلمون تجــاه أهــل الحــرف والصـــنائع .

٣ — تشجيع المسلمين للصناعة والابتكار فيها لصناعة ما تحتــاج إليــه البــلاد .

ويرى ابن خلدون : أن رسوخ الصناعات فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضـــارة ، وطول أمدها ، ويتخذ من الأندلس مثالا فيقول « كالحـــال فى الأندلس لهذا العهد . فإنا نجد فيها الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راســـخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمبانى ، والطبـــخ ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار ، وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضـــاع فى البنـــاء ، وصـــوغ الآنيـــة من المعـــادن والخزف ... وســـائر الصـــنائع التى يدعو إليها التـــرف وعوائده ... وما ذاك إلا لمـــا قدمناه من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جـــرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضـــا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت

---

(٣٠) أشار المقـــرى إلى كثير من هـــذه الثروات فى نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ — ٧١) .

جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق »(٣١) .

وهكذا احتضن المسلمون حضارة الأسبان وشملوا أهل الصناعة والفنون المختلفة برعايتهم وعنايتهم ، وظل الصناع وأرباب الحرف المختلفة يسيرون فى نفس الطريق الذى كانوا يسيرون فيه من قبل مع بعض التغيرات الطفيفة فى تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد ، ثم ما لبث أكثر هؤلاء أن وجدوا أنفسهم يخالطون المسلمون ، ويشاركونهم ويتعاملون معهم ، فاقبلوا على الثقافة العربية ، ودخل الكثير منهم فى الإسلام ، وتحققت بذلك النقطة الحضارية الهائلة فى العصر الأموى وخاصة فى عصر الخلافة ، وصيغ فى ذلك العصر فن اسلامى أندلسى أخذ يتدرج فى النمو والتطور(٣٢) .

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض الصناعات فى الأندلس فإننا نجد منها :

صناعة المنسوجات : التى انتشرت فى أنحاء كثيرة من البلاد نظرا لتوافر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف ، وكذلك الأصباغ اللازمة . فقد كان القماش المعروف باسم (بوقلمون) يصنع فى مدينة شنترين غربى الأندلس بألوانه المتغيرة(٣٣) . كما كان

---

(٣١) المقدمة ص ٢٨٢ فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .

(٣٢) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٧٨ .

(٣٣) قيل : فى تفسير كلمة (بوقلمون) أنها اسم الحرباء باليونانية ، وقيل : إنها اسم دابة بحرية لها وبر كانت تعيش فى المحيط الأطلسى غرب الأندلس ، وكانت تحتك بحجارة الشاطىء ، فيقع منها وبر فى لين الحرير ولون الذهب ، فيجمع وينسج فى مدينة شنترين ثيابا تتلون بعدة ألوان (المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٠ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣١) .

يصنع فى الاندلس أيضـا النسيج الحريرى المعروف باسم (العتـابى) الذى انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس (٣٤) .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى الأندلس نظرا لكثرة اشجار التوت . حيث يشـير المؤرخ الأندلسى عريب بن سـعد القرطبى (ت ٣٦٩هـ) إلى قيام النساء بتربية دود القـز ، ورعاية بيضـه ، وانتقاء شرانقه من شهر فبراير حتى يفقس فى شهر مارس من كل سنة(٣٥) .

وكان من أهم مراكز هـذه الصناعة قرطبة والمرية التى يقدر المقرى عـدد الأنوال فيها فى عصره (ت ١٠١٤هـ) بنحو خمسة آلاف وثمانمائة نـول(٣٦) .

كما اشتهرت مرسية بصناعة الحلل من الحـرير والديباج . ويذكر ابن سعيد المغربى عن الحضرمى قوله « وكما يتجهز الفارس من تلمسـان ، تتجهز العروس من مرسية »(٣٧) .

وحينما زار الرحـالة ابن حوقل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى اشـاد بأنسجة الديباج الأندلسية ، وبالسروج الحريرية ، وذكر أنها فاقت فى صنعتها أى مكان فى العالم ، وأنها تزيد فى كمياتها على ما ينتج فى بلاد العـراق(٣٨) .

كما اشتهرت صناعة المنسوجات القطنية وخاصة فى مدينة إشبيلية

---

(٣٤) سمى بذلك نسبة إلى محلة العتابية فى غرب بغـداد وهى موطن صناعته الأصلى .

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٦ .

(٣٦) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٣٧) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣٨) صـورة الأرض ج ١ ص ١١٤ .

التى كان يزرع فيها القطن ، وكان يصنع بها نوع من الأقمشة يقى من الأمطار . كما وجدت أيضا صناعة المنسوجات الكتانية البديعة ، وكانت هناك أنواع منها لا يفرق بينها وبين الكاغد الجيد الصقل فى الرقة والبياض ، وكان من أهم مراكز صناعتها سرقسطة ولاردة وباجة(٣٩) .

كما وجدت صناعة الصوف وخاصة فى سرقسطة وجنجالة ، ولاتزال أسبانيا حتى اليوم تشتهر بصناعة الأغطية (البطاطين) والسجاد ، ولعل الصوف الأسبانى المعروف باسم (مارينو) ينسب إلى قبائل بنى مرين الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، وكانت لهم مراع كثيرة لتربية الأغنام أشار إليها لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه (نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب) .

أما صناعة السجاد والبسط فكان من أهم مراكزها مرسية وبسطة وتنتالة فى شرق الأندلس ، ولعل كلمة (الفوميرا) الإسبانية التى تعنى سجادة قد جاءت من الكلمة العربية (الخمرة) أى الحصيرة أو من الحمرة لأن اللون الأحمر كان هو الغالب عليها(٤٠) .

وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة فى أوربا وحرص الكثير من الملوك والأمراء والأغنياء فيها على اقتنائها ، ولاتزال هناك نماذج فى بعض المتاحف الأوربية تشهد بمدى براعة الأندلسيين فى هذه الصناعة مثل متحف فيجو بقطالونيا فى أسبانيا ، ومتحف الأكاديمية الملكية بمدريد ، ومتحف الفن فى بروكسل ، وكاتدرائية أوتون بفرنسا(٤١) .

---

(٣٩) الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .
(٤٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٤١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

وقد كانت هناك دور خاصة لصناعة الملابس المختلفة للأمراء والخلفاء ورجال الدولة والجند تسمى دور الكسوة أو دور الطراز ، ويذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان أول من اتخذ من الأمويين دار للطراز بالأندلس . وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وفى أيامه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق »(٤٢) .

يقول ابن خلدون عن الطراز « من أبهة الملك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب إلحاما وسدى بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ، ووضعه فى صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه ، إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ... الخ »(٤٣) .

صناعة السفن والأخشاب :

كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وساعد على ذلك كثرة الغابات المنتشرة بها . وقد كانت صناعة السفن والمراكب من الصناعات القديمة الموجودة قبل فتح الأندلس ، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التى كانت منتشرة فى عدة أماكن مثل طرطوشة وطركونة ودانية وبجانة

---

(٤٢) أعمال الأعلام ص ٢٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٠ هامش ١ .

(٤٣) المقدمة ص ١٨٦ — ١٨٧ .

وإشبيلية والجزيرة الخضراء ، ولما قدم عبد الرحمن الداخل اتخذ سنة ١٤٤هـ دورا لصناعة السفن فى المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب بالإضافة إلى توفر معدن الحديد الذى تحتاج إليه وخاصة فى شلطيش(٤٤) .

وقد ازدهر فن النحت على الخشب ووجدت أمثلة رائعة للتحف المصنوعة منه مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ، ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جامع اشبيلية ومقصورته . وقد مر ذكر شىء من ذلك بالتفصيل عند الحديث عن بناء المساجد وتعميرها(٤٥) .

كما تمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى صناعة العلب الخشبية المطعمة بالعاج التى كانت تتخذ لحفظ قنينات العطر والمسك والعنبر والحلى ، وخاصة لزوجات الخلفاء والأمراء وجواريهم .

وقد ازدهرت هذه الصناعة بصفة خاصة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر وكانت هناك دار للصناعة بقرطبة أسست على ما يبدو فى عهد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينة الزهراء . ثم ما لبثت دور الصناعة أن أخذت تنتشر فى أماكن أخرى . ومن أروع الأمثلة علبة صنعت بأمر الحكم لزوجته صبح بيد درى الفتى الصقلبى سنة ٣٥٣هـ ، وصندوقان آخران صنعا فيها أيضا لها سنة ٣٥٥هـ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد توقفت أو أصابها الذبول بعد وفاة الحكم إلى أن كانت أيام عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد الذى أحياها من جديد ، ومن أمثلة ذلك صندوق له غطاء على شكل هرم ناقص صنع لعبد الملك سنة ٣٩٥هـ على

---

(٤٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٩ .
د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .
(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٠ .

يد نمير بن محمد الفتى العامرى ، وشاركه فى صناعته صانعان آخران من الصقالبة وهما عبيدة وخير .

وزخارفه تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر من حياة البلاط الأموى ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات . ومن الأمثلة المتبقية صندوق من العاج صنع بمدينة قونكة فى طليطلة — وهو محفوظ فى متحف برغش — عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع ، موزعة فى ثلاثة صفوف أفقية وعلى أعلى الصندوق نقش بالخط الكوفى نصه « ... باقية لصاحبه أطال الله بقاءه مما عمل بمدينة قونكة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله »(٤٦) .

صناعة الزجاج :

ومن الصناعات التى ازدهرت فى الأندلس صناعة الزجاج التى اشتهرت بها مالقة والمرية ، وخاصة صناعة الأكواب والكئوس التى تعلق فى الثريات التى توضع فى المساجد والقصور(٤٧) .

ونعتقد بأن هذه الصناعة قد أخذت تتقدم منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وخاصة بعد دخول زرياب إلى الأندلس ، وتفضيله استخدام الأكواب الزجاجية الصافية فى تقديم الماء والشراب ، بدلا من أكواب الذهب والفضة والمعادن الأخرى(٤٨) .

صناعة الأسلحة :

كما تقدمت صناعة الأسلحة فى الأندلس ، وانتجت بكميات كبيرة ، وساعد على ذلك كثرة الحروب التى خاضها المسلمون ضد أعدائهم ،

---

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤٧) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٨) انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ .

وكذلك التى خاضوها ضد بعضهم البعض ، هذا بالاضافة إلى الأسلحة المستوردة . وقد وجدت انواع شتى من الاسلحة وعلى راسها السيوف والرماح والدروع والخوذات وغيرها . وقد ذكر ابن سعيد المغربى أن من آلات الحرب فى الأندلس : « التروس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » وقال : إن السيوف البرذليات — نسبة إلى مدينة برديل وهى بوردو الحالية بفرنسا — مشهورة بالجودة ، والفولاذ الذى باشبيلية إليه النهاية »(٤٩) .

وكان الفولاذ الأندلسى مشهورا بجودته ، ومن اهم مراكز صناعته طليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وكانت تصنع منه أنواع كثيرة من الأسلحة .

صناعة السكر :

ومن الصناعات التى وجدت فى الأندلس ايضا صناعة السكر الذى كان يستخرج من القصب ، حيث كان إنتاجه وفيرا ، وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، كما اشار إلى ذلك الرازى وعريب بن سعد . وكان من أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيرة ومالقة والمنكب وجليانة وإشبيلية .

وقد استمر إنتاج السكر وفيرا فى الأندلس حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م لدرجة أن الإسبان سمحوا لعدد من المدجنين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعته بالبقاء ، ولكن كثيرا منهم رفض ذلك وغادر أسبانيا مما ترتب عليه تضاؤل إنتاجه(٥٠) .

---

(٤٩) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٤ .

(٥٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

صناعة الورق :

ومن الصناعات التى اشتهرت فى الاندلس ايضا صناعة الورق ومن المرجح أن تكون هذه الصناعة قد وجدت فى العصر الأموى ، وخاصة بعد تقدم الحركة العملية وانتقلت إليها من المشرق حيث يذكر الإدريسى فى كلامه عن مدينة شاطبة : (انه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وأنه يعم المشارق والمغارب)(٥١) .

وكذلك اشتهرت بلنسية وطرطوشة بصنعه أيضا ، ويبدو من المخطوطات المحفوظة فى المكتبات الإسبانية أن الورق كان يصنع من الياف القطن والكتان ونبات الشهدانج(٥٢) .

ويعزى إلى المسلمين انهم كانوا اول من ادخل الورق إلى أوربا عن طريق الأندلس ، وكانوا يستخدمون الرق قبل ذلك ، ولعل شاطبة كانت اول مكان فى قارة أوربا يصنع فيه الورق(٥٣) .

وكان الورق الشاطبى مشهورا فى العالم الإسلامى كله ، وبلغ من جودته أن بعض الكتاب كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، واشتهر إلى جانب جودته برخص ثمنه . وقد عرف الأندلسيون إلى جانب الكاغد نوعا آخر من الورق المتين السميك الشبيه بالقماش وهو الرق المعروف بالبارشمان ، وكان مطلوبا فى أوربا وخاصة لكتابة الأناجيل والوثائق الكنسية . وقد قلده الايطاليون بعد ذلك .

---

(٥١) الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٥٢) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٨ .

(٥٣) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٦٦ هامش ٢ ، ويظهر أن الصين كانت أول من عرف صناعة الورق بنحو قرن قبل الميلاد .

وإلى جانب صناعة الورق فقد تقدمت صناعة ادوات الكتابة وما يتصل بها من حبر واقلام وشمع للأختام وغير ذلك . وقد برع الأندلسيون فى صناعة الاحبار من البيئة وعرفوا المعدنى والنباتى والمطبوخ وغير المطبوخ ، والبسيط والمركب منها ، وعرفوا اقلام الغاب وكانوا يسمونها (الأنبوب) ، بل عرفوا اقلام الحبر ، وتفننوا فى صناعة المحابر من الزجاج والبلور والرخام .

وكانوا يزخرفونها ويكتبون اسم صاحبها عليها بواسطة الحفر مع بعض ابيات من الشعر ، ومنها محابر على هيئة الخنجر فى قرابه توضع فى حزام الثوب مع الاقلام(٥٤) .

صناعة التماثيل والتحف المعدنية :

كما اشتهرت فى الأندلس صناعة التماثيل المعدنية ، وتشير كتب التاريخ الاندلسى إلى تلك التماثيل التى كانت تزين قصور الزهراء . فيذكر المقرى : ان الخليفة الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل على صورة إنسان والذى جلب من القسطنطينية فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة على صورة أسد وبجانبه غزال وتمساح وفى المقابل صورة ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر ... كل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها »(٥٥) .

وقد عثر فى الحفائر التى اجريت بمدينة الزهراء على تمثال لوعل او غزال من البرنز فقد قرنيه وهو محفوظ فى متحف قرطبة للآثار ، ولعله هو الغزال الذى اشار إليه المقرى عند ذكره لهذه التماثيل الذهبية

---

(٥٤) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٤ .

(٥٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٦ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .

الحمراء ، وبلغ ارتفاعه نحو اربعين سنتيمترا ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر او حلقات متصلة بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى إلى فمه عن طريق أنبوبة تمتد من وسط قاعدته وتصعد إلى رقبته(٥٦) .

وكذلك ازدهرت صناعة الثريات البرونزية . وقد ذكر المؤرخون أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (النحاس الاصفر) عدد كئوسها سبعة آلاف وأربعمائة وخمس وعشرون كأسا ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمسة كئوس ، منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط . واكبرها الثريا الضخمة المعلقة فى قبة المحراب وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا .

كما كان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من هذه الثريات التى احترقت عندما اشتعلت النيران فى هذا المسجد فى أثناء الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس الهجرى . وقد عثر فى الحفائر التى اجريت بأرض هذا الجامع على ست ثريات اكبرها على شكل طبق مستدير مخرم فى شكل هندسى بديع ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكئوس التى تضاء بالزيت . وهذا المحيط مزود بحلقات صغيرة تعلق فيها السلاسل(٥٧) .

وكذلك ازدهرت صناعة التحف المصنوعة من الفضة والبرنز ، وقد وصلت إلينا تحفة فضية من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة ، الذى يبدو ان القطلانيين سلبوه من قرطبة من بين ما سلبوه بعد تخريبها فى القرن الحادى عشر الميلادى . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على انه صنع بأمر الخليفة الحكم المستنصر لابنه هشام المؤيد ،

---

(٥٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٥٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٦ .

على يدى جؤذر ، ونصه « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ... مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

وهذا الصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة ، وقاعدته مستطيلة يبلغ طولها ٣٩سم ، وعرضها ٢٣سم ويحتفظ بمفصلتين دائريتين وقفل ومقبض رائع الزخرفة(٥٨) .

كما عثر على مهراس كبير (هاون) من البرنز محفوظ بمتحف فيلانونيا ، وهو مزود بحلقتين ونتوءات مثلثة على شكل مناقير طيور تدور ببدنه ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى مطموس لا تظهر منه إلا كلمة (لصاحبه) . ويمكن إرجاعه إلى عصر الخلافة .

كما تحتفظ كنيسة سان سلفادور بإشبيلية بضبتى باب من البرنز المذهب موضوعتين على أحد أبوابها ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضعها ، وتتألف كل منهما من حلقة سداسية الشكل سعتها ١٤سم معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثمن الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات جميلة ، وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرى عند حديثه عن أحد أبواب قصر قرطبة حيث قال : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أنبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه »(٥٩) .

---

(٥٨) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٥٩) نفس المرجع ص ١٨٧ .

التجــــارة :

ازدهر النشاط التجارى فى الأندلس بعــد الفتح ، حيــث أصبحت البلاد عامرة بالسكان ، وتقدمت الزراعة ونهضت الصناعة ، وغدت الأموال كثيرة فى أيدى الناس . ويذكر بعض الباحثين ان عـــدد السكان فى عصر الرومان كان يتراوح بين ثلاثين أو أربعين مليونا ، ولكن ليس لدينا وثائق تاريخية أو إحصاءات رسمية تؤكد ذلك ، ولم نقف على عددهم بعد الفتح . وإن ذكر أن دار السكة بقرطبة كان يضرب فيها كل عام ثلاثة آلاف الف درهم واربعمائة الف دينار ، وهــذا المبلغ الذى كان يسك لا يتناسب مع الثلاثين أو اربعين مليونا ولذلك نعتقد بأن فى هــذا العــدد شىء من المبــالغة فى التقــدير .

ودليل ذلك ان البعض قد قدر عــدد ســكان اسبانيا سنة ١٧٦٨م بنحو تسعة ملايين ومائة وستين الفــا ، وفى أوائل القــرن الثامن عشر بنحو عشرة ملايين ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بنحو اثنين وعشرين ميلونا وثلاثمائة وثلاثين الفا(٦٠) .

وعلى فرض أن المسلمين الذين غادروا أسبانيا بعــد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م كانوا نحو خمسة ملايين على أكثر تقدير(٦١) . وأن من بقى منهم وتنصر كان نصف هذا العدد أو حتى مثله — وهذا غير معقول — فإن تقــدير عــدد سكان الأندلس بنحــو ثلاثين أو اربعــين مليونا فى عصر الرومان يظل تقديرا مبالغا فيــه إلى حــد كبير .

---

(٦٠) احمد امين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ١٩ — ٢٠ .

(٦١) انظر : د. احمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨١ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢ ، عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٤٠٢ ، عادل بشتاوى : الاندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد قدر بعض الباحثين الأسبان (المهندس المعمارى توريس بلباس) عدد سكان قرطبة فى عصر الخلافة بما يقرب من مائة الف(٦٢) وهـذا رقم متواضع بالنسبة لسكان العاصمة الأندلسية .

وعلى أية حال فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية فى الأندلس ، وكان لموقع الأندلس على البحر المتوسط ، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربى أثر كبير فى نشاط التجارة عن طريق الموانىء الأندلسية المتعـددة التى تصدر منها العـديد من المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل ميناء إشبيلية الذى كان يعـد أعظم موانىء الأندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى أوربا كالقطن والزيتون والأرز والفضـة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك .

وكان هناك طريق برى من طرق التجارة الخارجية يبتدىء من شرق المـانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس عن طريق نهر الرون وممر قطلونية ، ثم يستمر من الأندلس إلى طنجة عن طريق جبل طارق إلى بلاد المغرب ، ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين(٦٣) .

وقد ذكر ابن حوقل أن من أهم المنتجات التى كانت تصدر من الأندلس : الملابس المطرزة التى تعمل فى الأندلس وتحمل إلى مصر وخراسان وغيرها ، والأصواف والأصباغ والحرير واللبود الفاخرة ، والأردية الكتانية التى تصنع فى بجـانة ، والورق الأبيض السميك من مدينة شاطبة ، والتين الجـاف من مالقة ، والخزف المذهب الذى اشتهرت به أيضا ، والكبريت الأحمـر من مرسية والأسلحة من طليطلة(٦٤) . كما كان يأتى عن هـذا الطريق

---

(٦٢) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٧٦ .
(٦٣) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٣١٠ .
(٦٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ٣ ص ٥١٢ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٦٥ .

الرقيق الأبيض من أوربا ، وكان للتجار اليهود فى المانيا وفرنسا والأندلس دور كبير فى تجارته .

وقد كانت التجارة بين الاندلس وبلاد الفرنجة مزدهرة وخاصة فى أوقات السلم وكانت هناك ثلاثة طرق : أولها : الطريق البرى الذى يمر عبر جبال البرانس عن طريق عدة ممرات من اهمها : ممر باب الشزرى (الرونسفال) وكانت القوافل التجارية تعبر هذه الممرات أو الأبواب إلى موانىء جنوب فرنسا وخاصة بروفانس ، وسبتمانيا ، ومارسيليا ، وناربون التى كانت من اهم المراكز التجارية فى بلاد الفرنجة .

وثانى هذه الطرق : الطريق البحرى عبر ساحل اسبانيا الغربى المطل على بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) ، وهذا الطريق لم يسلك إلا منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بعد القضاء على خطر النورمان ، وكانت غاراتهم على هذا الساحل الغربى تشكل خطرا كبيرا .

واما الطريق الثالث : فيمر عبر الساحل الشرقى للأندلس المطل على البحر الرومى (المتوسط) ثم تنقل البضائع عن طريق الممرات عبر جبال البرانس ، أو عن طريق الموانى الجنوبية لفرنسا .

كما نشطت التجارة بين الأندلس وإيطاليا ، وكانت الجزائر الشرقية مثل ميورقة ، ومنورقة ، عرضة لهجمات القراصنة البحريين الذين كانوا يتعرضون للسفن التى تسير محملة بالسلع والبضائع . وقد حملت هذه الغارات اهالى هذه الجزر على طلب الحماية من شارلمان ملك الفرنجة الذى طلب من أمراء الأندلس عقد معاهدة بحرية للاشتراك فى تأمين هذه السفن من هجوم هؤلاء واستمرت ثلاث سنوات(٦٥) .

وقد كان لأهل الشام دور كبير فى تجارة البحر المتوسط حيث كانت لهم جاليات فى كثير من الموانى المطلة على هذا البحر ، كما كان

---

(٦٥) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

لليونان واليهود دور فى هـــذه التجارة أيضـــا . وكانت هناك جمـــاعات من التجار المغـــاربة الذين يعملون فى نقل التجارة من إفريقيا إلى الأندلس وبلاد غالة (فرنســـا) وتسميهم بعض المصـــادر (تجـــار من وراء البحـــر)(٦٦) . . . .

هـــذا بالإضافة إلى التجار الأندلسيين الذين قاموا ولا شـــك بدور كبير فى هـــذه التجارة أيضـــا ، يقول ج. ب ترند « وقد ظلت أســـبانيا المسيحية مدة خمسة قرون محصورة فى دائرة الإسلام الاقتصادية ، فكانت التجارة احتكارا فى أيدى المسلمين واليهود ، وظلت المـــالك المسيحية فى أسبانيا لا تستعمل إلا النقود العـــربية والفرنسية طـــوال أربعة قـــرون تقريبـــا »(٦٧) . . . .

وقد أخـــذت العلاقات التجارية تنمو نموا ملحوظا بين الأندلس وبلدان شتى ، ونشطت حركة التبادل التجارى بينها ، وكانت السفن والمراكب التجارية فى موانىء الأندلس المتعددة كإشبيلية ومالقة ودانية وبلنســـية والمـــرية تعمل بـــين كثـــير من مـــدن البحـــر المتوســـط ، وتحـــمل المنتجـــات الأندلســـية المختلفـــة من الأقمشـــة والســـجاد والخـــزف والجلود والأسلحة والورق والتوابل وزيت الزيتون وغيرها .

وكانت هـــذه العلاقات متواصلة مع مصر بخاصة ، وبدأت تأخـــذ منـــذ القرن الخامس شـــكلا قويا ونشطا ، ونجـــد فى النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك ، فقـــد عثر فى مدينة المرية على شاهد قبـــر يحـــمل اسم تاجر من مدينة الاسكندرية وافته المنيـــة فى هـــذه المدينة التى كانت

---

(٦٦) لويس أرشيباند : القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ١٢٠ ،
د. حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٥٠ .

(٦٧) تراث الإسلام جـ ١ ص ٥ ، ٦ لجنـــة الجامعيين لنشر العلم سنة ١٩٨٣م القاهرة .

تشتهر بصناعة المنسوجات سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م(٦٨) .

وقد كان من عوامل نشاط التجارة فى الأندلس إنشاء دار لسك العملة أو النقود فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث يذكر أنه ضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخول المسلمين الأندلس ، وكان أهل الأندلس يستخدمون قبل ذلك النقود الرومانية والقوطية ، وعلى رأسها الصولدى الرومانى Solida (٦٩) .

---

(٦٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٦ — ٧٧ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٦٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٩ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٦ . ويذكر أن موسى بن نصير ضرب بعد دخوله طليطلة عملة ذهبية وأخرى برونزية فى دار السكة القوطية بها لصرف رواتب الجند ، وكانت هذه العملات تحمل نقوشا لاتينية على غرار العملات السابقة على الفتح فى أسبانيا والمغرب ، وإلى جانبها كتابات عربية أيضا . وقد سك الدينار على أساس الدينار الرومانى القديم ، وكان وزنه نحو أربع جرامات ، وتدور حول محيط وجهه عبارة (ضرب فى أسبانيا سنة ٩٣هـ) باللاتينية ، وتتوسط ظهره نجمة من ثمانية رءوس ، وتدور حول محيط ظهره عبارة معناها (الله أحد ، والله عالم ، والله ليس له كفوا) ، وهناك دنانير عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ووجه هذه الدنانير تقرأ فى وسطها عبارة (محمد رسول الله) ، وفى محيطها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة) ، أما ظهرها فعليه كتابة لاتينية تدور حول محيطه . كما كانت هناك عملات ذهبية صغيرة هى النصف دينار (١ر٩٨ جرام) ، والثلث دينار (١ر٣٠ جرام) وتتميز بأن

كما كان من عوامل نشـاط التجـارة فى الأندلس أيضـا الاهتمام بإنشـاء المؤسسات ذات الصبغة الاقتصادية التى ارتبطـت بالنشـاط التجارى . وتتمثل فى الخانات والوكالات والفنادق والقياسر . وكان التجار القادمون إلى الأندلس يجدون فى هـذه الأماكن مخازن لبضائعهم ، وحظائر لدوابهم ، ومقرا لنزولهم .

ولا شك ان الأندلس قـد شهدت فى العصر الأموى الكثير من هذه المؤسسات ، وإن كانت المصـادر التاريخية والأثرية لم تمدنا بالكثير عنها ، وإن أمدتنا بشىء عنها فى عصور تاليـة . ودليل ذلك ما يذكره الإدريسى من انه كان بالمرية وحـدها فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الثـانى عشر الميـلادى) ما يقرب من تسعمائة وسبعين فندقا(٧٠) ، ويبدو انها كانت فنـادق صغيرة تتألف من طابق واحـد أو طابقين عـلى الأكثر .



=

أوجهها تحمل فى وسطها صورا تمثل كرة قائمة على عمود فـوق خطين ثم كتابات لاتينية على الوجهين . (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٩٩ هامش ٤) .

وفى عهد عبد الرحمن الداخل سكت عملة باسمه لم تكن تختلف عن عملة الأمويين فى الشام من حيث الشـكل والوزن والنقش ، وقد انتشرت دور سك العملة بعـد ذلك حتى بلغـت أربع عشرة (د. منى محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٣٣) .

(٧٠) انظر دائرة معارف الشعب ص ١٤٣ — ١٤٦ . تاريخ الحضـارة الإسلامية العربية ص ٣٠٠ .

(موارد الدولة ونظامها المالى)

لا شك فى ان للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات . فمن قواعد الاجتماع والعمران المقررة أنه إذا كثرت الأموال فى أيدى الناس فإنهم يتوسعون فى الإنفاق ، وينعمون بالعيش بصفة عامة .

وقد كثرت الأموال فى الاندلس فى العصر الاموى نتيجة لتنوع مصادر الدخل المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة وثروات طبيعية ، بالإضافة إلى الموارد الأخرى من خراج وجزية وعشور وزكاة وغنائم .

وبالرغم من كثرة المعارك والحروب التى خاضها الأمويون ضد أعدائهم ومناوئيهم فى الداخل والخارج ، وبالرغم من الصراعات التى دارت بين المسلمين وبعضهم واستهلكت جزءا كبيرا من مصادر الدخل . إلا انه بقى الشىء الكثير الذى ادى إلى تعدد مظاهر البذخ والترف فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من افراد الطبقة الخاصة كما أوضحنا ذلك فى الفصل الرابع عند الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية .

لقد كان الأمويون بعد تأسيس دولتهم فى الأندلس يريدون إثبات وجودهم ، ومنافسة خصومهم من العباسيين والفاطميين ، وإظهار قوتهم وعظمتهم أمام اعدائهم من المسيحيين . فأضفوا كثيرا من مظاهر الأبهة والعظمة على دولتهم وخاصة عاصمتهم قرطبة . وساعدهم على ذلك كثرة الموارد والثروات المختلفة ، وإذا كنا قد تحدثنا عن الزراعة والصناعة والتجارة فإننا نتحدث الآن بإيجاز عن اهم موارد بيت المال :

١ - **الخراج** : وهو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل عن تقسيمها على المحاربين ،

وتركت بأيدى أصحابها بعد تعويض المحاربين عنها أو استرضائهم ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأرض السواد ، كما يؤخذ على الأرض التى صولح عليها أهلها وتركت لهم لقاء خراج معلوم(١) .

ويبدو أنه كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج وهى : نظام المحاسبة وتكون نقدا أو نوعا أو الاثنين معا ، ونظام المقاسمة : وتؤخذ من المحصول . ونظام المقاطعة (الإقطاع أو الالتزام) ويكون ذلك بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمتقبلين(٢) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ . وكانت هناك أنواع من الأرض لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يفرض عليها العشر وتسمى الأرض العشرية وهى : الأرض التى أسلم عليها أهلها بدون حرب فيدفعون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يوضع عليها الخراج . والأرض التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين الفاتحين غنيمة فيدفعون العشر من غلتها .

(٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ .

ويرجع نظام الالتزام أو الإقطاع إلى عهد الرسول ﷺ حيث اقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا بقصد تعميرها فلم يعمروها ، فجاء آخرون وعمروها واختصموا إلى عمر بن الخطاب ، فجعلها للفريق الذى عمرها وقال « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » (تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٦) .

وقد ذكر الماوردى الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تمليك ، والأول ينقسم إلى موات وعامر ، والثانى : ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت فى دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام للمقطع ليتملكها (الأحكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٢) .

ونظرا لأهمية الخراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الأمويون بشؤون الري والزراعة ، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور ، وغير ذلك . ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي تهدمت في عهد عبد الرحمن الداخل بسبب السيول فقام ابنه هشام بتجديدها ، وأنفق في ذلك أموالا عظيمة وكان يشرف على البناء ، ويعطي الأجرة للعمال بنفسه(٣) .

كما اهتموا باستصلاح كثير من الأراضي المقفرة وتحويلها إلى أراض خصبة صالحة للزراعة(٤) .

ومن هنا فقد كثرت حصيلة الخراج وخاصة في غير سنوات الجدب وقلة المطر . ولم ترد إلينا قوائم تبين مقدار الخراج في الأندلس حيث تشير معظم المصادر إلى الدخل بلفظ (الجباية) في كثير من المواطن(٥) . إلا ما ورد عن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط حيث ذكر المقرى : أن الخراج كان قبله ٣٠٠ ألف دينار مائة الف للجيش ومائة للنفقة في النوائب ومائة ألف ذخيرة ووفر (احتياطي) فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثائرين وقل الخراج(٦) . ويبدو أن المراد بالخراج هنا ليس ضريبة الأرض وإنما الجباية ايضا .

٢ - الجزية : وهي مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . وهي تسقط بالإسلام

---

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٨ .

(٥) انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

بخلاف الخراج . ولفظها مشتق من الجزاء على اعتبار أن أهل الذمة يدفعونها فى مقابل ما يمنحون من الاستقرار فى المجتمع المسلم والتمتع بما فيه من مرافق وفى مقابل الأمن والحماية لهم ، وتعتبر فى مقابل الزكاة التى تفرض على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة .

وهى ليست دينا يؤخذ من ورثة الذمى بعد موته ، وليست ضريبة على الرءوس كما يشيع خصوم الإسلام ، لأنها لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على الكسب فلا تؤخذ من الفقراء والمساكين ، أو العاجزين عن العمل ، أو العميان أو المقعدين ، أو المجانين ، أو ذوى العاهات ، أو الرهبان إلا إذا كانوا أغنياء(٧) .

وهى كما يقول الماوردى : فى مقابل استقرارهم فى دار الإسلام ، ويلتزم لهم فى مقابلها بحقين : **أولهما** : الكف عنهم ، **والثانى** : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين(٨) .

---

(٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨١ — ٤٨٢ . وتسمى أحيانا باسم الجوالى وتعنى هذه الكلمة فى الأصل جاليات أهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من شبه الجزيرة العربية فلزمهم هذا الاسم . ثم أصبح يطلق على الجزية التى يؤدونها أيضا (دراسات فى تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٣١٢ .

وقد فسر الدكتور حسن ابراهيم الجوالى بأنها : اختيار الأحسن من كل شىء سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء ، أو أنها ربما كانت وظيفة العامل فى الزكاة (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ هامش ٢) . ولم يذكر مصدر ذلك التفسير ، والتفسير الأول هو الأقرب للصحة والقبول .

(٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٢ .

وكان مقدار الجـزية كما ذهب ابو حنيفة متفاوتا ، حيث قسمها إلى ثلاثة اقسام : ثمانية واربعين درهما للأغنياء ، واربعة وعشرين لمتوسطى الحـال ، واثنى عشر درهما للفقراء الذين يتكسبون ، اما الإمام مالك فقد تركها لتقـدير الإمام ، بينما ذهب الإمام الشافعى إلى أن الحـد الأدنى لها اثنـا عشر درهما وما بعـد ذلك يترك لتقدير الإمام . وقد نهى الشرع عن جبايتها بطرق عنيفة ، واوصى بالرفق والإنصاف فى جبايتها . وتقضى القاعدة الفقهية : بأن لا يضرب احـد من اهـل الذمة فى استيدائها ، ولا يقام فى الشمس ، ولا يجعل عليه شىء من المكاره ، وإذا امتنع عنـد دفعها فإنه يحبس حتى يؤديها بدون إيذاء(٩) .

ونص كتاب الصلح الذى اعطاه عبد العـزيز بن موسى بن نصـير لتدمير بن عبدوش سنة ٩٤هـ يوضح لنا شيئا من ذلك فقد جاء فيه « أن عليه وعلى أصحابه دينارا كل سـنة واربعة امداد قمح ، واربعة امداد شعير ، واربعة اقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك »(١٠) .

٣ ـ **الزكاة (الصـدقة)** : وهى ما يؤخذ من اغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم كما قال تعالى لرسوله « **خـذ من اموالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم بهـا** » .

وتنقسم إلى عدة انواع : زكاة الأموال (النقدين) ، وزكاة السوائم وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعـدن والركاز وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ذلك .

---

(٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٣ .

(١٠) الحميرى : وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار ص ٦٣ ؛ الضبى : بغية الملتمس ص ٢٢٩ .

٤ ـ **المواريث الحشرية** : وهى مال من يموت وليس له وارث فيرد إلى بيت المـال(١١) .

٥ ـ **الفىء والغنيمة** : والفىء هو ما وصل إلى المسلمين من أعدائهم بدون قتال ، بخلاف الغنيمة التى تطـلق على كل ما يأخـذه المسلمون من أعدائهم بالقتال . من الأسرى والسبى والأموال والأرضين .

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم ، ويرد الباقى إلى بيت المـال حسب ما وضحت كتب الفقه ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التى خاضها

---

(١١) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

(١٢) كان الرسول (ﷺ) يقسم الفىء خمسة أقسام متساوية عملا بقوله تعالى « **وما أفاء الله على رسوله من أهل القـرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** » . وبعد وفاته رد نصيبه إلى بيت المـال ، وكانت الأقسام الباقية تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر لهم أرزاقهم .

وأما الغنائم : فالأسرى يقسمون رجالا ونساء بين الجنـد حتى يسلموا أو يفتدوا أنفسهم . وأما الأموال المنقولة كالنقود والحيوانات والأسلاب فتقسم حسبما يرى الإمام . وأما الأرض فالشافعى يرى تقسيمها على المحاربين كما فعل أبو بكر ، ومالك يرى وقفها كمـا فعل عمر ، وأبو حنيفة يرى أن الإمام بالخيار بين قسمتها أو وقفها (انظر : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥) . ولمـا اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر بين القرآن الكريم طريقـة قسمتها فقال : « **واعلموا أنما غنمتم من شىء ... الخ** » الآية .

فكان للإمام مـع من ذكر فى الآية الخمس والأربعـة أخمـاس الأخرى للفاتحين ، (المـاوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ ـ ١٢٧) .

المسلمون فى الاندلس فى هـذا العصر ضـد الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا مثل قشتالة وليون ونافار وجليقية وقطلونية وضـد الفاطميين فى فى بلاد المغرب ، وضـد بلاد الفرنجة (غالة أو فرنسا) . فقـد كثرت الغنائم وخاصة فى عهد الخليفة الناصر وفى عهد المنصور بن ابى عـامر الذى قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم فى أى منها وعاد منها بغنائم كثيرة(١٣) .

ويدخل فى ذلك ايضا ما كان يفرض على بعض ملوك هـذه البلاد فى بعض الاحيـان — عقب هزيمتهم — من تقديم الجزية للمسلمين .

٦ ـ **العشـور** : وهى الأموال التى كانت تجبى من التجار الأجانب الذين يقدمون بتجارتهم ، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضرائب الجمركية التى تقدر على الواردات فى العصر الحاضر(١٤) .

---

(١٣) انظر عن هـذه الغزوات بالتفصيل . د. خـالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا (عصر المنصور الاندلسى ٨ ص ١١٣ وبعدها

(١٤) يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، فقد كتب إليه أبو موسى الاشعرى اثناء ولايته على البصرة أن تجارا من المسلمين يأتون ارض الحرب ، فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه قائلا : « خـذ منهم كما يأخذون من تجـار المسلمين ، وخـذ من اهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين درهما من كل اربعـين درهما ، ولا تأخذ منهم فيما دون المـائتين شيئا ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم » .

وقـد افتى الإمام الشـافعى بأن للإمام أن يزيد على العشر او ينقص منـه إلى النصف إذا رأى فى ذلك مصلحة ، وأن لا يؤخذ العشر إلا مرة واحدة من كل قادم بالتجارة حتى ولو تكرر قـدومه

ولا شك أن هـذا المورد كان يمثل دخـلا كبيرا للأندلس فى العصر الأموى حيث كثرت التجارات بين الأندلس وغيرها من البلدان فى أوربـا والمشرق . وإن كانت المصادر لم توضح لنا شيئا من ذلك .

٧ – **المكوس** : وهى الضرائب التى نشأت نتيجة لحاجة الدولة إليها لزيادة مواردها ، وخاصـة فى أوقات القحط والأزمات والشـدائد ، وفى أوقات الحروب وقد شملت هـذه المكوس أغلب السـلع التى كانت تباع بالأسواق ، وكذلك البضـائع الواردة من الخارج – وهو شبيه بما تفرضه الكثير من الدول الآن لحماية منتجاتها المحلية – ومن الطريف أن المـآصر وهى السلاسل الحديدية التى كانت تشد فى البحر عنـد مداخل الموانىء لحمايتها من غارات السفن المعـادية صـارت تستخدم بعـد ذلك لفرض جمع المكوس من السفن القـادمة قبل دخولها الميناء ، ثم اصبحت تطلق على الضريبة نفسها(١٥) .

ولا شك أن هـذه المكوس قـد اصبحت تمثل موردا خصبا للدولة ، ولكنها كانت تسبب إرهاقا وعنتا للكثيرين ، ولهذا كثرت الشكايات منهـا خاصة وأن جبايتها اخذت تتسم بشىء من العنف وسوء المعاملة والتقدير . ومثال ذلك ما حـدث فى عهـد الحكم الربضى حين وضع عشر الأطعمة فى كل سنة على اهل الأندلس من غير حرص فكرهوا ذلك كما يقـول ابن الأثير(١٦) . وترك الحـرية لربيع قومس النصارى لفرض الضرائب

(=)

فى السنة الواحـدة (د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسـلام ج ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٢).

(١٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٤ .

(١٦) الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

والمغـارم وجبايتها هو وأتباعه من الصقالبة بطرق عنيفة(١٧) .

وكان ذلك سببا من أسباب قيامهم بالثورة المعروفة بثورة الربض .

ويذكر ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر قد أسقط عن أهـــل الأندلس سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول أدائه وأنفذ بذلك كتـابا إلى جميع الأقطار(١٨) .

ويذكر أن الرحالة الأندلسي ابن جبير عندما قـدم إلى مصر فى العصر الأيوبى شـاكيا من سوء المعاملة للتجار والحجاج القادمين والخارجين ومن قسوة الإجراءات فى الموانىء ، غير أن مصر وحـدها لم تكن كذلك ، فقد كانت الأندلس أيضـا تعانى من هــذه المكوس خاصـة وأنهـا أصبحت تعطى التزاما ، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحيانا ، فكانوا يشتطون فى المعـاملة وعرف هــذا النظـام باسم (القبـالة) وعـرف الملتزم بالمكوس باسم (المتقبل) . وقــد انتقل هــذا الاسم إلى اللغة الأسبانية بلفظه ومعنـاه Cabala (١٩) .

٨ ــ **الأحباس (الأوقاف)** : وقد مثلت مصدرا غير مباشر من مصادر الدولة أيضا ، حيث كانت تسد جزءا من نفقاتها على المؤسسات العامة ، حيث يحبس أصحاب هــذه الأوقاف ريعها على جهات البر والإحســان ،

---

(١٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٣ ، د. حســين مؤنس : شيوخ العصر فى الأندلس ص ٢١ .

(١٨) المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ص ٢٠٨ تحقيق د. عبـد الرحمن الحجى ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ — ٢٠ . ويبدو أن مغرم الحشد نوع من الضرائب التى كانت تفرض للاستعداد للحملات الحربية .

(١٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢١٣ .

وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية ، كالمساجد والمكاتب والخوانق والبيمارستانات ، ورعاية طلاب العلم والمرضى والمعوزين وغير ذلك(٢٠).

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر الذى أشار إليه ابن حيان فقال : « وفى صدر جمادى الأولى (٣٦٤هـ) انفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة واشهد القاضى محمد بن اسحاق فى هذا التحبيس يوم الجمعة لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لوراثته »(٢١) . وقد بلغ من كثرة الأحباس أن كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الأحباس . كما يتضح من النص التالى الذى أورده ابن عذارى فى حوادث سنة ٣٥٣هـ حيث يقول عن زيادة المستنصر فى مسجد قرطبة الجامع « فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضى منذر بن سعيد (قاضى القضاة) إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الأحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من أموال الحبوس فنظروا فى الزيادة فيه »(٢٢) .

وهناك ضريبة أخرى فرضت فى الأندلس بعد العصر الأموى فى عهد المرابطين أطلق عليها اسم التعتيب . على يد على بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٩هـ/١١٢٥م وكان الغرض منها ترميم الحصون والقلاع والأسوار حول المدن الرئيسية ، وكانت تفرض على أهل هذه المدن لحمايتهم من غارات الأعداء . ويبدو أن هذه الضريبة

---

(٢٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٦ .

(٢١) المقتبس ص ٢٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن الحجى . خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ ترجمة د. الطاهر مكى .

(٢٢) البيان المغرب : جـ ٢ ص ٣٥٢ .

استمرت حتى أواخر الحكم الإسلامى بالأندلس . وقد أجازها فقهاء الأندلس لأن المصلحة تقتضى ذلك . يقول الحميرى « وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت على أهل الموضع ، وقد أجاز ذلك الفقيه أبو إسحاق الشاطى معتمدا على قيام المصلحة التى إن لم يقم بها الناس فيعطون ضاعت عليهم »(٢٣) .

هذه الموارد المتعددة كانت تمثل دخلا كبيرا للدولة ، ومن حصيلتها كانت تقوم بالانفاق فى الأوجه المختلفة مثل : ارزاق الجند والموظفين ، وإنشاء المشروعات العامة ، مثل حفر الترع والقنوات وإنشاء القناطر والجسور ، وبناء المساجد ، ونفقات الحملات العسكرية ، وشراء الأسلحة والمعدات الحربية ، وترتيب العسس والدرابين لحراسة الأسواق والطرقات والدروب وغير ذلك .

ويروى ابن سعيد المغربى (انه كان للأندلس دروب تغلق ليلا ، وتحرس بواسطة رجال الشرطة المسمون (بالدرابين) ، وأن كل واحد كان معه سلاح وكلب وسراج) . ولا تزال عادة غلق الأبواب متبعة فى بعض مناطق اسبانيا إلى اليوم منذ الساعة العاشرة ليلا بواسطة رجال الشرطة (درابين) يعرفون باسم (سيرنيوس) . وكان من يريد الخروج أو الدخول إلى منزله ليلا ينادى الحارس بواسطة التصفيق(٢٤) .

ومما يدل على تزايد هذه الموارد من عهد إلى عهد ان الجباية فى عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضى كانت مائة وعشرة آلاف وعشرين دينارا ، ومن القمح أربعة آلاف وستمائة مدى ، ومن الشعير سبعة

---

(٢٣) الروض المعطار ص ٢٢٣ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

(٢٤) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٥ .

آلاف وستمائة وسبعة واربعون مديا(٢٥) .

وبلغت فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الف الف دينار فى السنة(٢٦) . وارتفعت فى عهد عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف الف واربعمائة وثمانين الف دينار من الكور والقرى ، ومن الأسواق والمستخلص (الجمارك) سبعمائة الف وخمسة وستين الف دينار ، بخلاف أخماس الغنائم العظيمة التى لا يحصيها ديوان(٢٧) . ويذكر المقرى نقلا عن ابن خلدون : أن الناصر خلف فى بيوت المال خمسة آلاف الف ولا ندرى هل هذا الرقم بالدينار أم الدرهم ؟ ويغلب على الظن انه بالدرهم لأنه إذا كان بالدنانير تجاوز الملايين وفى هذا كثير من المبالغة(٢٨) ، وانه كان يقسم الجباية ثلاثة أقسام : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وقد ذكر ابن حوقل أن الناصر استطاع ان يدخر حتى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠ مليون دينار ، وانه لم يكن فى زمانه سلطان استطاع توفير هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمدانى (٣٥٨ — ٣٦٩هـ)(٢٩) .

وذكر بعض الباحثين المعاصرين أن الدخل السنوى عن طريق الضرائب والمكوس فى عهده بلغ ٢٠ مليون دينار(٣٠) ، ونقل من بروفنسال أنها

---

(٢٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ .
(٢٦) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢ .
(٢٧) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٢٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٠ .
(٢٩) المسالك والممالك ص ٧٧ ، تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٠ .
(٣٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٦ .

بلغت فيما بعد ٤٠ مليون . ومهما كانت صحة هذه الأرقام ، فإن من الواضح أن موارد الدولة قد زادت زيادة كبيرة فى عصر الخلافة ، وخاصة فى عهد الناصر وولده المستنصر .

وتدل هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد للناصر سنة ٣٤٧هـ على مدى ما وصلت إليه الدولة الأموية فى الأندلس من الضخامة واتساع الأحوال كما ذكر ابن خلدون ، الذى قال : إنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجب بها الناصر أيما إعجاب وكافأ الوزير بزيادة راتبه إلى ٨٠ الف دينار اندلسية ، وبلغ معروفه إليه الف دينار ، وسماه ذا الوزارتين ، وكان أول من تسمى بذلك فى الأندلس(٣١) .

وكذلك هدية جعفر الصقلبى الحاجب للخليفة المستنصر يوم ولايته وكانت عبارة عن « مائة مملوك من الإفرنج على خيول صامتة كاملو الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس ، والقلانس الهندية ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية وخمسون بيضة من بيضات الفرنجة يسمونها الطشطانة ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن فضة مذهبة ، وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس »(٣٢) .

وقد ذكر البعض أن النظام المالى فى الأندلس كان يدور حول أمور ثلاثة هى : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

أما الخزانة : فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى خازن المال ومقرها القصر ، وفيها تودع الأموال التى تجبى من الكور

---

(٣١) انظر تفصيلها فى نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٦ — ١٦٨ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا جـ ١ ص ٣٣٨ — ٣٤٠ .

(٣٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٨ .

والقرى(٣٣) . ومن اهمها اموال التركات التى يموت عنها اصحابها بدون وارث (المواريث الحشرية) . والضرائب المفروضة على الأسـواق ، والرسوم الجمركية على السفن والخراج والجزية والأعشار(٣٤) .

واما بيت المـال : فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، ومقـره بجامع قرطبـة ويقوم بحفظ المنشـآت الدينية ، ودفع رواتـب موظفى المساجد وتوزيع الصدقات فى اماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضى القضـاة ومن ينوب عنـه تحت إشراف الخليفة ، وهو يشبه من هـذه الناحية وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية .

واما موارد الخليفة الخاصة فكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية ويكلف بالاشراف على اراضى الأمير او الخليفة من ناحية زراعتها من قبل المزارعين الذين ياخذون جزءا من محصولها فى مقابل ذلك(٣٥) .



---

(٣٣) الكور جمع كورة وتعنى المقاطعة او الولاية ولا يعرف اصل هـذه الكلمة ويرى البعض انها يمكن أن تكون محرفة عن قرية ، او مشتقة من الكلمة اللاتينية (خورة) بمعنى الأرض او الريف ، او من اللفظ اللاتينى كوريا بمعنى الحى (انظر دراسات فى تاريخ الحضـارة الإسلامية ص ١٦٣ هامش ١) .

(٣٤) تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣٥) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

الفصل السادس

الحالة العلمية والثقافية

الحـــالة العاميـــة والثقافيـــة

يظهر أن نشأة العـــلوم فى المجتمعات الإســـلامية المختلفـــة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة ، ثم ما لبثت بفضل الرعـــاية والعنـــــاية والاهتمام أن نمت وازدهرت واثمرت . هـــذا ما حـــدث فى المشرق ، وهـــو بعينه أو شبيها به ما حـــدث للعلم والثقافة فى المغرب والأندلس .

فقد جاء الإسلام فمهد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية، ومضى زمن اخـــذت تتطور فيه هـــذه العلوم ، ثم كان الاتصـــال بالأمم الاخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة ، فاقتبس المسلمون من علومها ، وترجموا بعض كتبها إلى العربية ، وصححوا فيها ، واضافوا إليهـــا ، حتى اخرجوا بعـــد ذلك نتـــاجا عظيما من العلم والثقافة .

وعندما فتح المسلمون الاندلس كانت هناك فى البداية حروب صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة إلا قليـــلا ، وكانت هناك خلافات بين المسلمين الفاتحين بسبب العصبيات القبلية والجنسية ، وبسبب التنافس على الرئاسة والسلطان إلى غير ذلك . حتى إذا بدات الأمور فى الهدوء والاستقرار وخاصة بعـــد عصر الولاة — الذى كان عصر فتن ومنازعات وحروب وثورات فى معظمه — واخـــذت الدولة الأموية ترسى قواعدها على يد عبد الرحمن الداخل ، بدات الحركة العلمية المنظمة فى الظهـــور والنمو(١) .

---

(١) لا ينبغى أن يفهم من هـــذا أن عصر الولاة كان خلوا من اى اهتمام بالعلم والثقافة ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين مثل أ. محمـــد عبد الله عنان (دولة الإسلام فى الاندلس ج ٢ ص ٦٩١) وغيره =

ونستطيع أن نقول : إنه كانت هناك عدة روافـد لتغـذية هـذه الحـركة ومنها :

١ — قدوم نفر من الصحابة والتابعين مع الجيوش الفاتحة للأندلس ، وفى عصر الولاة والعصور التالية ، وكان كثير منهم على حظ من العـلم والمعرفة ، وخاصة فى أمور الدين . وكان هـؤلاء هم أوائل المؤسسين للحركة العلمية بواسطة الحلقـات التى كانوا يعقـدونها فى المسـاجد وغيرها(٢) .

وإنما شهد هذا العصر شيئا من ذلك ، وخاصة فى فترات الاستقرار أثناء حـكم بعض الولاة ، ولكنها كانت بمثابة محاولات فردية ، ولم تأخـذ شـكلا جماعيا منظما مثل الذى حـدث بعـد ذلـك فى العصر الأموى وهـذا أمر طبيعى . لأن الحركة العلمية فى كل عصر وحين تحتاج إلى الهدوء والاستقرار ، والدعم والاهتمام .

(٢) تذكر بعض المصـادر واحدا من صغار الصحابة ذهب إلى إفريقية ، ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير ويدعى المنـذر أو المنيـذر الأسلمى ، وأنه حـدث بحـديث عن رسـول الله ذكره ابن الأثير والمقرى وهو (من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيـا ، فأنا الزعيم لآخذن بيده حتى أدخله الجنة) . (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٣ ص ٦) .

وقـد اختلف المؤرخون فى جملة من دخل الأندلس من التابعين ، لكن من المؤكد أنهم كثيرون (انظر د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٥٥ — ١٥٦) . وقد وضع ابن بشكوال كتـابا بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) اشـار

٢ — قدوم كثير من العلماء والادباء من المشرق إلى الأندلس إما بأنفسهم ، أو بدعوة من بعض الأمراء والخلفاء ، مثل ابى على القالى صاحب الأمالى ، وصاعد البغدادى وغيرهما ممن نشروا كثيرا من علوم اللغة والأدب ، وتتلمذ على أيديهم الكثير من أهل الأندلس ، الذين برع منهم بعد ذلك من برع مثل ابن عبد ربه وغيره ولذلك قال الصاحب ابن عباد عن كتاب العقد الفريد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه كثيرا من علوم المشرق التى عرفها(٣) .

٣ — رحيل كثير من الأندلسيين إلى المشرق للتتلمذ على علمائه ، ثم العودة إلى الأندلس لنشر العلم مثل زياد بن عبد الرحمن الملقب (بشبطون) الذى ينسب إليه أنه كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس بعد تتلمذه عليه ، ويحيى بن يحيى الليثى المصمودى الذى رحل إلى المدينة أيضا وتتلمذ على الإمام مالك ، ثم رحل إلى مصر فأخذ عن الليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم العتقى إمام المالكية فى مصر ، ومثل عبد الملك بن حبيب السلمى ، والغازى بن قيس وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التراجم الأندلسية بذكرهم .

وقد بلغ من إقبال الأندلسيين على الارتحال فى طلب العلم ، أن الشخص عندهم كان يعاب بأنه لم يرحل إلى المشرق(٤) .

إليه المقرى ولكنه لم يصلنا (انظر : نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ص ٦٠ — ٦١ ، التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢٨٢ ، ج ٢ ص ٧٠٤) .

(٣) احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٤ ، انظر فى الراحلين من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ وبعدها .

٤ — جمع الكتب وإنشاء المكتبات : والكتب ولا شك من أهم روافد الحركة العلمية — إن لم تكن اهمها — فى كل عصر ، ولذا فقد حرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء فى الاندلس على جلب الكتب ، وتأسيس المكتبات ، ومن اشهرهم فى ذلك الخليفة الحكم المستنصر ، الذى أسس مكتبة عظيمة حوت نحو ٤٠٠ الف مجلد فى علوم شتى . وأخذ الكثيرون فى اقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات فى شتى انحاء الأندلس سواء فى قرطبة او غيرها ، للعلم ، أو للتباهى بها(٥) .

---

(٥) يقول ابن سعيد عن قرطبة « وهى اكثر بلاد الاندلس كتبا ، واهلها اشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به » .

ويذكر قصة تدل على ذلك بين الرحالة الحضرمى وبين رجل اندلسى تبدو عليه أمارات الغنى والرياسة ، حيث أقام الحضرمى مرة بقرطبة يريد كتابا حتى عثر عليه ، ففرح به أشد الفرح ، واخذ فى شرائه ، وكلما ذكر ثمنا زاد هذا الرجل عليه حتى بلغ حدا لا يستطيعه . فاعتقد أنه فقيه فقال له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده ، فقال له : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه » (انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٦٢ — ٤٦٣) .

=

وذكر البعض أن مكتبات الأندلس العامة بلغت سبعين مكتبة(٦) .

٥ ــ كثرة مراكز العلم والثقافة : كالمساجد ، والمكاتب ، والقصور ، والدور وغيرها . مما كان له أثر كبير فى نهضة الحركة العلمية(٧) .

٦ ــ تقدير الأمويين للعلم والعلماء حبا فى العلم من ناحية ورغبة فى منافسة العباسيين والفاطميين من ناحية أخرى(٨) . ولذلك فقد قربوا الكثيرين منهم ــ وخاصة الفقهاء ــ وولوهم المناصب الرسمية فى الدولة ، كالفتيا والقضاء وغير ذلك(٩) .

=

وحتى لو بدا فى هذه الرواية طابع المبالغة أو التكلف ، أو أنها قيلت فى مجال إظهار محاسن المدن على بعضها ، فإن فيها شىء من الدلالة على مدى حب الأندلسيين لجمع الكتب واقتنائها فهى ثروة على أية حال ، وهى مظهر من مظاهر الترف والوجاهة ، ونوع من الهواية ، كما نراه عند الكثيرين من الأغنياء والوجهاء فى عصرنا اليوم . (انظر : المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ ــ ٢٧ ، خوليان ربيرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٠ وبعدها ، ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى أسبانيا ص ٦١) .

(٦) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٧ .

(٧) انظر : خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٤٥ وبعدها .

(٨) انظر : د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى (الفصل الرابع عن مكانة العلماء وجلال أقدارهم) ص ٩٧ وبعدها .

(٩) انظر فى ذلك ما ذكره المقرى من أنه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف

=

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها ، فقد بدأت الحركة العلمية بالأندلس فى النمو والازدهار ، وأخذت المؤلفات تتوالى ، والمعرفة تشيع ، والثقافة تنتشر ، حتى ازدهر العلم وعم ، وقد اقتضى ذلك ازدهار صناعة الورق ، وما يتصل بها من أدوات النسخ والكتابة .

لقد كانت الفترة التى أعقبت فتح الأندلس ، والتى تسمى عصر الولاة (٩٢ — ١٣٨هـ) فترة تسودها القلاقل والاضطرابات ، ومع ذلك — ونظرا لحرص المسلمين على العلم والثقافة — فقد شهدت هذه الفترة قدرا من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الأولى التى تؤذن بعد ذلك بمشرق الشمس ، وذلك على يد من جاء من الصحابة والتابعين . كما شهدت أيضا قدرا متواضعا من الأدب كان بمثابة البذور الأولى للأدب الأندلسى فيما بعد(١٠) .

ثم جاءت فترة تأسيس الإمارة الأموية ، والتى كانت بمثابة فترة علاج للكثير من الأدواء التى سبقتها ، وقد خطت الأندلس فى هذه الفترة أولى خطواتها نحو الحركة العلمية المنظمة ، وساعد على ذلك عدة عوامل منها :

١ — وفود كثير من الأمويين وأنصارهم إلى الأندلس ، ولا شك أنه كان منهم كثيرون على حظ وافر من العلم والمعرفة .

=

قرية فى كل واحدة منها مسجد وفقيه مقلص — المقلاص غطاء للرأس — تكون له الفتيا ، لا يجعل إلا ممن حفظ الموطأ ، أو عشرة آلاف حديث ، وحفظ المدونة . وكان هؤلاء الفقهاء المقلصون يأتون للصلاة مع الخليفة فى يوم الجمعة بقرطبة ، ويطالعونه بأحوال بلادهم . (نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٣) .

(١٠) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٥٤ — ٥٥ .

٢ ـ عودة أول فوج من الأندلسيين الذين درسوا بالمشرق ، وكانوا بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج البلاد ، ثم يعودون للقيام بدورهم فى نشر العلم والمعرفة . ومنهم : الغازى بن قيس الذى تتلمذ على الإمام مالك ثم عاد فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، فأكرمه وعرض عليه القضاء فأبى وأخذ فى نشر علمه(١١) . وغيره ممن مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية . مثل عبد الملك بن حبيب ، ويحيى الليثى ، وزياد ابن عبد الرحمن وغيرهم .

٣ ـ إنشاء المساجد ـ وعلى رأسها مسجد قرطبة الجامع ـ والتى كانت بمثابة النواة الحقيقية للحركة العلمية فى الأندلس ، شأنها فى ذلك شأن البلدان الإسلامية الأخرى . وفى هذه الفترة أيضا بدأ ظهور السمات الأولى المميزة للأدب الأندلسى ، والتى أخذت تتضح فيما بعد لتعطيه صورته الواضحة المتميزة(١٢) .

٤ ـ جلب كثير من الكتب والمؤلفات من المشرق إلى الأندلس ، سواء على يد الأندلسيين أو المشارقة الذين قدموا إلى الأندلس .

ولقد شهدت هذه الفترة ، وخاصة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) ـ دفعة كبيرة للحركة العلمية ، ووثبة عظيمة للثقافة والفن ، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار ، واليسر والرخاء ، حتى سميت أيامه (بالعروس)(١٣) . فقد كان

---

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ، ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٠١٥) .

(١٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٧٤ ـ ٧٧ .

(١٣) العبر ج ٤ ص ١٣٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٠١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٢٨ .

هـذا الأمير أديبـا مثقفا ، وشاعرا مطبوعا ذا همـة عاليـة ، مغرما بالفنون والعلوم ، حريصا على اقتناء الكتب ، وجلبها من الأمصار . فقد ارسل عباس بن ناصح الشاعر إلى المشرق من أجل شراء الكتب النافعة فجاء بكتاب السند هنـد وغيره . (١٤) ، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس المكتبات من الأمويين ، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التى عمرت فى عهد الحكم المستنصر .

كما كان ابنه عبد الله — رغم تقلب الأحوال السياسية فى عهده — محبا للعلم مشاركا فيـه . قال عنه ابن حيان « كان متصرفا فى فنون من العلم ، متحققا منها ، عالمـا بلسان العرب ، بصيرا بلغـاتها وأيامها ، حافظا للغريب والأخبار »(١٥) .

وقد أدت هـذه الوثبة إلى ظهور كثير من العلماء فى علوم شـتى إسلامية وعربية ، وظهور الطلائع الأولى فى العلوم العقلية والطبيعية . ويعـد عباس بن فرناس من مظـاهر هـذه الوثبـة العلمية فى هـذه الفترة ، ويعتبر من مفاخر الفكر الأندلسى بل والعالمى أيضـا ، حيـث نسبت إليـه عدة اكتشافات واختراعات منها القيام بمحاولة الطيران فى الفضـاء ، ومنها استنباط صناعة الزجاج من الحجارة ، ومنها اختراع آلة لمعرفة الوقت(١٦) .

ثم جاء عصر الخلافة فنهضت الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس نهضة شاملة ، وازدهرت ازدهارا عظيما ، كان من مظـاهره وضـوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس ، واستقلالها إلى حد كبير .

---

(١٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٤٤ — ٤٥ .
(١٥) المقتبس ص ٣٢ . نشر ملثور انطونية باريس سنة ١٩٣٧م .
(١٦) انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١ ، احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٣ .

ولا شك أن ظروف التوحد والاستقرار ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى الذى تحقق فى هـذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر كان له دخل كبير فى ذلك ، هـذا بالاضافة إلى التشجيع الكبير للعلماء ، وجلب الكثير من الكتب والمؤلفات(١٧) .

وإذا كان الفضل يعود لعبد الرحمن الناصر فى إعادة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الفتن والقلاقل التى سادت فى أواخر عهد الإمارة ، فإن الفضل يعود لابنه المستنصر فى ازدهار الحركة العلمية بصورة كبيرة ، حتى ليمكن أن نطلق عليه اللقب الذى أطلق على الخليفة المأمون العباسى وهو (الخليفة العالم) .

فقد كان مولعا بالكتب حتى قبل جلوسه على عرش الخلافة فى الأندلس ، حريصا على جلبها ، ودفع الأثمان الغالية فيها ، حتى بلغت كما ذكر نحو ٤٠٠ الف مجلد(١٨) . ومن أروع الأمثلة على ذلك : أنه أرسل إلى أبى الفرج الأصفهانى الف دينار ذهبا حتى يرسل إليه نسخة من كتابه الأغانى ، فبعثها إليه قبل أن يظهر فى بغداد(١٩) .

وقد كانت هـذه المكتبة كما ذكر تحتوى على أربعة وأربعين فهرس أو سجل ، كل فهرس يقع فى خمسين ورقة ، وكانت هـذه المدارس تكتفى بذكر أسماء الكتب ومصنفيها فقط ، كما كان فى هـذه المكتبة عدد كبير من الباحثين والنساخ والقومة والمندوبين الذين يقومون بشراء الكتب من الأمصار المختلفة ، هـذا بالإضافة إلى من يعمل بالتجليد والزخرفة ،

---

(١٧) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠١ ، المغرب : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٦ .

(١٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٠ .

والتعليق على الكتب وتصحيحها ومقابلة نسخها ، وغير ذلك(٢٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحكم يشجع العلماء على التأليف ، ويجزل لهم العطاء ، بل ويقترح عليهم بعض الميادين أو الموضوعات التى يؤلفون فيها ، ويشاركهم فى وضع مناهجها . فيذكر أنه اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة) وهو يشير إلى ذلك فى صدر هذا الكتاب ، كما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه (طبقات اللغويين والنحويين) . وقد أشار إلى ذلك أيضا(٢١) .

كما اقترح على ابن الصفار تأليف كتاب فى أشعار بنى أمية بالمشرق ، وطلب من أبى الفرج الأصفهانى تأليف كتاب فى أنساب بنى أمية فألفه له ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه فيها وقومه ، فجاد عليه بصلة جزيلة(٢٢) .

وقد كان الحكم شغوفا بقراءة الكتب ، والتعليق عليها . ولا عجب فى ذلك فقد كان كما يقول المقرى : « غزير العلم واسع الاطلاع ، ذا معرفة بالأخبار والأنساب ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب »(٢٣) .

---

(٢٠) الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠٣ وقد ذكرتها بعض المصادر عشرين ورقة . د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٨١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٤ .

(٢١) انظر قضاة قرطبة ص ١٠ ، طبقات اللغويين والنحويين ص ٩ — ١٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٠ .

(٢٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩١ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

ويقول ابن حيان : « وكان له وراقون بأقطار البلاد ، ينتخبون له غرائب التواليف . وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه ، والتصحيح لها ، والمطالعة لفوائدها . وقلما تجد كتابا فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر عن أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ويكتب فيه بخطه ... وكان موثوقا به مأمونا ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وائمتهم ، ينقلون من خطه ويحاضرون به »(٢٤) .

كما قرب الحكم العلماء وأغدق عليهم ، واهتم بإنشاء المكاتب لطلاب العلم ، ووقف عليها الأوقاف . فيذكر أنه أقام فى ساحة المسجد الجامع بقرطبة وحوله بعد الزيادة التى اضافها إليه ثلاثة مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين ، واقام كذلك اربعة وعشرين مكتبا فى أرباض قرطبة وفى ذلك يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة
مكاتبا لليتامى فى نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم
نادتك يا خير تاليها وواعيها(٢٥)

كما حبس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين بهذه المكاتب ، وأشهد على ذلك القاضى محمد بن اسحاق ، وجعل للعلماء جانبا من دار الملك يجلسون فيه للتاليف والنسخ والترجمة والمقارنة(٢٦) .

ومن الغريب بعد هذا كله أن نجد البعض ينتقد الخليفة الحكم

---

(٢٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠٢ .
(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .
(٢٦) جذوة المقتبس ص ٤٧ ، خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ .

على انشغاله بالحركة العلمية معللا ذلك بأنه انصرف عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغى . ومنهم د. حسين مؤنس الذى وافق على ذلك قائلا « وهناك وجه للحق فى هذا الحكم ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد ابن أبى عامر سبيلا إلى السلطان »(٢٧). ولكننا لا نوافق هؤلاء على ذلك فالحاكم العالم المثقف أفضل ألف مرة ومرة من الجاهل المستبد ، فهل كان مطلوبا من الحكم أن يظل جاهلا ، ولا يشتغل بالعلم ، أو يثقف نفسه ؟ ، والعلم والثقافة بلا شك يوسعان من مدارك الحاكم ليستطيع حكم الدولة حكما سديدا ، لقد كان المأمون العباسى رغم اشتغاله بالعلم والثقافة ذا حنكة ومقدرة فى كثير من النواحى السياسية والإدارية . والعجيب أن د. مؤنس عاد بعد ذلك ليقول عن سياسة المستنصر « وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد فى أمور ملكه » . وذكر أيضا : أن ملوك النصارى حاولوا انتهاز فرصة انشغاله بالعلوم ، فأغاروا على أطراف الدولة ، فنهض الحكم لغزوهم ابتداء من سنة ٣٥٢هـ ، وتوغل فى أراضيهم ، واستولى على قلاع كثيرة ، وأرغم الكثير منهم على التسليم بسيادة قرطبة فأخذوا فى إيفاد سفاراتهم لعقد المعاهدات معه(٢٨) . ومن هنا نرى : أن اهتمام الحكم بالحركة العلمية ، واشتغاله بالعلم لم يصرفه عن النظر فى أمور دولته ، بل إن ذلك زاد من خبراته وتجاربه فى حكمها . وأن الظروف هى التى ساعدت ابن أبى عامر على الوصول إلى النفوذ والسلطان لتقربه من السيدة صبح زوجة الحكم ، وتوليه الحجابة على ابنها هشام المؤيد وهو فى سن العاشرة ، وقد كان طموحا منذ البداية للوصول فاستغل فى ذلك كل فرصة ممكنة ، واتخذ

---

(٢٧) معالم تاريخ المغرب فى الأندلس ص ٣٣٣ .

(٢٨) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

وسائل عديدة غير مشروعة فى سبيل الوصول إلى هدفه(٢٩) .

وفى فترة الحجابة اهتم المنصور بن أبى عامر أيضا بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية ، بالرغم من تلك الثورة التى أعلنها على العلوم العقلية وخاصة المنطق والفلسفة ، حيث أحرق ما فى خزائن الحكم منها ، وطرح بعضها فى آبار القصر ، وأهال عليه التراب والحجارة . ويقال : إنه ما فعل ذلك إلا تقربا إلى الفقهاء المالكية والعامة لتثبيت سلطانه — حيث كانوا ينظرون إلى المشتغلين بهذه العلوم على أنهم زنادقة — وأنه كان فى قرارة نفسه يميل إليها ، ويطلع عليها(٣٠) .

وقد كان المنصور يميل إلى الكتب الأدبية ، وخاصة كتب الأسمار ، مثل كتاب حسان بن أبى عبدة (ربيعة وعقيل) ، الذى وصفه ابن حزم بأنه من أملح ما ألف فى هذا المعنى(٣١) .

والكتب ذات الطابع القصصى مثل كتاب (الهجفجف بن غدقان ابن يثربى مع الخنوت بن مخرمة بن نوفل) ، وكتاب (الجواس بن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء) . وقد ألفهما له صاعد اللغوى بعد هجرته من بغداد سنة ٣٨٠هـ واتصاله به ، كما ألف له أيضا كتاب (الفصوص) على غرار كتاب النوادر لأبى على القالى . وقيل إن المنصور كان شغوفا

---

(٢٩) انظر : د. خالد الصوفى : العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٤٢ وبعدها .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ الأمم ص ٦٦ ، ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٣٧ ، د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٢٥٧ .

بكتاب الجواس إلى درجة أنه رتب من يقرؤه له كل ليـلة(٣٢) .

ويذكر ابن حيان : أن المنصور أثاب صـاعدا على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار ، وانه أمره أن يسمعه الناس فى مسجد مدينة الزاهرة التى بناها(٣٣) .

وقـد كان للمنصور مجلس فى قصره يجتمع فيـه العـلماء والأدباء والشعراء ، وكان يشاركهم أحيـانا فى مناقشاتهم ، ويدلى فيها بدلوه ، ولا غرو فقـد كان أديبـا شاعرا ومن شعره :

رميت بنفسى هـول كل كريهة
وخاطرت والحر الكريم مخـاطر
وما صاحبى إلا جنـان مشيع
وأسـمر خطى وأبيـض باتـر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى
أسود تلاقيها أسود خوادر(٣٤)

---

(٣٢) جـذوة المقتبس ترجمـة ٥٠٩ ص ٢٤٠ ، معجـم الأدباء ج ١١ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، بغية الملتمس ترجمة (٨٥٢) ص ٣١٩ — ٣٢٠) .

(٣٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٢٣ . وهناك روايات أخرى تذكر : أن المنصور اغتاظ مرة من كثرة أكاذيب صاعد — وقد اتهم بالكذب — فأمر بإخراجه من مجلسه ، وقذف هـذا الكتاب فى النهر . وفى ذلك يقول أحـد الشعراء متهكما :

قـد غاص فى النهر كتاب الفصوص
وهـكذا كل ثقيـل يغـوص

وقد بلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أن أنشأ ديوانا خاصـــا سمى (ديوان الندماء) ، مهمته ترتيب الشعراء فى طبقات ، وبذل العطاء لهم على أقدارهم فى الشعر . وكان على رأسه واحـــد من كبار الأدباء النقاد وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة . وكان المنصور يصطحب الشعراء معـــه فى غزواته ليقولوا الشعر فيها لتحميس الجند ووصف المعارك ، وذكر أنه اصطحب مرة فى إحدى الغزوات أربعين شاعرا من كل طبقـــة(٣٥) . وإن دل هـــذا على شىء فإنما يدل على كثرة الشعراء فى ذلك الوقت .

وإلى جانب اهتمام المنصور بالأدب والشعر ، فإنه لم يغفل العـــلوم الدينية واللغـــوية فقـــد ذكر أنه كلف ابن المكوى الإشبيلى ، وأبا مروان المعيطى الفقيه بجمع أقوال الإمام مالك فى كتاب على نحو كتاب (الباهر) الذى جمع فيـــه ابن الحـــداد المصرى أقوال الإمام الشافعى فأخرجا له هـــذا الكتاب على أكمل صورة(٣٦) .

كما أنه اتخـــذ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوى قيما للتدقيق والضبط فى مكتبته ، وقد استعان بذلك فى تأليف كتاب عن تاريخ بنى عامر قـــدمه للمنصور(٣٧) .

=

فرد عليه صاعـــد قائلا :

عاد إلى معـــدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

وروايات تذكر : أن علماء قرطبة أغرقوا هـــذا الكتاب ، ورموه فى نهر قرطبة لكثرة ما فيه من أكاذيب . (انظر نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٣ ، د. خالد الصوفى : مرجع ســابق ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣٥) د. خالد الصوفى : المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٣٦) جـذوة المقتبس ص ١٣٢ .

(٣٧) التكملة ص ٣٨٤ .

كل هـذا وغيره مما جعل الحميدى يصفه بقوله « كان للمنصور همة رفيعة فى العلوم »(٣٨) .

لقـد نشـطت الحركة العلميـة نشـاطا منقطـع النظـير فى الأندلس ، وازدهرت فى عصر بنى أمية - وخاصة فى العاصمة قرطبـة التى نافست حواضر العـالم الإسلامى والأوربى آنذاك - ولم تكن وقفا على عنصر دون آخـر ، بل شـاركت فيها شتى عناصر المجتمع من عرب وبربر وموالى ومولدين ومستعربين ، كما شـاركت فيها المرأة أيضا ، فكان هناك الشـاعرات والكاتبات والناسخات للمصاحف ، والمعلمات فى المكاتب للفتيات وغير ذلك(٣٩) .

وقد أشـاد الكثير من المؤرخين بذلك حيث قال المقرى : (إن قرطبـة أعظم علما ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة بها)(٤٠) ، ووصفها بعض الأوربيين بأنهـا جوهرة العـالم(٤١) . وعنها قال الشـاعر الأندلسى مفتخرا :

بأربع فاقت الأمصـار قرطبـة
منهن قنطـرة الوادى وجـامعها
هاتان ثنتان والزهـراء ثالثـة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها(٤٢)

---

(٣٨) جـذوة المقتبس ص ١٣٣ ترجمة ٢٣١ .

(٣٩) انظر فى ذلك : باب النسـاء فى بغية الملتمس ص ٤٤٣ وبعدها ، جـذوة المقتبس ص ٤١٢ وبعدها ، ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ ، ٢٠٤ ، المعجب ص ٢٤٨ .

(٤٠) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤١) ليفى بروفنسـال : حضـارة العـرب فى أسـبانيا ص ١١٤ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٤ .

(٤٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

التعليم عند الأندلسيين :

وكان من مظاهر الحركة العلمية وازدهارها ، شيوع التعليم فى الأندلس فى ذلك العصر ، فقد أصبح عاما يشمل الجنسين ، وكثرت أماكنه ومؤسساته ، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب العلم ، وغدت اللغة العربية هى لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية ، وتعلمها الكثير من الأسبان المسيحيين ، ولذلك سموا (بالمستعربين) .

ويذكر أن هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذى جعل اللغة العربية لغة التدريس فى معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم ، وكان لهذا أثره العميق فى انتشارها وفى اعتناق الكثيرين للاسلام(٤٣) .

وقد قامت المساجد بدور هام فى التعليم عند الأندلسيين والأمثلة كثيرة على ذلك فى كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

كما قامت المكاتب بدور هام أيضا فى الناحية التعليمية . فكان الطلاب يتلقون فيها مبادىء العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم ، وقد كثرت هذه المكاتب فى عهد الخليفة المستنصر . ويمكن القول بأنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها فى بيوتهم . وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ومن مستحسنات أفعاله ، وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن فى مكاتب حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليه الأرزاق ، وعهد إليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حول المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها

---

(٤٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٢٢٩ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٧٨ .

فى كل ربض من أرباض المدينة »(٤٤) .

ونستطيع القول بأن هذه المكاتب قد قامت بدور المدارس فى البداية ، حتى قامت المدارس بعد ذلك فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة(٤٥) . ويشير ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى إلى أنه لم تكن هناك مدارس فى الأندلس تعين على طلب العلم كما كان الحال فى المشرق ، وإنما كان طلاب العلم يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة(٤٦) . وفى هذا رد على كثير من الباحثين الذين يتجوزون فيذكرون أنه كانت هناك مدارس فى الأندلس فى العصر الأموى ويطلقون على الكتاتيب أو المكاتب هذا اللفظ(٤٧) ، ومعلوم أن المدارس لم تظهر فى العالم الإسلامى كمؤسسات تعليمية تسمى بهذا الاسم إلا فى القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك عندما أنشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧هـ . ولم تظهر المدارس بالأندلس بهذا المسمى إلا فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٦٣٥هـ — ٨٩٧هـ)(٤٨) .

وقد قام المؤدبون بدور كبير فى التعليم حيث أدبوا أبناء العامة والخاصة ، وكان منهم كثير من العلماء مثل الغازى بن قيس ، الذى كان يؤدب فى قرطبة عند دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأبو الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب (ت ٢٠٩هـ) ، وكان عالما بالنحو

---

(٤٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٦ .
(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ .
(٤٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢ .
(٤٧) انظر خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٣ — ١٤ ، ص ٢٠ .
(٤٨) انظر : دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ ، ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان ص ٥٠ .

واللغة ، واحمد بن نعيم وكان مؤدبا بجيان وطليطلة ، وجابر بن غيث الذى اشتهر بشدته على الطلاب فقل من تأدب عنده(٤٩) .

ومحمد بن حـزم — وهو غير ابن حـزم الفقيه المشهور — الذى كان يساعده ابنه وابنته فى تعليم الصبيان والبنات فى مكتبة بقرطبة .

وسعيد بن سلمون بن سيد ابيه ، وكان من اهل قرطبة له كتـاب يؤدب فيـه ، وكان صالحا قرأ عليـه كثير من الناس القرآن(٥٠) .

ومن مؤدبى ابنـاء الأمراء والخاصة : هشام بن الوليد الغافقى مؤدب الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وابو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعى، وكان عالمـا بالنحو واللغـة ، مبرزا فى الشـعر ، أدب ابنـاء الأمير عبد الرحمن الأوسـط ، وابن أرقم مؤدب عبد الرحمن الناصر(٥١) .

وعثمان بن نصر بن عبد الله القرطبى (ت ٣٢٥هـ) مؤدب الحـكم المستنصر(٥٢) . ووليد بن عيسى بن حارث ويعرف بالطنيجى (الطنجى) ت ٣٥٢هـ ، وكان بصيرا بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر فيه ، شرح شعر أبى تمام ، ومسلم بن الوليد ، فأخذ الناس عنه ذلك . « كان مؤدبا بعيد الاسم فى التأديب ، يتنافس فيه الملوك » كما قـال ابن الفرضى(٥٣) .

---

(٤٩) انظر طبقات الزبيدى ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٥٠) انظر تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٥٢٦ ، ربيرا : المرجـع السابق ص ٢٠٢ .

(٥١) انظر طبقات الزبيدى ص ٢٩٣ — ٢٩٩ ، المقتبس فى اخبار بلـد الأندلس ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

(٥٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٨٩٨ .

وحسين بن وليد بن نصر القرطبى (٣٩٠هـ) وهو من تلاميذ ابن القوطية وكان عالما بالعربية متقدما فيها ، وكان مؤدبا لأبناء المنصور ابن ابى عامر(٥٤) .

ومحمد بن خطاب الأزدى وكان يختلف إليه فى علم العربية كثيرون من أولاد الخاصة والكبراء(٥٥) ، وغير هؤلاء كثيرون ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

وقد اتخذ بعض هؤلاء المؤدبين أو المعلمين من التعليم حرفة يتكسبون بها ، وكان الواحد منهم يتقاضى جعلا أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتقان والحذق ولذلك عرفت هذه المكافأة باسم (الحذقة)(٥٦) .

أما مؤدبو أولاد الأمراء والخلفاء والخاصة ، فقد ارتقوا إلى مكانة عالية ، حيث كان معظمهم من مشاهير العلماء ، واغدق عليهم الكثير والكثير(٥٧) .

ويذكر الزبيدى طبيعة التحصيل العلمى عند هؤلاء المؤدبين فيقول : « ولم يكن عند مؤدبى العربية ، ولا عند غيرهم ممن عنى بالنحو كبير علم ... وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة فى تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعانى لهم فى ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية ، وغوامضها ، والاعتلال

---

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ١٥١٢ .
(٥٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٣٥٦ .
(٥٥) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٥٤ .
(٥٦) انظر : طبقات الزبيدى ص ٢٧٨ .
(٥٧) انظر عن مرتبات المعلمين (التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٢١ وبعدها) .

لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى إمالة ولا إدغام ، ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يجيبون فى شىء منها »(٥٨) .

فهو يتهم مؤدبى العربية والنحو بقلة التحصيل العلمى ، غير ان هذا الحكم العام يأتى جائرا ومجحفا فى حق الكثير من المؤدبين الذين وصلوا إلى مراتب عليا فى العلم ، وكان منهم كثيرون لهم منزلة كبيرة فى نفوس الناس . ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات الاندلسية ومنها طبقات الزبيدى نفسه يجد الكثير من الأمثلة على ذلك مثل أبى جرش الذى ضرب به المثل فى الفصاحة ، وأبى بكر الكنانى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله ، وصالح بن معافى ، والرشاشى وغيرهم(٥٩) .

وقد ذكر ابن خلدون بعض مبادىء التعليم عند الاندلسيين فقال : « إنهم يجعلون القرآن أصلان التعليم ، ولكنهم لا يقفون عند ذلك كما يفعل سائر أهل المغرب ، وإنما يخلطون فى تعليمهم رواية الشعر والترسل، والأخذ بقواعد العربية وحفظها ، وتجويد الخط إلى ان يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتابة ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ويمتدح هذا المنهج التعليمى فيقول : « فأفادهم التفنن فى التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى »(٦٠) .

---

(٥٨) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

(٥٩) المصدر السابق : ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٤ .

(٦٠) المقدمة ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ المطبعة البهية د.ت .

وقد ذكر ابن خلدون أيضا : أن القاضى أبا بكر بن العربى (ت٥٤٣هـ) قد ذهب إلى طريقة غريبة فى التعليم حيث قدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، ثم ينتقل إلى الحساب ، ثم إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه حتى يستطيع فهم ما يقرأ . وأنه انتقد أهل البلاد الذين يأخذون الصبى بحفظ القرآن فى أول أمره فيقرأ ولا يفهم ، ونهى عن أن يخلط فى التعليم علمان إلا إذا كان المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط . وعلق ابن خلدون على ذلك بقوله « وهذا لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه »(٦١) .

ويبدو أن هذا المنهج لم يطبق نظرا لصعوبته من ناحية ولأن حفظ الصبى القرآن فى الصغر أجدى وأنفع ، وجرت العادة بذلك من ناحية أخرى .

ويشير ابن العربى إلى المنهج الذى سار عليه الأندلسيون فى تعليم أولادهم فيقول : « فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . ثم ينقلونه إلى وثائق ابن العطار ثم يختمون له بأحكام ابن سهل »(٦٢) .

ويبدو أن الأستاذ أحمد أمين قد فهم من قول ابن خلدون ، وذكره

---

(٦١) المقدمة ص ٣٩٨ .

(٦٢) خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٧٦ . والمدونة : هى مجموعة رسائل من فقه الإمام مالك جمعها تلميذه أسد ابن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . (د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) .

(٦٣) انظر : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ – ٩ .

لطريقة ابن العربى فى التعليم ان هذا المنهج الذى رآه ابن العربى قد طبق . ولذا قال : « وقد ذكر ابن خلدون وابن العربى أن للأندلسيين طريقة فى التعليم تختلف عن طريقة اهل المشرق . فهم فى المشرق يحفظون القرآن للصبى قبل أن يستطيع فهمه ، ثم يعلمونه اللغة العربية . وعيب هذه الطريقة أن الحافظ للقرآن من غير معرفة معانيه عرضة للفهم الخاطىء الذى يبقى فى ذهنه على مر الأيام ، أما فى الأندلس فيعلمون اللغة العربية اولا ثم يحفظون القرآن بعد القدرة على الفهم ، وعيب هذه الطريقة ان بعض المتعلمين قد يتخلفون عن حفظ القرآن او تعلم العربية ، ثم ينقطعون عن التعليم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن اولا ولو من غير فهم ثم يتعلم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانية وقد استطاع الفهم »(٦٣) .

غير أن قول ابن خلدون (إنهم يجعلون القرآن اصلا فى التعليم)، وقول ابن العربى (فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله) يفيدان غير ما قال به الأستاذ احمد أمين ، والواقع ان الأندلسيين مثل المشارقة ساروا على تعليم ابنائهم القرآن الكريم أولا لأن هذا هو الأصل ، وهو الأجدى فى الحفظ ، وأن المنهج الذى وضعه ابن العربى لم يطبق لصعوبته من ناحية ، ولأن العوائد لا تساعد على تطبيقه من ناحية أخرى كما قال ابن خلدون .

الإجازات العلمية :

وكما ان الإجازات العلمية كانت معروفة فى المشرق ، فقد انتقلت إلى الأندلس ايضا بانتقال الكثير من العلماء المشارقة . وأصبح منح الأستاذ الإجازة لطلابه امرا شائعا ، بعد تتلمذهم على يديه .

وكانت تسجل فى وثيقة من الرق او الكاغد (الورق) ، أو فى

الكتب التى درسها الطالب بخط الأستاذ نفسه(٦٤) . ومن أمثلة هـذه، الإجازات ما ذكره ابن الفرضى من أن يوسف بن محمد بن سليمان الهمذانى الشذونى الذى رحـل إلى المشرق عشر سنوات وسمع من الكثيرين أجـاز له جميع ما رواه وتوفى سنة ٣٨٣هـ(٦٥) .

ولم تكن هـذه الإجازات مقصورة على الرجـال فقط بل نالتها بعض النساء أيضـا . فقـد ذكر الضبى : أن أبا عمرو الدانى المقرىء (عثمان ابن سعيد) المعروف بابن الصيرفى (ت ٤٤٤هـ) كان يقرىء بالمرية ، وقرأت عليـه امرأة تدعى (ريحـانة) ، وكانت تقعـد خلف سـتر فتقرأ ، ويشير إليها بقضيب فى يده إلى الوقف ، وأنها أكملت السبع عليه ، وقرأت عليه خلاف السبع روايات ، وطالبته بالإجازة فكتب لها إجـازتها بعـد توقف(٦٦) .

وقد وضع أبو العباس العمرى وليـد بن بكر بن مخـلد (٣٩٢هـ) ـــ وكان من أهـل سرقسطة ، ورحل إلى المشرق ، ولقى الكثير من العلماء فى بلاد عديدة ـــ كتابا فى تجوز الإجازة سماه (كتاب الوجازة) . وهو فى هـذا الكتاب يحتج على بعض الإجازات العلمية ، ويرى أنهـا غير موثوق بهـا ، وأن الزيف قـد شابها(٦٧) . وهـذا دليل على قيـام البعض بتزييف الإجازات العلمية ، للتصدى للإقراء والتـدريس طمعا فى المكانة والمنصب ، والحصول على المكاسب المـادية .

---

(٦٤) ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٤٨ .
(٦٥) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٦٣٦ جـ ٢ ص ٢٠٦ ـــ ٢٠٧ .
(٦٦) الضبى : بغيـة الملتمس ترجمة ١١٨٦ .
(٦٧) الضبى : بغيـة الملتمس ترجمة ١٤١١ .
وقد ذكره خوليان ربيرا باسم (الوجازة فى صـحة القـول بالإجـازة) . ولم يشر إلى المصدر الذى أتى منـه بذلك (التربية الإسلامية ص ١٤٩)

أهم العلوم وأشهر العلماء

أولا : العلوم الدينية والعربية

اهتم الأندلسيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وقد بدأت بذرة هذه العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين إلى الأندلس مع الفتح وبعده . وكان هؤلاء إلى جانب كونهم جنودا فاتحين ، حملة علم ومعرفة ومثلوا اللبنة الأولى فى العلوم الدينية والعربية ، ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية حملوا معهم علما جديدا وكان معظم هؤلاء من الذين رحلوا إلى المشرق وتتلمذوا على يد علمائه ، ثم جاءت طبقة ثالثة خطت بالعلم خطوات جديدة من حيث التنظيم والتأليف . ومن أشهر هذه العلوم :

١ ـ **علم التفسير** : كان القرآن ولا يزال المصدر الأساسى ، والمنهل العذب للكثير من العلوم ، وعلى رأسها علم التفسير ، ومن المعلوم أن المفسرين قد اتجهوا فى تفسير القرآن اتجاهين :

(أ) التفسير بالمأثور : وهو ما أثر عن النبى ﷺ وصحابته من أقوال فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

(ب) التفسير بالرأى : وهو ما يعتمد فيه على العقل إلى جانب النقل ، وربما أكثر(١) .

ومن مشاهير المفسرين فى عصر بنى أمية بالأندلس بقى بن مخلد (ت ٢٧٣ ، ٢٧٦هـ) الذى ألف تفسيرا للقرآن الكريم اطلع عليه

---

(١) من أشهر المفسرين بالمأثور فى الأندلس والذين وصلتنا كتبهم ابن عطية أبو محمد بن عبد الحق (ت ٥٤٦ هـ) ، ومن أشهر المفسرين بالرأى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الشهير بالإمام القرطبى (٦٧١هـ) صاحب الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبى .

ابن حـــزم وقال عنه « اقطع قطعا لا استثنى فيـــه انه لم يؤلف فى مثله ، لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »(٢) .

وكذلك ابن محامس عثمان بن محمد (ت ٣٠٦هـ) المكنى بأبى سعيد ، وكان من أهل استجة . قال عنه ابن الفرضى : (كان حافظا للتفسير ، عالمـــا بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب نقل اكثره على ظهر قلب)(٣). وقد اشتهر بالزهـــد والعزوف عن الدنيـــا . يروى أنه كتب على باب داره (يا عثمان لا تطمع)(٤) .

وكذلك سعدان بن سعيد بن خمير المكنى بأبى سعيد وهو من أهـــل قرطبة ، كان إماما للمسجد الجامع بها ، وقـــرأ الناس عليه كتاب التفسير المنسوب إلى ابن عباس من رواية الكلبى(٥) .

٢ ــ **علم الحـديث** : ازدهر علم الحديث بالأندلس ، واشتغل به كثيرون . يقول ابن سعيد « ورواية الحديث عندهم رفيعة »(٦) .

ويذكر ابن الفرضى : أن صعصعة بن سـلام الشامى (ت ١٩٢هـ) تلميذ الإمام الأوزاعى كان أول من أدخل الحديث إلى الأندلس(٧) .

كما يذكر أن الغازى بن قيس (ت ١٩٩هـ) كان أول من أدخل الموطا

---

(٢) الحميدى : جـذوة المقتبس ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١ ، الضبى : بغية الملتمس ص ٢٤٥ ترجمة ٥٨٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٩٠١ .

(٤) انظر جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٥ ، بغية الملتمس ترجمة ١١٩٤ وقد ورد اسمه فيهما عثمان بن محامس .

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٤٥ .

(٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٦١٠ .

إلى الأندلس قبل زياد بن عبد الرحمن اللخمى (شبطون) ت ٢٠٤هـ ، وقيل إنه كان يحفظه(٨) .

غير اننا نجد فقيها ومحدثا مشهورا دخل الأندلس منذ سنة ١٢٣هـ ، واستقر فى مالقة ، ثم انتقل منها إلى إشبيلية وهو معاوية ابن صالح الحضرمى الحمصى ، وعندما قدم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس عهد إليه بعدة أمور منها : أنه وجهه بكتاب إلى أخته أم الأصبغ ، وكان عبد الرحمن قد تركها فى الشام ، ثم ولاه القضاء . ويعتبر هو مدخل علم الحديث إلى الأندلس على حد قول يحيى بن يحيى الليثى ، وقد أفرد له ابن الأبار كتابا خاصا سماه (المدخل الصالح فى حديث معاوية بن صالح) وقد توفى سنة ١٥٨هـ(٩) .

وهو يعتبر بذلك من أوائل المحدثين بالأندلس إن لم يكن أولهم ، قبل صعصعة والغازى بن قيس . ويعتبر بقى ابن مخلد أيضا من أشهر علماء الحديث إلى جانب التفسير والفقه . وكان قد أدخل مسند ابن أبى شيبة كاملا ، وأخذ يدرسه فى قرطبة ، فأثار ذلك فقهاء المالكية ، وصنف فى الحديث كتابا رتبه على أسماء الصحابة ، روى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف ، كما رتبه على أبواب الفقه المختلفة أيضا . فهو مصنف ومسند معا ، أو كتاب فقه وكتاب حديث ، قال عنه ابن حزم : « وما أعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفاله فيه

---

(٨) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ، ٤٥٨ ، جذوة المقتبس ترجمة ٢٤٨ .

(٩) انظر : المقتبس ص ٣١٤ ــ ٣١٥ ، قضاة قرطبة ص ٣٠ ، ٤٢ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥ .

بالحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل واربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائر اعلامهم مشاهير(١٠) .

ثم تلاه تلميذه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد ، وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه(١١) .

ومن علماء الحديث أيضا : قاسم بن ثابت (ت ٣٠٢هـ) الذى عنى بجمع الحديث والفقه ، وألف فى غريب الحديث كتابا سماه (الدلائل) أثنى عليه الكثيرون ، ومنهم أبو على القالى الذى قال عنه « لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب قاسم فى شرح الحديث »(١٢) .

وكذلك أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى ويعرف بابن عمريل ت ٣١٢هـ وكان عالما بالحديث حافظا له ، بصيرا بعلله ، إماما فيه ، وكانت الرحلة إليه فى وقته(١٣) .

ومنهم أيضا قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠هـ) الذى رحل إلى القيروان ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس وقد تبحر فى الحديث والرحال ، والف كتابا طويلا ، ثم اختصره وسماه (المجتنى) ، وقدمه للحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند الفان وأربعمائة وتسعون حديثا فى سبعة أجزاء ، وصنفه على أبواب الفقه ، وكان له الفضل فى نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة ، وله مصنف آخر فى بيان صحيح الحديث وغريبه(١٤) .

---

(١٠) بغية الملتمس ترجمة ٥٨٤ ص ٢٤٥ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٨٣ .

(١٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠٦٢ . يذكر أنه مات قبل إكماله فأكمله أبوه بعد وفاته .

(١٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٦ .

(١٤) انظر ترجمة فى تاريخ علماء الأندلس رقم ١٠٧٠ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٠ .

٣ ـ **علم القراءات :** نما علم القراءات فى الأندلس شيئا فشيئا ، حتى وصل إلى الذروة على يد الإمام الشاطبى ، صاحب الرسالة المشهورة (حرز الأمانى) المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، والتى عمت شهرتها الآفاق ، ولا تزال مرجعا الكثيرين من المشتغلين بالقراءات إلى اليوم(١٥) .

وكانت قراءة نافع هى القراءة المشهورة بالأندلس يقول المقدسى (وأما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع)(١٦) ويقول ابن سعيد (وقراءة القرآن عندهم بالسبع)(١٧) .

ومن الذين اشتغلوا بعلم القراءات فى الأندلس فى العصر الأموى سليمان بن مسرور ، وكان من أهل طليطلة ، غلب عليه العلم بالقراءات وكان فيها إماما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، رحل حاجا قبل التسعين من عمره ، ثم استوطن مصر وتوفى بها(١٨) . ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزارى القرطبى (ت ٣٦١هـ) ، وقد عنى بالقراءات والتفسير ، وكان عابدا زاهدا(١٩) . ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله المقرىء الطلمنكى ، وهو محدث منسوب إلى بلده ، وكان إماما فى القراءات مذكورا ، وثقة فى

---

(١٥) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٣ ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٥ .

(١٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٣ .

(١٧) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(١٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٥٣ .

(١٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٩٥ .

الروايع مشهورا ، توفى سنة ٤٢٨هـ(٢٠) .

ومن اشهر من عرف بالقراءات فى الاندلس قبل الإمام الشاطبى : ابو عمر الدانى (عثمان بن سعيد المقرىء) وكان قد رحل إلى المشرق قبل الاربعمائة ، وطلب علم القراءات ، وقرا وسمع الكثير ، ثم عاد إلى الأندلس فتصدر بالقراءات والف فيها عدة مؤلفات بلغت المائة ، ونظمها فى أرجوزة مشهورة . وكان إمام وقته فى الإقراء ، وقد توفى فى دانية سنة ٤٤٤هـ(٢١) .

علم الفقه :

يقول ابن سعيد عن الفقه فى الأندلس : « والفقة رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إنهم كانوا يسمون الأمير العظيم عندهم بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى الفقيه لأنها عندهم من أرفع السمات »(٢٢) . ومن هذا تتضح مكانة الفقه والفقهاء بالأندلس .

وقد كان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل على مذهب الإمام الأوزاعى(٢٣) ، وقد سار على هذا المذهب

---

(٢٠) بغية الملتمس ترجمة ٣٤٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٨٧ .

(٢١) بغية الملتمس ترجمة ١١٨٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٢ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٢٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى نسبة إلى الأوزاع وهم بطن من حمير ، أو نسبة لقرية سميت بذلك تقع خارج باب الفراديس من دمشق . ولد فى بعلبك سنة ٨٨ ، ٩٣هـ ، ثم

عـدد من العلماء ومن أشهرهم تلميذه وناشر مذهبـه أبو عبد الله صعصعة ابن سـلام الشامى ت ١٩٢هـ ، الذى كانت الفتيـا دائرة عليـه فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وصدرا من عهد ابنه هشام . وانتفع بعلمه كثيرون مثل عبد الملك بن حبيب السلمى ت ٢٣٨هـ ، وعثمان بن أيوب (ت ٢٤٦هـ)، وابن زريق الملقب (بزونان) الذى تولى الفتيا فى عهد هشام وكان يذهب مذهب الأوزاعى(٢٤) .

ثم بدأ مذهب مالك فى الانتشـار فى عهد هشـام بن عبد الرحمن الداخل . ويذكر أن الفضل فى ذلك يعود إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمى (شبطون) ت ٢٠٤هـ ، الذى يقال : إنه أول من أدخل فقـه الإمام مالك إلى الأندلس(٢٥) .

ومن الفقهاء الذين برعوا فى الفقه أيضـا عيسى بن دينار الغافقى (ت ٢١٢هـ) قال عنه محمد بن عبد المـلك (كان عيسى بن دينار عالمـا متفننا مفتقا ، وهو الذى علم المسائل أهل مصرنا وفتقها ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمه) .

وكان محـمد بن عمر بن لبـابة يقول « فقيـه الأندلس عيسى ابن دينار ، وعالمها عبد المـلك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى » .

=

رحل إلى دمشق واليمن والحجاز والعراق للتعلم ، ثم عاد فاستقر فى بيروت حتى توفى بها سنة ١٥٧هـ ودفن بقرية قريبـة منهـا تسمى (جنتوس) ، وكان كثير المناقب ، عرف بالزهـد والورع وطول الصمت وكان رأسا فى العـلم والعمل (وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٧ ، العبر فى خبر من غبر ج ١ ص ٢٢٧) .

(٢٤) انظر تاريخ علماء الأندلس تراجم رقم ٦١٠ ، ٨١٦ ، ٨٩٩ ، ٨١٥ .

(٢٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٤ ، (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٥١) .

وقال عنـه ابن الفرضى « كان إماما فى الفقه على مذهب مالك بن انس ، وعلى طريقة عالية بن الزهد والعبادة ، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة ، وكان يعجبه ترك الرأى والأخذ بالحديث »(٢٦) .

ومنهم : محمد بن عمر بن لبابة (ت ٣١٤هـ) وكان إماما فى الفقـه مقدما على أهل زمانه فى حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا ، يذكر أنه درس كتب الرأى ستين سنة ، وانفرد بالفتيا فى عهد الناصر(٢٧) .

ومنهم أيضا لبـابة محـمد بن يحيى بن عمر (ت ٣٣٠هـ) وكان حافظا للفقه على مذهب الإمام مالك ، عالـما بعقـد الشروط ، بصـيرا بعللها ، ولى قضـاء البيرة فى عهـد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وله فى الفقه كتب مؤلفـة . منها كتاب المنتخب الذى قال عنـه ابن حـزم « وما رأيت لـمالكى كتابا أنبل منه فى جميع روايات المذهب .. الخ »(٢٨) .

كما كان منهم يحيى بن يحيى الليثى (ت ٢٣٤هـ) — زعيم الفقهاء فى ثورة الربض — والذى لقب بعاقل الأندلس وقد أصبحت له الفتيـا بالأندلس بعـد عيسى بن دينار ، وغـدت له مكانة عظيمة ونفوذ كبير خاصة فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان أحمد بن خالد يقول : لم يعط أحـد من أهل العلم بالأندلس منـذ دخلها الإسـلام من الحـظوة وعظم القـدر ، وجـلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وسمع منه مشايخ

---

(٢٦) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١١٤٤) .

(٢٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١١٨٩ ج ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٢٣١ ج ٢ ص ٥١ ، بغيـة الملتمس ترجمة (٣١١) .

الأندلس فى وقتــه)(٢٩) .

وكذلك يحيى بن معمر الألهانى ، وكان ورعا فاضلا ، اشتهر بالفقه والفرائض ، وولاه عبد الرحمن الأوسط قضــاء الجماعة بقرطبة ، فـكان عنــد حسن ظنــه ، وكان إذا اختلف مع فقهاء قرطبــة فى حــكم من الأحكام ، كتب إلى فقهاء مصر من المــالكية يسترشد برأيهم ، فكان فقهاء قرطبة ينفرون منــه لذلك ويذمونه ، وعلى رأسهم يحيى الليثى الذى ظل به حتى عزل من القضــاء(٣٠) .

وكذلك كان عبد المــلك بن حبيب (ت ٢٣٨هـ) من الفقهاء المشهورين وله فى الفقه كتاب (الواضــحة) لم يؤلف مثله كما قيل ، وكان يعد عالم الأندلس كما قال ابن لبابة(٣١) .

وكذلك ابن مرتنيل عبد الله بن محمد بن خــالد (ت ٢٥٦هـ) الذى اعتبره ابن الفرضى رأس المــالكية بالأندلس والقائم بهــا والذاب عنهــا فى عصره(٣٢) .

وفى عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضى (١٨٠ — ٢٠٦هـ) غدا

---

(٢٩) نفس المرجع ترجمة ١٥٥٦ ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، يقال إنه سمى بعاقل الأندلس لأنه لمــا رحل إلى المدينــة ليتعلم من الإمام مالك جلس إليه ذات يوم فذكر أن هنــاك فيــلا عظيما فخرج الكثيرون لرؤيته فقال له الامام مالك : لمــاذا لا تخرج لترى الفيل ، فقال : إنما جئت لأتعلم منك (نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨) .

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣١) المرجع السابق ترجمة ٨١٦ ج ١ ص ٢٦٩ — ٢٧١ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(٣٢) نفس المرجع ترجمة ٦٣٧ ج ١ ص ٢١٣ .

للمذهب المالكى المكانة الأولى فى الأندلس ، وأصبح المذهب الرسمى ، وتقلص مذهب الأوزاعى ، وبدأ فى الاندثار ، ولم يبق منه إلا مسألة إباحة زراعة الأشجار فى ساحة المساجد .

ومن أعلام المالكية فى فترة الخلافة عبد الله بن أبى دليم الذى صنف كتاب (الطبقات فيمن روى عن مالك من الأنصار)(٣٣) ، ويحيى ابن عبد الله بن يحيى الليثى(٣٤) . وهناك الكثير من فقهاء المالكية ممن ترجمت لهم كتب الطبقات ومن أشهرها كتاب القاضى عياض (ت ٥٤٤هـ) المسمى (ترتيب المدارك ،وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك) .

وإلى جانب فقهاء المذهب المالكى فقد وجد فقهاء على المذاهب الأخرى ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للمالكية ، مثل المذهب الشافعى . ومن علمائه ابن أبى بردة البغدادى « الذى كان من أعلم الناس بمذهب الشافعى ، وأحسنهم قياما به ، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بهذا المذهب » كما قال ابن الفرضى(٣٥) .

وقاسم بن محمد بن سيار البيانى وكان محدثا فقيها على هذا المذهب ، وله مؤلفات فى الرد على مخالفيه ومنها كتاب (الإيضاح فى الرد على المقلدين)(٣٦) .

وكذلك عثمان بن أبى سعيد الكنانى(٣٧) ، وأسلم بن عبد العزيز

---

(٣٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٧٠٧) .
(٣٤) المصدر السابق ترجمة (١٥٩٧) .
(٣٥) نفس المصدر ترجمة (١٤٠٣) .
(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة (٧٦٤) .
(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨٩٢) .

ابن هاشم(٣٨) ، واحمد بن عبد الوهاب بن يونس(٣٩) ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتب التراجم .

ومن فقهاء المذهب الحنفى : محمد بن عيسى الملقب بالأعشى القرطبى، الذى كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق كما ذكر ابن الفرضى(٤٠) . وكذلك أحمد بن سليمان القيروانى الذى قدم إلى الأندلس ، وروى عن سحنون بن سعيد ، وكان يذهب مذهب العراقيين كما ذكر ابن الفرضى ، وتوفى ببجانة سنة ٢٩٦هـ(٤١) .

كما وجد فقهاء على المذهب الظاهرى مثل القاضى منذر بن سعيد البلوطى « الذى غلب عليه التفقه بهذا المذهب ، فكان يؤثره ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به نفسه وبنيه ، ولكنه كان يقضى بالمذهب المالكى لأنه المذهب المعمول به فى الأندلس »(٤٢) .

ومثل عبد الله بن محمود بن قاسم بن هلال ت ٢٧٢هـ(٤٣) ، والحسن ابن دحية الظاهرى . والفقيه المشهور ابن حزم الذى حمل لواء هذا المذهب ، وعمل على نشره وإحيائه من جديد بعد أن كاد يندثر(٤٤) .

---

(٣٨) المصدر السابق ترجمة (٢٨٠) .

(٣٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٥٤) .

(٤٠) المصدر السابق ترجمة (٢٠٠) .

(٤١) ابن حيان المقتبس ص ٢٠٨ — ٢٠٩ تحقيق مكى .

(٤٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٤٠٤) ، نفح الطيب ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٩٥٥) .

(٤٤) تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٣١١ — ٣١٢ .

فإذا خطونا خطوة أخرى رأينـــا أن الاختـــلافات أو الخلافات بـــين وقد تحدثت بالتفصيل عن هذه المذاهب فى الفصل الثالث .

الفقهاء فى المشرق قـــد اشتدت ، وألفت فى ذلك الكتب المتعددة ، حيـــث سرى الاختلاف من السياسة إلى العقائد ثم إلى العلوم وبخاصه الفقـــه . فنجـــد الكثير من الفقهاء يتناظرون طويلا فى كثير من المسائل الفقهية . وقد نشأ عن ذلك علم جديد يسمى بعـــلم الاختلاف . ويؤثر عن أيـــوب السختيانى قوله (لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف)(٤٥) .

وقد أدى هـــذا إلى ظهور فريق من الفقهاء حكموا العقل فى آرائهم ، وفلسفوا أدلتهم ، وسموا بأهل الرأى لغلبـــة القياس على فقههم وكان أكثرهم بالعراق وفى مقابلهم أهل الحديث ، وكان أكثرهم بالحجاز(٤٦) .

وقد اشتد الخـــلاف بين الفريقين وهو خلاف كان منشؤه فى الأعم الأغلب البحث والدراسة ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، وليس الهوى والتعصب ، ومحاولة التغلب على الفريق الآخـــر ومثال ذلك تلك المناظرة التى جرت بين أبى حنيفة وهو صاحب الرأى والقياس ، وبين الأوزاعى وهو من أهل الحديث فى دار الخياطين بمـــكة حـــول رفع الأيدى عنـــد الركوع وعند الرفع منـــه(٤٧) .

وقد جمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة فى كل مسألة ، وألفوا فى اختلاف الرأى كتبـــا كثيرة مثل الطبرى فى كتابه (اختلاف الفقهاء)(٤٨) .

---

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٨ .
(٤٦) ابن قتيبة : المعـــارف ص ٢٨٤ .
(٤٧) أبو زهرة : تاريخ الجـــدل ص ٣٢١ .
(٤٨) نشر المستشرق يوسف شاخت بعض أجزاء من هـــذا الكتاب تحت

=

وقـد انتقل ذلك إلى الأندلس فرأينـا مثلا ابن رشد الحفيـد يؤلف كتابا فى اختلاف المذاهب وعللها سـماه (بداية المجتهد ونهـاية المقتصد) . وهو يذكر الخلاف فى كل مسألة فقهية حـدث فيها اختلاف ويرجع ذلك إلى سببه ، ويضع قاعـدة عامة فى ذلك يطبقها على كل أنواع الخـلاف فى الفقه تطبيقـا بديعـا فكان هـذا فى الواقع خطوة جديدة .

ولمـا وجدت مذاهب أخرى فى الأندلس إلى جانب المذهب المـالكى ومن قبلـه مذهـب الأوزاعى كثر الجدل بعـد أن كان الأندلسـيون منصرفين عنـه فى البداية ، حتى حكى أن بعضهم كان يتجادل حتى فى مجالس العزاء ، وكان لكثرة الجـدل بين الفرق والمذاهب فى المشرق أثر فى ذلك(٤٩) .

علـوم اللغـة :

بالرغم من قـدوم الكثير من العرب اثناء الفتح وبعده إلى الأندلس ، ومعهم لغتهم وأشعارهم ، وأيامهم وأخبارهم ، وبذرهم البـذرة الأولى ، إلا أن ذلك لم يكن علما منظما ، حتى جاء الأمويون فأرادوا بنـاء دولتهم ومنافسة العباسيين والفاطميين الذين كان من أسباب حضارتهم ازدهـار الحركة العلمية ، ومن هنـا رأيناهم يستدعون كبـار العـلماء من المشرق للمساهمة فى نشر الثقافة العربية ، إلى جانب من قـدم بنفسه . ومنهم ابو على القـالى اسماعيل بن القاسم بن عبدون الـذى كان أبوه مولى

عنوان (كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى) فى ليدن سنة ١٩٣٣م .
(انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٩٤ هامش ٢)

(٤٩) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٢ ، ٦٨ .

لعبد الملك بن مروان واستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ « فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأمالى ، وعظمت استفادتهم منه »(٥٠) .

وقد تتلمذ على يديه الكثيرون بالأندلس ، وأملى على طلابه كتابه الشهير (الأمالى) ، وكذلك كتاب (النوادر) . وكان من أشهر تلاميذه الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذى تأدب على يديه ، وكان لذلك أثره الكبير فى حبه للعلم ، وجمعه للكتب . وأسس بذلك أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس .

يقول ابن حزم - وهو من هو - « كتاب نوادر أبى على وهو ذيل الأمالى ، مبار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد . ولئن كان كتاب المبرد أكثر نحوا وخبرا ، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا »(٥١) .

ومن مؤلفاته أيضا : كتاب الممدود والمقصور ، وكتاب البارع فى اللغة ، رتبه على حروف المعجم ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف ورقة ،

---

(٥٠) لقب بالقالى نسبة إلى قالى قلا (قاليقلا) . وذكر أنه ولد فى مناذجرد (ملاذجرد) بديار بكر التى تقع الآن فى تركيا . انظر معجم البلدان ج ٧ ص ١٧) . وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين أنه رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ (ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ - ٨٤) . بينما ذكر د. أحمد هيكل أنه رحل إليها سنة ٣٤٠هـ (الأدب الأندلسى ص ١٩٢) . والصحيح أنه رحل إليها سنة ٣٣٠هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٢٣) . والحميدى (جذوة المقتبس ترجمة ٣٠٣) . ولم يذكر لنا د. هيكل المصدر الذى رجع إليه فى ذلك ، ونعتقد أنه ربما يكون خطأ مطبعيا .

(٥١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ .

وذكر أنه لم يؤلف مثــله ، وقــد ظل فى قرطبة ينشر علمه حتى توفى سنة ٣٥٦هـ(٥٢) .

وقــد برز فى هــذه الفترة أيضــا عدد من الأندلسيين الذين تتلمذوا على يد القالى مثل : أبى بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، والــف كتاب طبقات النحويين واللغويين ، وكتاب لحن العــامة ، وكتاب الأبنيــة فى النحو ، وكتاب الواضح فى العربية . وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم المستنصر(٥٣) .

ومن الأندلسيين المولدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية أيضــا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) الذى برع فى الفقه والتاريخ أيضــا . يقول عنه ابن الفرضى « وكان عالما بالنحو ، حافظا للغــة ، متقدما فيها على أهل عصره ، لا يشق غبــاره ، ولا يلحق شأوه ، وله فى هــذا الفن مؤلفات حسان منها كتاب تصــاريف الأفعال ، وكتاب المقصور والممدود ، وغير ذلك ، وكانت كتب اللغــة أكثر ما تقرأ عليــه ، وتؤخذ عنــه »(٥٤) .

ويقول عنــه الحميدى : « كان إماما فى العربية ، وله كتاب الأفعال لم يؤلف مثــله »(٥٥) .

ومن الذين برعوا فى هــذا المجــال ايضــا : صــاعد البغدادى ، الذى وفــد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٠هـ ، فتلقــاه

---

(٥٢) تاريخ علمــاء الأندلس ج ١ ص ٦٩ (٢٢٣) ، جــذوة المقتبس ص ١٦٥ (٣٠٣) .

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠ ترجمة (١٣٥٧) .

(٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ — ٧٧ ترجمة ١٣١٨ .

(٥٥) جذوة المقتبس ص ٧٦ ترجمة (١١١) .

وأكرمه ، متشبها بالناصر فى تلقيه لأبى على القالى . وكان صاعد عالما باللغة والأدب والأخبار ، سريع البديهة حسن الشعر ، بارع الارتجال ، محبا للتجوز والمزاح حتى اتهم بالكذب . وكان لمحاوراته ومناظراته مع الكثيرين اثر كبير فى تنشيط الحركة اللغوية والأدبية . وله كتاب (الفصوص) الذى أملاه فى مسجد مدينة الزهراء التى بناها المنصور على غرار الأمالى على القالى ، ويذكر أن المنصور كافأه عليه بخمسة آلاف دينار(٥٦) .

الأدب : ما كاد العرب يضعون أقدامهم فى الأندلس ، ويستقرون فيها حتى أخذوا فى نشر لغتهم وأدبهم ، وقد كان للانشغال بالفتح ، وتثبيت أقدام المسلمين فى البلاد اثره فى قلة الأدب شعرا ونثرا فى عصر الولاة(٥٧) . ثم بدأت الأندلس تشهد فى عصر الإمارة (١٣٨ — ٣٠٠هـ) أولى الخطوات نحو أدب أندلسى له سماته وخصائصه المميزة(٥٨) .

فقد ظهر أول جيل من الأدباء والشعراء الذين اهتموا بالبيئة الأندلسية وأحداثها . ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على طوائف الشعب ، بل شارك فيه بعض الولاة والأمراء ، كما لم يعد وقفا على الوافدين

---

(٥٦) جذوة المقتبس ص ٢٤٠ ترجمة (٥٠٩) ، بغية الملتمس ص ٣١٩ ترجمة (٨٥٢) ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ١٩ وبعدها .

(٥٧) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٥٨) من أهم هذه السمات : التجديد فى الموضوعات فالبيئة الأندلسية غير المشرقية ، والتجويد الفنى سواء من ناحية الشكل او المضمون ، ووضوح العاطفة وصدقها (الأدب الأندلسى ص ٧٨ وبعدها) .

من المشرق فقط ، كما كان الحـــال عموما فى عصر الولاة . وبالرغم من أن الشعر الأندلسى فى هـــذه الفترة قـــد ساعد فى اتجاه المدرسة التقليدية فى المشرق ، إلا أنه وجـــدت له سمات أخـــذت تشكل أولى ملامحـــه منذ نشأته كشعر أندلسى .

ومن أهم شعراء هـــذه الفترة : ابو المخشى عاصم بن زيد العبادى الذى يتصل نسبه بالعبـــاد نصارى الحيرة ، وكان والده من جنـــد الشام الذين قدموا إلى الأندلس ، ونزل كورة إلبيرة ، فنشأ ابنه فى بلدة تسمى (شـــوف) ونبـــغ فى الشعر حتى صـــار ألمـــع شعراء هـــذه الفترة . وقـــد اشتهر بالهجاء المتذع لمخالفيه حتى عير بأصـــله النصرانى ، وقـــد اختص فى أول أمـــره بالأمير سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، وأكثر من مدحه ، وامتـــد به العمر حتى عهـــد عبد الرحمن الأوسط ، وذكر البعض أنه توفى فى عهـــد الحكم الربضى .

قال عنـــه الرازى مؤرخ الأندلس الأول « كان شـــاعر الأندلس فى حينـــه ، وهو صاحب المعـــانى الحسنة ، والنوادر الكثيرة ، والقـــول الغزير » . ولم يصلنا من شعره إلا القليل(٥٩) .

وممن يعدون من شعراء هـــذه الفتـــرة أيضـــا الأمير عبـــد الرحمن الداخل ، وكان شاعرا مجيدا وناثرا بليغـــا وله أبيـــات مشهورة فى وصف نخـــلة وهى :

تبدت لنـــا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغـــرب عن بلد النخل

---

(٥٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ـ ٣٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ ، د. أحمد هيـــكل : الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنى وعن اهلى
نشات بارض انت فيها غريبـة
فمثلك فى الإقصاء والمنتاى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتاى الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل(٦٠)

ومن مشاهير شعراء هـذه الفترة أيضا : عباس بن ناصح الثقفى ، وكان من أهل الجزيرة الخضراء ورحل مع أبيه إلى مصر والحجاز والعراق ، فنال حظا من العـلم فى الفقه والحديث والأدب ، واتصل بالأمير الحـكم ابن هشام ومدحه ، فاستقضاه على شذونة والجزيرة(٦١) . ويتسم شعره بنزعة بدوية واضـحة ، فيـه الكثير من الخشـونة وقـلة الصـقل ، والسذاجة فى الأفكار والصور والقلق فى الألفـاظ(٦٢) ، ومما يدل على ذلك أنه أنشد بعض الشعراء بقرطبة قصيدة جاء فيها :

تجافى عن الدنيا فما لمعجـز ولا عاجز إلا الذى خط بالقلم

فقال له يحيى الغزال وكان لا يزال شاعرا مبتدئا ولكنـه مطبوع : « أيها الشيخ وما يفعل مفعل مع فاعل . فقال له : كيف تقول انت قـال اقـول :

تجافى عن الدنيا فليس بعاجز ولا حازم إلا الذى خط بالقلم

فقال : والله يا بنى لقـد طلبها عمك يوما فما وجدها(٦٣) .

---

(٦٠) ابن الابار : الحـلة السيراء ج ١ ص ٣٧ .
(٦١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم (٨٨١) .
(٦٢) د. احمد هيكل : الأدب الاندلسى ص ١٠٥ .

ومن شعره فى الزهد ايضـــا :

ما خير مدة عيش المــرء لو جعلت
كمدة الدهــر والأيام تفنيهـــا
فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى
وابتغ نجاتك بالدنيـــا وما فيها(٦٤)

ومن شاعرات هــذه الفترة كذلك (حسانة التميمية) التى تعتبر أولى شواعر الأندلس الحقيقيات ، وكانت من أهل البيرة ، وقــد ورثت الشعر عن ابيهـــا أبى الحسين . وعندما توفى لجأت إلى الحكم الربضى قـــائلة :

إنى إليك أبا العاصى موجعــة
أبا الحسين سقته الواكف الديم
قد كنت أرتع فى نعماه عاكفة
فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذى انقاد الأنام له
وملكتـــه مقاليـــد النهــى الأمــم
لا شىء أخشى إذا ما كنت لى كنفا
آوى إليه ولا يعرو لى العدم
لا زلت بالعــزة القعساء مرتديا
حتى تذل إليك العــرب والعجم

فأمر باجراء رزق شهرى عليها ، وكتب إلى عامله على إلبيرة (جابر ابن لبيــد) أن يجهزها بجهاز حسن ، ولمـــا توفى الحكم لم ينفذ هــذا

---

(٦٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٥ .
(٦٤) بغيـــة الملتمس ص ٢٧٦ .

العامل ما أمره به ، ونالها منه شىء من الضر فشكت للأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بأبيات شعرية فعزل هذا العامل وأمر لها بصلة فبعثت إليه بأبيات تشكره فيها ومنها :

قل للإمام أيا خير الورى نسبا
مقابلا بين آباء واجداد
جودت طبعى ولم ترض الظلامه لى
فهاك فضل ثناء رائح غادى
فإن أقمت ففى نعماك عاكفة
وإن رحلت فقد زودتنى زادى(٦٥)

وقد حدثت تغيرات كبيرة فى المجتمع الأندلسى من الناحية الاجتماعية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث شاع البذخ والترف ، وازدهر فن الغناء على يد زرياب مما أدى إلى التجديد فى الأدب ، والاهتمام بأغراض وموضوعات لم تكن شائعة من قبل كأشعار اللهو والمجون والخمر والتغزل بالمذكر .

ومن أشهر شعراء التجديد (يحيى الغزال) الذى أكثر من القول فى الخمريات مثل قوله :

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم
تأبطت زقى واحتسبت غنائى
فلما أتيت الحان ناديت ربه
فهب خفيف الروح نحو ندائى(٦٦)

---

(٦٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٦٦) ابن دحية : المطرب فى أشعار أهل المغرب ص ١٤٨ .

والمطرف بن عبد الرحمن الأوسط الذى يقول :

أفنيت عمرى فى الشر ب والوجوه الملاح
ولم أضيع أصيلا ولا اطلاع الصباح
أحيى الليالى سهدا فى نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح(٦٧)

ومثل الشاعر مؤمن الذى يتغزل فى فتى يلقب بابن القط فيقول :

قولا لمنصور أبا نصر بحرمة المضراب والنقر
الا حكمت اليوم لابن الذى لقب بالقط على البدر
لا والذى طافت قريش له بالبيت فى أيامه العشر
كأن هاروت نعى طرفه إذا رنا ينفث بالسحر(٦٨)

كما ظهرت أيضا بواكير شعر الطبيعة ، وكثرت أشعار الزهد كرد فعل لهذا التيار الذى بدأ ينتشر فى المجتمع كقول الأمير عبد الله وهى من الأبيات الرائعة :

ولعل المقصود بمنصور (منصور اليهودى) المغنى المشهور فى عهد الحكم بن هشام .

يا من يراوغه الأجل حتام يلهيك الأمل
حتام لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجا ة ولا نجاة لمن غفل
هيهات تشغلك المنى ولما يدوم لك الشغل
فكأن يومك لم يكن وكأن نعيك لم يزل(٦٩)

---

(٦٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٢٩ .
(٦٨) ابن حيان : المقتبس ص ١٣٨ تحقيق ملثور انطونية .
(٦٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٢ ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٥٣ .

كما ظهر فى أواخر هـذه الفترة (إمارة الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ) شعر الموشحات حيث كان الغناء الموسيقى قد ازدهر ، وكثر الاختلاط بين العرب والإسبان فنشأت الموشحات استجابة لحاجة فنية من ناحية ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية من ناحية أخرى . وتعتبر الصورة الادبية المعبرة عن تبلور الشخصية الأندلسية فى ميدان الأدب . وهى التى منحته تميزا خاصا عن الشعر المشرقى(٧٠) .

أما فى فترة الخلافة فقد نهض الأدب نهضة عظيمة ساعد عليها ما كان من توحد الأندلس سياسيا بالقضاء على الفتن والثورات ، ورقيها اجتماعيا ، ونهوضها ثقافيا . فبدأ ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر والنثر ، بالإضافة إلى تطور الاتجاهات التقليدية ، ووفرة الانتاج الأدبى وخصوبته ، نظرا لكثرة الادباء والشعراء ، والتشجيع الذى لقيه الكثيرون منهم . ، وشيوع الأدب شيوعا يكاد يكون عاما بين الأندلسيين . حتى أنه كان فى بعض الأحيان يؤدى وظيفة الرسائل أو البطاقات ، واحيانا يحل محل لغة الجدل والمناظرات(٧١) ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن جعلوه على ألسنة الطيور . ولعل فى قصة زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يدل على ذلك . حيث يروى أنها أحضرت زرزورا وعلمته أبياتا من

---

(٧٠) عن الموشحات انظر : د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ ـ ١٥٤ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٣٧١ وبعدها ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٧٠ ـ ٧١ ، د. محمد عنانى : الموشحات الاندلسية سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١ سنة ١٩٨٠ م الكويت .

(٧١) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٣٠ .

الشعر ، وعندما قعد الناصر فى بهو قصره بمدينة الزهراء للفصد ، وبدأ الطبيب فى ذلك اطل الزرزور ووقف على إناء من الذهب كان بالمجلس واخذ يردد :

ايها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا

إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

فاعجب الناصر بذلك كثيرا ، ولما سأل عن ذلك اخبر بان إحدى زوجاته وهم أم ولده المستنصر ، قد ربت هذا الطائر ، وحفظته هذه الأبيات ليقولها بهذه المناسبة(٧٢) .

وإذا كان البعض يرى فى هذه الحكاية شيئا من المبالغة او الاختراع ، فإنها مع ذلك تدل على مدى شيوع الشعر فى هذه الفترة بين الاندلسيين .

وقد صور الشعر الأندلسى فى هذه الفترة شتى جوانب الحياة الأندلسية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعا جعله يتغلغل فى حياتهم اليومية حتى أصبح ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة(٧٣) .

اما عن شعراء هذه الفترة فهم كثيرون منهم الخلفاء كالناصر والمستنصر ، ومنهم الوزراء كابن جهور وابن شهيد ، ومنهم العلماء كالزبيدى ، ومنهم القضاة كمنذر بن سعيد البلوطى ، ومنهم الأدباء كابن عبد ربه وابن هانىء الأندلسى ، وابن دراج القسطلى (متنبى المغرب)(٧٤) .

---

(٧٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٧٣) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢٣ .

(٧٤) انظر احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١١٣ وبعدها ، د. احمد هيكل ص ٢٣٢ وبعدها .

وفى هـذه الفترة تطور النثر أيضا فظهر نوع جـديد وهـو النثر التأليفى الذى يختلف عن النثر الأدبى . وقـد تأثر النثر الأدبى فى هـذه الفترة بمذهب الجاحظ فى المنهجيـة ، والعنـاية بالبـداية والموضـوع والخاتمة ، وانعكست عليـه الفخامة والجزالة فى الألفـاظ ، والعبارات الاعتراضية ، والميـل للتكرار والتطويل ، والبحث والتعمق فى الجزئيات والتفاصيل كأثر لفخامة الأندلس ، وعظمة حضارتها فى عصر الخلافة (٧٥) .

كما لقيت الكتابة الرسمية عنـاية كبيرة ، حيث وجدت طائفة من الأدباء المقتدرين الذين وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة والحجابة ، كابن فطيس وابن بدر وابن بسيل وابن جهور وابن أبى عامر وجعفر المصحفى وغيرهم (٧٦) .

ولم يقتصر الأمر على الرجـال بل كانت هنـاك كاتبات من النساء كمزنة كاتبـة الخليفـة الناصر (ت ٣٥٨هـ) ولبنى كاتبـة الخليفـة المستنصر (ت ٣٧٤هـ) (٧٧) .

أما النثر التأليفى خـلال فترة الخلافـة فقـد تمثل فى فرعـين : التاريخ الأدبى وهو مزيج من التراجم والأخبار والمختارات والحـديث عن الشعر والشعراء . ومثال ذلك ما ألفـه عثمان بن ربيعة القرطبى بعنوان (طبقـات الشـعراء بالأندلس) ، وما ألفـه محمد بن هشام المروانى بعنوان (أخبار الشعراء بالأندلس) (٧٨) ، وما ألفه أحمد بن فرج الجيانى.

---

(٧٥) د. أحمد هيكل : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧٦) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ وبعدها .

(٧٧) انظر الضبى : بغية الملتمس ص ٥٤٦ ترجمة رقم ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ .

(٧٨) بالنثا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٦ .

بعنوان (الحدائق) الذى عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى ، وقدمه للحكم المستنصر . وضمنه كثيرا من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى(٧٩) .

ورغم تأثر الكتابة الأندلسية بأسلوب المشارقة فى هذا النوع ، إلا أنه كانت هناك محاولات من الكتاب الأندلسيين للتفوق عليهم بدافع الروح القومية ، التى كانت تدعوهم لتأكيد ذاتهم ، وإبراز جهودهم .

أما النوع الثانى : وهو التأليف الأدبى ويعنى به تأليف كتب أدب بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، والمتمثل فى كل ما يكون به التأديب والتهذيب ، فمن أشهر كتبه كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الذى يجمع أطرافا كثيرة من التاريخ والأخبار والشعر والنثر والأخلاق والعادات وغير ذلك مما حواه(٨٠) .

وفى فترة الحجابة ظل الأدب سائرا بقوة الدفع فى الفترة السابقة ، ولم يحدث فيه تطور عما كان عليه فى فترة الخلافة ، بل أخذت بعض الأنواع تختفى مثل الشعر العلمى والفلسفى الذى كان قد بدأ فى الظهور والنمو فى عهد المستنصر ، ثم بدأ فى الاختفاء فى عهد المنصور من أبى عامر بسبب التضييق على الفلسفة ، ومطاردة المشتغلين بها ، ونشطت أغراض أخرى كالخمريات وشعر اللهو والمجون ، نتيجة لاشتداد تيار الترف ، والإقبال على المتع الحسية ، بالإضافة إلى شعر المدح والوصف والاستعطاف ، كنتيجة للحكم الاستبدادى من المنصور .

---

(٧٩) بغية الملتمس ص ١٥١ ترجمة ٣٣١ ، جذوة المقتبس ص ١٠٤ — ١٠٥ ترجمة ١٧٦ .

(٨٠) د. هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٣ .

ومن مشاهير شعراء هـذه الفترة عبد الملك بن شهيد الذى اشتهر بشعر اللهو . ومن أبياته فيـه :

انا شيخ والشيخ يهوى الصبايا
ما بنفسى اقيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم فى الفىء
لمن لم يخب فيه المطايا(٨١)

وقوله :

ولرب حان قد شممت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا
يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر
كالخشف جمله التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم
لسلافه والأكل من خنزيرة(٨٢)

وكذلك ابن دراج القسطلى الذى اشتهر بمدائحه للمنصور . قال عنه ابن حيان : « القسطلى سباق فى حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى اهل الأندلس اجمعين » .

وقال عنه الحميدى : « وهو معدود فى جملة العلماء ، والمقدمين من

---

(٨١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٧ ، ٢٧٤ .
(٨٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

السفراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره كثير مجموع يدل على علمه وله طريقــة فى البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته »(٨٣) .

وقال عنــه ابن حزم : لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشــعر من ابن دراج لم أبعــد(٨٤) .

وكذلك الرمادى يوسف بن هارون الكندى الذى اشتهر بوقة شعره وكان جريئــا مستهترا فيــه ، وله شعر يدافع فيــه عن الخمر حين أراد الحكم المستنصر أن يقطع أشجار الكروم . وكان فيــه ميل إلى التشيع . قال عنــه الفتح خاقان : إنه شاعر مفلق ، انفرج له من الصناعة المغلق ، ومضى له بريقهــا المؤتلق ، وسال بهــا طبعه كالمــاء المتدفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق .

وكان شيوخ الأندلس يقولون (فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة) يعنون إمرأ القيس والمتنبى والرمادى(٨٥) . وقد كثر شعراء هذه الفترة لدرجــة أنه ذكر أن المنصــور صــحب معــه فى إحــدى غزواته أربعين شــاعرا من طبقات مختلفة(٨٦) .

أما عن النثر فى هــذه الفترة : فقد ازدهر النثر الأدبى الخالص حيث وجــد ديوان للكتاب يحررون فيــه الرسائل والمنشورات ، ويصــفون

---

(٨٣) انظر عنه : جذوة المقتبس ترجمة ١٨٦ ، بغيــة الملتمس ترجمــة ٣٤٢ .

(٨٤) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ ـــ ٤٦٧ .

(٨٥) كان يلقب بأبى جنيس وهى كلمة رومانية صــارت فى الأسبانية Cenisa ومعناها رماد فعرف بالرمادى (انظر : أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ٢٠٠) .

(٨٦) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ ، د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ٢٥٦ .

المعارك والغزوات التى يقوم بهسا المنصور . كما برز النثر الوصفى أيضا . وقد تأثر النثر عموما فى هذه الفترة بطريقة ابن العميد فى الميل إلى الاطناب ، والاعتماد على المحسنات البديعية بكثرة . ومن كتاب هذه الفترة أبو مروان الجزيرى ، وابن دراج القسطلى ، والمنصور ابن أبى عامر أيضا .

وفى الفترة التى سبقت سقوط الخلافة والمسماة بالفتنة البربرية تأثر الأدب تأثرا واضحا بأحداثها فانتشر أدب التلهى والنفاق والتفاهة ، أو أدب الفتن والحروب بمعنى أشمل . كما ظهر أدب التأمل والتذكر والمراجعة . وكان الشعر مجال النوع الأول ، والنثر مجال النوع الثانى بصفة عامة . ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر الذى ضاقت أغراضه ، وقل إنتاجه لهجرة الكثيرين من الشعراء من أتون الفتنة فهو ما بين مرح كاذب أو لهو ومجون ، أو بكاء لفقد الأهل والأحباب او وصف لأشياء تافهة مثل وصف أبى عامر بن شهيد للبرغوث(٨٧) .

وأهم ما يلاحظ على الشعر فى هذه الفترة كثرة مزجه بالنثر فالكثير منه لم يكن على شكل قصائد مستقلة ، وإنما كأجزاء من رسائل او كتب أو رقاع تحرر لغرض ما ، حيث كان الكثير من الأدباء يجمعون بين الشعر والنثر(٨٨) .



(٨٧) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩٠ ـ ٣٩٢ .
(٨٨) د. احمد هيكل : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

ثانيا - العلوم العقلية

الترجمة : لم تصل الترجمة فى الأندلس إلى ما وصلت إليه فى بغداد فى عصر المنصور والرشيد والمأمون كما يبدو ، حيث لم تشر المصادر إلى كثير من الكتب التى ترجمت فى الأندلس ، ويبدو أن ذلك راجع إلى أنه كان بالإمكان جلب نسخ من الكتب المترجمة من المشرق إلى الأندلس دون بذل جهد فى ترجمتها من جديد . وعلى ذلك فإننا نعتقد أنه قد جلبت كتب كثيرة مترجمة من المشرق وخاصة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر .

وقد ذكرت لنا المصادر كتابين من الكتب التى تمت ترجمتها فى الأندلس وهما : كتاب ديسقوريدس (الأدوية المفردة) والمعروف بكتاب الحشائش ، وكان باليونانية(١) ، وكتاب أورسيوس (هروسيس أو هروشيش فى المصادر العربية) . ويسمى (التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين) وهو باللاتينية(٢) .

---

(١) ديستوريدس : طبيب وعشاب يونانى ، ولد فى بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى ، ولهذا سمى فى المصادر الأوربية Discorides- Ain zarbio اى (ديستوريدس العين زربى) . وقد عاش فى القرن الأول الميلادى ، واشتهر بكتاباته عن مركبات الأدوية من الأعشاب ، وقد ظل كتابه (الأدوية المفردة) أعظم مرشد لخواص الأعشاب الطبية ، ومازالت له قيمة علمية بالرغم من التقدم الطبى حتى الوقت الحاضر (انظر : عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الأول - القسم الثانى ص ١٠٨ هامش ٢١ مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٣٤) .

(٢) باولوس أورسيوس : راهب ومؤرخ رومانى الأصل ، اسبانى المولد والنشأة ، عاش فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن =

وهـذان الكتابان كان قد أرسل بهما الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر مع السفارة التى بعث بهـا إليـه سـنة ٣٣٨هـ(٣) .

=

الخامس الميلادى ، ووضع هـذا الكتاب الذى أرخ فيـه للعـالم القـديم منـذ بدء الخليفة حتى عصره (٤١٦م) . وهـذا الكتاب كما يقول د. حسين مؤنس : ذيل على كتاب (مدينة الله) لأستاذه القديس أوغسطين ، وخاصة الجـزء الثالث منـه المتعلق بتـاريخ العـالم القـديم . وقـد لقى كتاب أورسيوس إقبالا شديدا من معاصريه ، واعتمد عليـه الكثيرون من بعـد ، ومنهم بعض المؤرخين المسلمين كالرازى وابن خلدون وغيرهما فى التاريخ للأمم التى حكمت أسبانيا قبل الفتح الإسلامى . (عنان : المرجـع السابق ص ١٠٨ هامش ٢ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٨) .

(٣) اختلف فى تاريخ هـذه السفارة فذكر البعض أنها كانت فى سـنة ٣٣٤هـ ، وذكر البعض أنها حدثت سـنة ٣٣٦هـ ، وذكر البعض أنها وقعت سـنة ٣٣٧هـ ، بينما ذهب الكثيرون إلى أنها كانت سـنة ٣٣٨هـ . كما اختلف فيمن أرسلها فذكر البعض أنه قسطنطين ، وذكر البعض أنه ابنه رومانوس الذى تولى بعـده ، ولعل مرجع هـذا يعود إلى الاختلاف فى تحـديد تاريخها ، وإن كان الراجح أنهـا كانت سـنة ٣٣٨هـ فى عهـد قسطنطين . وربما كان الامبراطور هو الذى أرسل السـفارة وبعث ابنـه بالكتابين معها ، وربمـا يكون الامبراطور قـد أرسـل السفارة باسمه واسم ابنـه الذى كان يعـده للحكم بدليل أن الخطاب الذى أرسـله للخليفة يبـدأ

=

وكان الكتاب الأول قد ترجم فى بغداد فى عهد الخليفة المتوكل العباس (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) على يد (آصف أو اسطفن بن باسيل) من اليونانية إلى العربية ، وقام بمراجعة الترجمة (حنين بن إسحاق) . وقد وضع إسطفن أسماء عربية للنباتات فى مقابلة الكلمات اليونانية ، غير ان بعض الأسماء ظلت على صورتها اليونانية لعدم معرفته بها ، وهنا جاء دور الأندلس لتكملة ذلك ، فيذكر المؤرخون أن الناصر لما وصلته نسخة من هذا الكتاب كلف طبيبه الخاص (حسداى بن شروط) ، وحمد النباتى ، وعبد الرحمن ابن الهيثم ، وابو عبد الله الصقلى وكان له إلمام بالعقاقير والنباتات بالنظر فيه وترجمته ، غير انه لم يكن لديهم إلمام باليونانية فأرسل إلى الإمبراطور يطلب منه إرسال مترجم له ، فأرسل إليه الراهب نيقولا ، الذى كان يجيد اليونانية واللاتينية سنة ٣٤٠هـ ، ففسر اسماء العقاقير

=

بقوله « من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم » . (انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢) ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٤٢ ، ابن جلجل : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ١٠٧ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ — ٣١٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ص ٦٧ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٩ ، احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٣) .

المجهولة ، وتتلمذ على يديه كثير من المهتمين بدراسة الطب والأعشاب(٤).

وقد كان لذلك أثره فى إقبال الكثير من الأندلسيين على دراسة الطب والعقاقير متخذين من هذا الكتاب مصدرا رئيسيا لهم .

وأما الكتاب الثانى فيذكر أنه قام بترجمته للحكم المستنصر قبل الخلافة ، ويبدو أنه أخذه من والده الناصر — قاضى النصارى بقرطبة وليد بن حيزون(٥) الذى قام بدور المترجم للملك أردون الرابع ملك ليون عندما قدم لزيارة المستنصر سنة ٣٥١هـ ، وشاركه فى هذه الترجمة قاسم بن أصبغ البيانى — نسبة إلى بيانة — المتوفى سنة ٣٤٠هـ(٦) .

---

(٤) يذكر أن الامبراطور قال للخليفة : إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن اللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، وأما كتاب هروسيس فعندك فى بلدك من اللطينيين (اللاتينيين) من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه من اللطينى إلى اللسان العربى . (أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٣٤ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ١٠٩) .

(٥) انظر : المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ . وقد ذكره البعض باسم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث ، ولعله خطأ فى الطبع (انظر : د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٢٤ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٩) .

(٦) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣١٢ . ويستبعد د. إحسان عباس أن يكون قاسم قد شارك فى ترجمة هذا الكتاب حيث توفى سنة

=

وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هـذه الترجمة من أحمد بن محمد الرازى (٣٤٤هـ) إلى ابن خلدون (٨٠٨هـ) . ومنهم من نقل من هـذا الكتاب ونص على ذلك صراحة(٧) .

وليس ببعيد أن تكون هنـاك كتب أخرى قـد ترجمت عن اليونانية واللاتينية وغيرها إلى العربية في الأندلس ، بالرغم من عـدم إشـارة المصادر إلى ذلك كثيرا ، حيث نهضت الحركة العلمية ، ووجدت التشجيع الكافي ، وتوافرت كافة الإمكانات التى تساعد على الترجمة(٨) .

=

٣٤٠هـ ، ولكنه استدرك فقال : إلا أن تكون ترجمته كتاب هروسيس قـد تمت قبـل مجـىء نقولا الراهب . (انظـر : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ هامش ٢) .

ولا يستبعد أن يكون قاسم قـد شارك فى ترجمة هـذا الكتاب حيث كان متصلا بالمستنصر قبل خلافته ، واختصر له كتاب السـنن لأبى داود ، وسماه (المجتنى) سـنة ٣٢٤هـ . وكان يجيد اللغـة اللاتينية (اللطينية) كما يتضح من قـول الامبراطور لعبد الرحمن الناصر . (انظر : المقرى جـ ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ هامش ١) . وتوجد نسخة من الترجمة العربية لهذا الكتاب فى مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك. وقد أضيف إليها تكملة لتاريخ القوط حتى دخـول طارق بن زيـاد أسبانيا . وهـذه الإضافات فى أغلب الظن نقلت عن مؤرخـين لاتينيين ، وتقع هـذه النسخة تحت رقم x 893712 H . (نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٢٤) .

(٧) د. عبد الواحـد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٢٤ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٨)

الفلسفة : يظهر ان نشأة الفلسفة فى الأندلس كانت كنشأتها فى المشرق فقد نشأت فى المشرق من الاشتغال بالطب والتنجيم لعناية الكثير من الخلفاء بهما . وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ليس اعتقادا فيه ، وإنما رغبة فى حب الاستطلاع ، واستشراف المستقبل ، والتطلع إلى معرفة ما سيجرى .

وكذلك كان الشأن فى الأندلس حيث احتاج الأمويين إلى الأطباء وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، والاشتغال بالطب والنجوم يسلم إلى الفلسفة ، ولذلك نرى ان الفلاسفة الأندلسيين الأوائل كانوا من الأطباء مثل الكرمانى ، وأبو جعفر بن خميس ، وحمدين بن أبان ، أو من المنجمين مثل ابن السمينة ، ومسلمة بن احمد المجريطى ، وأبو القاسم الزهراوى وغيرهم(٩) .

وقد ساعد على ظهور الفلسفة ونموها بالأندلس عدة عوامل منها :

١ — رحيل بعض الأطباء من المشرق إلى الأندلس مثل اسحاق ابن عمران الذى كان طبيبا مشهورا فى بغداد .

٢ — اهتمام بعض الخلفاء الأمويين بالكتب العلمية والفلسفية مثل الحكم المستنصر ، وجلبها إلى الأندلس وترجمتها ، فيذكر ابن أبى أصيبعة ان الكرمانى رحل إلى المشرق وجلب معه عند عودته رسائل اخوان الصفا(١٠) .

٣ — التبادل الثقافى بين الأندلس وبعض البلاد الأجنبية مثل الدولة البيزنطية مما أدى إلى إهداء بعض الكتب للخلفاء الأمويين وترجمتها .

---

(٩) احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٣ .
(١٠) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٧ .

وقد ادت هـذه العوامل وغيرها إلى وجود مجموعة من المشتغلين بالطب والتنجيم أولا ، وبالفلسفة ثانيـا .

والحقيقة أنه رغم ذلك فإن غالبية الأندلسيين لم يتلقوا الفلسـفة بالقبول الذى تلقوا به الطب وغيره من العـلوم العملية ، حيث كان جـل إهتمامهم موجها إلى العـلوم الدينية والعربية ، ولذلك لم يكن للفلسفة حظ كبير من الاهتمام فى العصر الأموى ، وكان المشتغلون بهـا موضـع نفور واضطهاد ، ورمى بالكفر والإلحاد والزندقة .

يقول ابن سعيد المغربى « وكل العـلوم لها عندهم حـظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، ومن يشتغل بهما يجتهد فى إخفاء ذلك حتى لا يطلق عليه لقب زنديق من العـامة ويقتل ، أو يحرق هو وكتبه »(١١) . كمـا فعل المنصور بن أبى عامر تقربا إلى العـامة والفقهاء .

وقد اخـذ الطب والتنجيم يتبلوران إلى فلسفة بعـد سنين ، حتى رأينا فلاسفة حقيقيين كان لهم دورهم وأثرهم فى هـذا المجال . كابن باجة وابن رشـد وابن طفيل وغيرهم .

ويصف ابن طفيل (ت ٥٨١هـ) حال الفلسفة فى الأندلس فيقول « إن هـذا العلم أندر من الكبريت الأحمر ، لاسيما فى هـذا الصـقع الذى نحن فيـه ، لأنه من الغرابة فى حـد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعـد الفرد ، ومن ظفر منـه بشىء لم يكلم الناس إلا رمزا »(١٢) .

ويظهر ان الاشتغال بالفلسفة فى الأندلس كان على نوعين : نوع يميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة البحتة . واتباع هـذا النوع قد ساروا على طريقة أفلوطين ، وكان من أوائلهم ابن مسرة وابن سعيد ، وهـذه

---

(١١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(١٢) احمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٣٥ .

المدرسة تعتمد على الذوق والكشف والمراقبة أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والقياس . والنوع الثانى : يعتمد على الفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه أرسطو . ومن اتباع هذا النوع : أبو بكر بن الصائغ المشهور بابن باجة (ت ٥٤٤هـ) ، وابن طفيل (ت ٥٨١هـ) ، وابن رشد (ت ٥٩٤هـ)(١٣) .

ومن أوائل من نسبوا إلى الفلسفة فى العصر الأموى ابن مسرة محمد ابن عبد الله (ت ٣١٩هـ) ، وقد اعتنق والده مذهب المعتزلة ، وكان هذا المذهب غير مرغوب فيه بالأندلس ، فاضطر إلى إخفائه ، ولقنه لابنه ، ومعروف أن هذا المذهب يعتمد على العقل كثيرا ، ويتسلح أصحابه بالمنطق والفلسفة .

ولذلك نشأ محمد معتزليا محبا للحكمة والدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٩٨هـ ، ولقى أهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم عاد فاظهر الورع والتنسك ، وأصبح له تلاميذ يلقنهم مذهبه الذى يجمع بين التصوف والاعتزال ، واتخذ خلوة له فى جبل قرطبة حتى سمى بالجبلى(١٤) .

وقد أثار ذلك العامة والفقهاء بعد اكتشاف أمره ، فاشاعوا عنه أنه زنديق مما اضطره إلى مغادرة الأندلس فى آخر عهد الأمير عبد الله ،ثم عاد فى عهد الناصر ،فواصل الدعوة لمذهبه،وانضم إليه الكثيرون لمظهره الورع الزاهد ، وألف كتبا منها كتاب التبصرة وكتاب الحروف لم يصلنا أى منهما . ويذكر أن الخليفة الناصر قد أمر بإحراق كتبه خارج

---

(١٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٥ .

(١٤) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤ ، الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٨٣ .

جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منـــازل المحدين غير داحضة(١٥) . ويبـــدو انه كان يلقن تلاميـــذه نوعا من الاعتزال والفلسفة تحت ستار الزهـــد والتصوف ، أو يروج لتعاليم مذهبه تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(١٦) .

ثم بدأت الفلسفة تأخذ مكانها مرة أخرى فى عهد الحكم المستنصر فى ظل التسامح الذى أشاعه ، واهتمامه بالعلوم على شتى أنواعها ، فعادت مدرسة ابن مسرة من جديد ، وأخذت آراؤه تظهر مرة أخرى ، وتجـــد طريقها إلى الآخرين .

ومن أشهر من اشتغل بالفلسفة فى عهد المستنصر ملحان « الذى كان ذا نظر فى حـــد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الفلسفة »(١٧) .

وإدريس بن متيم « الذى كان بصيرا بحد المنطق ، كثير المطـــالعة لكتب الأوائل حاذقا بعلم الحساب والتنجيم »(١٨) ، ومحمد بن يحـــيى الرباحى « الذى طالع كتب أهل الكلام ، ونظر فى المنطقيـــات فأحكمها ، إلا أنه كان لا يتقـــلد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يقـــود أصـــلا من أصولهم ، وإنمـــا كان يقول على ما يميل إليـــه فى الوقـــت ، ويؤثره فى الحضرة »(١٩) .

---

(١٥) د. السـيد سـالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ج ١ ص ٣١٢ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٧ .

(١٦) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٦ ، وإحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(١٧) الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص ٣٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(١٩) المرجع السابق ص ٣٣٦ .

وممن عرف بدراسة المنطق والفلسفة أيضا فى هذه الفترة ابن حفصون ، ومحمد بن عبدون الجبلى الذى درس على سليمان المنطقى ببغداد(٢٠) . ومحمد بن اسماعيل الملقب بالحكيم الذى اهتم بالمنطق والحساب أيضا(٢١) .

ويبدو أن هؤلاء قد اكتفوا بمجرد الاطلاع والنظر فى كتب الفلسفة ، حيث لم يؤلفوا كتبا ، على عكس الحال فى علوم الطب والهندسة والفلك والحساب . غير أن الفلسفة ما لبثت أن انتكست مرة أخرى فى عهد المنصور بن أبى عامر نتيجة لضغوط الفقهاء والعامة حيث اضطهد الفلاسفة ، وأحرق كتبهم تقربا للعامة وترضية للفقهاء ، رغم ميله إليها فى الباطن كما ذكر(٢٢) .

وقد لقيت الفلسفة بعد ذلك — وخاصة فى القرن السادس الهجرى — اهتماما كبيرا فظهر فلاسفة حقيقيون من أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد كانت لهم آراؤهم الفلسفية التى أحدثت دويا فى العالمين الاسلامى والمسيحى .

فيذكر ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) أنه رأى من كتب الفلسفة « رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله المذحجى أيضا ويعرف بابن الكتانى

---

(٢٠) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٦ .

(٢١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، صاعد : طبقات الأمم ص ٦٦ .

د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٤٠ ، د. خالد الصوفى : المنصور الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٥٦ .

وكان متقدما فى علوم الطب والمنطق(٢٣) .

يقول الضبى عن السرقسطى « له ادب وعلم وتصرف فى حدود المنطق يعرف بالحمار وهو مشهور ذكره أبو محمد على بن احمد (ابن حزم) »(٢٤).

وذكر الحميدى أن ابن حزم نقل من شعره فى ذم الناس للمنطق :

ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه
بالذى ليس فيه إذ جهلوه
لو دروا حقه لما انكروه
أو دروا فضله إذن فضلوه
كذبوا والله لو عرفوه
لنفوا عنه كل ما نحلوه(٢٥)

الطب : كان من مظاهر تقدم الثقافة الأندلسية فى فترة الإمارة ظهور أوائل المشتغلين بالطب فى الأندلس ، مثل أحمد بن إياس القرطبى ، الذى يعد أول من اشتهر بالطب فى الأندلس ، وذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . ونبغ بعده جماعة منهم يحيى بن اسحاق طبيب الأمير عبد الله بن محمد ، والذى أصبح وزيرا للناصر فيما بعد ، وله مؤلفات فى الطب .

ثم اخذ الطب يزدهر فى فترة الخلافة ، واشتهر به كثيرون وخاصة فى عهد الناصر والمستنصر ، مثل سعيد بن عبد ربه الذى كانت

---

(٢٣) بغية الملتمس ص ٦٧ ترجمة رقم ٨١ .

(٢٤) بغية الملتمس ص ٣١١ ترجمة ٨١٣ .

(٢٥) جذوة المقتبس ص ٢٢٣ ترجمة ٤٧٨ .

له طريقة خاصة فى علاج الحميات . وأحمد بن يونس وأخوه عمر الذين اشتهرا بالمهارة فى تحضير الأدوية ، وعلاج كثير من الأمراض ، وخاصة علاج العيون(٢٦) .

وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى رحل إلى مصر سنة ٣٣٧هـ ، وأشرف على بيمارستان مصر ، والوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد مصنف كتاب (الأدوية المفردة) الذى يقول عنه المقرى : « إنه كان آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية وما يقرب منها . وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه » .

ويقول عنه صاعد « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب »(٢٧) .

ومن مشاهير الأطباء فى عهد الخليفة الناصر الطبيب اليهودى حسداى ابن شبروط الذى اتخذه الناصر طبيبا خاصا له ، وذاعت شهرته حتى أن شانجة ملك ليون الذى كان يلقب بالسمين نظرا لسمنته الزائدة — وذكر

---

(٢٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ، صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٧٨ ، ١٢٤ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٤ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ . د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٨٦ .

(٢٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ .

أن ذلك كان من أسباب خلعه نظرا لعدم قدرته على تصريف أمور المملكة — قد طلب من الناصر أن يرسل له طبيبا لعلاجه من ذلك ، فأرسل إليه طبيبه حسداى الذى نجح فى تخفيف وزنه(٢٨) .

ومن أشهر الأطباء فى عهد المستنصر الطبيب المشهور وعالم الجراحة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى — نسبة إلى مدينة الزهراء التى الناصر — والذى اتخذه المستنصر طبيبا خاصا ، وألف عدة كتب فى الطب ترجمت إلى اللاتينية مثل كتاب : Libes-Sepiltoris الذى ترجمه جيرارد الكريمونى ، وكتابه فى الجراحة الذى ترجمه جيدودى كاولياك إلى اللاتينية أيضا سنة ١٤٨٩م تحت عنوان Chriur-gtaparua (٢٩) .

ويعتبر الزهراوى من أشهر الجراحيين المسلمين — أطباء الجراحة — وقد ترك مرجعا فى وصف الآلات الجراحية وطرق استخدامها ، وتوضيحها بالرسوم ، وهو كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذى ظل مرجعا يعول عليه لدراسة الطب فى أوربا عدة قرون بعد ترجمته إلى اللاتينية ، ويذكر أنه باشر بعض عمليات التوليد والجراحة النسائية ، ونصح باستخدام مساعدات من النساء فى ذلك(٣٠) .

---

(٢٨) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٠ ، لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ١٠٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ٢ ص ١١٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٢١ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٠ .

(٢٩) انظر ترجمته فى بغية الملتمس رقم ٧١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٢ .

(٣٠) د. سعيد عاشور وآخران : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١٢٤ — ١٢٥ .

وكذلك الإسقف القرطبى ابن زيد الذى كان مختصا بالخليفة المستنصر والف كتاب (تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان)(٣١) .

كما نبغ فى الطب أيضا فى عهد هشام المؤيد ابن الخليفة المستنصر الطبيب الاندلسى المشهور ابن جلجل (ابو داود سليمان ابن حسان) ت ٣٩٩هـ ، الذى كان طبيبا لهشام المؤيد ، وضع كتابا فى طبقات الأطباء ، وشرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وأوضح ما غمض منها فى كتابه (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس) . قال عنه الحميدى : « سليمان بن جلجل مذكور بالطب والأدب ، له كتاب فى أخبار الأطباء بالأندلس »(٣٢) .

وكذلك عبد الرحمن بن الهيثم طبيب المنصور بن أبى عامر . وقد الف عدة كتب عن الأدوية المفردة(٣٣) ، وكان عريب بن سعيد القرطبى المؤرخ (ت ٣٦٩هـ) طبيبا أيضا وله مؤلفات فى الطب منها كتاب (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود) وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال(٣٤) .

الفلك والنجوم : اهتم القدماء بالنجوم والكواكب وحركاتها ، وربطوا بين ذلك وبين معرفة المستقبل ، وأطلقوا على ذلك علم التنجيم . والحقيقة أن التنجيم على هذا الأساس ليس علما ، لأن معرفة المستقبل وعلم الغيب إنما هو لله عز وجل لا يظهر عليه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا .

---

(٣١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ .

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٤٥٢ ص ٢٢٥ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ . وقد نشر كتابه (طبقات الأطباء) ضمن منشورات المعهد الفرنسى بالقاهرة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد سنة ١٩٥٥م .

(٣٣) المختار من عالم المعرفة ص ١٣٦ .
الأدب الأندلسى ص ١٩٤ .

(٣٤) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، د. هيكل :

ورغم ذلــك فإن بعــض حــكام المسلمين كانوا يطلبــون المنجمين لاستشارتهم والأخــذ برأيهم قبــل الإقدام على عمل هام كالبناء أو الحرب أو غير ذلك(٣٥) .

ومن أمــراء الأندلس الذين اهتموا بالتنجيم هشام بن عبد الرحمن الداخل . فيذكر أنه استدعى المنجم الضبى من بلده بالجزيرة الخضراء ، وكان بارعا فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلومية كما قيــل حــتى لقب (ببطليموس) لحذقه وإصابته .

ورغم عدم اعتقاد هشام فى التنجيم ، إلا أنه كان يحب أن يســمع ما يقوله الضبى « حيث أن النفس طلعة كما قال » . وقد أخــبره هــذا المنجم بأنه لن يستمر فى ملكه أكثر من ثمانية أعوام فكان كما قال — وهذا من باب المصادفات فقد كذب المنجمون ولو صدقوا — ويذكر أنه زهد فى الدنيــا ولزم أفعال الخير بعد أن أخبره بذلك(٣٦) .

وكذلك كان من المنجمين أحمد بن فارس البصرى ، الذى كان زعيم هــذه الصناعة بالأندلس على عهــد الحــكم بن هشام ، كما ذكر ذلك ابن بسام نقــلا عن ابن حيان(٣٧) . ومنهم أيضا عبد الله بن الشــمر ابن نمير القرطبى ، منجم عبد الرحمن الأوسط ونديمه قبل الإمارة . ذكر أنه بشره بأن الأمر سيصير إليــه ، فلما صــار إليــه قــربه ونادمه ، وأجرى عليــه رزقا للشعر ورزقا للتنجيم(٣٨) .

وكذلك إدريس ابن متيم الذى كان بصيرا بالمنطق حاذقا بالحســاب والتنجيم(٣٩) .

---

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١٠ .
(٣٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٢٧ .
(٣٧) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ٤ ج ١ ص ٥٩ .
(٣٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) طبقات الزبيدى : ص ٣٣٢ .

وقد فرق علماء المسلمين بين التنجيم والفلك فنادى معظمهم بعدم تأثير الكواكب والنجوم على مستقبل الإنسان ، ونفوا أن يكون لها دخل فى النحس أو السعد . وعلى ذلك فقد وجد من بين علماء الأندلس من رفض التنجيم ، واهتم بالفلك كعلم له قواعده وأصوله ، ومن هؤلاء عباس ابن فرناس الذى يمكن أن تعده من أوائل علماء الفلك فى الأندلس إلى جانب اهتماماته واختراعاته الأخرى . فقد ذكر أنه صنع فى بيته قبة تشبه السماء ، وزودها بآلات وأدوات تحدث رعود وبروقا ، وجعل فى أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر وكأنها حقيقية(٤٠) .

وقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أوائل الأمويين اهتماما بجلب الكتب القديمة من المشرق ، ولذلك وجه عباس ابن ناجح الشاعر إلى المشرق لجلبها . فجاء بكتاب (السند هند) وغيره منها ، ويعتبر أول من أدخلها إلى الأندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها(٤١) .

---

(٤٠) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٤ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٦ — ١٩٧ ، ومن الغريب أن الفرضى الذى ترجم للكثيرين فى كتابه (تاريخ علماء الأندلس) لم يترجم لعباس بن فرناس رغم شهرته الكبيرة ، وترجم له الضبى فى بغية الملتمس والحميدى فى جذوة المقتبس ولم يذكرا شيئا عن ذلك . (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٩ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٣١ ، بغية الملتمس ترجمة ١٢٤٧) .

(٤١) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٥ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ . وكتاب السند هند يعتبر من كتب الفلك الهندية ، ويذكر أنه وفد على بلاط الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٦هـ أحد الهنود ومعه نسخة من هذا الكتاب ، فأمر الخليفة محمد بن اسحاق الفزارى بترجمته للعربية ، ويقال : إن الخوارزمى استفاد منه ، واعتمد

ويعتبر مسلم بن احمد بن ابى عبيدة الليثى القرطبى (٢٩٥هـ) من اوائل المشتغلين بالفلك والنجوم فى الأندلس ايضا ، وكان يعرف (بصاحب القبلة) لأنه كان مولعا بالتشريق فى قبلته مفتونا بذلك كما قيل(٤٢) .

وقد قال بكروية الأرض ، واختلاف الفصول حسب المناخ ، وقد تعرض بسبب ذلك لهجوم بعض المقلدين ، ومنهم ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذى قال فيه :

ابا عبيدة ما السؤال عن خبر
تحكيه إلا سواء والذى سالا

ابيت إلا شذوذا عن جماعتنا
ولم تصب راى من ارجى او اعتزلا

كذلك القبلة الأولى مبدلة
وقد ابيت فما تبغى بها بدلا

زعمت بهرام او بيذخت ترزقنا
لا بل عطارد او مريخ او زحلا

وقلت إن جميع الخلق فى فلك
بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا

والأرض كورية حف السماء بها
فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا

=

عليه فى وضع زيجه المشهور بعد ان ادخل عليه تعديلات وإضافات عدة . (انظر دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١١) .

(٤٢) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ رقم ١٤٢٠ .

صيف الجنوب شتاء للشمال بها
قد صار بينهما هذا وذا دولا

فما لكانون فى صنعا وقرطبة
فردا وأيلول يذكى فيهما السؤلا

هـذا الدليل ولا قـول عـزرت به
من القوانين يجرى القول والعمـلا

كما استمر ابن موسى فى غوايته
فوعر السهل حتى خلته الجبلا

ابلغ معاوية المصـفى لقـولهما
انى كفرت بما قالا وما فعلا(٤٣)

ويقول ابن عبد ربه ايضا فى مهاجمة المشتغلين بالفلك والنجوم :

فاين الزيـج والقـانون والأركند والكمه
واين السند هند البطل والجدول هل ثمه
سوى الإفك على الله تعالى منشر الرمه
إذا كان أخـو الغيـب
يرى الغيب بما ضـمه
إلى ان يطـاب الرزق
طلاب العاجـز الهمة
وهذى الأرض قد وارت
كنـوزا عـدة جمـة

---

(٤٣) ابن الفرضى : تاريخ علمـــاء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ وابن موسى هو الاقشبين او الاقشتين ، ومعاوية هو ابن الشبانس القرشى ويظهر انهما كانا من اصحاب ابن ابى عبيدة والقـائلين باقـواله .

فـــلا واللـه مــا للـه
خلق يحتوى علمه(٤٤)

كما يعتبر أبو القاسم مسلمة المجريطى (٣٩٨هـ) من علماء الفلك ايضـــا يقول عنـــه صاعد : إنه أعلم من كان قبـلـه بعـلم الأفـلاك ، وحركات النجوم ، وكانت له عنـاية بأرصاد الكواكب)(٤٥) .

الكيميـــاء : اشتغل بعض علماء الأندلس بعلم الكيمياء ، ومن أوائل المشتغلين به أبو القاسم مسلمة بن احمد المجريطى (ت ٣٩٨هـ) الذى يعـد شيخ الأندلس فى هـذا العـلم فى العصر الأموى ، وقـد ألـف فيـه كتابا سماه (رتبـة الحـكيم) ، وجعله قرينا لكتاب آخـر ألفه فى السحر والطلمسات وسماه (غـاية الحكيم) . ومن كبار تلاميذه فى هـذا المجال أبو بكر بن بشرون(٤٦) .

ويمكن أن نعـد عباس بن فرناس (ت ٨٨٦م) من الذين نبغـوا فى هـذا العلم أيضا ، حيث له اهتمامات متعددة ، ويذكر انه كان أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الأحجار وهى صناعة تحتاج إلى معالجات بطرق كيميائية(٤٧) .

---

(٤٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

(٤٥) احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، وإحسان عباس : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٩٦ .

(٤٧) انظـر نفح الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ ، احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، د. احمـد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، د. عبد الرحمن الحجى : الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٢ .

الرياضيات : يلاحظ ان كثيرا من علماء الأندلس كانوا بنيغون فى عدة علوم ولا يقتصرون على علم واحد ، حيث لم يكن التخصص الدقيق معروفا فى ذلك الوقت .

ومن هنا فقد وجدنا كثيرا من الذين اشتغلوا بالنجوم والفلك ينبغون فى الرياضيات أو العكس . وكان من أوائل من اشتغل بالرياضيات فى الأندلس ، ولفت الأنظار إليها أبو القاسم مسلمة المجريطى (ت ٣٩٨هـ) الذى وصفه صاعد بأنه « كان إمام الرياضيين فى وقته » وتخرج على يديه كثير من الطلاب مثل ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرمانى وغيرهم(٥٠) .

كما كان من أوائل من اشتهروا بالرياضيات ايضا أبو عبيده مسلم ابن أحمد الليثى (ت ٢٩٥هـ) المعروف بصاحب القبلة ، وكان عالما بالحساب والنجوم وتحركات الكواكب وأحكامها(٥١) .

ويحيى بن يحيى القرطبى المعروف بابن السمينة وكان بصيرا بالحساب والنجوم(٥٢) .

كما برع عباس بن فرناس القرن الثانى ـ الثالث الهجرى (ت ٨٨٦م) فى علم العدد الهندسة الميكانيكية ، حيث ابتكر الآلالة المعروفة بالميقاتة لمعرفة الوقت على غير رسم ومثال . وقام بأول محاولة للطيران فى العالم

---

(٥٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٢ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٢٠ ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٨٠ ج ٢ ص ١٨٨ .

الإسلامى ، وكان متعدد المواهب برز فى مجالات شتى(٥٣) .

وكذلك القاسم بن اصبغ بن السمح (ت ٤٢٦ هـ) الذى برع فى علم النجوم والهيئة والحساب والهندسة ، وله عدة مؤلفات منها : كتاب (المدخل إلى الهندسة) شرح فيه كتاب إقليدس ، وكتابان فى الاسطرلاب ، وكتاب آخر فى الهندسة(٥٤) .

وكذلك ابو الحسن الزهراوى (على بن سليمان) — وهو غير ابو القاسم الزهراوى الطبيب المشهور — وكان عالما بالهندسة والعدد ، وله كتاب فى الهندسة بعنوان : (المقابلات عن طريق البرهان)(٥٥) .

كما اشتهر ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى (ت ٤٥٨هـ) بالهندسة ايضا وكان قد رحل إلى المشرق فى طلبها وخاصة فى حران ، ثم عاد إلى الأندلس وصار لا يشق له غبار فيها ، وهو ول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس(٥٦) .

وكذلك ابن الصفار الذى اشتهر بالحساب والهندسة والفلك أيضا ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند . كما اشتهر بالرياضيات ايضا فى عصر الحكم المستنصر عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، وكان الحكم يجله ويقربه ، وكذلك أبو بكر بن عيسى وكان مقدما فى علوم الهندسة والعدد والنجوم ، وكان يجلس للتعليم فيها(٥٧) .

---

(٥٣) انظر : نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٢١ وبعدها ، البيان المغرب جـ ٢ جـ ٢ ص ١٩٦ وبعدها .

(٥٤) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٥) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١٢٢٠ .

(٥٦) ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٧) د. احمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ١٣٨ .

ومن الرياضيين المشهورين بالأندلس أيضا محمد بن الفرج الرشاشى الذى عرف بالذراع نظرا لأنه ابتكر وحدة قياسية للمسافات هى الذراع الذى نسب إليه فأصبح يعرف بالذراع الرشاشى ، وكان أهل الأندلس يقيسون به . وبلغ طوله ضعف الذراع المأمونى الذى كان معروفا فى المشرق (٧١ر١سم) ويذكر أن الإدريسى والبكرى قد استخدماه فى قياس بعض المعالم الأثرية التى تحدثا عنها كمنارة الإسكندرية ، وجامع قرطبة وغيرهما(٥٨) .

التاريخ : لم يكن ظهور علم التاريخ فى الأندلس منفصلا عن جذوره التى نشأ فيها وتطور عنها فى المشرق ، وقد تأثرت الأندلس بمؤثرات علمية وفنية كثيرة وفدت من المشرق ، ومنها تدوين التاريخ ، الذى تأثر فى بدايته بمدرسة مصر التاريخية بصفة خاصة ، كما تأثر بمؤثرات لاتينية وبخاصة كتاب هروسيس فى التاريخ الذى تمت ترجمته ، واستفاد منه الكثير من المؤرخين الأندلسيين (٩٥) .

وقد اهتم الأندلسيون بتاريخ بلادهم ، وتعصبوا له مما يدل على ظهور الروح القومية الأندلسية ، فنجد ابن حزم يضع رسالة فى فضل علماء الأندلس ، ويعيب على أهلها تقصيرهم فى تخليد أخبار علمائهم مع كثرتهم ، وفى مآثرهم وفضائلهم ، ووفور أدبائهم ، وجلالة ملوكهم .

---

(٥٨) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢٥ — ٣٢٦ تحقيق د. محمود مكى .
وقد ذكره ابن الفرضى باسم محمد بن الفرج الذراع المعروف بالدشاشى من أهل قرطبة ، وهو الذى ينسب إليه الذراع .
ونعتقد أنه قد حدث خطأ فى الطبع والأصح ما ذكره ابن حيان .
(انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤ ترجمة ١٣٣) .
(٥٩) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٧ .

كما وضع الشقندى — نسبة إلى شقندة وهى ربض من ارباض قرطبة — رسالة أخرى تعصب فيها للأندلسيين على طول الخط فقال : إن الاجماع حصل على فضل الأندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الآفاق إلى أن ذهبوا وذهبت آثارهم ، ودرسوا ودرست آثارهم(٦٠) ، ثم امتد هذا التعصب ليشمل المدن والأقاليم الأندلسية حيث تعصب أهل كل مدينة لها ، والفوا فى فضائلها .

ويعتبر عبد الملك بن حبيب السلمى (ت ٢٣٨هـ) — الذى لقب بعالم الأندلس — أول مؤرخ أندلسى يتعرض لتاريخ بلاده ، وهو من أوضح الأمثلة على تأثر الأندلس بالتأثيرات الشرقية فى تدوين التاريخ . فقد رحل إلى المشرق ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الإمام مالك ، واكسبه ذلك توسعا وفهما فى دراسة التاريخ وقد وصفه ابن الفرضى بانه (كان نحويا عروضيا شاعرا ، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار ، طويل اللسان ، متصرفا فى فنون العلم) . وذكر أن له مؤلفات فى الفقه والتواريخ والآداب كثيرة حسان(٦١) .

وقد الف ابن حبيب فى التاريخ العام كتابا شبيها بكتاب الطبرى ، بداه بالحديث عن نشأة الخلق ، وتاريخ الأنبياء والرسل . وهذا القسم ملىء بالأساطير عن فتح الأندلس وسير ولاتها وأمرائها إلى عصره ، ولكنه خلط فى هذا القسم أيضا بين الأحداث التاريخية والأساطير ، مثل حديثه عن رؤيا طارق بن زياد التى رآها فى منامه وكانت سببا فى الفتح كما ذكر ، وحديثه عن طلسم لذريق ، ومائدة سليمان عليه السلام التى عثر

---

(٦٠) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٨ — ١٠ .

(٦١) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨١٦) جـ ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٢ .

عليها فى الأندلس ، وكنوز قصر طليطلة التى عثر عليها المسلمون وغير ذلــك .

ويبدو ان بعض تلاميذه قــد اضاف إلى هــذا الكتاب حيث نجـد فيــه فيــه أخبارا عن عصر الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة ٢٧٤هـ ، رغم ان ابن حبيب توفى قبـل إمارته سنة ٢٣٨هـ(٦٢) .

وقد اخــذ ابن حبيب معظم الأخبـار والروايات عن شـيوخه من المصريين مثل الليث بن سعيد ، وعبد الله بن وهب كما ذكر ذلك بنفسه ، ولذلك نجده يتبع منهج المحدثين من حيث سند الخبر أو الرواية ، وإن كان هــذا لم يمنع من تسلل الكثير من الحكايات الخيالية والأساطير إلى كتابه .

ومع ذلك فإن كتاب ابن حبيب هــذا يعد اول محاولة اندلسـية

---

(٦٢) لا يزال هــذا الكتاب مخطوطا فى مكتبـة البودليانا فى اكسفورد تحت رقم ١٢٧ . ويذكر بعض من اطلع عليــه انه ليس بذى قيمة علمية كبيرة ، نظرا لكثرة الأساطير فيــه . وإن كان هذا لا يقلل من قدر ابن حبيب الذى كان اول رائدا فى هــذا المجال ، والريــادة غالبا لا تتسم بالدقة الشديدة ، وتحتاج إلى التصحيح والإضافة . (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٨ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٤٩ ، ٢٣٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٦ .

وقد قام د. محمود مكى بدراسة وافيــة لهـذا الكتــاب ، ونشر الجــزء الخاص بالأندلس منــه بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧م ، وذكر أن هــذه النسخة هى مختصر لكتاب ابن حبيب الأصلى ، وأن الذى قام بوضعها بعض تلاميذه وخاصة ابن ابى الرقاع (انظر نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٠) .

لكتابة تاريخ الأندلس ، برغم ما حفل به من أساطير ، وما شابه من قصور ونقص فى بعض النواحى(٦٣) .

ويعتبر (معارك بن مروان) وهو حفيد موسى بن نصير (القرن الثالث الهجرى) من المؤرخين الأندلسيين الأوائل الذين حاولوا التدوين فى تاريخ الأندلس . حيث يشير الحميدى إلى انه الف كتابا فى فتح الأندلس تناول فيه اخبار جده موسى(٦٤) .

ويرى د. محمود مكى أن القسم الذى يدور حول حياة موسى ابن نصير فى كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة مأخوذ عن كتاب معارك ، وهذا الكتاب فيه ايضا الكثير من الأساطير والروايات الخيالية(٦٥) .

ثم جاء بعد ذلك (عبد الله بن الحكيم ت ٣٤١هـ) والذى يعتبر بداية لمرحلة جديدة فى التدوين التاريخى تخلت عن الأساطير ، وركزت على موضوعات أندلسية . فقد الف كتابا فى الأنساب بعنوان (انساب الداخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم) أهداه للخليفة الناصر سنة ٣٣٠هـ . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه إلا شذرات نقلها بعض المؤرخين اللاحقين .

وظهر فى القرن الرابع الهجرى مؤرخون اهتموا بالتراجم والطبقات ،

---

(٦٣) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٩ — ١٠ .

(٦٤) جذوة المقتبس ترجمة (موسى بن نصير) رقم ٧٩٣ ص ٣٣٨ .

(٦٥) قام د. محمود مكى بدراسة هذا الكتاب ونشر الجزء المتعلق بالأندلس فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد العدد الخامس سنة ١٩٥٧م (نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١١) .

ويعد محمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ) من أبرزهم فى هــذا المجال ، وقد كانت له اهتمامات متعددة كالحديث والفقه واللغــة والتاريخ . وقد صنف بتشجيع من الخليفة الحكم المـــديد من الكتب فى هــذا المجـال مثل كتاب (أخبـار القضــاة بالأندلس) وكتــاب (أخبـار الفقهـاء والمحدثين)(٦٦) .

وكذلك ابن الفرضى أبو الوليـد بن عبد الله بن محمد بن يوسـف الأزدى (ت ٤٠٣هـ) صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) الذى يعتبر من أشهر كتب التراجم الأندلسية .

ثم جاءت أسرة برز منها الكثير من المؤرخين الذين حاولوا وضـــع أسس لعــلم التاريخ فى الأندلس وهى أسرة الرازى ، ومن أبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازى (ت ٣٤٤هـ) الذى كان مؤرخا وجغرافيا، ولقب (بالتاريخى) لكثرة مؤلفاته فى مجال التاريخ ، وله كتاب (أخبار ملوك الأندلس) وكتاب (الاستيعاب فى أنساب مشاهير الأندلس) ويقع فى خمس مجلدات كبيرة . وكتاب آخـر فى مسالك الأندلس ومراسيها

---

(٦٦) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ١٣ — ١٤ . وقـد نشر الكتاب الأول فى مدريد لأول مرة سـنة ١٩١٤م بواسـطة المستشرق الأسبانى خوليان ربيرا مع ترجمة أسبانية ، كما نشر فى مصر بعنـاية عزت العطار سـنة ١٩٥٤م ، ثم نشر بعنوان (قضــاة قرطبة) فى القاهرة سنة ١٩٦٦م وهى الطبعـة التى اعتمد عليها الباحث . أما الكتاب الثانى فيوجد فى مكتبـة القصر الملكى بالرباط كتاب بعنوان (طبقات المحدثين بالأندلس) تحت رقم (٦٩١٦) يعتقد بأنه هو هذا الكتاب (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٣ — ١٤) .

وامهـات اعيـان مدنهـا واخبـارها ، وكتـاب عن كبـار المـوالى الأندلسـيين (٦٧) .

ثم جاء بعـده ابنه عيسى فاكمل ما بداه ، وقـد الف كتابا فى تاريخ الأندلس للخليفة المستنصر ، كما الف كتابين آخرين للمنصور بن أبى عامر احدهما عن الوزارة والوزراء بالأندلس . والثانى عن الحجاب بالأندلس ، كما اخـذ فى إكمال كتاب أبيه عن أخبار ملوك الأندلس(٦٨) .

وقد تركت اسرة الرازى اثرا كبيرا فى مجـال التدوين التاريخى . فقـد كان احمد بن محمد أول من ادخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا فى الأندلس ، واخذها عنـه معظم من جاء بعده من المؤرخين .

ثم جاء ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) الذى برع فى علوم اللغـة ، كما برع فى التاريخ ايضـا « وكان حافظا لأخبار الأندلس يمليها عن ظهـر قلب » كما ذكر ابن الفرضى(٦٩) .

ويعتبر كتابه الذى وصلنا وهو (تاريخ افتتاح الأندلس) أهم ما بقى من مؤلفاته . ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهـاية إمارة عبد الله ابن محـمد (٢٩٩هـ) .

ويبدو أنه أملاه على بعض تلاميذه ، وقـد أورد فى هـذا الكتـاب اخبار كثيرة عن القوط الذين ينتسب إليهم ، يظهر من خلالها ميلـه إلى اصـله القوطى حيث يخالف فيها الكثير من المؤرخين ، كما انه ياتى بحوادث

---

(٦٧) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٤٢ ترجمـة ١٣٧ ، الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ص ١٠٤ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٢ .

(٦٨) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٣٧ .

(٦٩) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٧٦ ترجمة (١٣١٨) .

أسبانية لم يكن يعرفها العرب وتتضمن قصصا شعبية اسبانية مثل قصة القومس ارطباس الذى اعجب به عبد الرحمن ايما إعجاب وعينه قومسا لأهل ملتـه(٧٠) .

ورغم ذلك فإن هـذا الكتاب يعتبر من المحاولات الرائدة فى مجـال التدوين التاريخى فى الأندلس نظرا لمـا تميز به من ذكر لخصائص تتعلق بطبيعة وتكوين المجتمع الاندلسى ، وانتساب المؤلف لهذا المجتمع ، ومحاولته رسم صورة للأحداث التى مرت عليه منذ الفتح وحتى نهـاية القرن الثالث الهجـرى(٧١) .

ويعتبر عريب بن سعد القرطبى (٢٦٩ — ٢٧٠هـ) من مشـاهير المؤرخين فى الأندلس ايضـا ، وهو من اصل اسبانى اسلم آباؤه ، وكان والده يعمل كاتبا لدى الخليفة الحـكم المستنصر ، ثم عمل هو ايضـا لديه ، وقـد اختصر عريب تاريخ الطبرى وزاد عليـه اخبـار المغـرب والأندلس ويسمى (صـلة تاريخ الطبرى)(٧٢) . وقد حـاول فيـه تصحيح بعض المفاهيم التى كانت شائعة عن احـداث الفتح مثل قصـة مائدة سليمان فتراه يقول عنها : « واصـاب طارق مائـدة منظومة بالدر والياقوت والزبرجد ، وهى التى يزعم الناس انها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ولم تكن كذلك . غير ان اهل الحسبة من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا للكنائس بمـال تصنع منـه كراسى توضـع عليها مصاحف الإنجيل فى الأعيـاد فكانت تلـك المـائدة ممـا يتفوق فيـه

---

(٧٠) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ ، المختار من عالم الفـكر ص ١٠٧ .

(٧١) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٦ — ١٨ .

(٧٢) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

الملوك »(٧٣) .

وهـذا التفسير الفريد يدل على معرفة عريب بعـادات الأسـبان قبل الفتح ، ولذلك فقد علق المؤرخ المغربى ابن الشباط (٦٨١هـ) عـلى ذلك قائلا « واعلم أن هـذا القول من عريب غريب ، لم يذكره فيما علمت غيره ، وإنما ذكروا كلهم أنها مائدة سليمان بن داود »(٧٤) .

ومن المؤرخين الأندلسيين أيضـا ابن أبى الفياض (٤٥٩هـ) ، وله كتاب يسمى العبر لم يبق منـه إلا قطعة صغيرة وصلتنا ، إلى جـانب نصوص منـه نقلها بعض المؤرخين المتأخرين فى مؤلفاتهم(٧٥) .

ومنهم أيضـا : أحمد بن عمر العذرى (٤٧٨هـ) ، وكان له اهتمام بالجغرافيا إلى جانب التاريخ ، وله كتاب (اقتضاض أبكار أوائل الأخبار) ، وكتاب (أعـلام النبوة) ، وكتاب (ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع المـمالك) وهـو كتاب جغرافى تاريخى . لم يبق منـه إلا قطعة صغيرة معظم أخبـارها عن الأندلس(٧٦) .

---

(٧٣) المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٧٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصف لابن الشباط ص ١٤٩ نصان جديدان تحقيق د. أحمد العبادى : مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سـنة ١٩٧١م .

(٧٥) نشر د. عبد الواحـد ذنون هـذه القطعـة المتبقيـة من كتاب ابن أبى الفياض بعنوان (نص اندلسى جديد من تاريخ ابن ابى الفياض) بمجلة المجمع العلمى العراقى الجزء الأول ــ المجلد الرابع والثلاثين سنة ١٩٨٣م .

(٧٦) نشر د. عبد العزيز الأهوانى القطعة المتبقية من الكتاب الأخـير

وكان العـذرى من أوائل المؤرخـين الأندلسيين الذين ذكروا نص المعاهدة التى عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير حاكم شرق الأندلس(٧٧) .

ثم يأتى عمدة مؤرخى الأندلس ابن حيان (٤٦٩هـ) وكان من كتـاب المنصور بن أبى عامر ، وقـد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق منها إلا اجزاء من كتابيه الكبيرين المقتبس ، والمتـين . اما المقتبس فيقع فى عشرة اجزاء ، وتتضمن تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى زمن المؤلف(٧٨) .

واما كتابه المتـين فقيل إنه يقع فى ستين جزءا ، ولكنه للأسـف

=

فى مدريد سنة ١٩٦٥ م بعنوان (نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) .

(٧٧) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ .

(٧٨) وصلت إلينا قطع متفرقة من كتاب المقتبس نشر بعضـها ، منهـا قطعة تتضمن بعض اخبار الأمير عبد الله نشرها ملشور انطونيه فى باريس سنة ١٩٣٧م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد نشرها د. محمود مكى فى القاهرة سنة ١٩٧١م، وبيروت سنة ١٩٧٣م . وقطعة تتضمن بعض اخبار الحكم المستنصر نشرها د. عبد الرحمن الحجى فى بيروت سنة ١٩٦٥م ، كما نشر ليفى بروفنسـال قطعة من الجزء الثانى فى مجلة (الأندلس) الأسبانية المجلد الخامس عشر ، العدد الأول سنة ١٩٠٥م .
ويوجد الجزء الخامس مخطوطا فى المكتبـة الملكيـة بالربـاط برقم ٨٧ .

لم يصلنا منـــه شيء إلا فقرات نقلها منـــه بعض المؤرخين اللاحقين كابن بسام فى الذخيرة .

وقد اشتهر ابن حيان بالصراحة البالغة ، والنقد الشـــديد ، وذكر المحاسن والمساوىء دون تحرج حتى بالنسبة للأمراء والكبراء . فرغم أنه كان من كتاب المنصور إلا أنه لم يتحرج من نقـــد بعض أفراد أسرته ولو من بعيـــد . ونراه يظهر أسفه على زوال الدولة الأموية .

وقد ذكر عن نفسه أنه أولع بالتاريخ من صغره ، وشغف به حبا ، قاعد له عدته . ويقال إنه كان يؤلف كتبه لنفسه وولده إلا أنه غير رأيـــه فنشره فى الناس . وإن كنا نرى فى هـــذا مبالغة شديدة(٧٩) .

وقد لخص كتاب المقتبس ابو عبد الله محمد بن ابى نصر الحميـــدى (٤٨٨هـ) فى كتابه المسمى (جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس) وهو الوحيد الذى وصلنا من كتب الحميدى التى وصـــل عددها إلى تســـعة عشر(٨٠) .

ثم تتابع المؤرخون الأندلسيون بعـــد ذلك كابن بشكوال وابن الأبار وابن بسام وغيرهم . ويلاحظ على التاريخ فى الأندلس سواء كان تاريخا عاما ، أو تراجم رجـــال أنه قـــد تأثر بعلم الحديث ومنهجه فى المشرق . ويرجع ذلك إلى أن اكثر المؤرخين فى الأندلس محدثين وفقهاء أشـــبه ما يكونون بالطبرى ، وكان منهجهم منهجا يسوده فى الغالب فقـــه الإمام

---

(٧٩) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ وبعدها .

(٨٠) طبع هـــذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٣م بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، ثم أعيد طبعه فى الدار المصرية للتاليف والنشر ســـنة ١٩٦٦ (انظر مقدمة هـــذه الطبعة) .

مالك وما ينبنى عليه من حديث وتفسير ، فكان ذلك يسلمهم من ترجمة رجال الفقه والتفسير والحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، كما أن التاريخ فى الأندلس اتصل بالأدب أكثر من المشرق أيضا . حيث كان أكثر المؤرخين أدباء كذلك ، وكانت عواطفهم نحو بلدهم أقوى وخاصة بعد تساقط البلاد الأندلسية فى يد الأسبان واحدة بعد الأخرى ، فكلما سقطت بلدة رثاها الأدباء ، وتحدث عنها المؤرخون . ولذلك كانت هذه الناحية فى الأندلس أشد وأقوى(٨١) .

الجغرافية : أما عن الجغرافية فإنها لم تفترق عن التاريخ فى الأندلس بوجه خاص ، حيث لا نكاد نجد مؤرخا أندلسيا إلا وكان جغرافيا فى نفس الوقت ، أو بدأ تاريخه بمقدمة جغرافية وكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بعلم التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربى(٨٢) ، فقد اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والتنقل والأسفار ، وكان الواحد منهم يعاب بأنه لم يرتحل إلى المشرق لطلب العلم . ولهذا ظهر من بينهم نخبة من الرحالة الذين زاروا بلادا كثيرة ، وسجلوا مشاهداتهم فى وصفها من نواحى شتى ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية كبيرة .

وبطبيعة الحال فقد احتل وصف وطنهم الأندلس مكانا بارزا فى مؤلفاتهم ، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها ، وأنهارها وجبالها ، وتقسيماتها الإدارية وغير ذلك . كما اهتموا بضبط

---

(٨١) انظر : احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٨٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٩٥ — ٩٦ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٣ .

الأسماء الأعجمية ، ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الاغريقية ، وابتكروا طريقة لطيفة فى هــذا المجال لإظهار محاسن كل مدينة عن طريق إقامة مناظرات على ألسنة المدن الأندلسية المختلفة تفخر كل منها بنفسها ، وتظهر أوصافها ومزاياها التى لا توجد فى غيرها(٨٣) .

وقد جـمع الكثير من المؤرخين الأندلسيين معلومات جغـرافية فى كتبهم ، وخاصة عن الأندلس ومنهم ابن حيان ، كما ألف بعضهم كتبـا فى الجغرافيا أيضا إلى جانب التاريخ ، مثل أحمد بن موسى الرازى (٣٤٤هـ) الذى ألف كتابا فى مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهات مدنها ، ويدور معظمه حول صـفة الأندلس ، ويعتبر مقدمة جغرافية لكتابه الكبير فى التاريخ عن أخبار ملوك الأندلس(٨٤) .

ومحمد بن يوسف الملقـب بالتاريخى الوراق ، الـذى ألف للحـكم المستنصر كتابا ضخما فى مسالك إفريقية وممالكها ، كما ألف فى أخبـار ملوكها وحروبهم ، وفى أخبار تيهرت ، ووهران وتنس وسجلماسة ونكور وغيرها(٨٥) .

وأحمد بن عمر العذرى (٤٧٨هـ) الذى جمع فى كتابه (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع المـمالك معلومات جغرافية كثيرة(٨٦) .

---

(٨٣) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٨٩ .

(٨٤) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٣٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ، نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٣٣ — ٣٦ .

(٨٥) بغية الملتمس ترجمة ٣٠٤ ص ١٤١ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٦٠ ص ٩٧ .

(٨٦) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ — ٥٧ .

ولا شك ان الجغرافيين الاندلسيين قد استفادوا من الكتب القديمة التى وضعت فى تاريخ الأندلس وجغرافيتها مثل كتاب هروسيس ، وكتاب القديس ايزيدورو الباجى والمسمى (أصول الكلمات) ، ونقلوا منها مثل المؤرخين كالرازى والعذرى والبكرى وغيرهم ، وهذا لا يقلل مطلقا من قيمة العمل الذى قاموا به ، بل يدل على تسامحهم وأمانتهم العلمية واتساع افقهم وحرصهم على الاستفادة من تراث الآخرين(٨٧) .

اما اول الجغرافيين الأندلسيين الحقيقيين واقدمهم فهو البكرى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن ايوب (٤٣٢ — ٤٨٧هـ) ، الذى الف معجما جغرافيا فى اسماء البلاد والأماكن لازال بين أيدينا وهو (معجم ما استعجم) ، وله أيضا كتاب (المسالك والممالك) الذى وصلت إلينا قطع منه ، وضم فيه نتفا من التاريخ إلى جانب الجغرافيا ، وتعرض فيه لجغرافية إفريقية ومصر والأندلس والعراق وبلاد وراء النهر .

وفى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب تتجلى بوضوح دقة البكرى فى ذكر الأسماء ونطقها وتفسير بعض أصولها مثل قوله عن طليطلة : « واسم طليطلة باللاتينى تولاطو Tolatom ومعناها فرح ساكنها لحصانتها » ، وقد ثبت أن فى مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى ، وقوله عن

---

(٨٧) بالنسيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣١١ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ .

(٨٨) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى القسم الأول الكويت سنة ١٩٧٤ ، مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .
دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

إشبيلية « ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى (إشبالى Hispalis) ومعناه المدينة المنبسطة . وقوله فى وصف مدينة ماردة « وقد أحدق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا ، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية براءة لأهل إيلياء »(٨٩) .

وحسب البكرى فخرا ما توصل إليه من حقائق جغرافية سبق بها زمانه مثل قوله « وأيقانس البحر المحيط (الأقيانوس أو المحيط الأطلنطى) لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) — وهى التى تعرف اليوم بجزر كناريا‌س أو الكناريا — وبالضد » .

وقد علق د. حسين مؤنس على هذه العبارة بقوله « وهذه — لا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولمبس من هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم ، وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون البكرى من أبناء ولبة وهى على أميال قليلة من الربطة Larabida وفيها الدير الذى لجأ كولمبس إلى أحباره لييسروا له مقابلة فرديناند وإيزابيلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيليته البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمنا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبس إلى العالم الجديد من ميناء (سان لوكار) أقرب بلد إلى ولبة والمسافة

---

(٨٩) د. احمد العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط ص ١٣٩ مدريد سنة ١٩٧١م .

بينهما بضعة كيلو مترات »(٩٠) .

وفى هـــذا التعليق ما يكفى للدلالة على مدى تاثير البيئة المحليـــة الأندلسية فى خلق شخصيات جغرافية فذة كالبكرى وغيره من الأندلسيين الذين حاولوا قبـــل كولومبس كشف غياهب بحـــر الظلمات أو البحـــر الأخضر أو الأقيانس (المحيط الأطلسى) الذى تطل عليـــه الأندلس .

فيحدثنا البكرى : عن خشخاش بن سعيد بن اسود الذى خاطر مع جماعة من الشبان ، فركبوا البحر وغابوا فيه مدة ، ثم عادوا بغنائم كثيرة وأخبار مشهورة . وقد ظهر اسم خشخاش ووالده ضمن قادة الأسطول الأندلسى الذى تصدى لغارآت النورمان فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـــ ٢٣٨هـ) .

وهـــذا يذكرنا بمحاولة اخرى قام بهـــا فتيـــة من اهـــل اشبونة (لشبونة) فى القرن الرابع الهجرى أطلـــق عليهم الفتيـــة المغرورين او المغررين أو المغربين وكانوا ثمانية ، حيث توغلوا فى المحيط الأطلسى حتى وصلوا إلى جزر اخرى غير (جـــزر الآزور) القريبة من ســـاحل المغرب) . ويذكر انهم ساروا فيـــه أحـــد عشر يوما ، ثم اتجهوا جنوبا حتى وصلوا فى اليوم الثالث والعشرين إلى جزيرة سموها (بجـــزيرة الغنم) تتميز بكثرة أغنامها ، وبوجود رجـــال فيها شقر الوجوه شعورهم سبطة(٩١) .

---

(٩٠) الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ص ٩٧ ، مجـــلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ ـــ ١١٥ .

(٩١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦١ ـــ ٨١ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٦ ، ٢٨ ، المختار من عالم الفكر ص ١١٥ .

ثم جاء بعد ذلك الشريف الإدريسى اشهر الجغرافيين الأندلسيين بل والمسلمين (٤٩٢ — ٥٦٠هـ) الذى تلقى تعليمه فى قرطبة ولذلك عرف بالقرطبى ، واتصل بالملك روجر الثانى ملك صقلية — فعرف بالصقلى ايضا — والف بتشجيع منه كتابه الشهير (نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق) والذى يعرف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وملأه بالخرائط اللازمة التى تزيد عن اربعين خريطة ، وبلغ من إعجاب الأوربيين به أن ترجموه إلى اللاتينية فى وقت مبكر ، وكان من أوائل القائلين بكروية الأرض ، ورسم مصورات تتفق مع ذلك ، وقسم العالم إلى سبعين جزءا رسم لكل جزء مصورا (٩٢) .

ويذكر انه عندما طلب منه روجر الثانى وضع خريطة للأرض ، طلب منه أن يصنع له كرة كبيرة من الفضة ليرسم عليها معالم الأرض ، ولذلك فإنه يعد باعتراف علماء الغرب أول من وضع أصول الرسم على سطح كروى مما كان له اثر فى تحديد معالم الكرة الأرضية تحديدا

---

(٩٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٨ هامش ١ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٨٠ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ذكر ابن خلدون فى مقدمته ما يدل على أنه كان على علم بمحاولات البرتغاليين السير فى البحر المحيط بمحاذاة سواحل إفريقية فيقول : « وفى بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر الخالدات التى منها بدأ بطليموس باخذ اطوال البلاد ... وهى فى البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها واشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة ، وقد بلغنا أن سفائن الإفرنج مرت بها فى أواسط هذه المائة (المائة الثالثة) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض اسرارهم بسواحل المغرب الاقصى (المقدمة ص ٤٩) .

واقعيا سليما (٩٣) .

الرحـــلات : ومما يتصل بالجغرافيا أكبر اتصــال الرحلات ، وكما كان فى المشرق رحــالة كثيرون فكذلك كان فى الأندلس رحـــالة كثيرون جابوا الكثير من الأقطار والبلدان ووصفوها وصـــفا دقيقا .

ومن الملاحظ أن فن كتابة الرحــلات كتابة علمية قــد بدأ فى الأندلس فرأينا نخبـــة من الرحالة الأندلسيين الذين وصلتنا كتبهم — وإن كان ذلك بعد العصر الأموى — يصفون لنا الكثير من مشاهداتهم فى البــلاد التى زاروها من نواحى شـــتى جغـــرافية واقتصـــادية وسياسية واجتماعية وعمرانية ... الخ ، كابن بطـــوطة وابن جبير وابن العـــربى وأبو حامد الغرناطى وغيرهم .

ومن أوائل الرحـــالة الأندلسيين الذين قدموا لنا وصفا لبلاد الروس التاجر اليهودى الأندلسى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويبـــدو أنه أسلم وتسمى باسم ابراهيم بن أحمد ، ودخل فى خـــدمة الخليفة الحـــكم المستنصر ، وكان من تجـــار الرقيق الأبيض الذى كان يجلب من المـــانيا وشرق أوربا من الصقالبة والروس .

وقد قـــدم ابراهيم وصـــفا لرحـــلته إلى الخليفـــة المستنصر أودعه مكتبته ، وعنـــه نقل ابن عذارى المراكشى ، كما نقل عنـــه البكرى فى كتابه المسالك والممالك معلومات جغرافيـــة تعتبر من أقـــدم وأدق ما لدينا عن وسط أوربا وشرقها خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

فقد زار ابراهيم بن يعقوب بلاد المـــلك أوتو الأكبر امبراطور الدولة التيوتونية ، ووصف بلاده وما فيها وصـــفا ممتعا ، كما زار شرق أوربـــا

---

(٩٣) مجموعة من المؤلفين : دراسات فى الحضـــارة الإســـلامية ج ١ ص ٢٥٠ .

وجاء عنها بأنباء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بهـا علماء الألمـان والروس عنـاية كبيرة . وقد أيد الباحثون المحدثون ما ذكره ابراهيم من أنه لقى الامبراطور سنة ٩٧٢م (٣٦٢ — ٣٦٣هـ) .

ومع أن النقول التى أخذت من وصفه قـد حرفت إلا أن المحققـين والدارسين استطاعوا أن يقوموها ويخرجوا منها بمعلومات مفيدة وقيمـة ساعدت كثيرا فى دراسة جغرافية هـذه البـلاد (٩٤) .

❊ ❊ ❊

(٩٤) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٧٨ — ٧٩ ، احمد امين : ضحى الإسـلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

قائمـة المصـادر والمراجـع

أولا : المصـادر القـديمة

١ ـ ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب رقم (٥٨) ، الطبعة الثانية ، دار المعـارف بمصر سـنة ١٩٨٥م .

٢ ـ ابن الأثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المكتبة الإسـلامية طهران ١٣٠٢هـ .

٣ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩م .

٤ ـ ابن الأحمر (الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد ٨٠٧هـ) : نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق د. محـمد رضوان الداية ، المكتبة الأندلسية رقم (١٨) ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة بيروت سـنة ١٩٦٧م .

٥ ـ ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبـل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر إلى ذلك من شـجول الكلام ، نشر ليفى بروفنسـال الرباط سنة ١٩٣٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦م .

٦ ـ ابن الزبير : صـلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس فى القـرن الثالث عشر الميلادى نشر ليفى بروفنسال ـ الرباط ١٩٣٨م .

٧ ـ ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، سلسلة تراثنا ، المكتبـة الأندلسية (٢) الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م .

٨ ـ ابن القوطية : تاريخ افتتـاح الإندلس ، نشر خوليان ربيرا مدريد سنة ١٩٢٦م ، وتحقيق عبد الله انيس الطباع بيروت ١٩٥٨م .

٩ ـ ابن بسام الشنتريشى : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، طبع

لجنـــة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ســـنة ١٩٤٥م ، وطبع دار الثقافة بيروت ســـنة ١٩٥٩م .

١٠ ـ ابن بشكوال : كتـــاب الصـــلة فى أصـــحاب القاضى أبى عبد الله الصدفى نشر فرنسيسكو كوديرة مدريد سنة ١٨٨٣م ، وطبـــع القاهرة ســـنة ١٩٥٥م .

١١ ـ ابن جلجل : طبقات الأطباء ، تحقيق فؤاد ســـيد مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٥م .

١٢ ـ ابن حـــزم الأندلسى : الفصل فى المـــلل والأهـــواء والنحـــل ، القاهرة ســـنة ١٣١٧هـ .

١٣ ـ ابن حـــزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة ذخائر العرب (٢) الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر ســـنة ١٩٧٧م .

١٤ ـ ابن حـــزم الأندلسى : رســـائل ابن حـــزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ســـنة ١٩٥٩م .

١٥ ـ ابن حـــزم الأندلسى : طوق الحمامة فى الإلفـــة والآلاف ، تحقيق د. الطاهر مكى ـ الطبعة الخامسة ـ دار المعارف بمصر ١٩٩٣م .

١٦ ـ ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة ليدن سنة ١٩٣٨م . وطبعة دار الحياة بيروت د.ت .

١٧ ـ ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، قطعة من تحقيق ملشور أنطونية ، باريس سنة ١٩٣٧م ، وقطعة من تحقيق د. عبد الرحمن الحجى بيروت سنة ١٩٦٥ ، وقطعة من تحقيق د. محمود مكى ، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (٢١) القاهرة ١٩٧١م ونشر دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

١٨ ـ ابن خاقان (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الأندلس قسطنطينية ، الجزائر ، ١٣٠٢هـ ، ط القاهرة سنة ١٩٥٤م

١٩ ـ ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة البهية بمصر د.ت ، الاميرية ١٣٢٠هـ

★ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر طبعة بولاق ١٢٨٤هـ .

٢٠ ـ ابن دحية الكلبى : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الإبيارى وآخران ، الأميرية سنة ١٩٥٤م ، وتحقيق د. مصطفى عبد الكريم ، الخرطوم ١٩٥٤م .

٢١ ـ ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. شوقى ضيف طبا دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤م .

٢٢ ـ ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس سنة ١٩٤٧م .

٢٣ ـ ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، دوزى ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .

٢٤ ـ ابن غالب الأندلسى : كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشر د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢٥ ـ أبو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ـ تحقيق د. محمد شامة مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٩م .

٢٦ ـ الإدريسى (الشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشر دوزى ، ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .

٢٧ ـ البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب نشر دى سلان ، الجزائر سنة ١٩٤٩م .

٢٨ - البغدادى (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق ، ط ٢ بيروت ١٩٧٩م .

٢٩ - الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الاندلسية (٣) ، الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٣٠ - الحميدى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ط لجنة التاليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٣٧م ، وتحقيق د. إحسان عباس بيروت سنة ١٩٧٥م .

٣١ - الخشنى : قضاة قرطبة - سلسلة تراثنا - المكتبة الأندلسية (١) الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٣٢ - الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٣ - الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م .

٣٤ - الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٦) - دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧م

٣٥ - الطرطوشى : الحوادث والبدع - تحقيق محمد الطالبى - تونس سنة ١٩٥٩م .

٣٦ - المراكشى (عبد الواحد بن على التميمى) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤هـ ، ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمى القاهرة سنة ١٩٤٩م .

٣٧ - المقدسى البشارى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم . ط ٢ مطبعة بريل ، ليدن سنة ١٩٠٦م - مكتبة المثنى ببغداد .

٣٨ ـ المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢هـ .

٣٩ ـ النباهى (ابو الحسن بن عبد الله) : تاريخ قضاة الاندلس المسمى (المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب العربى القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٤٠ ـ مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر امرائها ، مجريط سنة ١٨٦٧م ، مكتبة المثنى ببغداد .

٤١ ـ ياقوت الحموى : معجم الأدباء طبعة د. أحمد رفاعى مطبوعات دار المأمون للطباعة القاهرة د.ت .

٤٢ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان بيروت سنة ١٩٦٠م .

ثانيـــا : المراجـــع

١ ـــ د. ابراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ط ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د.ت .

٢ ـــ د. ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ، ط ٢ دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠م .

٣ ـــ د. ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨م .

٤ ـــ أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى (أصوله ـــ فلسفته ـــ مذاهبه) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م .

٥ ـــ د. إحسان النص : العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى ، منشورات دار اليقظة بيروت د.ت .

٦ ـــ د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ط ١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٠م .

٧ ـــ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م

٨ ـــ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م .

٩ ـــ د. أحمد الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩م .

١٠ ـــ د. أحمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٧٣م .

١١ ـــ د. أحمد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية (١) القاهرة سنة ١٩٥٨م .

١٢ ـــ د. أحمد العبادى وآخر : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت سنة ١٩٦٩م .

★ — د. احمد العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٦٨م .

١٣ — د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ج ٣ ط ٤ سنة ١٩٧٠ ، ج ٤ ط ٦ سنة ١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

١٤ — د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧م .

١٥ — آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . ط ٣ مطبعة لجنة التاليف ١٩٥٧م .

١٦ — البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧م .

١٧ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف لبنان سنة ١٩٦٢م .

١٨ — د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ١ نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية سنة ١٩٨٤م .

١٩ — د. الطاهر احمد مكى : دراسات اندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٢٠ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ط ٢ مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٢١ ـ الفرد جيوم وآخرون : تراث الإسلام ، ج ١ لجنة النشر للجامعيين ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٢٢ ـ بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر د.ت .

٢٣ ـ بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة امين تكلا ، القاهرة سـنة ١٩٤٨م .

٢٤ ـ توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسـلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين مكتبة النهضة المصرية سـنة ١٩٧٠م .

٢٥ ـ جـلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربيـة ، ط ١ دار المعارف بمصر سـنة ١٩٦٠م .

٢٦ ـ جنثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة سـنة ١٩٥٥م .

٢٧ ـ د. جوده هلال وآخر : قرطبة فى التاريخ الإسـلامى ، المكتبـة الثقافية (٧٢) ، المؤسسة المصرية العـامة للتأليف والترجمـة والنشر ، القاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٢م .

٢٨ ـ د. حامد زيان غانم : تاريخ الحضارة الإسلامية فى صقلية واثرها على اوربا ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .

٢٩ ـ د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسـلام السـياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج ١ ط ٩ سنة ١٩٧٩م ، ج ٢ ط ١٠ سنة ١٩٨٣م ، ج ٣ ط ١١ سنة ١٩٦٣م مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

٣٠ ـ د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب (القرن الثالث الهجرى) ، دار النمر للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٣١ ــ د. حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الأندلس ــ المكتبة الثقافية (١٤٦) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٥م .

٣٢ ــ د. حسين مؤنس : فجر الأندلس . القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٣٣ ــ د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ط ١ ، دار مطابع المستقبل القاهرة سنة ١٩٧٣م .

٣٤ ــ د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) دار الكاتب العربى د.ت .

٣٥ ــ خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ، ترجمة د. الطاهر مكى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م .

٣٦ ــ ديلاس أوليرى : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ . ترجمة د. تمام حسان المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦١م .

٣٧ ــ رينهارت دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا ج ١ (الحروب الأهلية) ، ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م .

٣٨ ــ د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٨م .

٣٩ ــ د. سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته، نشر عالم الكتب القاهرة سنة ١٩٨٧م .

٤٠ ــ د. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، ط ٢ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٨م .

٤١ ــ د. سعيد عبد الفتاح وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة

الإسلامية العربية ، ط ٢ دار السلاسل الكويت سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٤٢ ـــ سيد عبد الله حسين : الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام ابى حنيفة ط ١ نشر المكتبة المحمودية التجارية بمصر د.ت .

٤٣ ـــ شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى أوربا وجزر البحر المتوسط ، مطبعة الحلبى القاهرة سنة ١٩٣٣م .

٤٤ ـــ صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، نشر مكتبة نهضة الشرق ـــ جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٤٥ ـــ صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ، ترجمة د. عبد الحميد شيحة ، ط ١ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

٤٦ ـــ د. طه الحاجرى : ابن حزم صور اندلسية ، دار الفكر العربى ، مطبعة آلاعتماد بالقاهرة د.ت .

٤٧ ـــ طاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ـــ طرابلس .

٤٨ ـــ طاهر أحمد الزاوى : ترتيب القاموس المحيط . دار الفكر بيروت د.ت

٤٩ ـــ عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة ، ط ١ مطابع انترناسيونال برس القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٥٠ ـــ د. عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، ط ١ مصورة ، دار الاعتصام بالقاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٥١ ـــ د. عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ط ١ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٥٢ ـــ د. عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٥٧م .

٥٣ ـ د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ، النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٦م .

٥٤ ـ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ . الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٩م .

٥٥ ـ د. عبد الواحد ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ، ط ١ سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة ـ دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد سنة ١٩٨٨م .

٥٦ ـ د. على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٥٧ ـ فرناندو دى لاجرانخا : مقامات ورسائل اندلسية (نصوص ودراسات) ، ترجمة د. عبد الحليم عبد اللطيف ، ط ٢ دار الثقافة العربية بالقاهرة د.ت .

٥٨ ـ د. فوزى عيسى : الهجاء فى الأدب الأندلسى ، دار المعارف بمصر د.ت .

٥٩ ـ فون شاك : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر مكى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .

٦٠ ـ د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ، سلسلة المكتبة التاريخية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٦١ ـ لويس ارشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٩م .

٦٢ ـ لويس معلوف : المنجد فى اللغة والإعلام . دار المشرق بيروت ١٩٨٦م .

٦٣ ـ ليفى بروفنسال : ادب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ، الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م .

٦٤ — ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد سالم ، د. لطفى عبد البديع ، محمد حلمى القاهرة ١٩٥٨م .

٦٥ — ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ، ترجمة د. الطاهر مكى ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م .

٦٦ — لين بول وآخرون : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د. احمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢م .

٦٧ — لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩م .

٦٨ — مجموعة مؤلفين : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ثلاثة مجلدات صدرت بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م .

٦٩ — د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، المكتبة الثقافية (٢٣٧) الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م .

٧٠ — محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ، ج ١ القاهرة ١٩١٤م .

٧١ — د. محمد زكريا عنانى : الموشحات الاندلسية ، سلسلة عالم المعرفة (٣١) الكويت يوليو سنة ١٩٨٠م .

٧٢ — محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة د.ت .

٧٣ — محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، العصر الأول (القسم الأول) ط ١ مطبعة لجنة التاليف القاهرة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م ، العصر الأول (القسم الثانى — عصر الفتنة) ط ١ مطبعة مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .

٧٤ ــ محمد على الصابونى : روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام ، ط ٢ منشورات مكتبة الغزالي بدمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٧٥ ــ د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والمثول ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٧٦ ــ د. محمد محمد شتا زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ، الطبعة الأولى دار الوفاء للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .

٧٧ ــ د. محمد محمد عبد القادر الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط ١ مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م .

٧٨ ــ د. محمود على حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ، ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٧٩ ــ د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى (موضوعاته وفنونه) ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .

٨٠ ــ مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ، سلسلة إقرا (٢٣٠) فبراير سنة ١٩٦٢م دار المعارف بمصر .

٨١ ــ د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢هـ ــ ٢٠٦هـ) ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٦م .

٨٢ ــ أ.د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م .

... ثالثــــا : الدوريات

١ ـــ دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب (٦١) ، (٦٤) مطــــابع الشعب القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢ ـــ مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ . السعودية سنة ١٩٨٤م .

٣ ـــ مجلة المجلة ، عدد ٢ فبراير سنة ١٩٥٧م القاهرة .

٤ ـــ مجلة المختار من عالم الفكر ـــ (١) دراسات إسلامية ، الكويت ســـنة ١٩٨٤م .

٥ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٠) عدد (٢) سبتمبر ســـنة ١٩٧٩م الكويت .

٦ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجـلد (١٢) عدد (١) (حضارة الأندلس) ســـنة ١٩٨١م الكويت .

٧ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٥) عدد (٣) (كتابات فى الحضارة) ســـنة ١٩٨٤م الكويت .

٨ ـــ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤م .

٩ ـــ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخاس ١٩٥٧م .

١٠ ـــ مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

الفهـــــــرس

الموضـــوع | الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

رقم ١٩٩٤/٢٥٤٧/١٩٩٤

تحريرا فى ١٩٩٤/١/٢٥

مطبعة الحسـين الإسـلامية

٢٥ حارة المدرسة – خلف الجامع الأزهـر

تليفون ٥١٠٦٧٢٤